



مركز دراسات الوحدة العربية

مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي
محور "العرب والمسلم"

مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي

الدكتور اسامة الفزالي حرب



مستقبل

الصراع العربي - الاسرائيلي



مركز دراسات الوحدة العربية

**مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي
محوّر "المرب والمالم"**

مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي

الدكتور اسامة الفزالي حرب

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات يئنها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» - شارع ليون - ص. ب: ٦٠٠١ - ١١٣ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧ - ٨٠٢٢٣٤ - برقية: «مرعبي»
تلکس: ٢٣١١٤ مارابي. فاكسيميلي: ٨٠٢٢٣٣

حقوق النشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت: تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٧

المحتويات

تقديم
قائمة الجداول	٧
مقدمة	٩
الفصل الاول	١٥
معطيات الخبرة التاريخية
أولاً : محددات الصراع العربي - الاسرائيلي في ضوء الخبرة
التاريخية له	١٧٠
ثانياً : ملامح العلاقة بين الصراع العربي - الاسرائيلي
والتوجه العربي نحو الوحدة	٢٧٠
ثالثاً : المشابهة بين اسرائيل
وبين الغزوة الصليبية وجمهورية جنوب افريقيا	٤٢
الفصل الثاني	٦١
اسرائيل في العقود الثلاثة القادمة
أولاً : السكان والارض ومستقبل النشاط الاستيطاني	٦٣
ثانياً : الآفاق المستقبلية للاقتصاد الاسرائيلي	٨٦
ثالثاً : المجتمع ومستقبل النظام السياسي	١٠٦
رابعاً : القوة العسكرية الاسرائيلية
وديناميات الصراع مع الوطن العربي	١٢٨
الفصل الثالث	١٤٩
مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي
أولاً : المشهد الأول: استمرار التجزئة العربية
(المشهد الاتحادي)	١٥٦
ثانياً : المشهد الثاني: الأشكال الوسيطة للتنسيق والتعاون	١٧٦
ثالثاً : المشهد الثالث: الوحدة العربية	١٩٦

٢١٥	خاتمة
٢٢٥	المراجع
٢٣١	فهرس

تقديم

هذا الكتاب عن مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي للدكتور أسامة الغزالي حرب، هو واحد من خمسة مجلدات حول العرب والعالم؛ تصدر عن مركز دراسات الوحدة العربية، ضمن مشروع «استشراف مستقبل الوطن العربي». أما المجلدات الأربعة الأخرى فهي:

- العرب ومستقبل النظام العالمي، للدكتور عبد المنعم سعيد
- العرب ودول الجوار الجغرافي، للدكتور عبد المنعم سعيد
- القوى الخمس الكبرى والوطن العربي دراسة مستقبلية، للدكتور ناصيف يوسف حتي
- العرب والعالم، للدكتور علي الدين هلال وآخرين.

ولأن هذه المجلدات الخمسة عن العرب والعالم، هي جزء من مشروع علمي أكبر وأشمل، فلا بد من أن نقرأ في سياق هذا المشروع؛ ولا بد من كلمة موجزة حوله.

يمثل مشروع «استشراف مستقبل الوطن العربي» أول جهد علمي جماعي كبير، تشارك فيه نخبة من العلماء والأساتذة والخبراء العرب في شتى مجالات المعرفة للتعرف على إمكانات الوطن وقدرات الأمة حاضراً ومستقبلاً؛ في إطار المتغيرات التي تحكم النظامين الاقليمي والعالمي. فرغم محاولات سابقة ومشكورة لزملاء ومؤسسات أخرى في هذا الصدد؛ إلا أن ما يقدمه مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي، هو عمل غير مسبوق من حيث شموله وموسوعيته، ومن حيث أساليبه ومنهجيته، ومن حيث عدد من شارك في دراساته من أبناء هذه الأمة من المحيط الى الخليج، ومن حيث المدة الزمنية التي استغرقها، ومن حيث عدد الهيئات والمؤسسات العربية التي اسهمت فيه وساندته. فالمشروع، من هذه الناحية، هو عمل علمي عربي تضامني وحدوي بكل معنى الكلمة.

إن الاعتبارات النظرية والمنهجية التي حكمت العمل في هذا المشروع الكبير، قد تمّ تفصيلها في مجلد مستقل (*) يصدر عن المركز قريباً. ويكفي هنا أن نقول كلمتين مختصرتين، إحداهما حول المحاور الرئيسية للمشروع عموماً؛ والثانية حول محور العرب والعالم تخصيماً.

لقد انطوى مشروع الاستشراف على أربعة محاور مترابطة، المحور الأول، هو العرب والعالم؛ ويتناول واقع ومستقبل النظامين الاقليمي والدولي اللذين يعيش ويتحرك الوطن العربي في إطارهما ويتفاعل معها، ويؤثر ويتأثر بهما سلباً وإيجاباً. والمحور الثاني، هو التنمية الاقتصادية العربية، ويتناول واقع ومستقبل القاعدة المادية والبشرية للوطن العربي، وما شهدته من مظاهر النمو الاقتصادي في العقود الثلاثة الماضية، واحتمالات تطور هذا النمو في العقود الثلاثة التالية. والمحور الثالث، هو المجتمع والدولة، ويتناول العلاقة الجدلية المستمرة والمعقدة بين تطور التكوينات والهياكل الاجتماعية العربية من ناحية، ونشأة ونمو الدولة القطرية العربية من ناحية أخرى. والمحور الرابع، هو النموذج النسقي العام لمجمل التفاعلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الوطنية والقومية والاقليمية والدولية، في الماضي والحاضر، وأهم احتمالاتها المستقبلية. والتفاعل الذي يجسده النموذج النسقي ينطوي بدوره على عدة نماذج فرعية، استخدم الباحثون فيها الأساليب الكمية والكيفية. ويصدر عن مركز دراسات الوحدة العربية عدد من المجلدات حول دراسات كل من هذه المحاور الأربعة.

لقد استغرق انجاز مشروع الاستشراف عدة سنوات. وكان هناك فريق مركزي (***) تولى التصميم والتخطيط والتنفيذ للمشروع ككل، من ألفه الى يائه. واستعان في أثناء ذلك بحكمة وآراء عشرات من المفكرين والخبراء العرب، الذين تداولوا وتفاعلا مع أعضاء الفريق المركزي أنفسهم. وحدث التفاعل نفسه داخل كل محور بين الفرق الفرعية التي تكوّنت لتتولى انجاز دراسات كل محور من المحاور الأربعة.

(*) هذا المجلد هو: مستقبل الأمة العربية: التحديات... والخيارات (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية).

(**) تكوّن أعضاء الفريق المركزي من:

- | | |
|----------------------|---|
| د. خير الدين حسيب | المشرف على الدراسة ورئيس الفريق |
| د. علي نصار | منسق لمحو «النمذجة» |
| د. ابراهيم سعد الدين | منسق لمحو «التنمية الاقتصادية العربية» |
| د. سعد الدين ابراهيم | منسق لمحو «المجتمع والدولة في الوطن العربي» |
| د. علي الدين هلال | منسق لمحو «العرب والعالم» |
| أ. أديب الجادر | المدير التنفيذي للمشروع (خلال عام ١٩٨٦ وأوائل عام ١٩٨٧) |

ففي محور العرب والعالم، والذي يمثل هذا الكتاب إحدى دراساته، تمّ اعداد مخطط المحور في إطار المشروع العام، وجرت مناقشته تفصيلاً بواسطة الفريق المركزي، ثم بواسطة آخرين من أصحاب المعرفة والخبرة. ثم تكوّن فريق فرعي للاضطلاع بدراسات محور العرب والعالم؛ وتداول أعضاء هذا الفريق الفرعي في ما بينهم، ثم مع الفريق المركزي للمشروع، تداولاً مكثفاً، قبل الشروع في دراساتهم، وفي أنثائها، وعند الانتهاء من كتابة مسوداتها.

وقد بلور العاملون في مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي، بما في ذلك أصحاب دراسات محور العرب والعالم، ثلاثة مشاهد (سيناريوهات) رئيسية محتملة للمستقبل العربي. المشهد الأول هو امتداد للأوضاع القائمة دون تغيير كفيّ يُذكر (مشهد استمرار واقع ومنطق التجزئة)؛ وهو يمثل أسوأ الاحتمالات بالنسبة للوطن العربي عموماً، ولكل دولة على حدة (مهما كان حجمها أو درجة ثرائها)، ولبعض الدول الحدودية (على أطراف الوطن العربي) خصوصاً. أما المشهد الثاني فهو احتمال التعاون الاقليمي أو التنسيق العربي العام؛ وينطوي على وقف التدهور وتحسين الأداء العربي العام، سواء في داخل كل دولة أم في علاقات هذه الدول بالقوى الاقليمية والدولية المتربّصة بها. والمشهد الثالث، هو احتمال الوحدة العربية، سواء بين تجمعات اقليمية أم بين الدول القطرية في شكل وحدة اتحادية (فيدرالية)، وهو أفضل احتمالات المستقبل على الاطلاق، ليس فقط من حيث أمن الوطن وعزة المواطن، ولكن أيضاً من حيث إمكانيات التنمية الشاملة وسدّ الفجوة بين الدولة والمجتمع المدني.

ويمثل هذا الكتاب، والكتب الأربعة الأخرى في إطار هذا المحور، محاولة رائدة وأمنية لفهم واقع ومستقبل النظامين الاقليمي والدولي اللذين يعيش ويتحرك العرب في إطارهما ويتفاعلون معها.

إن المهمة الأولى والعاجلة هي أن تنتقل طلائع القوى الحية في الوطن العربي من قراءة نتائج هذا المشروع الدراسي، إلى بلورة مشروع حضاري سياسي عملي، يكون حدّه الأدنى هو المشهد الثاني، وحدّه الأعلى هو المشهد الثالث. هذا هو التحدي الأعظم الذي يواجه جيلنا والجيل الذي يليه مباشرة، إذا كان لوطننا الكبير ولأمتنا العربية أن يبقيا ويزدهرا في القرن الحادي والعشرين.

مركز دراسات الوحدة العربية

تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٧

قائمة الجداول

رقم الجدول	الموضوع	الصفحة
١ - ٢	تطور عدد سكان اسرائيل (بالآلاف)	٦٧
٢ - ٢	تطور أعداد بعض الفئات العمرية في اسرائيل حتى عام ٢٠٠٠	٦٨
٣ - ٢	مساحة أرض اسرائيل	٦٩
٤ - ٢	المسافة بين خط اسرائيل الامامي ، وبين مناطقها الحيوية ، والمسافة بين هذا الخط وعواصم البلدان المجاورة لاسرائيل	٧٠
٥ - ٢	خطوط الدفاع البرية والبحرية ونسبة خطوط الدفاع الى منطقة الدفاع	٧١
٦ - ٢	توزيع السكان في اسرائيل بين الريف والمدن (حزيران/ يونيو ١٩٨٣)	٧٨
٧ - ٢	تطور الناتج المحلي الصافي في اسرائيل	٩٠
٨ - ٢	هيكل المشتغلين في القطاعات الاقتصادية المختلفة	٩١
٩ - ٢	بعض المؤشرات الاقتصادية الكلية (بالمليون شاقل - اسعار ١٩٨٠) .	٩٢
١٠ - ٢	الصادرات العسكرية الاسرائيلية (١٩٧٢ - ١٩٨٣)	٩٧
١١ - ٢	اهم الدول المصدرة للسلاح (١٩٨٢)	٩٨
١٢ - ٢	التجارة الخارجية للصفة الغربية وقطاع غزة (١٩٨٤) (بالمليون دولار والنسبة المئوية)	١٠٤
١٣ - ٢	المشتغلون من الضفة الغربية وغزة بحسب مكان العمل (الداخل - اسرائيل)	١٠٥
١٤ - ٢	توزع الأصوات على القوائم في انتخابات الكنيست الحادي عشر ..	١٢١
١٥ - ٢	نسبة التصويت منذ الكنيست الأول حتى الكنيست الحادي عشر ..	١٢٢

المؤشرات العسكرية المتوقعة لاسرائيل خلال فترة الاستشراق ١٣٠	٢ - ١٦
توازن القوى العسكرية بين اسرائيل وتجمع المشرق العربي	٢ - ١٧
وفقاً للمؤشرات العسكرية للدول عام ١٩٩٠ ١٣١	
توازن القوى العسكرية الممكن اشتراكها في الصراع العربي -	٢ - ١٨
الاسرائيلي من تجمع المشرق العربي ومن اسرائيل عام ١٩٩٠ ١٣١	
المعدلات المحققة من المؤشرات العسكرية الرئيسية لبعض الدول	٢ - ١٩
لكل مليون فرد من مجموع السكان ١٣٢	
المعدلات المحققة من المؤشرات العسكرية نفسها بواسطة بعض	٢ - ٢٠
البلدان العربية الأخرى عام ١٩٨٥ لكل مليون من مجموع السكان ١٣٢	

مقدمة

يعالج هذا الكتاب مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي في ضوء الاحتمالات البديلة لمستقبل الوطن العربي. وهذا الموضوع واحد من الموضوعات العديدة التي يغطيها المشروع البحثي الكبير: «استشراف مستقبل الوطن العربي» الذي يضطلع به مركز دراسات الوحدة العربية. ووفقاً للمخطط العام لذلك المشروع، فانه يشمل - من حيث المضمون - ثلاثة محاور رئيسية: محور المجتمع والدولة في الوطن العربي، محور التنمية في الوطن العربي، ثم محور العرب والعالم. ويتقسم محور العرب والعالم الى موضوعات متعددة تشمل علاقة الوطن العربي بالنظام العالمي، والعلاقة بدول الجوار الجغرافي، فضلاً عن الصراع العربي الاسرائيلي - موضوع هذا الكتاب.

ومن الناحية المنهجية، تقوم الدراسة في هذا المشروع البحثي الكبير على اساس عدد من التنبؤات المشروطة أو المشاهد المستقبلية «السناريوهات» لمستقبل الوطن العربي، في العقود الثلاثة المقبلة، وفقاً لطبيعة العلاقة بين الاقطار العربية، ما بين التجزئة والوحدة. وبناء على ذلك المعيار، فان التصورات المختلفة لمستقبل الوطن العربي تتحدد في ثلاثة مشاهد مستقبلية: أولها، استمرار منطق تجزئة الوطن العربي، وثانيها الاشكال الوسيطة للتنسيق والتعاون. اما ثالثها فهو الوحدة العربية.

المشهد المستقبلي الأول، يفترض استمرار الأوضاع التي سادت في الوطن العربي منذ حرب تشرين الاول/ اكتوبر ١٩٧٣ وحتى بداية الثمانينات، مع افتراض اساسي هو بقاء التجزئة على حالها، خلال الاطوار الزمني للدراسة. ومع ان هذا المشهد المستقبلي لا يستبعد حدوث تغيرات محدودة في علاقات الوطن العربي الداخلية والخارجية، الا ان هذه التغيرات ستظل محكومة في ديناميتها ونتائجها، بمنطق التجزئة. وبهذا المعنى، يكون المشهد المستقبلي الاول اقرب الى ما يسمى، في الدراسات المستقبلية بـ«المشهد المستقبلي الاتجاهي».

- المشهد المستقبلي الثاني يعبر عن اشكال وسيطة من التنسيق والتعاون بين اقطار الوطن العربي، تفوق - في كمها وكيفها واستقرارها واستمراريتها - ما يرد من حالات تعاون في المشهد المستقبلي الاول. ويمثل المشهد المستقبلي، بهذا المعنى، استجابة مختلفة من جانب الفئات الحاكمة لمشاكلها الداخلية والخارجية - في قضية الوحدة وغيرها - بالقدرة الذي لا يؤثر على مصالحها المباشرة سلباً. ويأخذ التنسيق، في هذا المشهد المستقبلي، أحد شكلين رئيسيين: أولهما: تجمعات اقليمية يجمع بين اقطارها الجوار الجغرافي والتقارب الايديولوجي والتقارب في مستويات المعيشة، ودرجة التطور الاقتصادي والاجتماعي. وثانيهما: تنسيق عربي عام في أحد المجالات العسكرية والاقتصادية والسياسية الخارجية. وهذه الافتراضات تجعل من هذا المشهد المستقبلي الثاني أقرب الى ما يُسمى، في الدراسات المستقبلية، بـ«المشهد المستقبلي الاصلاحى».

- المشهد المستقبلي الثالث، يفترض قيام وحدة فدرالية عربية تضم معظم الاقطار العربية الرئيسة، ومعها بعض الاقطار العربية الاخرى، أوكلها، بحيث يصبح هذا الكيان الموحد هو القائد والمهيمن على مجريات الامور في الوطن العربي. ومعنى الفدرالية، في هذا المشهد المستقبلي، هو الاكتفاء بوجود سياسة خارجية واحدة، وجيش واحد، وعملة واحدة، ونظام تعليمي واحد، كحد ادنى. ويتطلب التمهيد للوصول الى مشارف هذا المشهد قيام قوة اقليمية ثورية، تتكون من قطر عربي أو اكثر، ويكون لها من الثقل ما يجعلها ذات تأثير عام على المنطقة بأسرها. وبذلك المضمون نكون ازاء مشهد مستقبلي «تحويلي» وينطوي على تغيير أساسي في الأوضاع القائمة.

وفي إطار محور العرب والعالم، تأتي هذه الدراسة عن «مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي». وفي واقع الامر، فإن الصراع العربي - الاسرائيلي يحتل مكاناً مركزياً بين تفاعلات الوطن العربي مع العالم الخارجي. لقد كانت تلك هي الحقيقة التي تلازمت مع وجود الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، في قلب الوطن العربي، منذ عام ١٩٤٨ وحتى الآن. وتسمح الخبرة التاريخية للعقود الاربعة الماضية، بأن نفترض ان ذلك المكان المتميز للصراع مع اسرائيل، يمكن ان يظل قائماً طوال العقود الثلاثة المقبلة.

على ان السهولة او البساطة التي يمكن بها طرح الافتراض السابق (أي افتراض استمرار أهمية الصراع العربي - الاسرائيلي بالنسبة الى الوطن العربي، في العقود الثلاثة المقبلة) لا توازيهما سهولة استشراف مسار ذلك الصراع المعقد، في علاقته بمستقبل الوطن العربي عموماً. إن أولى الصعوبات التي تتبادر الى الذهن هنا، هي أن «الصراع العربي - الاسرائيلي»، ليس من ذلك النوع من الظواهر المبسطة، القابلة للقياس الكمي الاحصائي، والمتعلقة بعلاقة الانسان بالبيئة، أو بالتطورات التكنولوجية والعلمية (مثل مسائل تطور سكان العالم، أو تطور استهلاك الطاقة أو وسائل الاتصال، وتطور استكشاف موارد

الطبيعية، والمخترعات العلمية) وهي الموضوعات التي توافرت فيها الدراسات المستقبلية. ولكنه ظاهرة مركبة، لا يلقي القياس الكمي فيها الضوء سوى على بعض أبعادها الجزئية، فضلاً عن أنها تتعلق بعلاقات بشرية معقدة تتدخل فيها ارادة الانسان، على نحو حاسم، يصل الى حد صنع المفاجآت والمبادرة بالتغيرات الحادة. ثم ان ذلك الصراع يجري في «جنوب العالم»، حيث لا يزال كثير من القوى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في تغير وعدم استقرار، بايقاع سريع يختلف بشدة عنه في المجتمعات المتقدمة شمال العالم. وليس هناك في المستقبل المنظور ما يوحي بأن ذلك الايقاع سوف يخفت. كما ان الصراع - بطبيعته - علاقة معقدة، تتداخل فيها اطراف متعددة، كما ان كلا من تلك الاطراف لا تؤثر فقط في ذلك الصراع، ولكنها أيضاً تتأثر به، بل ويعاد تشكيلها وفق مقتضياته، في عملية جدلية مستمرة.

على ان تلك الصعوبات، وغيرها، لم تحل دون اهتمام الجانب الاسرائيلي بمستقبل الصراع، وبمستقبل الكيان الاسرائيلي نفسه، وبالطرح المستمر للأفكار المختلفة حول الصور والبدائل المتصورة لهذا المستقبل.

لقد شارك في وضع تلك الدراسات والأفكار، دارسون من خارج اسرائيل، بخاصة من اليهود (مثل العالم الفيزيائي - الرياضي اليهودي هيرمان كاهن، الذي يعد من ابرز دارسي المستقبليات على الاطلاق).

وفي مقابل هذا الاهتمام الاسرائيلي وغير الاسرائيلي، كانت الدراسات العربية حول مستقبل الصراع شديدة الندرة، على الرغم من بدء الاهتمام بدراسات المستقبل العربي، بشكل عام.

وواقع الأمر، أن العرب في مواجهتهم للعدو الصهيوني، انما يواجهون عدواً عرف - حتى الآن على الأقل - كيف يتنبأ بالمستقبل، بل وكيف يتحكم في ذلك المستقبل، أو يصنعه صنعاً. ان ذلك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحقيقة ان «المشروع الصهيوني» انما وضع ونفذ في اطار تخطيط محكم، بخاصة أواخر القرن الماضي، منذ ان كانت «الدولة اليهودية مجرد فكرة في أذهان آباء الصهيونية الأوائل. وبحكم التعريف، فان «التخطيط» انما يستلزم قدراً من التنبؤ بالمستقبل، وقدراً من التصور المسبق له.

وعلى يد هرتزل (بخاصة منذ عام ١٨٩٦) تحولت الصهيونية الى حركة سياسية منظمة، واعية بالضغوط والضوابط الدولية. وحدد هدف الحركة بأنه الحصول على ارض فلسطين كي تكون ملكاً للشعب اليهودي. وعلى مدى ما يقارب ٥٠ عاماً، عمل الصهاينة على ترجمة تصورهم المستقبلي الى واقع حي، من خلال المؤسسات الصهيونية (المنظمة الصهيونية العالمية، الصندوق القومي اليهودي، والوكالة اليهودية التي تولت تنظيم عمليات الهجرة الى فلسطين، والاستيطان فيها، وتأسيس أركان «الدولة» الجديدة.

وكما سبق وذكرنا، فإن الاسرائيليين لم يتخلوا ابداً عن اهتمامهم «بالمستقبل» بعد انشاء الدولة، بهدف التعرف على مستقبلها، وسط محيط العداء العربي حولها. ومرة اخرى، فإن دراسات المستقبل لم تستهدف التنبؤ المسبق باتجاهات معينة فقط، وانما ايضا طرح أو فرض تصورات متحيزة حول مستقبل اسرائيل ومستقبل علاقاتها بالمنطقة، على نحو يوحي بالتسليم بتلك التصورات، ويدفع التطور في المنطقة في المسار المتفق مع آمال اسرائيل أو «اوهامها». وربما كان في مقدمة الامثلة ذات الدلالة هنا، الدراسة التي وضعت في اسرائيل عام ١٩٧٠ عن تصور ما سوف تكون عليه «اسرائيل في عام ٢٠٠٠»، والتي افترضت - على الرغم من ابرازها للعديد من الارقام والمؤشرات حول التصور المستقبلي لطرفي الصراع العربي - الاسرائيلي، ان علاقة القوى بين اسرائيل وجيرانها لن تتغير، ولم تطرح الدراسة - تالياً - امكان نشوب حرب كئلك التي وقعت بعدها بثلاث سنوات، أي في تشرين الاول/ اكتوبر ١٩٧٣.

في هذا السياق، يمكن القول ان اهمية المحاولة الحالية لاستشراف مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي، ضمن استشراف مستقبل الوطن العربي عموماً، لا تكمن فقط في ارتيادها مجالاً لا يزال بكراً امام الدراسات المستقبلية العربية، على الرغم من اهميته المركزية للتطور العربي المعاصر، وانما تكمن - بالدرجة الاولى - في سعيها للتعبير عن «وجهة نظر» عربية حول مستقبل الصراع، بكل ما تنطوي عليه من مضامين علمية وموضوعية، وأهداف سياسية ونفسية.

وانطلاقاً من معرفة ان الدراسة هي اساساً «ذات طابع مستقبلي واستشرافي، وان بحث الماضي والحاضر يكون بهدف استخلاص الدروس وتقدير المواقف والتحديات» فينتقسم الكتاب الى ثلاثة فصول، يتوفر الفصل الاول منها على استخلاص معطيات الخبرة التاريخية، المباشرة او غير المباشرة، المتعلقة بالصراع العربي - الاسرائيلي. اما الفصل الثاني، فيدرس صورة المستقبل الاسرائيلي في العقود الثلاثة المقبلة، وذلك من النواحي الديمغرافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية. ويخصّص الفصل الثالث لدراسة مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي، وفقاً للمشاهد المستقبلية الثلاثة المفترضة لمستقبل الوطن العربي.

وفي ختام هذه المقدمة، أود ان أشير الى أن الاجزاء العسكرية التي وردت في هذا الكتاب (أي البحث الرابع من الفصل الثاني، والاجزاء العسكرية في المباحث الثلاثة في الفصل الثالث) قام باعدادها السيد اللواء طلعت مسلم، خبير الشؤون العسكرية في مركز الدراسات السياسية والاقتصادية في الاهرام وعضو فريق بحث «استشراف مستقبل الوطن العربي».

كذلك، أجد لزماً عليّ أن أذكر بالتقدير والعرفان الجهد المتميز الذي بذله د. علي الدين هلال استاذ العلوم السياسية في جامعة القاهرة، والمشرف على محور «العرب

والعالم». لقد كانت لمتابعته الدؤوبة وملاحظاته الثاقبة، وإدارته البارعة، أكبر الأثر في انجاز هذا العمل.

كما يهمني ان اتقدم بالشكر الى الاخوة زملاء اعضاء فريق البحث، الذين ابدوا دائماً ملاحظاتهم القيمة، وتشجيعهم الأخوي، بخاصة د. عبدالمنعم سعيد.

اني أتقاسم ايضاً، مع بقية فريق «استشراف مستقبل الوطن العربي»، مشاعر التقدير والامتنان لجهود اعضاء مكتب مركز دراسات الوحدة العربية في القاهرة، وعلى رأسهم استاذنا الكبير الاستاذ اديب الجادر الذي كانت متابعته للعمل مخطوة دائماً بفيض من دماثة الخلق والعواطف النبيلة.

اما بالنسبة الى استاذنا الدكتور خيرالدين حسيب، مدير عام مركز دراسات الوحدة العربية، فانه يشرفني ان اضم هذا الكتاب الى سلسلة المنجزات العديدة التي حققها - ولا يزال - مركز دراسات الوحدة العربية تحت قيادته، والتي كان له دائماً الفضل الاول في تحقيقها.

واذا كان هؤلاء جميعاً قد أسهموا في ما يمكن أن يتسم به هذا العمل من أوجه للتميّز، فان اي أوجه للقصور فيه، سوف تظل مسؤوليتي، بالدرجة الاولى.

اسامة الغزالي حرب

القاهرة ٢٢ شباط / فبراير ١٩٨٧

الفصل الأول

مُعْطَيَاتُ الْخَبْرَةِ التَّارِيخِيَّةِ

يسعى هذا الفصل الى تحديد معطيات الخبرة التاريخية التي يمكن استخلاصها من المسار السابق للصراع العربي - الاسرائيلي، في شكل عوامل حاكمة أو محددة له، من ناحية، ومسالك أو قنوات التأثير المتبادل بين مجريات الصراع وبين توجه الوطن العربي نحو الوحدة، باعتباره المعيار الذي حددت، بناء عليه، المشاهد المستقبلية والمستقبل العربي في تلك الدراسة، من ناحية ثانية، ثم الخبرات التي يمكن استخلاصها من الغزوة الصليبية قديماً، والنظام العنصري في جنوب افريقيا حديثاً، من ناحية ثالثة. وسوف يتم استعراض كل من هذه الخبرات في مبحث مستقل.

أولاً: محددات الصراع العربي - الاسرائيلي في ضوء الخبرة التاريخية له

تتمثل إحدى المشكلات الأساسية لدى الباحث في موضوع الصراع العربي - الاسرائيلي، في وجود فيضان من الكتابات والتحليلات والمعلومات حول ذلك الصراع، الى الحد الذي يجعل من الامساك بالخطوط الأساسية أو الأصلية له، وفصلها عما هو ثانوي أو تابع، أمراً بالغ الصعوبة. وإذا اقتصرنا، هنا، على المعالجات السياسية التي تناولته، باعتباره موضوعاً يدخل ضمن دراسات «الصراع» في العلاقات الدولية، وجدنا تعدداً لا حصر له في «المفردات» التي خضعت للبحث والتحليل. فهناك الحديث عن «اطراف الصراع»، سواء أكانوا مباشرين أم غير مباشرين، محليين أو اقليميين أو دوليين. وهناك الحديث عن دوافع الصراع أو أسبابه، سواء أقسمت تلك الدوافع الى ايديولوجية ودينية واقتصادية وسياسية أم الى مباشرة أو غير مباشرة أو مرتبطة بالقوى المحلية أو الدولية. وهناك ثالثاً الحديث عن

طبيعة (أو: ماهية) الصراع: هل هو صراع قومي؟ أم صراع ديني؟ أم هو صراع اقليمي حول الارض؟ هل هو صراع عربي - اسرائيلي، أم هو بالاساس جزء من الصراع الناشب على مستوى العالم كله بين قوى التحرر الوطني، وقوى الامبريالية العالمية بزعامة الولايات المتحدة؟ وهناك رابعاً الحديث عن أشكال الصراع: فهناك الصراع المسلح في صوره المختلفة (حرب شاملة - حرب محدودة - عمليات فدائية - ضربات ردع وانتقام . . الخ)، وهناك الصراع السياسي على صعيد العلاقة مع دول العالم، وفي ساحات المنظمات الدولية، وهناك الصراع الاقتصادي وقضايا المقاطعة واستخدام سلاح النفط والمال. كما يظل هناك مكان للصراع الثقافي، وللصراع الحضاري الذي يرفعه البعض الى المرتبة الأولى من الأهمية. وهناك خامساً الحديث عن ديناميات الصراع ومساره، والدور الحاسم «للحروب» في التحول الكيفي له من حال الى آخر، ثم التأثيرات التي يمارسها هذا المسار للصراع على مختلف أطرافه، والعلاقة الجدلية بين القوى الفاعلة ومسار الصراع. وهناك أخيراً طوفان الكتابات والتحليلات والتنبؤات حول تسوية الصراع العربي - الاسرائيلي: سواء في شكل تقويم ما تم منها، أم في شكل تنبؤات أم تفضيلات أو مقترحات بما يمكن (أو يجب) أن يتم مستقبلاً.

على أن السؤال الذي يفرض نفسه هنا، هو: أي من تلك المتغيرات ينبغي الاسماك بها، وتحليلها، من وجهة نظر «استشراف المستقبل»؟ الواقع ان تأمل تلك المتغيرات لا بد وأن يفضي بنا الى تقرير أنها جميعاً قابلة للتغير عبر الزمان، وتالياً سوف يظل هناك معنى ما للسؤال: هل يمكن ان تتغير «اطراف» الصراع العربي - الاسرائيلي عبر المستقبل؟ وهل هناك احتمالات لتغير «اسباب» الصراع أو تفاقمها، أو حتى اختفائها؟ وهل يمكن تالياً افتراض حدوث تغير في طبيعة (أو: ماهية) الصراع العربي - الاسرائيلي؟ وهل سوف تحدث تغيرات جوهرية على الأشكال الراهنة للصراع العربي - الاسرائيلي؟ وتالياً على مسار ذلك الصراع؟ لأن يؤثر ذلك كله على بدائل التسوية المحتملة؟

الاجابة عن التساؤل السابق اذاً، هي ان كل تلك المتغيرات، وغيرها، لا بد وأن تدخل في التحليل، أي تدخل في استشراف مستقبل الصراع، وهذا يعني - تالياً - ان المحددات التي تجري صياغتها، بناء على الخبرة التاريخية للصراع، ينبغي ان تكون على درجة من العمومية والتجريد تسمح باستيعاب كل تلك المتغيرات، وبأخذها في الحسبان عند استشراف مستقبل الصراع، أي ان تكون قابلة - بدرجة معقولة من اليسر - لقياس تطورها عبر الزمن.

في ضوء هذه الاعتبارات، تطرح الدراسة محددات ثلاثة للصراع العربي - الاسرائيلي، تلخص خبرته الماضية، وتسمح باستشراف مستقبله. المحدد الأول هو التناقض بين «الكيف» الاسرائيلي غير القابل للتطور الكمي، و«الكم» العربي القابل للتطور الكيفي.

المحدد الثاني هو الطابع «التحولي» و«المتغير» للمرحلة التاريخية التي يمر بها أطراف الصراع المباشر.

أما المحدد الثالث، فهو انتباه أطراف الصراع المباشرين الى القوى «التابعة» في العالم، أي أنها - بمصطلحات مدرسة التبعية - قوى «هامشية» أو «محيطية».

١ - التناقض بين «الكيف» الاسرائيلي و«الكم» العربي

اتجه مسار الصراع العربي - الاسرائيلي، طوال العقود الاربعة الماضية، لمصلحة الطرف الاسرائيلي، أي ان علاقة القوى بين طرفي الصراع كانت تشير - في ما عدا استثناءات محدودة وقصيرة - الى تفوق اسرائيلي واضح على الطرف العربي. هذا التفوق الاسرائيلي هو - بالضرورة - تفوق «كيفي» أو «نوعي»، استطاع أن يحد من التفوق الكمي العربي: سواء من حيث عدد السكان، أم مساحة الارض، أم الموارد الاقتصادية أم القوة العسكرية. وإذا كان هذا التفوق الكيفي لاسرائيل، يفسر اتجاه الصراع لمصلحتها، فانه يفسر ايضاً، ومن خلال مقارنته بتطور الكم العربي، الكثير من ملامح الصراع الأخرى، ويسمح تالياً بطرح افتراضات محددة حول المستقبل.

ويمكن أن يفسر هذا التفوق الاسرائيلي بثلاثة عوامل أساسية:

العامل الاول، هو الانتاء الحضاري، أي انتاء أصحاب المشروع الصهيوني (وتجديداً قياداته ومخططوه) الى عالم يتفوق حضارياً بشكل عام، على الوسط الذي زرع فيه ذلك المشروع. ويمكن تحديد ذلك التفوق بأنه يعبر عن فجوة في «التحديث» بين طرفين، ينتمي اولهما الى المجتمع الصناعي الحديث، فيما ينتمي ثانيهما الى المجتمع التقليدي.

وهذا الشعور «بالتفوق» ازاء العرب، سواء داخل فلسطين أم خارجها، كان ملازماً للدعوة الصهيونية منذ ايامها الأولى، وارتبط بالمناخ الثقافي الذي ساد أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث سادت نظريات «الفراغ الحضاري» في المناطق غير الأوروبية، والأجناس «المتفوقة» التي يتعين عليها تأدية رسالة «تمدنية» للأجناس المتأخرة. ولقد استمدت الصورة الصهيونية للعرب عناصرها من هذا المناخ، ومن التقليد الطويل لنظرة أوروبا الى «الشرق» وأهله. وتعددت في كتابات هرتزل أوصاف العرب بالجهل والتأخر والفقر والجوع والمرض، كما تعددت في كتابات العديد من المؤلفين الصهاينة، فكرة الدور المنوط باليهود لتحقيق «النهضة» و«الاصلاح» في تلك المنطقة من العالم.

العامل الثاني، هو قوة الايديولوجية الصهيونية كعنصر عقيدي، مارس دوراً أساسياً في فعالية الحركة الصهيونية، وقدرتها على تحويل الأهداف الصهيونية (منذ اواخر القرن التاسع عشر) الى حقائق فعلية فوق ارض فلسطين. وبعد قيام دولة اسرائيل، وتحقيق اهم

اهداف الايديولوجية الصهيونية، أضحت أهداف تلك الايديولوجية تدور حول تدعيم الدولة الوليدة، وضمان ازدهارها وقوتها من خلال عدد من الممارسات، مثل تشجيع الهجرة الى اسرائيل، ومقاومة النزوح اليهودي منها، وتشجيع الاستيطان في الاراضي العربية. كما يظهر أثر هذا العنصر العقيدي في السعي الى تحقيق انجازات ملموسة، على صعيد الأداء الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي والدمج الثقافي للعناصر اليهودية المتناشرة داخل الدولة الاسرائيلية، في ظل اعتقاد ذي ابعاد عنصرية واضحة بفكرة «التفوق اليهودي» و«العبرية اليهودية».

العامل الثالث هو التحدي العربي، الذي يرتبط بالتناقض العدائي بين الكيان الصهيوني الضئيل، وبين الوسط العربي الواسع المحيط به. ان هذا التناقض المصري جعل «تفوق» هذا الكيان ضرورة «وجود»، وجعل من «القوة» شرط الحياة له. اما رفض العرب الاعتراف بشرعية وجود هذا الكيان، فبات يعني اعتياده اساساً على منطق «القوة» لمواجهة ذلك التحدي وفرض وجوده. وفوق ذلك، فان التفوق الاسرائيلي، بمعنى امتلاك ناصية القوة في مواجهة الآخرين، كان ايضاً هو الشرط الاساسي لتوسع هذا الكيان، وتمتدده فوق الأرض العربية المحيطة، وتدعيم نفوذه وسيطرته، بالصور المختلفة.

إن هذه الضرورة الحيوية للتفوق على الآخرين، خصوصاً في صورته العسكرية، هي سمة لصيقة بالكيان الصهيوني ككيان «استيطاني»، وكان من المهم، منذ اللحظة الاولى لوجوده، ان يعسكر نفسه عسكرة تامة، ليتحول الى المجتمع القلعة الذي تجري العسكرية في عروقه، أو الذي لا توجد فيه أي فواصل بين الجيش والشعب^(١).

كذلك، فان الضرورة «الوجودية» للتفوق الاسرائيلي كانت هي جوهر نظرية «الامن الاسرائيلي»، كما صاغها الآباء الأوائل للدولة. ويعبارات بن غوريون «فان أمن الدولة الصهيونية ليس قضية حماية الاستقلال أو الأراضي أو الحدود أو السيادة، انما هي قضية البقاء على قيد الحياة من الناحية الفيزيائية»^(٢).

هذا التفوق الاسرائيلي (سواء كخصيصة للانتماء الحضاري، أم الايمان الايديولوجي، أم كضرورة وجود) وجد تعبيره، منذ ميلاد الدولة الصهيونية، في التفوق العسكري بالدرجة الاولى، وهو تفوق استند، بدهاء، الى أسس اقتصادية واجتماعية وسياسية ومعنوية مؤاتية. وبشكل عام، فان ذلك التفوق العسكري تعلق اساساً بالتسلح، والقوة البشرية، والقيادة. التفوق في التسلح، بمعنى التفوق في كميات الاسلحة المتوافرة للقوات المسلحة، ونوعيتها

(١) Yoram Peri, *Between Battles and Ballots: Israeli Military in Politics* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1983), p. 134.

(٢) عبدالوهاب عماد المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام، ١٩٧٥)، ص ٨٦.

المتميزة، وذخائرها والمعدات المساندة لها، فضلاً عن القدرة على التعويض السريع عن الخسائر. اما التفوق في الطاقة البشرية فمتعلق بالحجم والنوعية. وفي حين ان الجيوش العربية، التي شاركت فعلياً في الحرب ضد اسرائيل، تفوقت في حجم القوة البشرية، الا ان الجانب الاسرائيلي ظل يحرص على ترقية نوعية قواه البشرية، وتحديدآ من خلال تعظيم القدرة على استيعاب أنظمة السلاح بفعالية، وتعظيم القدرة على الاداء المتميز في الميدان. وكل من هذين الميدانين يرتبط، بدوره، بالمستوى التعليمي والعلمي السائد في المجتمع، وكذلك كفاية التدريب الذي تخضع له القوة البشرية. وبالمثل، فان كفاءة القيادات وثقتها بنفسها، وقدرتها على وضع الخطط وعلى تنفيذها ميدانياً بفعالية، تؤدي دوراً حاسماً في ترقية الاداء العسكري^(٣).

وعموماً، يمكن القول ان التفوق الكيفي الاسرائيلي مارس تأثيره على مسار الصراع مع العرب، من خلال مظاهر عدة، في مقدمتها: القدرة على التخطيط والكفاية في الاداء، ثم القدرة على المبادرة.

إن المجابهة فوق أرض فلسطين، منذ اواخر القرن التاسع عشر، بين المشروع الصهيوني، وبين أبناء المنطقة (سواء من الفلسطينيين أم غيرهم من العرب) انما كانت مواجهة بين قوى واعية لهدفها، ولطريقة تحقيق هذا الهدف، وبين قوى غير قادرة على أن تعي الأبعاد الكاملة للمخطط الذي تعرضت له، وغير قادرة، تالياً، على سلوك الطريق الصحيح لمواجهة ذلك المخطط. وفي حين عرفت الحركة الصهيونية ايضاً كيف تنسق تحركاتها مع القوى الامبريالية الكبرى المسيطرة في العالم، وأن تلحق نفسها بتلك القوى ومصالحها، فان الشعب الفلسطيني والشعوب العربية الاخرى، لم تكن سوى محل لسيطرة القوى الامبريالية، وموضوع للتنازع في ما بينها. على أن هذه القدرة على التخطيط لا تعني ان الهدف النهائي للمشروع الصهيوني، أو أهدافه المرحلية، كانت دائماً محددة سلفاً بشكل كامل، ولكن على العكس، فان وضوح تلك الاهداف في صيغتها العامة، لا ينفي حقيقة ان المدى الذي ذهب اليه المشروع الصهيوني فعلياً في مراحل المختلفة، انما كان محصلة للمواجهة بين القوة الصهيونية، والضعف العربي، عبر تطور الصراع.

كذلك، فان تخطيط المشروع الصهيوني، بمعنى محاولته التحكم في تطور المنطقة موضع سيطرته، واخضاع ذلك التطور للارادة المنفردة لأصحاب المشروع، انما استند الى تصور مسبق محدد للهدف (اقامة دولة يهودية صهيونية فوق أرض فلسطين) ولوسائل تحقيق هذا الهدف (حشد القوى الذاتية الصهيونية، الى أقصى حد، والاستعانة بالقوى الدولية الكبرى، وضمان التفوق العسكري على العرب).

(٣) رياض الأشقر، ميزان القوى العسكري بين الدول العربية واسرائيل في السبعينات، سلسلة اوراق مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١١ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠)، ص ١٠ - ١٨.

المظهر الثاني للتفوق الاسرائيلي يتمثل في الكفاية في الأداء. وهذا العنصر هو الترجمة المباشرة لفكرة التفوق «الكيفي»، وهو محصلة لكل من المهارة الفنية أو الحرفية (التي هي بدورها نتاج لكفاءة نظم التعليم والتدريب) والاقتناع أو الحساس المعنوي (الذي يعكس قوة العقيدة أو الايديولوجية). أبرز ميادين هذه الكفاية في الاداء، في غار المواجهة مع الجانب العربي، كان الميدان العسكري، بخاصة في الحروب الشاملة بين الطرفين، ولكنها تعكس بالضرورة كفاية ادارية وتنظيمية واقتصادية وسياسية، فضلاً عن العنصر المعنوي المؤاتي. ان الكفاية في الاداء هي العنصر الضمني الذي يفسر الهزائم التي لحقت بالجانب العربي، أو النتائج العسكرية المتواضعة، في مواجهة الجانب الاسرائيلي، على الرغم من التفوق الكمي في عناصر المواجهة العسكرية كافة، وهي التي تفسر الكبر النسبي لحجم الخسائر البشرية وخسائر الاسلحة والمعدات، مقارنة بالجانب الاسرائيلي.

المظهر الثالث للتفوق الكيفي الاسرائيلي - بل وايضاً إحدى نتائجه - هو القدرة على المبادرة. ان المبادرة هي حجر الزاوية في الاستراتيجية الاسرائيلية، وهي تستند الى ان اسرائيل لا يمكنها ان تكون في موقف رد الفعل ازاء الجانب العربي، لأن رد الفعل قد ينطوي على هزيمة أو تراجع، وهو ما لا تتحمله اسرائيل. والمبادرة، بهذا المعنى، تنطوي على السعي الى منع الخطر قبل وقوعه، وذلك من خلال استراتيجيتين محدوتين:

استراتيجية الردع، بمعنى حمل العدو على الاحجام عن اتخاذ اجراءات عسكرية، من خلال ابراز تكلفة ومخاطر أكبر وزناً من المكاسب المتوقعة لتلك الاجراءات.

استراتيجية الهجوم المسبق، أو الضربة الوقائية أو الاجهاضية، قبل ان يتمكن الخصم من شن هجومه، على أساس ان الهجوم «هو أفضل وسائل الدفاع».

وبهذه العناصر، كانت الاستراتيجية الاسرائيلية في جوهرها، طوال العقود الأربعة الماضية، استراتيجية هجومية، لا تعترف بالتقهقر والانسحاب، وتهدف الى نقل الحرب الى أرض العدو، وتحطيم أكبر قدر من عناصر قوته، في اقصر وقت ممكن. ولا تستقي هذه الاستراتيجية من دراسة سلوك اسرائيل في خلال حروبها الشاملة مع العرب فقط (بخاصة خلال حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧) وانما ايضاً من خلال دراسة مجمل السياسة الاسرائيلية في المنطقة. وليست وقائع مثل ضرب المفاعل النووي العراقي، والتدخل في لبنان، ودعم ايران ضد العراق، الا امثلة واضحة لتطبيق هذه الاستراتيجية.

على أن التناقض بين الكيف الاسرائيلي، والكم العربي، لا يفسر فقط حقيقة التفوق الاسرائيلي، بعناصره المختلفة، على الجانب العربي، وتالياً اتجاه مسار الصراع لمصلحة اسرائيل، ولكنه يفسر ايضاً مظاهر أخرى في مسار ذلك الصراع.

فانطلاقاً من حقيقة ان الكيف الاسرائيلي لا تتوافر له في اطار المشروع الصهيوني

امكانات كبيرة للتطور الكمي، فان احتمالات حدوث تغيير «نوعي» أو كيفي مؤثر، على الجانب العربي، ذي «الكم» الهائل نسبياً تنطوي على مخاطر جسيمة على اسرائيل. وهذا يعني تالياً، ان أحد الأهداف الاسرائيلية الأساسية كان دائماً منع، أو عرقلة، أو على الأقل تحييد، أي تطور كيفي أو نوعي عربي. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فان وجود «كم عربي» تنقصه أوجه الكيف التي تضاهي «الكيف الاسرائيلي» اكسب النزاع - كما يقول محمد سيد أحمد - «صفة فريدة»، أي صفة استناد طرفيه الى «أصول» لا قاسم مشتركاً بينها، وصفة امكان تصور استمرار النزاع الى غير أجل، من دون ان يستطيع أي طرف فيه استنفاد «أصول» الطرف الخصم^(٤).

ولذلك، لم يكن غريباً أن أي احاديث جادة عن تسوية الصراع لم تصبح ممكنة، الا بعد أن أثبت العرب قدرتهم على تمثّل بعض أوجه التفوق الكيفي التي ظلت حكراً على اسرائيل، وهو ما حدث في حرب تشرين الاول/ اكتوبر سواء من خلال الاداء العسكري في ساحة القتال، ام من خلال استخدام سلاح النفط.

في ضوء ذلك، يمكن القول أن أحد المحددات الأساسية لمجرى الصراع في المستقبل، سوف يكون علاقة القوى بين الكيف الاسرائيلي والكم العربي، أو الحدود القصوى التي يمكن ان يصل اليها الكيف والكم الاسرائيليان، وكذلك درجة التحسن «الكيفي» أو «النوعي» على الجانب العربي، بأوسع ما تعنيه تلك الكلمة.

٢ - الطابع «التحولي» و«المتغير» للمرحلة التاريخية

في الوقت الذي انشئت فيه دولة اسرائيل، كانت البلدان العربية المحيطة بها، أما دولاً حديثة التكوين، أو ناقصة السيادة، أو لم تستقل بعد. وفي الوقت الذي أخذت فيه تتشكل الدولة اليهودية، محاولة إثبات وجود «قومية يهودية»، كانت تتشكل بلدان عربية عدة لم تمنعها توجهاتها القطرية من اعلان ايمانها بالقومية العربية، أو دعوتها الى «الوحدة العربية». وطوال عقود الصراع الاربعة، توازت - في علاقة جدلية مستمرة - عملية بناء الدولة في اسرائيل، وفي البلدان العربية، معاً، وتداخلت تأثيرات الصراع على هذه العملية على كلا الجانبين. ولذلك، وفي حين كان التحدي العربي عنصر دمج وانصهار للكيان الصهيوني المصطنع، فان التحدي الصهيوني لم يكن، في الواقع، عنصر دمج وانصهار حقيقي للكيانات العربية الوليدة مع بعضها البعض. ان ذلك لم يحدث لأن البلدان العربية واجهت مقتضيات التنسيق والتوحيد (أي: التحدي الصهيوني) في الوقت نفسه الذي كانت تسعى فيه الى تدعيم نفسها، «كبلدان» مستقلة.

(٤) محمد سيد أحمد، بعد ان تسكت المدافع (بيروت: دار القضاء، ١٩٧٥)، ص ٩٦ - ٩٧.

لقد تغلبت مقتضيات دعم «الدولة» بشكل كاسح، على مقتضيات «انصهار الدولة»، وجسّدت الحروب العربية الاسرائيلية فشل العامل الخارجي، المتمثل في التحدي الصهيوني، في التغلب على المصالح الضيقة «للدولة»، وفي دفع الوطن العربي نحو الوحدة. وإذا كانت حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ قد جسّدت أقصى ما وصل اليه التنسيق بين البلدان العربية في لحظات قليلة، فإن هذا التنسيق سرعان ما تلاشى بعدها. وإلى حد كبير، فإن البلدان العربية نظرت الى مواجهتها لاسرائيل، واسرعت للمشاركة فيها، كأداة أو كمجال لاثبات الذات، قبل أي شيء آخر.

من هذا المنظور، يبدو واضحاً ان المواجهة العربية - الاسرائيلية لم تتأثر بحقيقة ان البلدان العربية كانت في مرحلة تحوّل وتكريس واثبات للذات فقط، وانما اسهمت تلك المواجهة ايضا في دعم «الدولة» في الوطن العربي. وفي المقابل، فإن انشغال الأنظمة العربية، وبخاصة تلك المحيطة باسرائيل، بمشكلات التغير الاجتماعي والسياسي وبدعم مؤسسات الدولة فيها، ساهم في اعطاء اسرائيل، بخاصة في سنوات الإنشاء الأولى، الفرصة الذهبية لتدعيم ذاتها على المستويات كافة. تمكن الاشارة خصوصاً الى ان ممارسات النظم العربية، خدمت اسرائيل من زاويتين محدودتين: من ناحية أولى، فانها بتهديتها اللفظية، وحملاتها الدبلوماسية وإعلانات التنسيق والحشد فيما بينها، ساهمت دائماً في التلويح بخطر داهم ضد اسرائيل، مما سهّل من جهودها لتعبئة قواها الداخلية وللدمج بين عناصرها المتنافرة في مواجهة الخطر الخارجي. ومن ناحية ثانية، فإن عجز هذه النظم الانتقالية عن المواجهة العسكرية النظامية ضد اسرائيل، مكّنها ليس فقط من ترسيخ ذاتها، وانما ايضا من التوسع واحتلال المزيد من الاراضي.

ولقد كان مقتضى ذلك كله، من الناحية الفعلية، ان البلدان العربية اقامت حول اسرائيل سياجاً أمنياً - بمعنى ما - اكثر من أي شيء آخر، مما يعني ان حدوث تغيير جذري في الموقف من اسرائيل، اصبح مرهوناً بتجاوز تلك المرحلة «الانتقالية» في تاريخ الدولة العربية.

وإذا كانت «أزمة الشرعية» تقف على رأس الازمات التي تسود الدول «الجديدة» في مراحل التحول، فإن الصراع العربي - الاسرائيلي كان أحد اليادين المهمة التي شهدت محاولات النخب العربية الحاكمة لدعم شرعيتها، ومواجهة مخاطر التغيرات السياسية والاجتماعية العنيفة عليها. وبعبارة اخرى، فإن سعي تلك النظم لتكريس شرعيتها، جعلها تمحّص على اتخاذ موقف أو اداء ما ضد اسرائيل، ليس كهدف في ذاته، بقدر ما هو أداة لتكريس تلك الشرعية. وتمثلت أسهل انماط هذا الاداء في رفع الشعارات الحماسية، والمشاركة في المؤتمرات المختلفة لحشد الجهود العربية والامكانيات العربية، ضد العدو الصهيوني. أما أصعب وأدق أنماط هذا الاداء، فكانت هي المواجهة العسكرية بأشكالها

المختلفة. وواقع الامر أن نجاح أو فشل النظم العربية في أداؤها لمواجهة اسرائيل، كان من أهم اسباب تدعيم أو تقليص شرعيتها.

٣ - انتهاء اطراف الصراع الى القوى «التابعة» في العالم

درجت الغالبية الساحقة من الدراسات والتحليلات العربية للصراع العربي - الاسرائيلي، على التركيز على حقيقة العلاقة العضوية بين اسرائيل والقوى الاستعمارية الكبرى، وهي العلاقة التي آلت في نهاية المطاف الى العلاقة الشديدة الخصوصية بين اسرائيل والولايات المتحدة. على اننا هنا - واذا جاز لنا استعمال تعبير «التبعية» لتوصيف تلك العلاقة - يمكن ان نضع هذه العلاقة في سياق توصيف أشمل، يضم اسرائيل والبلدان العربية معاً، بحيث يتسنى لنا الحديث عن تبعية كلا الطرفين لقوى «المركز» المسيطرة، وبخاصة الولايات المتحدة، كعنصر حاسم في ماضي الصراع وحاضره ومستقبله. ويستند اسباب أهمية خاصة على علاقة «التبعية» تلك، كسمة مميزة لأطراف الصراع، على اعتقاد راسخ ان «بعض مناهج البحث التي يجوز اتباعها في دراسة التطور الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي في دولة مستقلة، لا تخضع لأي نوع من الضغط السياسي أو الاقتصادي من قوة خارجية، لا يجوز أن تطبق في دراسة تطور دولة لا تتمتع بهذا الاستقلال»^(٥).

ولسنا هنا في صدد رصد أوجه التبعية المختلفة لدى كل من اسرائيل، والبلدان العربية، معاً، للقوى الامبريالية المسيطرة في العالم، وعلى رأسها الولايات المتحدة، أو الحديث التفصيلي عن تأثيرات تلك التبعية. من المهم، فقط، تقرير ان تلك العلاقة (أي علاقة التبعية) مارست تأثيرها الحاسم، المباشر وغير المباشر، على الصراع العربي - الاسرائيلي، طوال تاريخه الطويل. ولنتذكر هنا - بداية - ان تكوين كل من اسرائيل، والبلدان العربية المحيطة بها، في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، انما كان مرتبطاً بشكل مباشر بارادة الدول الامبريالية التي كانت تهيمن على المنطقة. وكما يقرر الباحث الباكستاني حمزة علوي في شأن نشأة الدولة في العالم الثالث، فان «المشكلة الاساسية حول الدولة في مجتمعات ما بعد الاستعمار، تنبع من حقيقة انها لا تنشأ على يد برجوازية محلية (وطنية) صاعدة، ولكن على يد برجوازية امبريالية اجنبية»^(٦).

وليس من الصعب على دارس تاريخ المنطقة ملاحظة حقيقة ان ارادة الدول الامبريالية كانت حاسمة في خلق الكيانات التي اصبحت بعد ذلك دولاً في المشرق العربي، مثلما كانت حاسمة في خلق دولة اسرائيل. وبسبب هذه الحقيقة ايضاً، وقفت النظم العربية «الجنينية»

(٥) جلال احمد امين، المشرق العربي والغرب: بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٧٩)، ص ١١.

(٦) Hamza Alavi, «The State in Post - Colonial Societies: Pakistan and Bangladesh», *New Left Review*, no. 74 (1972), p.54.

في معالجتها للصراع مع اسرائيل عند حدود لم تتعدها، في الوقت الذي اطلقت يد اسرائيل في المنطقة، ثم حكمت «حقائق» التبعية والعلاقات الخاصة مع القوى الكبرى، مسار الصراع على نحو حاسم حتى اليوم.

وبالمعنى الواسع للتبعية الذي تشترك فيه أنظمة الحكم العربية مع جميع الانظمة في العالم الثالث تقريباً، فان التبعية للقوى الكبرى تعني عجزها عن التعامل بشكل مستقل مع القضايا التي تواجهها؛ فهي مقيدة بحاجتها الى السلاح والى المساندة الدبلوماسية، فضلاً عن اعتبارات التحالف والصراع في الميدان الدولي. وعلى مستوى أكثر تخصيصاً، في ما يتعلق بالبلدان العربية بالذات، فان التبعية المشتركة من جانب هذه البلدان واسرائيل معاً للقوى الامبريالية (بخاصة الولايات المتحدة) وبصرف النظر عن تفاصيل الاختلاف بين نوعي «التبعية»، وضعت حدوداً صارمة على توجهات البلدان العربية ازاء اسرائيل. واذا كان من المتصور نظرياً ان تلك التبعية وضعت ايضاً حدوداً على حركة اسرائيل ضد الوطن العربي، فمن المؤكد فعلياً ان حريتها في الحركة، وفي فرض أهدافها، كانت اكبر بما لا يقاس من الأنظمة العربية. لقد شاركت البلدان العربية الأكثر ارتباطاً بالغرب في كل المؤتمرات المكرسة لمواجهة الخطر الاسرائيلي، ورفعت اكثر الشعارات حماساً، بل واشترت احدث الأسلحة. ومع ذلك، فان فاعلية هذا كله، ظلت في اطار حدود لا تتعدها. ومن ناحية اخرى، ولأن العالم الغربي يعي عمق تبعية المجتمعات العربية والأنظمة العربية وارتباطها به، فان العلاقات مع البلدان العربية لم تكن ابداً عاملاً حاسماً في تقرير علاقته باسرائيل، الا في أضيق الحدود.

لقد افرزت تلك التبعية اكثر تأثيراتها حدة، في خضم تعامل النظام المصري مع اسرائيل بعد حرب ١٩٧٣ ثم بعد مبادرة السادات. ففي ذلك السياق، حددت الولايات المتحدة الامريكية (في ظل شعار تملكها لـ ٩٩ بالمائة من الأوراق) مستوى الصراع، وطرق حله، وحكمت بين تابعين: أحدهما قوي ومؤثر، والآخر ضعيف ومنعزل. ولذا، أتت اتفاقات كامب ديفيد والمعاهدة المصرية الاسرائيلية، تعبيراً أميناً عن هذه العلاقات.

وعلى العكس، فليس مصادفة ان أفضل الظروف الدولية التي تعاملت فيها البلدان العربية مع اسرائيل، انما كانت هي ظروف الاستقلال النسبي عن القوى الغربية، والبحث عن الدعم العسكري والتأييد السياسي لدى الجانب الآخر في الساحة الدولية، أي الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية. وذلك واحد من ابرز دروس حرب تشرين الاول/ اكتوبر على وجه الخصوص.

ثانياً: ملامح العلاقة بين الصراع العربي - الاسرائيلي والتوجه العربي نحو الوحدة

إذا كانت المشاهد المستقبلية للمستقبل العربي في تلك الدراسة، تقوم على اساس تصوّر مسارات بديلة للعمل العربي المشترك، ابتعاداً عن الوحدة أو اقتراباً منها، فإن هذا يعني ان دراسة الصراع العربي - الاسرائيلي لا تتم لذاتها، وإنما لرصد علاقة ذلك الصراع - تأثيراً وتأثراً - بالتوجه العربي ازاء الوحدة العربية. ومثلما سعت الدراسة الى رصد المحددات العامة لمسار الصراع العربي - الاسرائيلي، كما أمكن استخلاصها من الخبرة التاريخية، (وهو ما جاء في القسم السابق) فإنها ستسعى هنا - في هذا البحث - الى تحليل طبيعة العلاقة بين الصراع العربي الاسرائيلي، والتوجه العربي نحو الوحدة العربية، بناء على الخبرة التاريخية لذلك الصراع، وللتوجه الوجداني العربي، في آن واحد.

على ان التركيز على دراسة العلاقة بين الصراع العربي - الاسرائيلي، وبين التوجه العربي نحو الوحدة، كما تعكسها الخبرة التاريخية، لا يلغي حقيقة التأثير الذي يمارسه هذا الصراع على التطور الداخلي لكل قطر من الأقطار العربية على حدة، أي على أوضاعه السياسية وشرعية نظامه السياسي، وغط تخصيص الموارد فيه. . . الخ، كما لا يلغي ايضاً حقيقة التأثير الذي يمارسه ذلك الصراع، وبحدّة، على علاقات الاقطار العربية، منفردة أو مجتمعة، مع العالم الخارجي. ان تلك التأثيرات وغيرها، لا بد وأن تدخل في الحسبان، لا في ذاتها، وإنما بمقدار علاقتها، تأثيراً وتأثراً، بالتوجه العربي نحو الوحدة.

ويفضي التحليل الدقيق للعلاقة التاريخية بين الصراع العربي الاسرائيلي، والتوجه العربي نحو الوحدة، الى حقيقتين محدّتين:

الحقيقة الاولى ان تلك العلاقة هي علاقة متبادلة، ومعقدة، بمعنى أنها تنطوي، أولاً، على تأثير وتأثر، أي مثلما يؤثر الصراع العربي - الاسرائيلي على التوجه العربي نحو الوحدة، فإن هذا التوجه يؤثر، بدوره، على الصراع. ثم ان اتجاهات التأثير والتأثر تلك، تنطوي، ثانياً، على اتجاهات مشتتة، بل ومتناقضة أحياناً.

الحقيقة الثانية، تتعلق بالدور المحوري الذي تلعبه مصر في تلك العلاقة المعقدة بين الصراع العربي - الاسرائيلي، والتوجه العربي نحو الوحدة. ان ذلك الدور يرتبط بحقيقة ما تمتعت به مصر من دور مركزي حاسم، سواء بالنسبة للصراع ضد اسرائيل، أم بالنسبة للوحدة العربية.

في ضوء ذلك، فإن دراسة العلاقة بين الصراع العربي - الاسرائيلي وبين التوجه العربي نحو الوحدة، ستقسم الى اجزاء ثلاثة، وهي أثر الصراع العربي - الاسرائيلي على التوجه

نحو الوحدة العربية، وأثر التوجه نحو الوحدة على الصراع العربي - الاسرائيلي، ثم الدور المصري في العلاقة بين هذين المتغيرين.

١ - أثر الصراع العربي - الاسرائيلي على التوجه نحو الوحدة

هناك مقولتان شائعتان في صدد أثر الصراع العربي - الاسرائيلي، على الوحدة العربية. اولاهما، أن وجود اسرائيل بذاته هو عقبة كأداء في طريق الوحدة العربية وثانيتهما، ان وجود الخطر الاسرائيلي هو من أهم العوامل التي تدفع العرب الى الوحدة. ان كلتا المقولتين لها نصيبها من الصحة، وان كانت دلالتهما متناقضة، وهما بذلك تعبران، في الواقع، عن الافتراضين الأساسيين اللذين يمكن من خلالهما مناقشة اثر الصراع مع اسرائيل على توجه العرب نحو الوحدة: حول الدور الحافز، والدور المعيق للصراع ازاء الوحدة.

أ - الافتراض الأول: الصراع مع اسرائيل معيق للوحدة العربية

إن أولى المقولات هنا، هي ما ذكرناه، تواءم من أن مجرد وجود اسرائيل هو عائق امام الوحدة العربية. فاسرائيل توجد في قلب الوطن العربي، تفصل المشرق العربي عن مصر والمغرب العربي. وهي تمارس تأثيرها السلبي هذا على الوحدة العربية، ليس فقط من خلال وجودها المادي كحقيقة «استعمارية»، وانما ايضا من خلال شذوذها عن الوسط المحيط بها، وهو الشذوذ المرتبط بطابعها العنصري والاستيطاني. لقد ترعرعت الفكرة الصهيونية في الربع الاخير من القرن التاسع عشر، حينما انهمكت القوميات الاوروبية في عملية التوسع الاستعماري، في افريقيا وآسيا. ومع ذلك، فان الحركة الصهيونية كانت أعجز من أن تحقق بذاتها أطماعها الاستعمارية في فلسطين، واحتاجت تالياً الى الاعتماد على قوى كبرى لتحقيق أهدافها.

ولذلك، فان الالتقاء بين المطامع الاستعمارية الذاتية للحركة الصهيونية، وبين مصالح القوى الكبرى في المنطقة، جعل من اسرائيل قوة معيقة حقيقية للوحدة العربية، أو هي بتشيبه ونستون تشرشل «الاسفنجة» التي تمتص الجهد العربي، وتشغله باستمرار عن توحيد قواه.

واذا كانت أحدى الافكار الاساسية التي وقفت دائماً وراء الحركة الصهيونية، هي ان العالم يشتمل على أمم مختلفة في نزاع دائم، وان هذا النزاع بلغ مستويات عالية في ما يتعلق باليهود بالذات، بسبب عدم وجود وطن لهم، فان تلك الفكرة هي بالضبط ما كان يبشر به العنصريون الأوروبيون. وقد وصل تطابق الآراء بين الصهيونية والعنصرية الى أقصى مداه، في ما يتعلق باليهود والمسألة اليهودية. واذا كان العنصريون هم الذين قالوا ان العنصر

اليهودي عنصر متميز غريب عن أوروبا بسبب أصله السامي، وروجوا لأفكار نقاء الدم اليهودي، والخصوصية اليهودية، فإن قادة الصهيونية حافظوا بدورهم على مفهوم النقاء العنصري، وكرّروا الإشارة الى معاداة السامية للسياة اليهودية. ثم اتخذت المسألة ابعاداً خطيرة بتحول «النقاء» الى علاقة «تفوق» على الوسط العربي المحيط. ومثلما تعددت في كتابات هرتزل أوصاف العرب بالجهل والتأخر والفقر والجوع، فلا تزال تتردد المقارنات الاسرائيلية المعاصرة بين اسرائيل الديمقراطية المتقدمة، والوطن العربي المتأخر.

على أن الدور الذي يلعبه «الوجود الاسرائيلي»، كعقبة في ذاته امام الوحدة العربية، يرتبط ايضا بالطابع الاستيطاني لاسرائيل. فالاستيطان يفترض، بحكم التعريف، نفي وجود القوى الوطنية. وقد حاول المشروع الصهيوني تحقيق هذا النفي في البداية بالتجاهل والاستخفاف. قبل ان يحاول بالتحايل، ثم بالطرد والعنف: فوق ارض فلسطين قبل ١٩٤٨ وبعدها، ثم في الارض المحتلة بعد حرب ١٩٦٧. وفي هذا السياق، لا يسهم الاستيطان في تفريغ الأرض العربية وفلسطين من أبنائها فقط، ولكنه يسهم أيضاً في تكثيف الوجود اليهودي، وفي تثبيت الكيان الصهيوني كإسفين في قلب الوطن العربي.

- المقولة الثانية حول الدور المعيق الذي يلعبه الصراع العربي - الاسرائيلي حيال التوجه العربي نحو الوحدة، لا تتعلق بمجرد وجود اسرائيل، وانما تتعلق بأثر ديناميات الصراع على الحفاظ على الوضع «القائم» في المنطقة العربية. لا شك ان المراحل الاولى من الصراع (وعلى وجه التحديد حرب ١٩٤٨) قد أسهمت في احداث تغييرات اساسية في نظم الحكم القائمة في البلاد التي شاركت في تلك الحرب، كما أن الذين قادوا الحركات الثورية والانقلابية ضد العهود القديمة، كانوا من الذين خاضوا الحرب، وواجهوا العدو مباشرة. وبعبارات أنيس صايغ، فان «الملكيات الخمس التي اشتركت بحرب فلسطين فعلاً أو قولاً فقط، تحولت ثلاث منها الى جمهوريات، وقتل ملك رابعها، وعزل ابن وخليفة خامسها. ولم يمهل اي من الاجراءات التي حصلت ضد الملوك الخمسة، عند قتلهم او عزلهم، ذكر خيبة امل الشعب بهؤلاء الحكام، بسبب قضية فلسطين او متفرعاتها»^(٧).

على أن تأمل مجمل تطور النظم العربية طوال العقود الاربعة الماضية، يقودنا الى الاستنتاج أن ذلك الأثر «الثوري» للصراع ضد اسرائيل، لم يكن هو القاعدة العامة المميزة له.

فذلك التغييرات المشار اليها، لعبت دوراً تحديرياً أو تنبيهاً، سواء للنظم العربية الأخرى، أم للنظم الجديدة. ولذلك، حرص الجميع، كما سبقت الإشارة، على تكريس

(٧) أنيس صايغ، فلسطين والقومية العربية، سلسلة أبحاث فلسطينية، ٣ (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٦)، ص ١٠٨ - ١٠٩.

شرعيتهم من خلال أداء ما ضد اسرائيل، سواء بالشعارات الحزبية والمشاركة في الحشود والمؤتمرات، أم بالمشاركة في المواجهة العسكرية بأشكالها المختلفة.

على أن الأهم من ذلك، هو أن هزيمة النظم العربية ذات الاتجاه «الثوري» و«الوحدوي» في حرب ١٩٦٧ - والنظام الناصري خصوصاً - دُعِم من موقف النظم «المحافظة»، وهو ما ظهر في مؤتمر القمة التالي للهيمنة (في آب/ اغسطس ١٩٦٧ في الخرطوم) وما صدر عنه من مقررات في شأن الدعم المالي لدول المواجهة. ولقد جاءت حرب تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧٣، وما استتبعها من تطورات، لتحمل مزيداً من عناصر القوة للنظم المحافظة، سواء بسبب اسهامها «الايجابي» في تلك الحرب، أم بسبب عوائد النفط الهائلة التي أخذت تندفق عليها.

- المقولة الثالثة حول الأثر المعيق للصراع العربي - الاسرائيلي، على التوجه العربي نحو الوحدة، تتعلق بتفاوت التهديد الذي تتعرض له الأطراف العربية المختلفة، في غمار ذلك الصراع.

إن الفلسطينيين هم الضحايا المباشرين للعدوان الصهيوني، سواء بالتشرد خارج وطنهم، أم بوقوعهم تحت الاحتلال الاسرائيلي في الضفة وغزة، أم بمحاصرتهم كمواطنين من الدرجة الثانية في دولة اسرائيل. والدرجة التالية من التهديد، تقع على البلدان العربية المحيطة باسرائيل، اي مصر وسوريا والأردن ولبنان. انها البلدان التي تعرضت سلامتها الإقليمية للاثتهام والاحتلال، فضلاً عن الانغماس في الحرب المباشرة، بما تضمنته من تكلفة في الأرواح والأموال. اما بقية البلدان العربية - وباستثناءات محددة، وإن كان لها مغزاها المهم - فان تعرضها للتهديد الاسرائيلي يظل تعرضاً غير مباشر. لقد انعكس هذا التفاوت في التهديد الاسرائيلي، وفي مجال مواجهته، على انقسام البلدان العربية الى بلدان «للمواجهة» واخرى للمساندة، فضلاً عن وجود بلدان اخرى خارج هذين النطاقين. إن أول الآثار السلبية، هنا، يتعلق بما تسببه التضحيات والأعباء على الأطراف الأكثر تضرراً، من تراكم لمشاعر المرارة أو الاحساس بتقصير الآخرين. وبدرجة ما، فإن هذه المشاعر تولدت لدى الفلسطينيين، مثلما تولدت لدى المصريين والسوريين والاردنيين واللبنانيين حيال العرب الآخرين. وبداهة، فإن تلك المشاعر تجدد لدى كل شعب عربي، أرضية خصبة، وسط القوى والفئات الاجتماعية المعادية للعروبة، والأكثر ميلاً الى العزلة. ومن هذا المنظور، تتراكم أوجه الشكوك بين الفلسطينيين، وكثير من أبناء البلدان العربية التي يقيمون فيها، وتبرز في مصر الدعوات الى الانعزال عن العرب، بحجة «الحروب الكثيرة، والتضحيات الهائلة التي تكبدناها نيابة عن العرب، او دفاعاً عنهم»، ويعزو كثير من اللبنانيين كوارثهم الى الوجود الفلسطيني وإلى الصراع ضد اسرائيل. والأمر نفسه ينطبق، بشكل أو بآخر، على دول

«المساندة» التي تقدم الأموال الطائلة لتمويل الصراع، وقد لا تجد في الطريقة التي يمارس بها ذلك الصراع، ما يتكافأ مع ما تقدمه من أموال.

- المقولة الرابعة، حول الاثر المعيق للصراع العربي - الاسرائيلي على التوجه العربي نحو الوحدة، تتعلق بما أدى اليه الخلاف بين البلدان العربية في شأن تسوية الصراع من تشقق في الصف العربي، بلغ أقصى درجاته مع توقيع اتفاقات كامب ديفيد والمعاهدة المصرية - الاسرائيلية. والواقع ان هذا الخلاف، يجد بعضاً من أسبابه في حقيقة اختلاف الأهمية النسبية للمناطق محل النزاع، لدى اسرائيل. فاذا كانت الضفة الغربية وغزة تحتلان المكانة الأولى في الأهمية لدى اسرائيل، تليهما مرتفعات الجولان ذات الموقع الاستراتيجي، فان شبه جزيرة سيناء تحتل المكانة الثالثة في تلك الأهمية. وفي الوقت ذاته، فان قوة الاطراف العربية، التي تتعلق بها تلك الاقاليم، تناسب، عكسياً، مع أهميتها: فأقل المناطق أهمية (أي سيناء) كانت موضع النزاع مع أقوى البلدان العربية، اي مصر، تليها الجولان، موضع النزاع مع سوريا، التالية في قوتها لمصر. واخيراً فان أكثر الأجزاء أهمية لاسرائيل، ومحل اطماعها الآنية، أي الضفة الغربية وغزة، إنما يدخل النزاع في شأنها مع اسرائيل، الأردن والفلسطينيون الواقعون في اسفل سلم القوى العربية المسلحة المواجهة لاسرائيل.

لقد تداخلت هذه الحقائق كلها، مع طبيعة النظم السياسية العربية ومشكلاتها الداخلية، وطموحاتها الخارجية، لتنعكس في شكل رؤى متباينة لكيفية حل الصراع، ولظهور درجات مختلفة من الليونة والتشدد. ولم يكن غريباً، في هذا السياق، ان رأت اسرائيل في اقدام الرئيس المصري انور السادات على طلب التسوية المفردة معها، فرصة تاريخية لتحقيق السلام مع اكبر البلدان العربية، واخراجها من حلبة الصراع... مقابل التضيحية «الجزئية» بشبه جزيرة سيناء. ولسنا، هنا، في حاجة الى التذكير بما ترتب على توقيع معاهدة كامب ديفيد، من شق خطير للصف العربي، ومن تدهور متسارع في قدرة البلدان العربية على انجاز أي عمل مشترك فعال. وفي هذا الاطار، يمكن أيضاً تقويم اثر اللقاء بين الملك الحسن الثاني ملك المغرب، ورئيس الوزراء الاسرائيلي شيمون بيريز في شهر تموز/ يوليو الماضي، وتقويم اثر اختلاف وجهات النظر بين منظمة التحرير الفلسطينية والاردن وسوريا، حول سبل حل النزاع. وبعبارة موجزة، فان تداعيات الصراع العربي - الاسرائيلي، خلقت المزيد والمزيد من أوجه الشقاق والنزاع بين البلدان العربية. واذا كانت امكانات عقد مؤتمرات القمة العربية قد أخذت تضمحل شيئاً فشيئاً، كما أخذت فاعلية جامعة الدول العربية تتضاءل أكثر واكثر، فان جزءاً مهماً من اسباب ذلك كله، يرتبط بتأثيرات الصراع العربي - الاسرائيلي، وباختلاف المصالح والرؤى في شأن حله، قبل أي شيء آخر.

ب - الافتراض الثاني: الصراع مع اسرائيل محفز للوحدة العربية

يعكس هذا الافتراض احدى المقولات الشائعة، كما سبقت الاشارة حول فكرة ان الخطر الاستعماري والصهيوني، قد أسهم في بلورة المشاعر القومية في الوطن العربي، وفي دفعه نحو الوحدة. هنا، اهتم العديد من الكتابات الصهيونية والاسرائيلية بالعزف على تلك النغمة وتضخيمها، لتصوير المشاعر القومية والاتجاهات الحدودية في الوطن العربي على انها مجرد ردود فعل سلبية للتحدي الصهيوني والاسرائيلي. وفي هذا الخصوص، يمكننا ان نتفق تماماً مع الرأي القائل بانه «يخطئ من يعتقد ان الخطر الصهيوني والاستعماري هو صاحب الفضل الوحيد في توعية العرب وتوحيدهم معنويًا، وكأنه لولا الصهيونية والاستعمار لما كانت هناك قومية عربية، ولا أمان عربية، تسعى نحو الاستقلال والحرية والوحدة. فمهما كان الاستعمار والصهيونية عاملين قوين في توعية العرب على حقيقتهم... لم يكن الوعي مجرد رد فعل، ولا كان امراً مصطنعاً ومكتسباً بشكل سطحي منقطع عديم الجذور»^(٨).

في ضوء ذلك التحفظ، وأخذاً في الاعتبار الدور المعيق للوحدة العربية الذي لعبه الصراع مع اسرائيل، كما سبقت الاشارة، يمكن الاتفاق ايضا مع القول بان خلق اسرائيل «كان نقطة تبلور للحركة العربية، ولم يكن نقطة انحلال، كما أمل هؤلاء، فيقدر ما يؤدي وجود اسرائيل للجسم العربي... فانه يخدم الحركة العربية من حيث جعلها في نشاط حيوي، وفي حال حذر مستمرة، ومن حيث البرهنة على سلامة نظرها، وصحة توقعاتها، وصدق تحذيراتها، وصواب برامجها لمستقبل ناهض»^(٩).

والواقع ان التسليم بكثرة الانقسامات والاختلافات العربية لم يمنع، غالباً، من التسليم بحقيقة ان قضية الصراع العربي الاسرائيلي، على وجه التحديد، كانت هي التي تحظى بحد معين من الاجماع العربي حولها^(١٠).

وفي عرض مكسيم رودنسون لتطور الاوضاع في فلسطين، يسلم بأنه «على الرغم من ان العرب كانوا منقسمين الى طوائف واحزاب لا تتفق بسهولة في ما بينها، حتى مع انعدام اهمية الانقسام الديني بين مسلمين ومسيحيين، الا ان الاتفاق كان تماماً على نقطة رئيسية، وهي: معارضة فكرة ان يقوم اليعشوف بطريقة او بآخرى بتأسيس دولة فلسطينية يسيطر عليها اليهود»^(١١).

وقد وُلد النشاط الاستيطاني اليهودي، منذ نهاية القرن التاسع عشر واولئل القرن العشرين، رد الفعل العربي المناهض له في فلسطين، ثم في بلدان المشرق العربي ومصر، وان كان دائماً دون مستوى المشروع الصهيوني المنظم والواعي لهدفه.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٩) أنيس صايغ، تطور المفهوم القومي عند العرب (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦١)، ص ١٠٠.

(١٠) Michael C. Hudson, «The Integration Puzzle in Arab Regional Politics», in: Michael C. Hudson, ed., *The Arab Future: Critical Issues* (Washington, D.C.: Georgetown University, Center for Contemporary Arab Studies, 1979), p. 84.

(١١) مكسيم رودنسون، اسرائيل والرفض العربي (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، [د.ت.])، ص ١٠.

وأضحى الصراع العربي من أجل الاستقلال والوحدة -، منذ نهاية الحرب الأولى، «مرتبطاً بالصراع من أجل حماية - ثم استعادة» فلسطين^(١٢). وكانت تطورات الصراع العربي الصهيوني عاملاً مشجعاً على نمو الوعي القومي، وعلى زيادة ادراك العرب للمخاطر الخارجية عليهم. ومنذ منتصف الثلاثينيات، على وجه الخصوص، بدأ الترابط بين المتغيرين أكثر بروزاً، مع تقدم كثير من البلدان العربية على طريق الاستقرار والاستقلال، في الوقت الذي اشتدت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، في ظروف الاضطهاد النازي. ولعبت ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ في فلسطين دوراً مهماً في إثارة المشاعر القومية العربية في انحاء الوطن العربي كافة. كذلك، فإن أول مؤتمر عربي رسمي شامل، وهو الذي عقد في لندن في ربيع ١٩٣٩ إنما كان موضوعه الكفاح ضد الصهيونية، والتقى في ذلك المؤتمر ممثلو جميع البلدان العربية ذات السيادة في ذلك الوقت (أي: مصر والعراق والسعودية واليمن وشرق الاردن) مع ممثلي بريطانيا، الدولة المتدبة على فلسطين وبدعوة منها، بحثاً عن حل للمشكلة الفلسطينية، في الوقت الذي عقد أيضاً مؤتمر يهودي - بريطاني، بعد ان رفض الممثلون العرب الاعتراف بالولفد الصهيوني^(١٣).

ويمكن القول انه، منذ قيام دولة اسرائيل في ايار/ مايو ١٩٤٨، فإن اعتبارات الصراع العربي ضدها أخذت تقف وراء العديد من الاجراءات، والسياسات، والاتفاقات المبرمة بين البلدان العربية بعضها بالبعض الآخر، سواء أكان ذلك في اطار جامعة الدول العربية أم خارجها. ومن هذا المنظور، فإن مواجهة العدو الصهيوني كانت في مقدمة اهداف مشروعات الوحدة العربية، وفي مقدمتها الوحدة المصرية السورية. كما ان التصدي لاعتدائه على الارض العربية كان هو السبب الأول لجميع العمليات العسكرية المشتركة بين البلدان العربية، بدءاً من عمليات التنسيق والتعاون العسكريين الى خوض الحروب المشتركة كما حدث في ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣. وكان ايضاً وراء اتفاقات الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي وغيرها. وكانت مواجهة الاطماع الاسرائيلية في المياه العربية والأراضي العربية هي الدافع ايضاً وراء عقد مؤتمرات القمة العربية المتتالية، ووراء العديد من المؤتمرات الأخرى الأدنى مستوى. وفي مواجهة النفوذ الاسرائيلي على الصعيدين الدولي والاقليمي، أبدت البلدان العربية مظاهر عدة من التعاون فيما بينها، سواء في الامم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية، أم في المنظمات الاقليمية والنوعية مثل منظمة الوحدة الافريقية، والمؤتمر الاسلامي، ومؤتمرات عدم الانحياز.

(١٢) صايغ، فلسطين والقومية العربية، ص ٥٩.

(١٣) اليازور بثري، «النزاع اليهودي العربي والسياسات الداخلية العربية»، في: أنيس صايغ، من الفكر الصهيوني المعاصر، سلسلة كتب فلسطينية، ١١ (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٨)، ص ٤١٧.

وبعبارة موجزة، فإن الصراع العربي - الاسرائيلي، مارس دوره في دفع التوجه
الوحدوي العربي، سواء على الصعيد المعنوي، أم على صعيد السياسات والاجراءات أكثر
من أي عامل آخر على الاطلاق.

إن مقتضى الافتراضين السابقين، اللذين يجدان معاً ما يؤيدهما من المسار المعاصر
للصراع العربي - الاسرائيلي، هو ان مواجهة التحدي الخارجي ليس شرطاً ان تؤدي،
حتماً، الى دعم وحدة القوى المواجهة لذلك التحدي، وتالياً فان الحديث عن علاقة سببية،
أو «قانون»^(١٤) يربط بين المخاطر الخارجية والوحدة يصبح فكرة قابلة للضبط والتنقيح.
والواقع ان ما ادى اليه الصراع مع اسرائيل من تقوية اتجاهات الفرقة والتنافر أحياناً،
واتجاهات الوحدة أحياناً أخرى، بين البلدان العربية، يعيد الى الازهان أفكار كارل دويتش
في شأن أثر «التعبئة الاجتماعية على ظاهرة الاندماج السياسي». فوفقاً لدويتش، فإن التعبئة
الاجتماعية التي يعتبرها ابرز مظاهر التحديث والتي تتمثل في التوجه نحو التحضر، والتعليم
وانتشار الاعلام والنمو الاقتصادي . الخ، انما تسهل عمليات الاندماج في الدول التي
تقاسم مجتمعاتها بالفعل قيما ووسائل أساسية مشتركة، في حين انها يمكن ان تسرع في تحلل
الدول التي لا تمتلك مجتمعاتها مثل تلك السمات والقيم المشتركة^(١٥). وإذا كان مايكل
هدسون قد لاحظ ان عمليات التحديث والتعبئة الاجتماعية في الوطن العربي، قد أدت الى
تدعيم مظاهر من الاندماج والوحدة، مثلما أدت الى مظاهر أخرى من التفكك والتشتت، في
ما أسماه بـ«لغز الاندماج العربي»^(١٦)، فان الامر ينطبق أيضاً على أثر التحدي الخارجي (وهو هنا
الصراع العربي - الاسرائيلي) على التوجه العربي نحو الوحدة، في ما يعتبر جانباً آخر لذلك
اللغز.

وبعبارة محددة، يمكن القول ان التحدي الخارجي، لكي يلعب دوره كعنصر «محفز»
للوحدة العربية، وليس كعنصر معرقل لها، يجب ان تتوافر الى جانبه شروط أخرى، تسمح
بتوجيه تأثيره الوجهة الايجابية المطلوبة، ان هذا ينطبق على الصراع العربي - الاسرائيلي، مثلما
ينطبق على الصراع العراقي - الايراني. وإذا كان الصراع مع اسرائيل قد لعب دوراً «اجابياً»
لمصلحة الوحدة العربية في فترة من فترات المد العربي العام، فان حالة الجزر الراهنة تفسر ما
يؤدي اليه الصراع ضد اسرائيل، والصراع ضد ايران، معاً، من تأثيرات سلبية على التوجه
العربي الراهن نحو الوحدة.

(١٤) نديم البيطار، من التجزئة الى الوحدة: القوانين الاساسية لتجارب التاريخ الوحدوية (بيروت: مركز
دراسات الوحدة العربية، ١٩٧٩)، ص ١٣.

(١٥) Karl Deutsch, «Social Mobilization and Political Development,» *American Political Science Review*, vol. 55, no. 3 (September 1961), p. 493.

Hudson, «The Integration Puzzle in Arab Regional Politics,» p. 81.

(١٦)

٢ - أثر التوجه العربي نحو الوحدة على الصراع العربي - الاسرائيلي

إن التوجه الوحدوي يؤخذ هنا كمتغير مستقل، فيما الصراع كمتغير تابع. والافتراض الاساسي هنا، هو ان التوجه العربي نحو الوحدة (او ما دونها من أشكال التنسيق) يؤدي بالضرورة الى تصعيد الصراع مع اسرائيل، سواء تم هذا التصعيد من الجانب العربي أم الاسرائيلي.

على اننا يمكن ان نضع في المقابل افتراضاً معاكساً مؤداه ان التوجه العربي نحو الوحدة، قد يكون عاملاً مهدئاً للصراع. وكلا الافتراضين يمكن اختباره، في ضوء تاريخ الصراع وملايساته.

أ - الافتراض الأول: التوجه نحو الوحدة يؤدي الى تصعيد الصراع العربي - الاسرائيلي

يمكن أن نفهم هذا الافتراض بمعنيين: أولهما، أن التوجه العربي نحو الوحدة (أو أي شكل دونها من أشكال التنسيق والتعاون) هو شرط اساسي ينبغي توفيره، قبل تصعيد الصراع ضد اسرائيل، خصوصاً الى مستوى الحرب الشاملة. تلك حقيقة تؤكدتها خبرة التاريخ العربي المعاصر. وإذا اقتصرنا، هنا، على الحروب الاسرائيلية - العربية، وجدنا الشواهد تؤكد على وجود درجة من التنسيق أو التوحيد، أو محاولات لذلك التنسيق أو التوحيد، سبقت تلك الحروب أو رافقتها. وهو ما بدا في افضل صوره في حرب ١٩٧٣. ويعني ذلك أيضاً، وضمناً، انه كلما اقترب العرب من الوحدة، كلما اقترب الحافز لديهم لتصعيد الصراع ضد اسرائيل.

على ان المعنى الآخر الذي يمكن أن يفهم به هذا الافتراض، والذي يعني أكثر هنا، هو ان التوجه العربي نحو الوحدة (أو أي شكل دونها من اشكال التنسيق والتعاون) لا بد وأن يدفع اسرائيل الى تصعيد الصراع. أي ان الوحدة يمكن ان تكون من وجهة النظر الاسرائيلية «قراراً» بالحرب^(١٧).

على المستوى الفكري، يمكن القول، ابتداءً، ان الفكر الصهيوني منذ بدايات الاستيطان المبكرة في فلسطين اتجه غالباً الى انكار «القومية العربية» و«الوحدة العربية». ولا يقصد بذلك انكار «الحقيقة العربية» التي احاطت بالصهيانية في اسرائيل من كل جانب، ومقتضاها ان هناك عرباً يقيمون في المنطقة المجاورة والتي تمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي، وكذلك في فلسطين، وان هؤلاء العرب يشتركون في الدين واللغة. فتلك

(١٧) عصام نعيان، «هل أصبحت الوحدة قراراً بالحرب؟» المستقبل العربي، السنة ٨، العدد ٨٥ (آذار/ مارس

١٩٨٦)، ص ٤.

مسلمات خرجت عن نطاق الإنكار. أما الشيء الذي كان محلاً للإنكار غالباً فهو أن هؤلاء العرب يشكلون «قومية واحدة»، ويمكن أن يكونوا «وحدة» واحدة. وينقل عن ماكس نوردو، في تفسيره للمقاومة العربية للاستيطان اليهودي في فلسطين، في بداية القرن الحالي قوله: «على رأس هذه المقاومة، تطف حفنة من المسيحيين السوريين التي استطاعت أن تشد إلى جانبها بعض دعاة العروبة، الذين أضفوا على أنفسهم شيئاً من المدنية الأوروبية، وبعض المسلمين من القوميين المتعصبين، الذين يقومون بكل ما في وسعهم لاثارة شعور الكراهية ضد الصهيونية وضد الهجرة اليهودية إلى فلسطين»، مشيراً إلى أن هؤلاء يثرون لتحقيق هذا الهدف «مشاعر الفلاحين الجاهلة والمساكين، بحلم مسكر عن إمبراطورية عربية كبيرة في آسيا وأفريقيا الشالية، تضم سوريا وفلسطين والعراق والجزيرة العربية ومصر، من دون شك ليبيا وتونس والجزائر ومراكش أيضاً» وبناء على ذلك، يقرر «أن من واجبا أن نثبت للعرب أن مشاريع الوحدة العربية ليست إلا وهمًا»^(١٨). وفي مقال آخر كتبه ماركس نوردو أيضاً عام ١٩٢٠ يقول: «لحسن حظنا، فإن تعبير الأمة العربية لا يزال حتى الآن على الأقل - كلمة فارغة... هناك حقاً عرب، ولكن لا توجد أمة عربية بمفهوم المدنية الأوروبية لتعبر الأمة، ولا وحدة بين جماهيرها... أن العلاقة بين ملايين السكان محصورة في اللغة والدين، وليست في التطلع نحو دولة مستقلة قوية، تضم مساحات واسعة من آسيا وأفريقيا، ولا تستطيع تحمل تدخل اجنبي داخل حدودها. أن الخلافات الداخلية المستمرة منذ مئات السنين تمزقهم، والقبائل المختلفة تناصب بعضها بعضاً العداء... ولا يزال من المبكر بالنسبة لينا، أن نرتد خوفاً من خطر دولة عربية مجاورة معادية لنا. أن هذه الدولة غير قائمة حتى الآن. وإلى أن تقوم - هذا إذا قامت في يوم من الأيام - سيكون لدينا متسع من الوقت لملاءمة أنفسنا مع الوقائع الجديدة»^(١٩).

وقد عبر جابوتنسكي عن آراء مشابهة، في كتابه تركيا والحرب على أساس أن مجرد الاشتراك في اللغة لا يشكل أمة واحدة، لأن رابطة الأمة، هي الشعور بالوحدة القومية، وهو الشرط الذي لا تحققه القبائل المختلفة التي تسكن شريطاً متصلًا من الأرض، يمتد على الشاطئ الشمالي لأفريقيا وغرب آسيا من المحيط إلى الخليج. ومع تمسكه بأن الحديث عن العرب كأمة واحدة أمر سابق لأوانه، إلا أنه رأى أن توافر شروط خاصة في الوطن العربي قابلة للتطور إلى وحدة قومية، سيكون بالنسبة إلى أوروبا أعظم الكوارث الاستعمارية المعروفة في التاريخ^(٢٠).

فإذا كانت تلك الأفكار تعبر عن اتجاه يتحدث عن «خرافة الوحدة العربية» التي لا يمكن أن تقوم على مجرد الاشتراك في اللغة والدين، فإن هناك اتجاهًا آخر اعترف بوجود «القومية العربية»، بمعنى مجموعة الروابط الثقافية والعاطفية والتاريخية بين العرب، ولكنه

(١٨) صبري جريس، «اليمن الصهيوني: نشأة وسياسة وعقيدة»، شؤون فلسطينية، العددان ٦٨ - ٦٩ (نيسان/أبريل - أيار/مايو ١٩٧٧)، ص ٣٤.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٣٥.

(٢٠) خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه، ١٩٠٨ - ١٩١٨، سلسلة كتب فلسطينية، ٤١ (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٣)، ص ٣١٢.

فصل بين ذلك وبين الدعوة الى الوحدة العربية. وأبرز ممثلي هذا الاتجاه من بين المعاصرين، هو وزير الخارجية الاسرائيلي السابق أبا ايان الذي يرى أن العرب عاشوا دائماً في فرقة عن بعضهم البعض، وأن فترات الوحدة القصيرة كانت تتسم دائماً بقوة السلاح، ومن ثم فإن التجزئة السياسية لم يجدتها الاستعمار، وأن روابط الثقافة والتراث التي تجمع البلدان العربية، لا يمكن أن تضع الأساس للوحدة السياسية والتنظيمية^(٢١).

إن هذا الموقف الفكري يشير، بصرف النظر عن كثير من التفاصيل، الى حقيقة أن تبلور القومية العربية و«الوحدة العربية» إنما مثل هاجساً مقلقاً لإسرائيل. وليس من الصعب على الدارس لتطور الصراع العربي - الاسرائيلي طوال العقود الأربعة الماضية، ان يلحظ أن اسرائيل تعاملت مع «الوحدة العربية» باعتبارها خطراً محتملاً دائماً، بصرف النظر عن عدم تحقيقه في اللحظة الآنية. لقد انعكس ذلك في حقيقة ان الاستراتيجية الاسرائيلية، في تعاملها مع البلدان العربية، إنما قامت على التعامل معها وكأنها كتلة واحدة، وعلى أنها إن لم تكن موحدة «بالفعل» فهي موحدة «بالقوة»، حسب التعبير الفلسفي. ولذلك، كان من المنطقي تماماً أن تعُدّ اسرائيل قوتها العسكرية على أساس التفوق على البلدان العربية مجتمعة، بما في ذلك التزود بالقوة النووية. كما كان منطقياً أيضاً أن ترى اسرائيل في أي تزايد في مصادر القوة العربية، من المحيط الى الخليج، احتمالاً للخطر عليها، وان تنظر، تالياً، الى أي تنسيق عربي - فضلاً عن أي توحيد عربي - بكل حذر وترقب. ولذلك، فإن قيام الجامعة العربية، وأنشطتها، والوحدة المصرية السورية ١٩٥٨ - ١٩٦١ ومحادثات الوحدة الثلاثية عام ١٩٦٣ ومؤتمرات القمة العربية بدءاً من ١٩٦٤ كانت كلها، وما تزال، محلاً للترقب الدقيق من جانب اسرائيل. وإذا لم تكن قد أبرزت حيال أي منها ردود فعل عنيفة أو ملموسة، فمرد ذلك الى أن كل التنظيمات والأنشطة لم تكن فعالة، بالقدر الذي يستلزم ردّ الفعل السافر. وعلى العكس، فإن أي إضافة فعلية للقوة العربية، في أي مكان من الوطن العربي، ظلت تجد دائماً مواجهة نشطة: لقد تخوفت اسرائيل من استقلال الجزائر، وكانت حليفاً لفرنسا في حربها هناك. ووفقاً لما يقرره برتشر فإن أول نقطة تحول حاسمة في تطور الشرق الأوسط (كنظام اقليمي) في الادراك الاسرائيلي منذ عام ١٩٤٨، إنما كانت هي حصول الجزائر على استقلالها عام ١٩٦٢. فمنذ تلك اللحظة، دخلت الجزائر (ومعها المغرب وتونس) الى النظام الاقليمي للشرق الأوسط على نحو مؤثر في السياسة الاسرائيلية^(٢٢). وخلال مفاوضات ايفيان، شنت الصحافة الاسرائيلية والصهيونية حملة تدعو

(٢١) علي الدين هلال، «التجزئة والتقسيم في الوطن العربي»، قضايا عربية، السنة ٣، الأعداد ١ - ٦ (نيسان/

ابريل - ايلول / سبتمبر ١٩٧٦)، ص ٥٢.

Michael Brecher, *The Foreign Policy System of Israel* (New Haven, Conn.: Yale University (٢٢) Press, 1972), p. 50.

الى بقاء السيطرة الفرنسية على الجزائر، ووقفت الاستخبارات الاسرائيلية الى جانب منظمة الجيش السري، لاقامة دويلة فرنسية في الجزائر. وفي عام ١٩٥٦ وقفت اسرائيل موقفاً معارضاً بشدة لاستقلال عدن ومحميات جنوب شبه الجزيرة العربية، ووقفت مع الاستعمار البريطاني ضد ثورة الجنوب اليمني^(٣٣).

ولقد كان طبيعياً تماماً، في هذا السياق، قيام اسرائيل بضرب المفاعل النووي العراقي في حزيران/ يونيو ١٩٨١، فضلاً عن دعمها الحزبي والمستمر لايران في حربها ضد العراق. وعلى الطرف الآخر، في المغرب العربي، فإن ضرب مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس في تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٥ كان موجهاً الى الرابطة التونسية - الفلسطينية، مثلما كان موجهاً الى منظمة التحرير وزعيمها.

على أن هذه الاستراتيجية الاسرائيلية القائمة على التعامل مع البلدان العربية باعتبارها «وحدة واحدة» محتملة، والمبادرة باجهاض أي عناصر قوة لديها بصفتها تلك، انما يتكامل معها تكتيك يقوم على التعامل مع هذه البلدان، كل واحدة على حدة. وذلك هو، في الواقع، جوهر الانجاز الاسرائيلي في المعاهدة المصرية - الاسرائيلية. ان ما أتت به تلك المعاهدة لصلحة اسرائيل، في المقام الأول، ليس هو استبدال العلاقات السلمية بالصراع المسلح، وانما هو فصل مصر، في تسوية منفردة، عن بقية البلدان العربية. وذلك هو الوجه الآخر المنطقي للافتراض الذي نحلله هنا، لأن الوحدة العربية كسبب لتصعيد الصراع، يقابلها بداهة ان التشرذم العربي هو - ومن وجهة النظر الاسرائيلية - سبب مهم لتهدة الصراع، أي: السلام، كما تفهمه اسرائيل، وكما حصلت عليه في كامب ديفيد.

ب - الافتراض الثاني: التوجه نحو الوحدة يؤدي الى تهدة الصراع العربي - الاسرائيلي

هذا الافتراض يظل أساساً اطروحة نظرية، يصعب اختبارها في ضوء الخبرة السابقة للصراع. وفي هذا الاطار، يمكن، ايضاً، أن يفهم بمعنيين: المعنى الأول، هو التوجه العربي نحو الوحدة (أو أي شكل دونها من أشكال التنسيق والتعاون) يمكن أن يكون دافعاً الى الثقة بالنفس وإلى وجود درجة معينة من التكافؤ مع العدو، تسمح بتهدة الصراع ضد اسرائيل، والسعي الى التسوية السلمية، معها. الافتراض، بهذا المعنى، لا يجد وقائع محددة تدعّمه في تاريخ الصراع العربي - الاسرائيلي، اللهم ما يتعلق بـ «المناسخ العام» الذي رافق حرب تشرين الأول/ اكتوبر، من استعداد الطرف العربي لوقف اطلاق النار، وحضور مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط، وهو ما جاء، على وجه التحديد، في ما سمي بمبادرة «السلام» التي أعلنها الرئيس السادات في ١٦ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧٣ في اثناء الحرب نفسها.

(٢٣) سلمان رشيد سلمان، «اسرائيل والوحدة العربية»، قضايا عربية، السنة ٣، الاعداد ١ - ٦ (نيسان/ ابريل - ايلول/ سبتمبر ١٩٧٦)، ص ٥٣.

أما المعنى الثاني لذلك الافتراض، فهو أن لا ترى إسرائيل في التوجه العربي نحو الوحدة، تهديداً لها، بل ويمكن أن تصل الى حد اعتبار ذلك التوجه موجباً لتهديده الصراع. وهنا أيضاً، ليس في تاريخ الصراع ما يمكن أن يؤيد هذا الافتراض، بخاصة عندما يتعلق الأمر بمحاولات توحيد وتنسيق فعلية لا شكلية. ومع ذلك، فإن الفكر الصهيوني عرف منذ فترة طويلة بعض الأفكار الهامشية التي تحدثت، عن امكانات «التعايش» مع الوحدة العربية، وعدم النظر اليها كمصدر لتهديد الحركة الصهيونية أو إسرائيل، وبخاصة عندما يكون الحديث موجهاً الى العرب. وفي هذا السياق، يمكن الإشارة، على سبيل المثال، الى خطاب لعازار وايزمان يتحدث فيه عن «غرض دولة العرب وقوة سلطتها السياسية» ويحدد هذه النهضة في المثلث التاريخي بين مكة وبغداد ودمشق، «حيث سيقوم نظام عربي سياسي قوي متحد، سيصير تراث العرب العظيم في الآداب والعلوم الغربية من علوم اليهود وآدابهم»^(٢٤).

والواقع أن الاعتراف بالعروبة والقومية العربية أو بالأمة العربية، جاء تبريراً لدى بعض المفكرين الصهاينة للاستئثار بفلسطين. فالعرب، كأمة، وفقاً لهذه الرؤية، حصلوا على حقوق كافية، ومن المنطقي ان يندمج في تلك الأمة، عرب فلسطين. وقد لخص يوري افيري هذا الجانب بقوله: «لقد اعترفت الدعاية الصهيونية بدولة عربية موحدة، قبل ان تحمس الجماهير العربية هذه الفكرة، لأن ذلك كان يخدم الحجة الصهيونية. كانت الصهيونية - في اصرارها على اخراج فلسطين من العالم العربي، لانشاء دولة تحمل المسألة اليهودية - تؤكد ان العرب يملكون أرضاً شاسعة، ليست فلسطين سوى قسم ضئيل منها، اذن... فلن يتضرر العرب اذا حرموا من هذا الجزء، للتعويض عن الظلم التاريخي الذي كان اليهود ضحيته»^(٢٥).

٣ - دور مصر في العلاقة بين الصراع العربي - الاسرائيلي

والتوجه نحو الوحدة

لن نكون هنا في حاجة الى توضيح حقيقة الدور المركزي لمصر في الصراع العربي ضد إسرائيل، أو في السعي الى تحقيق الوحدة العربية. ومثلاً لعبت مصر دورها المبكر في حشد القوى العربية ضد إسرائيل، وتحملت العبء الأكبر في الحروب العربية - الاسرائيلية، فانها لعبت دوراً بارزاً في مجالات التنسيق العربية كافة، كما كانت حجر الزاوية في أهم محاولات الوحدة العربية في التاريخ العربي المعاصر. ان ذلك كله يعني، بوضوح، ان الدور المصري هو دور مركزي في تحديد طبيعة واتجاه العلاقة بين الصراع العربي - الاسرائيلي، والتوجه العربي نحو الوحدة.

وابتداء، ربما يكون من المهم التذكير بحقيقة، ان الصراع ضد الاطاع الصهيونية في

(٢٤) قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه، ١٩٠٨ - ١٩١٨، ص ٣٥٧.
(٢٥) يوري افيري، «حرب بين اخوة ساميين»، في: صايغ، من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٣٥٤.

فلسطين، كان من أهم أسباب إيقاف الوعي العربي في مصر المعاصرة، بخاصة منذ منتصف الثلاثينيات. ومع تطور الاهتمام المصري بفلسطين وبقضيتها، تطور الاهتمام بالقضية العربية عموماً، تطوراً ترقى الى دخول مصر الجامعة العربية في ١٩٤٥ وحرب فلسطين ١٩٤٨ ثم وصل ذروته في اعتبار مصر نفسها بلداً عربياً، والتزامها السياسة العربية في جميع المجالات (منذ منتصف الخمسينات تقريباً)^(٢٧). ولقد حدث هذا التطور في النصف الثاني من الثلاثينيات، بسبب عوامل كثيرة تزامنت مع اشتداد أزمة فلسطين واندلاع الثورة فيها، كنشاط العرب المشرقيين في مصر، وخروج المثقفين المصريين الى المشرق العربي، وتحسن سبل المواصلات مع بلدانه، فضلاً عما اتاحه عقد معاهدة ١٩٣٦ من امكانية ان ترسم مصر لنفسها سياسة خارجية عربية مستقلة. وشهدت مصر، قبيل فترة الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها، اهتمام جميع المنظمات الحزبية وشبه الحزبية بقضية فلسطين، وبكل الأشكال. ولقد انتقل الاهتمام على المستوى الرسمي الى الحكومات المتوالية، ودافع مندوبوها عن قضية فلسطين في جلسات عصبة الأمم وغيرها من المحافل الدولية، وشجع هذا كله على بلورة فكرة الجامعة العربية التي كانت مصر في مقدمة مؤسسيها.

وإذا كان الاهتمام بالقضية الفلسطينية قد أخذ ينتشر خصوصاً بين أوساط المثقفين المصريين، فإن الأهم من ذلك هو ان الاهتمام بتلك القضية انتقل الى صفوف الجيش. وفي واقع الأمر، فإن الاهتمام بالقضية الفلسطينية كان أهم مداخل العروبة لدى الضباط الأحرار، الذي استولوا على الحكم في مصر في ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢. وحديث جمال عبد الناصر في فلسفة الثورة عن «الدائرة العربية» باعتبارها أهم الدوائر الثلاث التي ينبغي أن يدور حولها النشاط المصري، لا يترك مجالاً للشك في أن القضية الفلسطينية كانت المدخل لديه للوعي العربي. يقول عبد الناصر: «ان طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل الى تفكري، وانا طالب في المدرسة الثانوية أخرج في اضراب عام في الثاني من شهر نوفمبر من كل سنة، احتجاجاً على وعد بلفور». وبعد ان استعرض عبد الناصر تجربته كضابط في الجيش المصري في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ بكل ما فيها من عظات ودروس، وصل الى القول: «ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك في فلسطين وعدت الى الوطن، كانت المنطقة كلها في تصوري قد اصبحت كلاً واحداً، وأيدت الحوادث التي جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد في نفسي»^(٢٨). لقد كان هذا التطور الفكري لدى عبد الناصر والضباط الأحرار، متسقاً تماماً مع مسار التاريخ المصري ومنطقه العام. وكما يقول محمد حسنين هيكل: «ان مصر على مدار تاريخها الطويل توجد بالجغرافيا في افرقيا... ولكنها موجودة بكل التاريخ في آسيا»^(٢٩). وعلى حد قول جمال حمدان: «ان مصر مصر مرتبط عضواً، تاريخياً

(٢٦) صايغ، فلسطين والقومية العربية، ص ٨٢.

(٢٧) جمال عبد الناصر، فلسفة الثورة (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، د.ت.)، ص ٤٧.

(٢٨) محمد حسنين هيكل، «قضايا الوحدة العربية والمجتمع العربي»، أجرى الحوار مجدي حماد، المستقبل

العربي، السنة ٤، العدد ٢٩ (تموز/ يوليو ١٩٨١)، ص ١١.

وجغرافياً، بمصر الشام عموماً، وبالأخص منه فلسطين... ان الذي يسيطر على الشام يهدد مصر استراتيجياً، يمثل ما يهددها هيدرولوجياً من يسيطر على السودان^(٢٩). وبعبارات جمال حمدان أيضاً، فان مصر «أكثر من عضو ضخم في الجسم العربي، انها رأس ورأس موج مؤثر، ثم هي جهاز عصبي مركزي فعال»^(٣٠).

لقد خلص جمال حمدان من ذلك التشبيه لدور مصر العربي، الى أنها - كرأس موج مؤثر - بمثابة جيروسكوب الوطن العربي الذي يرسى سفينته في وجه العواصف الخارجية، ويمنحه من وزنه ليمنع تمييعه أو ضياعه بين الضغوط والاغراءات. وانها كجهاز عصبي مركزي فعال، تكون كبوصلة لهذا الوطن تتحسس نبضه، ترصد تيارات العالم، ثم تتحدد اتجاه القافلة^(٣١). ان جوهر هذا التشخيص لدور مصر العربي كدور «حاكم» و«موجه»، انما يعني، بالنسبة الى تحليل العلاقة بين الصراع العربي - الاسرائيلي، والتوجه العربي نحو الوحدة، أن اتجاه تأثير تلك العلاقة يتوقف الى حد بعيد، وربما في الدرجة الأولى، على طبيعة الدور المصري في اللحظة محل التحليل.

لقد خلص التحليل السابق لأثر الصراع العربي - الاسرائيلي على التوجه العربي نحو الوحدة، الى أن طبيعة الأثر «الحافز» أو «المعيق» لذلك الصراع على التوجه الوحدوي، انما يرتبط بتوافر «شروط أخرى». عند هذه النقطة، يمكن القول ان تلك «الشروط الأخرى» ترتبط بالموقف المصري، قبل أي شيء آخر. فالتأثير السلبي لوجود اسرائيل في قلب الوطن العربي، وكحاجز يفصل بين المشرق العربي والمغرب العربي، يزيد منه حقيقة مجاورة اسرائيل لمركز الثقل العربي، بشرياً وحضارياً، أي مصر. إن اسرائيل، من هذه الزاوية، تصبح أقرب الى القلب أو الى المحرك، وأقدر تالياً على ضربه وإبطال مفعوله الوحدوي. والتأثير السلبي للصراع العربي - الاسرائيلي من زاوية الحفاظ على «الأوضاع القائمة»، انما تم في أقصى صوره، من خلال هزيمة النظام الناصري في ١٩٦٧، بما رفعه من شعارات حول الحرية والاشتراكية والوحدة. ولأن مصر، أيضاً، تكبدت خسائر كبيرة في مواجهتها ضد اسرائيل، وتحملت العبء الأكبر في المواجهة معها، فقد كانت تالياً مرتعاً خصباً، وأكثر من أي بلد عربي آخر، لبروز الاتجاهات الداعية للعزلة والانفصال عن الوطن العربي، والميعة للوحدة معه. على أن أبرز الآثار السلبية للتوجه المصري ازاء الصراع مع اسرائيل، على الوحدة العربية، انما يرتبط بمعاهدة، السلام مع اسرائيل. ان افراد «مصر» بالتسوية السلمية مع اسرائيل، أسفر عن شقاق «سياسي» خطير في الوطن العربي، ما كان يمكن أن

(٢٩) جمال حمدان، شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨١)، ج ٢، ص

٦٩٨.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٥٤.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٢٥٥.

يتم بالعمق الذي جرى به، لو أن بلداً عربياً آخر كان هو الذي أجرى تلك التسوية. وما هو أهم من ذلك، انه ربما لم يكن من المتصور أصلاً، تمتع أي نظام عربي آخر بقدرة على اتخاذ قرار «منفرد» بالتسوية مع اسرائيل، على النحو الذي تم من جانب النظام المصري.

وفي مقابل هذا كله، فان مجرد وجود الصراع العربي - الاسرائيلي، ما كان يمكن ان يلعب دوره بشكل «تلقائي» أو «ميكانيكي» من أجل حفز الوحدة العربية، أو العمل العربي المشترك. ان حيوية مصر، وتوافر الوعي العربي لدى نظامها السياسي، كانا شرطين اساسيين للعمل العربي المشترك، ومحاولات الوحدة العربية، ولمواجهة اسرائيل. ان هذا ينطبق على الوحدة المصرية - السورية في ١٩٥٨، والتنسيق في الحروب العربية - الاسرائيلية، ومؤتمرات القمة العربية. وفي كل من تلك الحالات، لعبت المبادرة المصرية دوراً حاسماً في تجسيد الصور المختلفة للعمل العربي المشترك.

أما في ما يتعلق بأثر التوجه العربي نحو الوحدة، على الصراع العربي - الاسرائيلي، فان الافتراض بأن ذلك التوجه نحو الوحدة سوف يؤدي الى تصعيد الصراع، انما يرتبط بدرجة اساسية بوجود «مصر»، كركن أساسي لتلك الوحدة. ان ذلك الوجود وفعاليته يتحكما في طبيعة رد الفعل الاسرائيلي على العمل الوجدوي. ويمكن القول، هنا، أنه كلما تزايد الخضوع المصري في العمل العربي المشترك، كلما كان ذلك العمل مستغزاً للتدخل الاسرائيلي، أكثر من أي شيء آخر. وعلى العكس من ذلك، فان افتراض أن يكون العمل العربي المشترك، والتوجه نحو الوحدة، عنصراً مهدئاً للصراع، لا يمكن تصوره الا بالتوازي مع «تحييد» مصر حيال الصراع، وإخراجها من حلبته.

في هذا السياق، تبدو الخطورة الحقيقية لمعاهدة السلام المصرية - الاسرائيلية، اي فصل مصر عن الوطن العربي. ففي ظل هذا الظرف المحدد، تتعاظم بشدة التأثيرات السلبية للصراع العربي - الاسرائيلي على توجه الوطن العربي نحو الوحدة، كما يضحي أي توجه وحدوي - بدوره - حقيقة شكلية لا تضيف رصيذاً حقيقياً للقوى العربية، في صراعها ضد اسرائيل.

ثالثاً: المشابهة بين اسرائيل وبين الغزوة الصليبية وجمهورية جنوب افريقيا

في محاولتنا استشراف مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي، ومستقبل اسرائيل في هذا الاطار، ليس جديداً ورود مشاهيتين محددين: أولاهما، المشابهة بين الوجود الاسرائيلي المعاصر والوجود الصليبي القديم، في الشرق العربي. وثانيتهما: المشابهة بين اسرائيل

وجمهورية جنوب افريقيا، في اطار فكرة الدولة الاستيطانية. المشابهة في الحالة الأولى، تتم عبر التاريخ (بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين وبين القرن العشرين) مع ثبات المسرح الجغرافي: أي أرض فلسطين والمشرق العربي. والمشابهة في الحالة الثانية، تتم عبر الجغرافيا (بين فلسطين والمشرق العربي وبين جنوب القارة الافريقية) مع ثبات الفترة التاريخية (أي القرن العشرون الميلادي).

على أنه يخرج عن إطار هذا المبحث، عقد «مقارنات» بين اسرائيل وبين كل من «الغزوة الصليبية»، و«جمهورية جنوب افريقيا» في ذاتها، طالما ان الغرض من ايراد هاتين المشابهتين هو الافادة منها في استشراف مستقبل «الصراع» العربي مع اسرائيل. ومن هذا المنظور فقط، فان هذا المبحث يسعى الى الاجابة عن تساؤلين محددين، أولهما حول أسباب اتخاذ الصراع الصليبي - العربي (الاسلامي عموماً) المسار الذي اتخذه، بحيث أدى في النهاية الى زوال الوجود الصليبي من المنطقة نهائياً. وثانيهما حول اسباب أو عوامل استمرارية النظام الاستيطاني - العنصري في جنوب افريقيا، في اطار صراعه ضد القوى الافريقية المعادية المحيطة به. ولا يخفى، بدهاء، امكانية وجود صلة قوية بين عناصر الاجابة عن السؤالين.

١ - حول عوامل زوال الغزوة الصليبية

لقد كان من المنطقي تماماً أن ترافق اهتمام الاسرائيليين و(الصهيانية عموماً) بالبحث في «مستقبل اسرائيل»، كما سبقت الاشارة، مع اهتمام كبير ببحث الغزوة الصليبية للمنطقة، والأسباب التي أدت الى اخفاقها، واستخلاص الدروس المستفادة منها. وإذا كان من الصحيح، ايضاً، أن عدداً من المؤرخين والباحثين العرب قد اهتموا بالغزوة الصليبية، الا أن ذلك الاهتمام ظل، في غالبيته، في اطار السرد التاريخي، قبل أي شيء آخر، الأمر الذي يحتم تجاوز ذلك السرد الى التحليل السياسي والاجتماعي لتلك الوقائع الخطيرة التي شهدتها المشرق العربي ومصر، في القرون ١١ - ١٣ الميلادية، في مواجهة الوجود الصليبي الدخيل.

والواقع ان تعبير كلا الحركتين - الصليبية والصهيونية - عن اطماع قوى غربية عن منطقة المشرق العربي، وغزوها لها، واصطناع كيانات تابعة متنافرة بالطبيعة مع الوسط «العربي» المحيط بها، ينطوي على أوجه تشابه فريدة ومثيرة.

فالحركتان الصليبية والصهيونية تمثلان كما ذكرنا، وجوداً أجنبياً غريباً عن المنطقة، ينتمي الى حضارة مخالفة هي الحضارة الغربية، وتعبّران بصياغة مختلفة، عن الصراع الطويل والقديم بين تلك الحضارة، والحضارات الشرقية (والاسلامية على وجه التحديد).

وكلا الحركتين تمت، بالدرجة الأولى، تحت شعار ديني، ووفاء لوعود وإمانيات دينية. وفي هذا الاطار، فإن مدينة «القدس»، على وجه التحديد، باعتبارها مكاناً مقدساً لاتباع الديانات الساوية الثلاث، صارت موضوعاً للدعوى الدينية المتضاربة والمتعصبة. وفي مواجهة السيطرة الاسلامية على المدينة، وفدت عليها حملات الصليبيين، تحت شعار الخلاص المسيحي، مثلما وفدت عليها هجرات اليهود، حديثاً، تحت شعار «العودة الى أرض الميعاد». ورفع الأولون «الصليب»، ورفع الآخرون «نجمة داود» وادعى الجميع العمل بمشيئة الله، وتلبية ندائه.

وفي هذا الاطار، يلمس الباحثون تشابهاً مثيراً في ديناميات الاعداد للحركتين وتنفيذهما وقيادتهما. وكما يشير يوري افيري خصوصاً، فإن التشابه يتعدى الخطوط العامة الى التفاصيل: فالدور الذي لعبه هرتسل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) يشبه الدور الذي لعبه البابا أربان الثاني (١٠٨٨ - ١١١٨) والمؤتمر الصهيوني الأول في بال Basle في سويسرا في آب / اغسطس ١٨٩٧ يذكر مؤتمر كلير مونت في فرنسا في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٠٥، وشخصيات قيادية مثل الملك بودوين ورينالد دي شانتيون. تشبه في دورها، الى حد بعيد، اشخاصاً مثل بن غوريون وموشي دايان... الخ^(٣٢). وفي كلتا الحالتين، حشدت، في ظل الشعارات الدينية، جحافل من البشر المضطهدين والمحرومين، مثلما حشد المغامرون والخارجون على القانون. ولقد توافد هؤلاء الى فلسطين، سواء في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، أم في القرنين التاسع عشر والعشرين، في شكل موجات بشرية كبيرة، حتى وان أتوا أيضاً - في شكل حملات عسكرية - كما حصل أيام الصليبيين.

في حين كانت عيون الغزاة الوافدين (الصليبيين، والصهاينة) مركزة على القدس، قبل أي مكان آخر، فإن الانتشار الجغرافي حولها في فلسطين انما اتخذ مساراً واتجاهات مائلة، بحيث يظهر تشابه كبير بين خريطة الامارات الصليبية قبل ثمانية قرون، وخريطة اسرائيل، كما وردت في قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٨^(٣٣)، والأمر ذاته ينطبق على الكيفية التي نظم بها الغزاة، في الحالتين، اقامتهم في الأرض المغتصبة، في شكل مراكز سكانية محصنة ضد المخاطر الخارجية، سواء في شكل قواعد وحصون لدى الصليبيين، أم في شكل مستعمرات لدى الصهاينة. وكما يذكر افيري أيضاً، فإن الكيبوتز والموشاف - وهما الشكلاان الرئيسيان للعاملان للاستيطان الصهيوني - مثلاً قوى محصنة جداً تشبه قلاع وحصون الامارات الصليبية^(٣٤).

Uri Avnery, *Israel without Zionists: A Plea for Peace in the Middle East* (NewYork: Macmillan, 1968), p. 76.

(٣٣) كمال محمد الأسطل، مستقبل اسرائيل بين الاستئصال والتذويب (القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٠)،

ص ١٤.

Avnery, Ibid., p. 70.

(٣٤)

وإذا كان جوهر الوجود الصليبي، ثم الصهيوني، هو انه امتداد للحضارة الغربية ولدعوايتها العنصرية، في قلب المشرق العربي، فان هذا الأمر ينطبق، ليس فقط على مصدر نشوء وقدم الحركتين الى المنطقة، وانما أيضاً على شروط بقائها واستمرارهما. إن شرط البقاء الأساسي هذا - وكما سنفصل في ما بعد - كان هو الارتباط الاقتصادي والبشري بالقوى الخارجية ذات المصلحة في دعم واستمرار الحركتين. وتشمل تلك القوى كيانات سياسية رسمية (الممالك والدول الغربية) مثلما تشمل قوى اجتماعية ودينية عدة، تقدم دعمها، في شكل تبرعات ومنح مالية وعينية. وبالمثل، فان الهجرة المستمرة وتقديم الدعم البشري للصليبيين قديماً وللصهيانية حديثاً) مثلاً شروطاً أساسية للبقاء والتوسع. وفي المقابل، فان الهجرة العاكسة ظلت خطراً دائماً، تعمل على الحد منه ومواجهة عواقبه.

إن تلك المشابهة التاريخية الفريدة، موضوعياً وشكلياً، انما تقدم مبرراً قوياً للسؤال حول مصير الكيان الصهيوني المعاصر، في ضوء مصير الكيان الصليبي القديم. لقد انتهت الغزوة الصليبية، عبر مراحل طويلة ومريرة من الشد والجذب بين العرب والمسلمين وبين الصليبيين، الى اندثار الوجود الصليبي، واستتصاليه نهائياً من المنطقة. ولذلك، فان أسباب هذا المصير والظروف التي أطاحت به كانت، وما تزال، موضع بحث الكثير من الدارسين اليهود والصهيانية، كما ذكرنا. وبعيداً عن الخوض في كثير من التفاصيل، يمكن القول ان هناك ما يشبه الاجماع على ثلاثة عوامل محددة تفسر هزيمة الصليبيين، وزوال وجودهم من المنطقة، يتعلق أولها بظروف المجتمع الصليبي نفسه ودينامياته الداخلية، ويتعلق ثانيها بالظروف العربية الاسلامية (الاقليمية) المحيطة، ويتعلق ثالثها بالاطار الدولي الذي تحركت فيه الحركة الصليبية.

أ - العامل الأول: تفكك المجتمع الصليبي وجوده

أسهب دارسو الحركات الصليبية في توصيف أوجه الضعف التي عانتها الامارات والممالك الصليبية التي زرعت في المشرق العربي شرق البحر المتوسط، منذ سقوط القدس في يد الصليبيين في تموز/ يوليو عام ١٠٩٩ الى انتهاء الوجود الصليبي في المنطقة، مع سقوط عكا في أيار/ مايو عام ١٢٩١. على أننا هنا، ومن دون الخوض في أي سرد تاريخي، يمكن ان نشير الى ملامح الانقسام والتفكك داخل المجتمع الصليبي، وإلى بعض مظاهر جموده وعجزه عن التكيف مع مقتضيات المواجهة مع الوسط العربي الاسلامي المحيط به.

إن دراسة المجتمع الصليبي الدخيل في المشرق العربي، تكشف عن انه عانى ثلاثة انواع من الانقسامات اسهمت في تحلله وتفككه. ويمكن القول، ان الانقسام الأول هو ذلك الذي ارتبط بالطابع الاقطاعي الذي حمله معه من أوروبا، ولذلك فقد كان لصيقاً به منذ اللحظات الأولى لوجوده في المنطقة، وزادت عليه التغيرات التي نتجت عن الاختلاط

بالعناصر المسيحية المحلية. على أن مرور الزمن على الوجود الصليبي، حمل معه النوع الثاني من الانقسامات اي الانقسام بين الاحياء التي حملت على عاتقها مهمة تنفيذ الحملات الصليبية الأولى، والأجيال التالية سواء التي نشأت وترعرعت في المجتمع الجديد، أم التي وفدت اليه، بعد أن وطّد وجوده. اما النوع الثالث من الانقسامات، فقد ظهر بالذات في المراحل التالية للوجود الصليبي، وتفاقم مع الهزائم التي مني بها الصليبيون من جانب العرب والمسلمين، وبخاصة على يد صلاح الدين الايوبي في عام ١١٨٧.

لقد حمل المجتمع الصليبي معه، السمات الاقطاعية نفسها التي كانت سائدة في البيئة التي أتى منها، أي أوروبا الغربية. وفي هذا الاطار، قبع على رأس ذلك المجتمع أقلية الارستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان، التي تعرضت أيضاً للتآكل بسبب كثرة الضحايا في الحروب، وقلة الهجرة من الغرب، فضلاً عن موجات العودة الى أوروبا بعد الحج، ومعدلات الوفاة العالية للأطفال، بسبب صعوبة التلاؤم مع المناخ الجديد. واذا كانت هذه الطبقة حافظت على «نقاها العرقي» في مملكة القدس الصليبية، فان الأمر لم يكن كذلك في الممالك والامارات الصليبية الأخرى، مثل انطاكية والرها، حيث تزواج بعض النبلاء الصليبيين وفرسانهم من الاستقراطية المحلية، وبخاصة من الأرمن^(٣٥).

اما الطبقة التالية، فهي طبقة عامة المحاربين من الصليبيين من غير الفرسان والنبلاء، والذين شاركوا في الحركة الصليبية. لقد اضطر هؤلاء، بعد استقرارهم في الشام، الى التزاوج مع المسيحيين المحليين، ومن طائفة الأرمن خصوصاً. وأدى ذلك الى ظهور طبقة جديدة في منتصف القرن الثاني عشر تقريباً، وهي طبقة «الأفراخ»، وهي التي حلّت، مع مرور الوقت، محلّ طبقة عامة المحاربين، وقامت بدورها.

أما في أسفل السلم الاجتماعي، فقد وجد «الرقيق» الذين لم يكن ممكناً للصليبيين ان يتخلوا عنهم، كجزء من النظام الاقطاعي الذي درجوا عليه في أوروبا. وعلى الرغم من ان أوضاع الرقيق كانت بدأت تتحسن في القرن الثاني عشر في أوروبا، الا ان ذلك لم ينطبق على أوضاعهم في المجتمع الصليبي.

أما المسيحيون المحليون، الذين كانوا يضمون فئات عدة كالأرمن والموارنة والبيزنطيين والسريان واليعاقبة وغيرهم، فقد ظلوا يشكلون تكويناً اجتماعياً وطبقياً مستقلاً في الامارات الصليبية. وعموماً فقد كان هناك تناقض واضح بينهم وبين الصليبيين، حيث نظر الصليبيون اليهم باحتقار وكراهية نتيجة الاختلاف المذهبي، ونتيجة التخوف من تأمر البعض منهم مع الامبراطورية البيزنطية ضد الامارات الصليبية. على ان عداوة الصليبيين للمسيحيين الشرقيين لم يصل الى حد طردهم - كما تم مع اليهود - ولكنهم استبقوهم لمهاراتهم اليدوية، وقيامهم

(٣٥) الأسطل، المصدر نفسه، ص ١٨٢.

بالخدمات والأعمال التي كان يأنف الصليبيون من القيام بها. ومع ذلك، فإن «الأرمن» خصوصاً ظلوا أفضل حالاً من المسيحيين الشرقيين الآخرين، وتولوا بعض الوظائف العامة في الدويلات الصليبية، فضلاً عن الزواج منهم، كما سبقت الإشارة.

أيضاً، وعلى الرغم من أن المسلمين والعرب من أهل البلاد الأصليين قد هاجروا من المدن والمناطق التي احتلها الصليبيون، إلا أن نسبة منهم ظلت تعيش داخل المجتمع الصليبي وتؤثر فيه، فضلاً عن البدو الرحل.

وأخيراً، شكّل التجار الايطاليون طبقة أخرى مستقلة تتكلم الايطالية، ولا تختلط بغيرها، إلا في نطاق المعاملات المالية والتجارية. وقد تركّز هؤلاء في المدن الصليبية الساحلية، مثل يافا وعكا وقيسارية وارسوف وصور وبيروت وطرابلس وغيرها^(٣٦).

رافق هذا البناء الاجتماعي المفكك، والذي وزع بين دويلات متعددة، تعدد اللغات واللهجات السائدة، وظل مقاوماً لامكانات الانصهار أو التكامل، كما سيأتي في ما بعد.

المظهر الثاني للانقسام في المجتمع الصليبي، والذي تبلور مع مرور الزمن واستقرار الصليبيين في المنطقة، كان الانقسام بين الأجيال. وينقل عن وليم الصوري William of Tyre (الذي كان مستشاراً في مملكة القدس الصليبية عام ١١٧٥) في تعداده لأسباب الضعف الصليبي في مواجهة المسلمين، اشارته الى حلول جيل جديد ضعيف من الصليبيين محلّ جيل الآباء والأجداد الذين كانوا متمسكين بدينهم، والله، كما يقول وليم الصوري، «يجب تأييده عن الخانعين». كما أن الأجيال الأقدم من الغربيين كانت غيرة، ومتحمسة وحسنة التدريب، وقادرة - تالياً - على محاربة عدو يفوقها عدداً^(٣٧). وإلى هذا الجيل الأقدم، انتمى، خصوصاً، فرسان القديس حنا (أو من عرفوا باسم فرسان الاستارية) وفرسان المعبد (فرسان الداوية)^(٣٨)، وكان الواجب الأصلي لفرسان الاستارية، لدى مجيئهم الى الارض المقدسة، هو مساعدة المرضى والمعوزين من الحجاج، ولكنهم تحولوا بمرور الوقت الى منظمة من الفرسان المحاربين، وكانوا في غالبيتهم من أبناء النبلاء الأوروبيين. كذلك فإن فرسان الداوية كانوا مقاتلين اشداء، نشأ معظمهم من بين الرهبان الفرنسيين، وقد اتسموا بالترزم الديني.

(٣٦) انظر: Steven Runciman, *A History of the Crusades*, 3 vols. (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1951-1954), vol. 1, pp. 113-136.

(٣٧) Aharon Ben - Ami, *Social Change in a Hostile Environment: The Crusader's Kingdom of Jerusalem* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1969), p. 159.

(٣٨) انظر: سعيد عبدالفتاح عاشور، الحركة الصليبية (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٥)، ج ١، ص

وفي هذا السياق ايضاً، يفرّق بعض الباحثين بين كتلة النبلاء والبارونات الذين استقروا في مقاطعاتهم لفترة طويلة، وتبلورت لديهم سياسة دفاعية تهدف الى المحافظة على ما استولوا عليه من ارض اسلامية، وابقاء التوازن العسكري الصليبي - الاسلامي على ما هو عليه، وبين كتلة المهاجرين والمستوطنين الجدد الذين ضُمّوا مغامرين عسكريين سعوا الى الاستيلاء على مناطق اسلامية جديدة، وكان الدافع الاساسي لديهم هو الحصول على المال والنفوذ اللذين افتقدوهما في اوروبا.

على ان تفكك الجبهة الصليبية اتخذ ابعاداً أخرى خطيرة، بخاصة منذ منتصف القرن الثاني عشر، بسبب التنافس والخلافات بين الجاليات والمستعمرات الايطالية في الشام، وهي المستعمرات التي قامت بدور كبير في مساعدة مملكة القدس لدى قيامها. ولكن التحلل والضعف اللذين أصابا تلك المملكة، صاحبه انشغال تلك المستعمرات الايطالية بمصالحها التجارية الخاصة. وقد تحوّلت تلك المستعمرات الى كيانات مستقلة تتبع كل منها سلطة المدينة الايطالية الأم، حيث كانت أهم تلك المدن هي: بيزا وجنوى والبندقية. وفي الوقت نفسه، فقد استعان أمراء الصليبيين بتلك المستعمرات في منازعاتهم المستمرة مع بعضهم البعض. ومع تعيين كل مدينة لقنصل عام لها في الشام يرعى مصالحها، في أواخر القرن الثاني عشر، أصبحت المستعمرات الايطالية، عاملاً قوياً من عوامل تفكك الصليبيين. وبدأت المدن الصليبية الساحلية، بخاصة مدينة عكا، تشهد الصراعات الضارية بين ابناء المدن الايطالية الثلاث: بيزا وجنوى والبندقية. ووصلت تلك الصراعات الى ذروتها في منتصف القرن الثالث عشر، وامتدت الى غالبية المدن الصليبية مثل صور وطرابلس وانطاكية، وهز الصراع كل أرجاء المجتمع الصليبي في الشام، ولم يستطع أي ملك أو زعيم صليبي ان يوقف تيار تلك الفتنة. وفي هذا الاطار، فشلت محاولة البابا انوسنت الرابع للوساطة بين الجماعات المتصارعة في نيسان/ ابريل ١٢٥٩.

إن هذه المظاهر المتعددة والمزمنة للتفكك والتحلل في المجتمع الصليبي، عكست، ليس فقط تأثيره بالانقسامات الطبقية والاجتماعية الموروثة والصراعات بين الوحدات السياسية المتنافسة في اوروبا، وانما عكست ايضاً جمود المجتمع الصليبي، وعجزه عن مواجهة التحديات الجديدة التي فرضتها ظروف البيئة التي زرع فيها. وبعبارات «بن أمي Ben Ami»، فقد عانى المجتمع الصليبي من «فجوة مؤسسية» تمثّلت في عجز المؤسسات التي قامت في ذلك المجتمع، والمترتبة بالطابع الاقطاعي له، عن مواجهة التحديات التي كان لا بد وان تفرضها البيئة الجديدة، أي أن ذلك المجتمع افتقد - بعبارات بن أمي ايضاً - «الوظائف الابداعية» الضرورية للتكيف مع الظروف الجديدة^(٣٩).

وبشكل أكثر تفصيلاً، فإن المجتمع الاقطاعي الاوروبي الذي كان يوصف بأنه «مجتمع منظم للحرب»، إنما كان منظماً للحرب التناسبية مع ظروفه، أي المناوشات المنتظمة بين الأمراء والبارونات، والتي لم تكن تتطلب، ولا تقدر على المشروعات العسكرية الطويلة الواسعة النطاق، التي تستلزم في الوقت نفسه، وجود حكومة مركزية فعالة. ولذلك، فإن الظروف السياسية والعسكرية للاستزراع في الشرق الاوسط، كان يمكن ان تكون مؤاتية للصليبيين، طالما أُنسَمَت تلك الظروف بتمزق سياسي مشابه. ولكن ما حدث هو أن مجرد ادخال الكيان اللاتيني الى ساحة الحضارة الاسلامية، إنما كان مشجعاً على تحقيق الوحدة السياسية فيها.

من هذا المنظور، فإن الخصائص المتوارثة للمجتمع الصليبي، حالت دون تحقيق الشروط أو الاجراءات التي كان يمكن ان تمكنه من البقاء والاستمرار، في ظروف البيئة الجديدة:

فهذه الخصائص الجامدة، لم تَمَكِّن الصليبيين من خلق مجتمع مسيحي (أفرنجي سوري) متناسك، ولكن، على العكس، فإن الارستقراطية الصليبية المسيطرة، حرصت على الحفاظ على طابعها المغلق، فضلاً عن تقوقع الكنيسة اللاتينية على ذاتها.

أيضاً، فإن هذه الظروف نفسها حالت دون تَمَكِّن المجتمع الصليبي من انشاء قوة بحرية فعالة، تستند الى القاعدة التجارية للمدن الساحلية، لتقوم بمزاولة التجارة بين البلاد الأوروبية والشرقية، وتدعم المؤسسة العسكرية. فعلى الرغم من القوة التجارية والمهارات لدى المستعمرات الايطالية في المدن الساحلية، إلا أن القادة الصليبيين أسبغوا عليها الطابع الاقطاعي السائد، واستغلوها في خلافاتهم في ما بينهم.

ويشير بن آمي، ثالثاً، الى العجز عن استكمال الاتجاه الذي شهدته الكيانات الصليبية من ظهور تشكيلات ذات طابع ديني - عسكري، تتوحد فيها الوظائف العسكرية والدينية على نحو كان يمكن ان يؤدي الى انشاء ملكية مركزية قوية، ذات جيش عامل تحت امرتها. لقد شهدت الامارات الصليبية ظهور تلك التشكيلات في شكل فرسان الاسبتارية وفرسان الداوية، كما سبقت الاشارة، ولكن اتساع ونمو هذه الفئات (ذات الطابع الديني - العسكري) كان يمكن ان يهدد بوضوح كلاً من طبقة الفرسان «العلانيين» والمؤسسة الدينية الرسمية، ولذلك، كان من الطبيعي ان يواجه مثل هذا التطور بمقاومة قوية تابعة من جوهر النظام الاجتماعي الاقطاعي القائم^(٤٠).

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٧١.

ب - العامل الثاني: تقطع جسور المجتمع الصليبي مع العالم الغربي

إذا كان تفكك الوجود الصليبي في المشرق العربي، في مقدمة الأسباب التي تفسر اندثاره وهزيمته الساحقة أمام العرب، فإن هذا التفكك لا ينطبق فقط على مكونات ذلك الوجود الصليبي (الاجتماعية والاقتصادية والعرقية . . الخ)، وإنما ينطبق أيضاً على روابطه مع الوطن الأم له، أي بلاد العالم الأوروبي الغربي. لقد كان ذلك الوجود رأس جسر للعالم الغربي في المشرق العربي، ولذا فإن تحلل وتفكك «الجسر» أفقد الوجود الصليبي الشريان اللازم لبقائه.

إن تفكك الجسور مع العالم الغربي يمكن، في هذا السياق، أن يفهم بأكثر من معنى:

أول المعاني التي يلح عليها دارسو الحملات الصليبية، هو افتقاد الوجود الصليبي في المشرق العربي للمدد البشري المستمر واللازم لتدعيمه وتقويته. وفي هذا الخصوص، يبدو مغزى رسالة شهيرة بعث بها بطريك بيت المقدس إلى هنري الثاني ملك انكلترا في نيسان/ابريل ١١٨٥ (أي قبل المواجهة مع صلاح الدين في حطين بعامين تقريباً) يقول له فيها: «اننا نطلب رجالاً لا أموالاً»^(١). ويعزو الكتاب الأجانب الانهيار المتوالي للحصون الصليبية، بعد معركة حطين في الأساس، إلى نقصان الشديد للقوى البشرية في تلك الحصون.

على أن تفكك الجسور مع العالم الغربي، يعني أيضاً حقيقة فشل المجتمع الصليبي في التحالف المستقر مع «الحلفاء الطبيعيين» له. فالتحالفات مع الامبراطورية البيزنطية كانت مؤقتة، شديدة الهزال، واستخدمها الأمراء والملوك الصليبيون بشكل مشّت وتنافسي. كما أهمل الصليبيون، أيضاً، إمكانية إنشاء روابط دائمة مع الإيطاليين، مثل النورمان في صقلية مثلاً.

والمعنى الثالث لتفكك الجسور مع العالم الغربي، يرتبط بحقيقة أن الوجود الصليبي، بماله وأماراته المتنافسة، إنما مثل، بمعنى ما، عبئاً على بلدان أوروبا، خصوصاً مع الحاج تلك الممالك والإمارات على طلب الانقاذ والنجدة. وإذا كان الوجود الصليبي، في بدايته، نتاجاً للحملة الصليبية الأولى المكثفة، فإن الحملات الصليبية التالية لم تعكس استمرارية الاتصال بين الطرفين، بقدر ما كانت ردود فعل للمخاطر التي تعرض لها الوجود الصليبي. وبعبارة أخرى، فإن تلك الحملات لم تكن تعبيراً عن اتصال «مؤسسي» دائم ومستقر، بين الطرفين، بقدر ما كانت نجدات طارئة تجهز تحت ضغوط الباباوات، وفي ظل ظروف سياسية واجتماعية معينة، لمواجهة المخاطر التي تتعرض لها الدويلات الصليبية. وفي هذا السياق، فإن الحملة الصليبية الثانية في عام ١١٤٧ إنما كانت رد فعل لسقوط إمارة الرها

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٤٨.

الصليبية، واستغاثة حكومة القدس بالبابا يوجين الثالث في خريف ١١٤٥^(١٦). وكانت الحملة الصليبية الثالثة في ١١٨٩ رد فعل لانتصارات صلاح الدين وسقوط القدس. فتلك الانتصارات هالت أوروبا، وأفزعت البابوية التي بشرت بحملة جديدة، وضغطت على الملوك والحكام الأوروبيين لوقف منازعاتهم، والاشتراك في الحملة الجديدة. أيضاً، فإن الحملتين الرابعة (عام ١٢٠٢) والخامسة عام (١٢١٨ و ١٢٢١) إنما كانتا محاولتين فاشلتين لتحقيق ما عجزت عن تحقيقه الحملة الثالثة... وهكذا.

ج - العامل الثالث: نمو القوة العربية - الاسلامية

إن تحليل المجتمع الصليبي، وتفكك روابطه مع أوروبا، ما كان يمكن أن يؤدي الى هزيمته وزواله من المنطقة، الا مع تنامي القوة العربية الاسلامية المحيطة به، واختلال توازن القوى بينها لمصلحة الطرف العربي الاسلامي. ولن نتوغل، هنا، كثيراً في تحليل ديناميات التأثير المتبادل بين المجتمع الصليبي والمجتمع العربي الاسلامي، وما انطوى عليه ذلك التأثير من بلورة عوامل معينة للمقاومة لدى كل من الجانبين. ولكن من المهم الإشارة الى حقيقة ان القاعدة التكنولوجية لكل من الصليبيين وجيرانهم العرب والمسلمين انما كانت في الفترة موضع البحث عنصراً استاتيكيّاً محايداً، مما يعني ان التوازن بينها كان مرتبطاً بشكل حاسم بالنواحي الاجتماعية والمعنوية، بخاصة في ما يتعلق بالقدرة على تحقيق التضامن او الوحدة^(١٧).

في هذا الاطار، فاننا نصبح حيال ثلاثة عوامل محددة اسهمت، اكثر من غيرها، في قلب توازن القوى لمصلحة العرب والمسلمين، وهي:

- تبلور ايدولوجية صلبة تعبر عن روح «الجهاد» ضد الصليبيين، وتدفع بقوة نحو التضامن الجماعي.

- تحقيق الوحدة السياسية المركزية، على نحو يتجاوز الواقع الاقطاعي المفتت للوحدات المكونة للبلاد الاسلامية.

- ظهور القيادة الكارزمية القادرة على دعم النظام السياسي بالمثل العليا، وعلى احداث التغييرات الضرورية التي تتجاوز افق النخب التقليدية.

لقد جسد صلاح الدين الايوبي تلك العوامل الثلاثة بقوة، سواء بايمانه العميق بعدالة

(٤٢) عبدالعظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوروبا: من ظهور الاسلام الى انتهاء الحروب الصليبية (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣)، ص ٤٤٦.

Ben - Ami, Ibid., p. 119.

(٤٣)

المعركة ضد الصليبيين، أم بجهوده الخارقة العديدة لتأمين التضامن والوحدة الاسلامية، أو بصفاته الكارزمية المفردة التي ساعدت على التفاف مواطنيه حوله، واعجابهم به.

وإذا كان الباحث الاسرائيلي «أهارون بن أمي» قد ذكر العوامل الثلاثة السابقة، باعتبارها «وظائف» للنظام الدولي الذي جمع العرب والصليبيين معاً، فقد كان مقتضى ذلك التحليل ان تلك العوامل كان لا بد وان تتبلور ايضاً على الجانب الصليبي، ولكن الطابع الاقطاعي الجامد لذلك المجتمع، حال دون نمو الارهاصات الاولى لهذه العوامل. ولذلك، فقد نجح صلاح الدين والمسلمون في ما فشل فيه الصليبيون «بسبب التناقض بين الدولة والدين في الاسلام في العصور الوسطى، وايضا بسبب حقيقة ان الصليبيين كانوا يحتاجون الى مزيد من التغيرات الهيكلية بعيدة المدى، حتى يمكن لهم موازنة الانجاز الكمي والكيفي» لصالح الدين^(٤٤).

٢ - عوامل استمرارية النظام العنصري في جنوب افريقيا

إن المقارنة بين اسرائيل وجمهورية جنوب افريقيا، باعتبارهما نموذجين للدولة الاستيطانية وللنظام السياسي الاستيطاني، ليست أمراً جديداً. على ان ما يعيننا، هنا ايضا، لن يكون تلك المقارنة في ذاتها، وانما التركيز على عوامل استمرارية النظام العنصري في جنوب افريقيا، وديناميات تلك الاستمرارية، انطلاقاً من الفكرة التي يطرحها بعض الباحثين، وقوامها ان جنوب افريقيا «تمثل الى حد بعيد صورة المستقبل بالنسبة الى اسرائيل»^(٤٥).

ويعني توصيف كل من اسرائيل وجنوب افريقيا بانها دولتان استيطانيتان، انهما يتيمان الى تلك الدول التي نشأت مجتمعاتها عن طريق هجرة جماعات بشرية معينة، الى اقليم غريب عنها، ثم تحقيق سيطرتها السياسية على هذا الاقليم، ومن يسكن فيه من ابناؤه الاصليين، الأمر الذي ينتهي الى اعلان دولة للمستوطنين. وبهذا المعنى، فان تلك الدول تكون قد تشكلت بارادة المستوطنين، وبتأييد النظام الاستعماري عموماً، وليس في اطار النشأة التاريخية والنمو الديمغرافي المميز لغالبية دول ومجتمعات العالم المعاصر.

ومع ان ظاهرة الهجرة، وبخاصة الهجرات الجماعية بمعنى انتقال السكان من اقليم واستيطانهم في اقليم آخر، هي التي تفسر تكوين اغلب المجتمعات والدول تاريخياً، الا ان الامر يختلف قبل ظهور الدولة القومية منه بعد ظهورها. ففي الحالة الاولى، لم تكن ظاهرة الهجرة تعني شيئاً بالنسبة الى المجتمع الذي خرجت منه، ولا بالنسبة الى المجتمع الذي

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

(٤٥) مجدي حماد، النظام السياسي الاستيطاني: دراسة مقارنة، اسرائيل وجنوب افريقيا (بيروت: دار الوحدة، ١٩٨١)، ص ٢٧٣.

استوطنت فيه، في حين انه بعد قيام الدولة القومية، وتبلور مفهوم الولاء الوطني، أصبحت حسابات الهجرة مرتبطة بارادة الدولة المرسلة وارادة الدولة المستقبلة، واصبح تقويم الهجرة والاستيطان مرتبطاً بتأثيرهما على الخصائص الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية للاقليم الجديد.

في هذا الاطار، تكونت اسرائيل، مثل جنوب افريقيا، عبر التطور من كيان استيطاني الى استعمار استيطاني، فدولة استيطانية^(٤٦). وفي كل من الحالتين، فان تبلور الكيان الاستيطاني في فلسطين وفي جنوب افريقيا انما تم وفقاً لجهد واع ومنظم، وارتبط بمعايير معينة، مثل نسبة حجم المستوطنين الى السكان الأصليين، وتفاوت المهارات الفنية والتكنولوجية بين المستوطنين والسكان الاصليين، وتكريس الانفصال الحضاري والجغرافي بين الطرفين، فضلاً عن توافر اطار دولي مؤات لعملية الاستيطان المنظم.

ايضاً، فان الكيان الاستيطاني في كل من فلسطين وجنوب القارة الافريقية، تحول الى حقيقة سياسية، باتخاذ شكل الاستعمار الاستيطاني (منذ البداية في جنوب افريقيا، ومنذ موجة الهجرة اليهودية الثانية ١٩٠٤ - ١٩١٤ في فلسطين) وفي كلتا الحالتين، فان تبلور السمات الاستعمارية انما تم أولاً من خلال انشاء العديد من المؤسسات التي تقوم بتنظيم الهجرة وتمليك الاراضي وتشغيل المستوطنين، فضلاً عن المؤسسات المعنية بالتعامل الدبلوماسي مع العالم الخارجي، ومؤسسات العنف المكروسة لمواجهة المخاطر المحتملة من المواطنين الأصليين. ومن ناحية ثانية، فان أخطر مهام تلك المؤسسات كان الاستيلاء على الأرض بكل الطرق المتاحة، باعتبارها القاعدة المادية لدعم الكيان الاستيطاني وتطويره. واخيراً، شهدت كلتا التجريبتين عملية غزو منظمة استهدف المستوطنون بمقتضاها «فتح» الأقليم ككل، بما ارتبط بها من تصاعد للصراع مع السكان المحليين وطردهم، لتحل محلهم اعداد متوالية من المهاجرين.

وفي كل من فلسطين وجنوب افريقيا، فان الاستعمار الاستيطاني، بعد درجة معينة من النمو، تحول الى «دولة استيطانية»: اعلنت في جنوب افريقيا عام ١٩١٠ وفي اسرائيل عام ١٩٤٨ بما انطوى عليه ذلك من اعلان «الانفصال» أو «الاستقلال» عن الدولة الاستعمارية الكبرى المسيطرة في المنطقة من ناحية، ومن حصول على الاعتراف الدولي بالدولة الجديدة، من ناحية اخرى.

ليس غريباً إذاً، ان اتسمت الدولتان، في خصائصهما الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بخصائص متشابهة تبرر بقوة الربط بين احتماليتهما المستقبلية:

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٩ - ٢٤.

- فكل من الدولتين، تجمع في الواقع «قوميتين»، وإن كانت كلتاهما في طور التكوين: أولاهما تمثل قومية كامنة وهي قومية السكان الأصليين، وثانيتهما تمثل قومية «اصطناعية» وهي قومية المستوطنين الذين لا تتوافر لهم في مجموعهم غالبية خصائص القومية الواحدة. كما أن كلا من هاتين القوميتين، تمثل نقیضاً للآخرى، بحيث يضحى الصراع بينهما صراعاً مصيرياً.

- والكيان الاجتماعي، في كل من الدولتين، يتكون من خليط متنوع من الأصول الحضارية والاجتماعية والثقافية، مما يخلق مشكلة تكامل قومي حادة تأخذ على وجه الخصوص، صورة التناقض بين الأوروبيين ذوي الأصل البريطاني والآخرين ذوي الأصل الهولندي، في جنوب إفريقيا، وصورة التناقض بين اليهود من أصل شرقي واليهود من أصل غربي في إسرائيل. وقد ترتب على ذلك وجود حالة من النشبت الثقافي في كلتا الدولتين، اتخذت شكل التنافر بين اليهود الشرقيين والغربيين في إسرائيل، ووصلت الى نوع من الانفصال في جنوب إفريقيا بين الأفريقيين والبريطانيين.

- والبنیان الاقتصادي في كلتا الدولتين، اتسم بالانقسام أو الثنائية بين اقتصاد متقدم (وتابع للغرب في الوقت نفسه)، لدى جماعة المستوطنين، واقتصاد هامشي ومتأخر بين السكان الأصليين (الشعب الأفريقي والشعب الفلسطيني). كما أن اقتصاد كل من الدولتين يخضع أساساً لاعتبارات الأمن، أي لعلبة سمات «اقتصاد الحرب» عليه. وفي الحالتين، فإن الاقتصاد يتسم بمعدلات عالية للنمو في اطار نموذج الاستزراع الاقتصادي.

- والبنیان الطبقي في كلتا الدولتين الاستيطانيتين، اتسم بعدم التبلور (بخاصة في المراحل الأولى لنشأتها، الامر الذي ينعكس في اختلاف تلك السمة بين إسرائيل وجنوب إفريقيا، بسبب اختلاف مراحل التطور بينهما). وفي الواقع فإن التناقض الخارجي مع الوسط المحيط المعادي يعلو على التناقض الطبقي، كما يعلو الوعي الاستيطاني على الوعي الطبقي، وتختلط التفرقة الاجتماعية على الأساس الطبقي، مع تلك الناتجة من الأساس الاثني^(١٧).

- والنظام السياسي في كلا البلدين، باعتباره نظاماً سياسياً استيطانياً، يقوم على التحكم في حق المواطنة وبالتالي على التفرقة، في مجال المشاركة السياسية، بين السماح بنطاق واسع للمشاركة داخل الجماعة الاستيطانية وبين حرمان أبناء البلاد الأصليين منها، أو تقليصها بشدة. كما يتسم النظام السياسي الاستيطاني في البلدين بوجود قضايا وموضوعات معينة، خارج نطاق الصراعات السياسية أو خارج سلطة قطاعات أو أجهزة معينة في النظام السياسي، خاصة قضايا: العلاقات العنصرية، الأمن القومي، والولاء الوطني.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ١٢٢ - ١٣٠.

في ضوء هذه الخصائص المشتركة لكل من اسرائيل وجنوب افريقيا، فإن التعرف على بعض عوامل استمرارية النظام العنصري في جنوب افريقيا، والذي سبق قيام اسرائيل بنحو اربعة عقود، يكون مهماً في استشراف مستقبل اسرائيل نفسها. وفي الواقع، فإن الدراسة المتأنية لنظام جنوب افريقيا، تشير الى ثلاث مجموعات من العوامل التي تقسّر استمرارية ذلك النظام على الرغم من العداء الاقليمي والدولي المحيط به، وتتعلق تلك العوامل بطبيعة المجتمع نفسه، علاقته النسبية مع الوسط الاقليمي، ثم بطبيعة علاقاته بالعالم الخارجي.

أ - عوامل قوة الجماعة الاستيطانية وتماسكها

يظهر التحليل الدقيق لخصائص الجماعة الاستيطانية في جنوب افريقيا، كيف ان تأثيرات عوامل الدمج أو التماسك فاقَت تأثير التناقضات التي تحمِل بها تلك الجماعة. ولا تتمثل عوامل الدمج تلك بداهة بوجود جنسية مشتركة، أو انشاء اقليمي مشترك، وانما في وجود الاحساس بالدوافع المشتركة والمصير المشترك والخطر المشترك، فضلاً عن الانجاز المشترك. وبعبارة اخرى، فإن نموذج جنوب افريقيا يوضح كيف ان الوجود والكيان والنظام العنصري يحكم داخل اطاره ويشد اليه جميع الافراد والطبقات والفئات برابطة ايديولوجية وثيقة، لأنه يضع الجماعة الاستيطانية بكل قطاعاتها وتنظيماتها في مواجهة الشعب المقهور والمطروء من أرضه ووطنه^(٤٨). ويعني ذلك، ان الطابع الاستيطاني للمجتمع والدولة، يمكن ان يكون في ذاته عنصر دمج وتماسك على نحو يفوق ما هو قائم في المجتمعات الأخرى، ويخلق علاقة نفسية وثيقة بين الفرد والدولة. ان تلك العلاقة تتبدى في ظواهر ثلاث محددة: أولاً، ظاهرة الرضا بمعنى تقبل النظام السياسي ومؤسساته، بصرف النظر عن تقبل أو رفض حاكم معين أو قرار سياسي معين، وثانياً، ظاهرة المشاركة، أي مشاركة الفرد في اتخاذ القرارات والرقابة السياسية، بحيث يشعر ان الممارسات السياسية من جانب الحاكم تعينه وترتبط بحياته اليومية. وثالثاً، ظاهرة الولاء، بمعنى الشعور بالانتماء النابع من الرابطة العاطفية والعقيدية التي تفرض نفسها على المواطن^(٤٩).

ويظهر نموذج جنوب افريقيا ان الطابع الاستيطاني للدولة يمكن ان يلعب دوره كعنصر دمج وتماسك للدولة والمجتمع، من خلال خصائص عدة في مقدمتها: الوظيفة العقيدية للدولة، ووجود درجة معينة من مركزية السلطة، فضلاً عن طبيعة العلاقات العسكرية المدنية:

(٤٨) المصدر نفسه، ص ٢١١.

(٤٩) حامد ربيع، النموذج الاسرائيلي للممارسة السياسية (القاهرة: جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٥)، ص ١١٦.

فالدولة الاستيطانية هي دولة ذات وظيفة عقيدية، حتى مع وجود نظام ليبرالي وتعدد حزبي يسمحان بتعدد التصورات الايديولوجية والبرامج السياسية، ويفترضان ان تلك الوظيفة العقيدية للدولة انما تتم من خلال مهام محددة، مثل تحقيق الادراك والمعرفة بخلفيات القرار السياسي، وخلق التماسك القومي وتحقيق الاتصال الحضاري، وتمكين المساندة الخارجية للدولة والنظام السياسي^(٥٠).

وتتصل بذلك حقيقة ان النظام السياسي الاستيطاني، كما تجسده جنوب افريقيا، انما يقوم في النهاية على اساس سيادة السلطة العامة، أو على مركزية السلطة، الامر الذي يعني وجود نوع من التوفيق بين ضمان درجة معينة من المشاركة لكل فئات وطبقات الجماعة الاستيطانية، وبين ممارسة السلطة من قبل فئة مختارة تتمثل فيها صفات معينة للقيادة^(٥١).

وفي داخل النخبة الحاكمة، يسود نمط للعلاقات العسكرية المدنية يتسم بوجود دور متميز للمؤسسة العسكرية في المجالات الاجتماعية والاقتصادية كافة. وفي ضوء حقيقة الازدواجية القومية، والتناقض بين الجماعة الاستيطانية والسكان الاصليين، يسود وجهان مختلفان للعلاقات العسكرية المدنية، أولهما يسوده المدنيون والمفاهيم الليبرالية، وتلتزم النخبة العسكرية فيه بقاعدة السيادة المدنية، وثانيهما يسوده العسكريون والمفاهيم الاستعمارية والفاشية، بما في ذلك تزايد دور العسكريين في صنع القرارات السياسية. ولكن ذلك لا يلغي حقيقة ان المؤسسة العسكرية تظل فرعاً للحكومة، ولا تصل الى تحدي السيادة المدنية، أو النيل من قوة الدولة وتماسكها.

ب - عوامل العلاقة مع الوسط الاقليمي

إن قيمة تماسك الجماعة الاستيطانية ترتبط، في الواقع، بما يسهم به ذلك التماسك في تحقيق «قوة» تلك الجماعة في مواجهة الوسط الاقليمي المعادي. واستمرارية النظام العنصري في جنوب افريقيا بل وترسيخ وجوده انما يرتبطان بالدرجة الاولى بما أفلح ذلك النظام في تحقيقه من مظاهر التفوق والقوة حيال القوى الافريقية المحيطة به، والرافضة له. إن التفوق في الوقت، من هذا المنظور، هو شرط لضمان الأمن القومي للكيان الاستيطاني، والذي يعني أولاً ضمان الوجود بحد ذاته، ثم يعني ثانياً ضمان التفوق والسيطرة.

لقد حققت جنوب افريقيا هذا التفوق، على المستوى الاقليمي، من خلال القوة العسكرية والقوة الاقتصادية معاً. فالقوة العسكرية استندت الى مقومات محددة، في مقدمتها:

(٥٠) المصدر نفسه، ص ١٩٧.

(٥١) حماد، المصدر نفسه، ص ٢١٢.

- انشاء جيش عصري يتم تحديثه باستمرار، من خلال التسليح المتقدم والتدريب الراقبي .

- ضمان التفوق العسكري على جميع القوى المحيطة اقليمياً، بحيث يوجد نوع من اختلال القوى لمصلحة الدولة الاستيطانية، مما يسمح بفرض السلام كما تراه تلك الدولة . ويشمل ذلك التفوق امتلاك السلاح النووي الذي يضمن الردع النووي، كبديل اكثر فاعلية من الرادع التقليدي .

- السعي، قدر الامكان الى تحقيق الاكتفاء الذاتي العسكري، بما يمكن من التصدي لمحاولات فرض الحظر على بيع السلاح للدولة الاستيطانية، ويعني ذلك خصوصاً تنمية الصناعات العسكرية، والعمل على رفع مستواها التكنولوجي .

- فضلاً عن ذلك كله، فان ضمان التفوق العسكري يستلزم، ايضا الحيلولة دون نمو أي قوة عسكرية منافسة في المنطقة، يمكن ان تشكل تهديداً محتملاً للدولة الاستيطانية . ويتم تحقيق هذا الهدف من خلال اساليب عدة، مثل الحروب الوقائية أو الغارات الانتقامية المحددة .

أما القوة الاقتصادية، فقد تم تحقيقها من خلال بناء اقتصاد قومي عصري يتمتع بدرجة عالية من الاكتفاء الذاتي، تمكنه من مواجهة الضغوط الخارجية . ومنذ مطلع الستينات تقريباً، عملت جنوب افريقيا على اضافة «الصبغة الحربية» على اقتصادها، بخاصة مع بروز الدول الافريقية ذات الاتجاهات الراديكالية، وسقوط الحزام الافريقي العازل حولها، بعد استقلال موزامبيق وانغولا وزيمبابوي، بل وتحول هذا الحزام العازل الى حزام للمواجهة .

واذا كانت القوة العسكرية والقوة الاقتصادية هما الدعامتان اللتان اعتمدت عليهما دولة جنوب افريقيا لفرض وجودها كأمر واقع في جنوب القارة الافريقية، وتالياً لاكتساب شرعية اقليمية، فان تلك القوة هي ايضا التي مكنت جمهورية جنوب افريقيا من تأدية دور اقليمي متميز في اطار منطقة افريقيا الجنوبية، إذا جاز اعتبارها نظاماً اقليمياً بذاته . ولقد اعتمد هذا الدور الاقليمي على عناصر متعددة، اجملها احد الباحثين في ستة عناصر تشمل : (أ) - الاتصال الديمغرافي القائم على العمل الافريقي المهاجر الى جنوب افريقيا، فضلاً عن اللاجئين . (ب) - النفوذ الاقتصادي المتمثل في استثمارات جنوب افريقيا (والشركات متعددة الجنسية) في البلدان الافريقية المجاورة . (ج) - شبكات الاتصال داخل النظام الاقليمي، بما في ذلك شبكات الكهرباء التي تعتمد بشكل مباشر على جنوب افريقيا . (د) - التفوق العسكري الواضح على بلدان افريقيا الجنوبية كافة . (هـ) - العلاقات الدبلوماسية الرسمية

(أو الفعلية) القائمة بين جنوب افريقيا، وعدد من الدول الافريقية. (و) - التأثير الايديولوجي، والذي يتجسد في ترويج افكار التعايش عوضاً عن افكار الصراع أو التعاون مع بلدان القارة^(٥٢).

وطبقاً لأرقام ١٩٨٣ فإن صادرات جنوب افريقيا الى البلدان الافريقية، احتلت المرتبة الخامسة بين اجمالي صادراتها الى العالم الخارجي (بعد الولايات المتحدة وسويسرا واليابان وبريطانيا)، في حين احتلت واردات جنوب افريقيا من البلدان الافريقية المرتبة السابعة.

ج - عوامل العلاقة مع القوى الدولية

على عكس الحال على الصعيد الاقليمي، فإن علاقات جنوب افريقيا (قبل انشاء الدولة وبعدها) مع العالم الخارجي والعالم الأوروبي تحديداً، ظلت هي الشريان الحيوي الذي يربط بين الطرفين، متخطياً الاطار الاقليمي الضيق المحيط بجنوب افريقيا. وفي مقابل المزايا الاقتصادية والاستراتيجية التي وفرتها جنوب افريقيا للقوى الاوروبية فإن تلك الاخيرة كانت مصدر الدعم والحماية المستمرة لها قانونياً وبشرياً ومادياً. ولنتذكر، هنا، أن جنوب افريقيا اكتسبت منذ اعلان قيامها في عام ١٩١٠ شرعية دولية من خلال اعتراف الدول الكبرى بها، وكذلك اعتراف عصبة الامم.

ولم يكن من شأن السياق الدولي، في ذلك الحين، أن يؤدي الى رفض اسباغ الشرعية عليها، بخاصة مع خضوع كل الدول الافريقية المحيطة بها في ذلك الوقت، وبعده بزم طويل، للاستعمار الأوروبي. بل ان بعض الدول الافريقية حصل على استقلاله، واعلن عن قيامه كدول جديدة، ودخل الامم المتحدة بمساهمة واعتراف جنوب افريقيا. ومع تصاعد المواجهة بين دولة جنوب افريقيا والدول الافريقية بعد ذلك، فإن المساندة السياسية والدبلوماسية من جانب الولايات المتحدة واوروبا الغربية لعبت الدور الحاسم في الابقاء على جنوب افريقيا، كعضو له شرعيته على الصعيد الدولي. وفي ١٩٧٥ كان الفيتو الثلاثي (الامريكي - البريطاني - الفرنسي) هو الذي انقذ جنوب افريقيا من الطرد من الامم المتحدة. ولكن يظل من المهم، هنا ان نلاحظ ان التطورات المعاكسة على الصعيد الدولي بالنسبة الى جنوب افريقيا، انما تتعلق بسياسات تلك الدولة وتوجهاتها، ولا تمتد الى التشكيك في مقومات الشرعية الدولية بالنسبة لها.

على ان عنصر الدعم الرئيسي الذي سمح بتغذية جنوب افريقيا تبعاً، وضمن قوتها

Ch. Potholm, «The Effects on South Africa of Changes in Contiguous Territories», in: L. (٥٢) Thompson and J. Butler, eds., *Change in Contemporary South Africa* (Berkeley, Calif.: University of California Press, 1975), p. 329.

وسيطرتها، ظل هو هجرة العناصر البيضاء إليها، بحيث كانت الهجرة في مقدمة اهدافها الاستراتيجية، وركناً أساسياً من أركان أمنها القومي. ومثل تشجيع الهجرة الأوروبية البيضاء سياسة ثابتة على رأس أولويات الحكومات المتتابعة في جنوب افريقيا، باعتبارها ضرورة اقتصادية وعسكرية، بما توفره من قوى عاملة ومحاربة. وطبقاً لآخر الارقام المتاحة، فقد هاجر الى جنوب افريقيا في ١٩٨١ نحو ٤١,٥٠٠ مهاجر أبيض ونحو ٣٠ ألفاً في ١٩٨٠ و ١٩ ألفاً في ١٩٧٩^(٥٣).

إن مقارنة اسباب زوال الوجود الصليبي من المشرق العربي قديماً، باسباب استمرارية النظام الاستيطاني - العنصري في جنوب افريقيا حديثاً، تقودنا الى استنتاج ان بقاء مثل هذه الكيانات الاستيطانية المصطنعة، يعتمد على ثلاث مجموعات من العوامل:

- المجموعة الاولى من العوامل، تتعلق بتناسك المجتمع الاستيطاني نفسه، وقدرته على التغلب على جذور التفكك الكامنة فيه، في مواجهة التحدي الذي يفرضه الوسط المحيط.

- المجموعة الثانية من العوامل، تتعلق بالعلاقة مع الأوطان الأصلية التي ينتمي إليها ابناء المجتمع الاستيطاني، ومع مصادر الدعم الخارجي له.

- المجموعة الثالثة من العوامل تتعلق بنوعية استجابة الوسط الاقليمي للتحدي الذي يفرضه وجود الكيان الاستيطاني المستزرع داخله، ونجاح او فشل الكيان الاستيطاني في خلق علاقات عضوية متنامية مع هذا الوسط.

وفي واقع الامر، فان تأمل كلتا المشاهتين، يوضح ان اسباب استمرارية النظام العنصري في جنوب افريقيا، انما تتمثل تحديداً في تجنب اسباب فشل الغزوة الصليبية.

وفي هذا السياق، تبدو الأهمية الحيوية لعدد من المتغيرات بالنسبة الى مستقبل الوجود الاسرائيلي في المنطقة:

- اول هذه المتغيرات، في ضوء المشاهتين المشار اليهما، هو مدى تماسك المجتمع الاسرائيلي، وقدرته على مواجهة عوامل التفكك الناشئة عن التباينات الاجتماعية واختلاف الأصول العرقية والثقافية داخله. وتلك قضية اجتماعية وثقافية، بمقدار ما هي سياسية وايدولوجية. وهذه القضية تقيس ايضاً مدى ونوعية الاستجابة الصهيونية للتحدي العربي حولها.

- ثاني هذه المتغيرات هو العلاقة العضوية بين اسرائيل وبين المصدر الخارجي الرئيسي

Europa Yearbook, 1986, p. 2569.

لدعمها اقتصادياً وسياسياً ودبلوماسياً، أي الولايات المتحدة الأمريكية، ان هذه العلاقة المتميزة تبدو، في اطار تاريخ الحركة الصهيونية، امتداداً للعلاقة الوثيقة التي حرصت تلك الحركة دائماً على نسجها مع القوة الامبريالية السائدة عبر الوقت، تستمد منها العون والقوة، بل وتستغلها لمصلحتها بجميع الوسائل والأساليب.

- وأخيراً، فان مستقبل علاقة اسرائيل بالوسط العربي المحيط بها، يبدو ايضاً في مقدمة العوامل المهمة التي سوف تحدد توجهها المستقبل. ولا شك ان اسرائيل، وكما سيبدو في ثنايا هذه الدراسة، افلحت في كسر حلقة العزلة حولها، عبر العديد من الخطوات. ولكن التخطيط الاسرائيلي لنوعية هذه العلاقة وحجمها يبدو شديد الطموح، ويعكس وعياً بالأهمية الحيوية لها.

الفصل الثاني : إسرائيل في العقود الثلاثة القادمة

يستلزم التعرف على مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي، وضوح ملامح وأبعاد «القوة الشاملة» لطرفيه، أي العرب واسرائيل. وسيتوفر هذا الفصل على دراسة تطور عناصر القوة الشاملة لاسرائيل، في خلال العقود الثلاثة المقبلة، وذلك بدراسة كل من:

- ١ - السكان والأرض ومستقبل النشاط الاستيطاني.
- ٢ - الاقتصاد الاسرائيلي.
- ٣ - المجتمع ومستقبل النظام السياسي.
- ٤ - القوة العسكرية، والتوازن العسكري مع الوطن العربي.

أولاً: السكان والأرض ومستقبل النشاط الاستيطاني

١ - السكان

بلغ تعداد سكان اسرائيل في بداية ١٩٨٥ نحو ٢,٣٠, ٤ ملايين نسمة^(١)، وذلك طبقاً للاحصاءات الاسرائيلية الرسمية التي تدخل في تعدادها سكان القدس الشرقية منذ ١٩٦٧ ومرتفعات الجولان منذ ١٩٨٢^(٢). ويتوقف عدد سكان اسرائيل، في العقود الثلاثة المقبلة، على طبيعة الحجم والتركيب الحالي 'السكان، وعلى معدل الزيادة الطبيعية (أي الفارق بين معدل المواليد ومعدل الوفيات) ثم ميزان الهجرة (أي الفارق بين معدل الهجرة ومعدل

(١) موشيه سيكرون وتسفي ايزنباخ، «الصورة السكانية لاسرائيل عام ٢٠٠٠»، في: شمعون بيريس [وآخرون]، الكيان الصهيوني عام ٢٠٠٠ (قبرص: وكالة المنار للصحافة والنشر، ١٩٨٦)، ص ٨٢.

Statistical Abstract of Israel, 1985, p. 16.

(٢)

النزوح). ويشمل الحجم والتركيب الحالي للسكان عناصر مختلفة لا بد من أخذها في الحسبان لدى التنبؤ بتغير عدد السكان، مثل نسبة السكان اليهود إلى غير اليهود، ومستوى الانجاب المتوقع للنساء في الأعمار المختلفة وفي فئات السكان المختلفة.

أ - المواليد والوفيات

شهدت اسرائيل انخفاضاً مستمراً في مستويات الانجاب، سواء بين السكان اليهود أم غير اليهود: فانخفض معدل الانجاب العام لدى المرأة اليهودية من أربعة أطفال في بداية الخمسينات إلى ٢,٨ طفل في بداية الثمانينات، وهو أمر نتج أساساً من انخفاض معدل الانجاب لدى النساء اليهوديات من أصل آسيوي وأفريقي من ٦ أطفال في بداية الخمسينات إلى ٣ أطفال في الثمانينات. أما النساء من أصل أمريكي أو أوروبي، فإن معدل الانجاب تراوح لديهن، خلال تلك الفترة، بين ٢,٦ و ٢,٨ طفل للمرأة، وقدر معدل الإنجاب للنساء من المواليد اسرائيل بطفلين للمرأة، وبذلك فإن هناك اتجاهًا لتضييق الفجوة في معدلات الانجاب لدى النساء اليهوديات، من الأصول المختلفة.

أما الفئات غير اليهودية من السكان، والتي تقسمها الاحصاءات الاسرائيلية إلى مسيحيين ومسلمين ودروز، فقد تفاوتت بالنسبة إليها أيضاً التغير في معدلات الانجاب فتقلص إلى حد بعيد معدل الانجاب لدى المسيحيات، بحيث اقترب في مستواه من معدله لدى اليهوديات، في حين لم يبدأ الانخفاض في معدل الانجاب لدى المسلمات والدريزيات، إلا في أواخر السبعينات. ويقدر أن معدل الانجاب لدى المسلمات وصل إلى ١٠ أطفال في الستينات، في حين أنه انخفض في منتصف الثمانينات إلى ٥,٣ أطفال للمرأة الواحدة.

ويمكن هنا الاتفاق، لغرض التنبؤ بالتغير في عدد السكان في اسرائيل، مع افتراضات مسؤولي الاحصاء الاسرائيليين بأن معدل الانجاب للمرأة اليهودية سينخفض حتى ٤, ٢ طفل في عام ٢٠٠٠، وأن هذا المعدل سينخفض لدى المسلمين والدروز ليصل، عام ٢٠٠٠ أيضاً، إلى ٣,٥ أطفال للمرأة، أما بين المسيحيين، فيفترض أن يظل معدل الانجاب عند ٤, ٢ طفل للمرأة، وهو الذي تم الوصول إليه فعلاً في الثمانينات^(٣).

في مقابل ذلك، شهدت اسرائيل انخفاضاً مستمراً في معدل الوفيات. وفي عام ١٩٨٣ بلغت نسبة وفيات الأطفال لدى السكان اليهود ١٢ لكل ألف، ولدى السكان غير اليهود ٢٢ لكل ألف. كما ارتفع متوسط العمر المتوقع إلى ٧٤,٥ سنة لدى السكان اليهود، وإلى ٧٢ سنة لدى السكان غير اليهود^(٤).

(٣) سيكرون وإيزنباخ، المصدر نفسه، ص ٨٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٣.

ويمكن هنا أيضاً الاتفاق مع التقدير أنه لن تحدث تغيرات يعتد بها على تلك المعدلات، حتى نهاية القرن الحالي.

ب - الهجرة، والهجرة المضادة

ليس الغرض هنا، بالطبع، هو الحديث المفصل عن حركة الهجرة الى اسرائيل وتطوراتها والعوامل المؤثرة فيها. . . الخ، وإنما عن الهجرة كأحد العوامل المؤثرة على عدد سكان اسرائيل وهويتهم، في خلال العقود الثلاثة المقبلة. ولا شك أن الهجرة كانت على رأس العناصر المفسرة للزيادة السكانية في اسرائيل، خصوصاً في السنوات الأولى لقيامها. وعموماً، فقد هاجر الى اسرائيل منذ عام ١٩٤٨ وحتى منتصف الثمانينات ما يقرب من ١,٧٥ مليون نسمة. على أن أهمية الهجرة، كمصدر للزيادة السكانية في اسرائيل، أخذت تتضاءل كثيراً، ووصل معدل المهاجرين الى اسرائيل في السنوات الأخيرة الى حوالي ١٥ ألف مهاجر سنوياً.

ويظهر تضائل الهجرة الى اسرائيل من ملاحظة تطور هجرة اليهود السوفيات خصوصاً، وهم الذين يعتبرون أهم مصدر للهجرة اليهودية الحالية والمستقبلية الى اسرائيل. فبين ١٩٤٨ و ١٩٧٠ كانت الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل محدودة للغاية، حيث بلغ اجمالي المهاجرين في تلك الفترة كلها، وفق أقصى التقديرات، ٢١ ألف يهودي. على أن هجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل شهدت قفزة هائلة في أوائل السبعينات: فهاجر ١٤ ألف يهودي سوفياتي الى اسرائيل عام ١٩٧١ وارتفع هذا الرقم الى ٣١,٥٠٠ عام ١٩٧٢ وإلى ٣٥,٥٠٠ عام ١٩٧٣. . . الخ. هذه الذروة في الهجرة السوفياتية أخذت تتناقص بعد ذلك، بحيث شهدت فترة أوائل الثمانينات انخفاضاً حاداً، بحيث وصل عدد هؤلاء المهاجرين الى ٢,٧٠٠ عام ١٩٨٢ وإلى ١,٣٠٠ عام ١٩٨٣^(٥).

من ناحية أخرى، فإن الهجرة المضادة (أو النزوح) تقدم سبباً آخر لضعف ميزان الهجرة، كعنصر مؤثر في تغير عدد السكان في اسرائيل مستقبلاً. ويقدر عدد النازحين، في الوقت الحاضر، بحوالي عشرة آلاف شخص سنوياً، كما يقدر أن يزداد عددهم مستقبلاً^(٦).

ولأن الهجرة والنزوح يرتبطان بتطورات اقتصادية واجتماعية وسياسية معقدة، سواء خارج اسرائيل ام داخلها، يظل هناك مجال لوجود أكثر من بديل محتمل للهجرة. وفي دراسة اسرائيلية لمستقبل الهجرة في السنوات الخمس عشرة المقبلة، وضع الكاتبان افتراضين:

(٥) اسامة الغزالي حرب، «السياسة السوفياتية تجاه الشرق الاوسط وموقف اليهود السوفيت»، السياسة الدولية، السنة ٢١، العدد ٨١ (تموز/ يوليو ١٩٨٥)، ص ٩٢.
(٦) سيكرون وايزنباخ، المصدر نفسه، ص ٨٢.

الأول، هو أن يبلغ ميزان الهجرة بين ١٩٨٦ و ١٩٩٠ خمسة آلاف نسمة كمعدل سنوي، وأن يبلغ هذا الميزان في التسعينات صفراً، أي يتوازى فيها عدد المهاجرين مع النازحين. أما الافتراض الثاني، فهو أكثر تفضيلاً، ويقترح رقم عشرة آلاف مهاجر سنوياً طوال السنوات الخمس عشرة بين ١٩٨٦ وسنة ٢٠٠٠^(٧).

ج - حجم الزيادة في السكان

إن مقتضى الحقائق السابقة، هو أن تقدير الزيادة في سكان إسرائيل يختلف بين اليهود وغير اليهود. ففي حين يمكن حسابها بالنسبة إلى غير اليهود (أي العرب أساساً) بناء على معدلات الزيادة الطبيعية، فإن الزيادة لدى السكان اليهود تحتسب على أساس معدلات الزيادة الطبيعية، مضافاً إليها توقعات الهجرة. ووفقاً لأرقام عام ١٩٨٢ فإن معدل الزيادة الطبيعية بالنسبة إلى السكان غير اليهود في إسرائيل، كان ٣,٢ بالمائة في حين كان معدل الزيادة لدى السكان اليهود ١,٦ بالمائة^(٨).

وبالنظر إلى ميل معدلات الانجاب إلى الانخفاض لدى كل من اليهود والعرب، كما سبقت الإشارة، يخلص الإحصائيون الإسرائيليون إلى افتراض معدل نمو للسكان اليهود في خلال السنوات الخمس عشرة المقبلة يبلغ ١,١ بالمائة سنوياً. أما المعدل العام للنمو السكاني في إسرائيل في الفترة نفسها فقدر بين ١,٤ بالمائة و ١,٦ بالمائة سنوياً، وذلك تبعاً لحالة الهجرة^(٩).

ولقد أفضى التنبؤ، وفقاً لهذه المعدلات المفترضة، إلى تقدير زيادة السكان اليهود من ٣,٥٥٥ ملايين عام ١٩٨٥ إلى ٤,١٥٩ ملايين عام ٢٠٠٠ وزيادة السكان غير اليهود من ٧٥٥ ألفاً عام ١٩٨٥ إلى ١,١٧٦ مليون عام ٢٠٠٠ وبذلك يصل إجمالي عدد سكان إسرائيل عام ٢٠٠٠ إلى ٥,٣٣٥ ملايين نسمة^(١٠). وإذا افترضنا ثبات معدل الزيادة هذا للعقد والنصف التاليين (حتى عام ٢٠١٥) فإن ذلك يعني ارتفاع عدد السكان اليهود إلى ٤,٨٦٦ ملايين نسمة عام ٢٠١٥ وارتفاع عدد السكان غير اليهود إلى ١,٨٣٥ مليون نسمة في العام نفسه، ليصل تعداد إسرائيل عام ٢٠١٥ إلى ٦,٧٠١ ملايين نسمة بزيادة نسبتها حوالي ٢٥ بالمائة من عدد السكان عام ٢٠٠٠. (انظر الجدول (٢ - ١)).

(٧) المصدر نفسه، ص ٨٥.

(٨) Quarterly Economic Review of Israel (EIU), (annual supplement, 1984), p. 5.

(٩) سيكرون وإيزنباخ، المصدر نفسه، ص ٨٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٨٦.

جدول رقم (٢ - ١)
تطور عدد سكان اسرائيل
(بالآلاف)

النسبة المئوية بين ٢٠١٥ و ٢٠٢٠	النسبة المئوية بين ١٩٨٥ و ٢٠٠٠	النسبة المئوية بين ١٩٨٥ و ١٩٧٠	١٩٧٠	٢٠٠٠ ^(١)	١٩٨٥	١٩٧٠	
١٧ ٥٦	١٧ ٥٧	٣٨ ٦٨	٤٨٦٦ ١٨٣٥	٤١٥٩ ١١٧٦	٣٥٥٥ ٧٥٥	٢٥٨٢ ٤٤٠	يهود غير يهود
٢٦	٢٤	٤٢	٦٧٠١	٥٣٣٥	٤٣١٠	٣٠٢٢	المجموع

(١) بافتراض ميزان هجرة منخفض، وبافتراض ميزان هجرة أعلى (حوالي ١٧٠ ألفاً) سيبلغ عدد السكان اليهود عام ٢٠٠٠ (٤,٣٣٠) ملايين نسمة ويصل اجمالي السكان الى حوالي ٥,٥ ملايين نسمة.

(٢) بافتراض ميزان هجرة منخفض، أو بافتراض ميزان هجرة أعلى (حوالي ٣٤٠ ألفاً على طول العقود الثلاثة) سيصل عدد السكان اليهود عام ٢٠٠٠ الى ٥,٢٠٦ ملايين نسمة، ويصل اجمالي السكان الى ٧,٠٤١ ملايين نسمة.

المصدر: شمعون بيريس [وآخرون]، الكيان الصهيوني عام ٢٠٠٠ (قبرص: وكالة المنار للصحافة والنشر، ١٩٨٦).

د - التغير في قوة العمل

إذا كان عدد سكان اسرائيل سيزداد، خلال الأعوام الخمسة عشر المقبلة، وفق الاحصاءات المشار اليها، بمقدار الربع، الا أن نسبة الزيادة تختلف داخل فئات السن المختلفة. وأبرز ملامح تلك الاختلافات، أن أهم نسبة في الزيادة ستكون من نصيب الأشخاص في سن العمل، والذين تدرجهم الاحصاءات الاسرائيلية بين سن ١٨ و ٤٩ عاماً. ووفقاً للاحصاءات السابقة، فإن الأفراد من تلك الفئة العمرية سوف يزدون في عام ٢٠٠٠ بنسبة ٣٤ بالمائة عن عددهم في ١٩٨٥، مما يعني زيادة ملموسة في طاقة العمل والانتاج. (انظر الجدول رقم ٢ - ٢).

هـ - تزايد نسبة الصابرا

في السنوات الأولى لقيام دولة «اسرائيل»، ومع الهجرة اليهودية الكثيفة في ذلك الوقت، كان المهاجرون يشكلون ما يقارب من ثلاثة أرباع السكان، في حين كان المولدون في فلسطين (سواء من آباء من يهود فلسطين، أم من اليهود المهاجرين) يشكلون نسبة

جدول رقم (٢ - ٢)
تطور اعداد بعض الفئات العمرية في اسرائيل حتى عام ٢٠٠٠

السنة	١٩٧٠	١٩٨٥	نسبة الزيادة عن ١٩٧٠ (نسبة مئوية)	٢٠٠٠	نسبة الزيادة عن ١٩٨٥ (نسبة مئوية)
١٨ - ٢٩	٦١٦	٨٢٣	٣٤	١,١٢٣	٣٦
٣٠ - ٤٩	٦٣٤	٩٨٨	٥٦	١,٣٢٥	٣٤
٥٠ - ٦٤	٣٨٨	٤٨١	٢٤	٦١٣	٢٧
٦٤ - ١٨	١,٦٣٨	٢,٢٩١		٣,٠٦١	

المصدر: المصدر نفسه، ص ٩٢.

قليلة من السكان، وكان من الطبيعي أنه كلما ابتعدت فترة الهجرة الجماعية، ونقص وزن الهجرة كمصدر للزيادة السكانية، كلما زادت نسبة السكان من مواليد اسرائيل نفسها. في هذا السياق، وبعد أن كان المهاجرون يشكلون ٥٥ بالمائة من سكان اسرائيل عام ١٩٧٠ أصبحوا يشكلون ٤٠ بالمائة من السكان عام ١٩٨٥، وسوف تتناقص نسبتهم الى أقل من ٣٠ بالمائة من سكان اسرائيل عام ٢٠٠٠ وبعبارة أخرى، فإن نسبة الصابرا سوف تتجاوز عام ٢٠٠٠ نسبة الـ ٧٠ بالمائة من عدد السكان، ويقدر أن يشكل هؤلاء نسبة حوالى ٩٥ بالمائة من السكان أقل من ٣٠ عاماً، و ٨٠ بالمائة من سن ٣٠ - ٤٤ و ١٥ بالمائة من الكهول من ٦٥ سنة فما فوق^(١١). ومن الممكن أن نتصور، بداهة، استمرار هذا الاتجاه في العقد والنصف التاليين، أي حتى عام ٢٠١٥، بخاصة مع التضاؤل المستمر في نسبة المهاجرين الى عدد سكان اسرائيل.

٢ - أرض اسرائيل

على عكس ما هو معتاد بالنسبة الى أي بلد آخر، فإن تحديد ما يمكن أن يعتبر مساحة لـ «أرض اسرائيل» يجب أن يقتصر بتوضيح التاريخ الذي تعين فيه تلك المساحة، والأقاليم التي تشملها تحديداً، بسبب الميل التوسعي للملازم للكيان الصهيوني، والأراضي التي تضمها اسرائيل بالقوة.

(١١) المصدر نفسه، ص ٩٥.

إن مساحة أرض اسرائيل، طبقاً لخطوط الهدنة، في عام ١٩٤٩ تبلغ ٢٠,٧٠٠ كلم^٢، ولكن الموجز الاحصائي الاسرائيلي الرسمي لعام ١٩٨٥ يقدر اجمالي مساحة ارض اسرائيل بـ ٢١,٥٠١ كلم^٢، حيث يشمل ذلك التقدير القدس الشرقية، ومرتفعات الجولان، اضافة الى ٤٤٥ كلم^٢، تمثل مساحة البحيرات. (انظر الجدول رقم (٢ - ٣)).

جدول رقم (٢ - ٣)
مساحة أرض اسرائيل

المساحة (كلم ^٢)	الاقليم
٦٢٧	منطقة القدس ^(١)
٤٥٠١	المنطقة الشمالية ^(٢)
٨٥٤	منطقة حيفا
١٢٤٢	المنطقة الوسطى
١٧٠	منطقة تل أبيب
١٤١٠٧	المنطقة الجنوبية
٢١٥٠١	اجمالي مساحة الأرض
٤٤٥	مساحة البحيرات

(١) بما فيها القدس الشرقية.

(٢) بما فيها مرتفعات الجولان.

Statistical Abstract of Israel, 1985, p. 16.

المصدر :

على أن التخطيط الاستراتيجي الاسرائيلي، لا يتعامل مع تلك المساحة، وما يرتبط بها بالتالي من حدود سياسية أو دولية رسمية، ولكنه يتعامل مع «حدود» أخرى، تتسع بمقتضاها أرض اسرائيل لتشمل مناطق أخرى، لم تضم الى اسرائيل رسمياً، ولكنها تعتبر داخلة ضمن ما تعتبره الدولة العبرية حدودها الآمنة بكل معنى الكلمة.

في هذا الاطار، فإن «العمق الاستراتيجي»، كما يراه القادة الاسرائيليون، لا يمكن أن يقاس بدءاً من حدود اسرائيل الرسمية، ولكن بدءاً من «الخطوط الأمامية» التي قد تتجاوز مواقعها تلك الحدود. ويتعريف أهارون ياريف، فإن العمق الاستراتيجي هو «المنطقة الواقعة ما بين الخط الأمامي المتقدم، الذي تستطيع دولة ما أن تحتفظ فيه بقوات عسكرية للدفاع عن نفسها، وبين مناطقها الحيوية، من دون المساس بسيادة دولة أخرى». والمنطقة الحيوية هي «المنطقة التي يعني احتلالها

من قبل العدو القضاء على سيادة تلك الدولة، وفي حالة اسرائيل، القضاء على الوجود المادي للدولة». ويعرّف ياريف المنطقة الحيوية بالنسبة الى اسرائيل، بأنها منطقة (القدس - تل أبيب - حيفا)، باعتبار أنها المنطقة التي يتجمع فيها القسم الأكبر من السكان، ومن المرافق ومؤسسات الحكم^(١٢). وبالمعنى المشار اليه للعمق الاستراتيجي، يطرح أكثر من تقدير لذلك العمق، تبعاً للخط الأمامي الذي يتم القياس على أساسه (انظر الجدول رقم (٢ - ٤)).

جدول رقم (٢ - ٤)
المسافة بين خط اسرائيل الأمامي، وبين مناطقها الحيوية،
والمسافة بين هذا الخط وعواصم البلدان
المجاورة لاسرائيل

البلد المجاور	خط اسرائيل الأمامي	المسافة من الخط الأمامي حتى المنطقة الحيوية	المسافة من الخط الأمامي حتى عواصم البلدان المجاورة
الأردن	- الخط الأخضر (١٩٤٩) - خط وقف إطلاق النار (١٩٦٧)	٣٠ كلم حتى حيفا وضواحيها ١٧ كلم حتى تل أبيب وضواحيها والقدس توجد على الخط نفسه ٥٠ كلم حتى حيفا وضواحيها ٦٤ كلم حتى تل أبيب وضواحيها ٤٠ كلم حتى القدس	٣٥ كلم حتى عمان
سوريا	- الخط الأخضر (١٩٤٩) - خط وقف إطلاق النار (١٩٧٤)	٥٥ كلم حتى حيفا ٨٠ كلم حتى حيفا	٤٧ كلم حتى دمشق
لبنان	الخط الأخضر (١٩٤٩)	٣٢ كلم حتى حيفا	٦٥ كلم حتى بيروت
مصر	الحدود الدولية خط المريش رأس محمد	٩٠ كلم حتى تل أبيب وضواحيها ١٤٠ كلم حتى تل أبيب وضواحيها	٣١٠ كلم حتى القاهرة ٢٦٥ كلم حتى القاهرة

المصدر: أهرون ياريف، «العمق الاستراتيجي: وجهة نظر اسرائيلية»، في: أمن اسرائيل في الثمانينات، ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، القسم العربي (بيروت): مؤسسة الدراسات الفلسطينية، [١٩٨٠]، ص ٢٢.

(١٢) أهرون ياريف، «العمق الاستراتيجي: وجهة نظر اسرائيلية»، في: أمن اسرائيل في الثمانينات، ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، القسم العربي (بيروت): مؤسسة الدراسات الفلسطينية، [١٩٨٠]، ص ٢١.

على أن التعبير الكامل عن مفهوم العمق الاستراتيجي، يجب أن يأخذ في الاعتبار أيضاً طول الخط الأمامي، والنسبة بين طول هذا الخط ومساحة المنطقة التي يجب حمايتها، عبر هذا الخط (انظر الجدول رقم (٢ - ٥))، والطابع الطبوغرافي للخط الأمامي، وتكوين

جدول رقم (٢ - ٥)
خطوط الدفاع البرية والبحرية ونسبة خطوط الدفاع الى منطقة الدفاع

خط اسرائيل الأمامي	الطول الاجمالي (بالكلم)	تقسيم الطول بين البحر والبر	النسبة بين طول خط الدفاع ومنطقة الدفاع
الخط الأخضر (١٩٤٩)	١٢٧٥	بر : ٩٨٥ بحر : ٢٩٠	بر فقط (١ : ١٣) بر وبحر (١ : ١٠)
خط وقف اطلاق النار (١٩٦٧)	١٧٤٢	بر : ٦٣٧ بحر : ١١٠٥	بر فقط (١ : ٨٦) بر وبحر (١ : ٣١)
بعد الانسحاب من سيناء	١٠٩٦	بر : ٧٣٤ بحر : ١١٠٥	بر فقط (١ : ٢٦) بر وبحر (١ : ٢٠)

المصدر: المصدر نفسه، ص ٢٣.

المنطقة التي يجب الدفاع عنها. وطبقاً لتلك المعايير، فإن المسافات بين الخط الأمامي الى المنطقة الحيوية في اسرائيل، هي مسافات ضئيلة للغاية، ولكن طبقاً للتغيرات التي ترتبت على حرب ١٩٦٧ (مع الأردن) وعلى وقف اطلاق النار عام ١٩٧٤ (مع سوريا) وعلى معاهدة السلام (مع مصر)، فقد حدث تحسن نسبي في تلك المسافات لمصلحة اسرائيل كما يظهر في جدول رقم (٢ - ٤)، وطبقاً لتلك التغيرات أيضاً، تحسنت النسبة بين طول هذا الخط وبين منطقة الدفاع. وكما يظهر من جدول رقم (٢ - ٥) فقد حدثت طفرة هائلة في تلك النسبة لمصلحة اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧، حيث ارتفعت من ١ : ١٣ (أو ١ : ١٠ بحساب البر والبحر) الى ١ : ٨٦ (أو ١ : ٣١ بحساب البر والبحر)، على أن هذه النسبة قلّت بعد الانسحاب من سيناء إلى ١ : ٢٦ (أو ١ : ٢٠ بحساب البر والبحر). أما الطابع الطبوغرافي في الخط الأمامي، فلا ينطوي على مزايا واضحة لاسرائيل. ففي الشمال مع لبنان، لا يوجد حاجز طبيعي، وفي الشمال الشرقي، أي هضبة الجولان يشكل نهراً الرقاد واليرموك حاجزاً طبيعياً في قطاع من المنطقة التي يقعان فيها، ولكن لا يوجد عائق متكامل،

ولكن الخط الأمامي الحالي يتلaff عيب «الانخفاض» الذي كان يتسم به الخط السابق على عام ١٩٦٧ في الجولان. أما في الشرق (مع الأردن) فإن نهر الأردن يشكل حاجزاً محدوداً، وفي الجنوب فإن الخط الحدودي مع مصر يتراوح بين الصعوبة واليسر في الدفاع. وفضلاً عن ذلك، فإن الحدود البحرية ليست طويلة، ولا تشكل تالياً مشكلة دفاعية صعبة لاسرائيل^(١٣).

من ناحية أخرى، يظهر التكوين الجغرافي لمنطقة الدفاع وجود مناطق ناتئة أو ضيقة يسهل اقتطاعها من جسم الدولة بواسطة العدو، مثل اصبع الجليل والشارون، وعمر القدس، والرأس الحاد لايلات. وإضافة الى ذلك، توجد تجمعات سكانية ومرافق مهمة، تتركز وراء المنطقة الحيوية المشار إليها، وتقع على مقربة شديدة من الخط الأمامي، وهي تجمّع بئر سبع في الجنوب وتجمّع طبريا - صفد في الشمال والشرق، وتجمّع نهاريا في الشمال^(١٤).

ويخلص القادة العسكريون الاسرائيليون الى أن تلك المعطيات كلها تخلق وضعاً استراتيجياً صعباً لاسرائيل، وتنطوي على ضعف مطلق ونسبي، في ما يتعلق بالعمق الاستراتيجي. ويرد أهارون ياريف على القول بأن العمق الاستراتيجي أصبحت له أهمية محدودة في عصر الصواريخ والطائرات الحديثة، بقوله: «أن ذلك الزعم مرفوض من أساسه، بخاصة عندما تكون الحرب حرباً تقليدية، وذلك لأسباب عدة. أولاً، ان تجربة الحروب الحديثة اثبتت عدم إمكان احتلال أية ارض واسعة بواسطة عمليات القصف وحدها، الا إذا انهارت الروح المعنوية لدى الشعب المهاجم منذ البداية. ثانياً، لا انتصار في حرب بدون احتلال ارض، ومن أجل الاحتلال لا بد من الطواير البرية، وهنا يلعب العمق الاستراتيجي (حتى النسبي) دوراً بالغ الأهمية. ثالثاً، أن المعالجة الصحيحة لموضوع العمق الاستراتيجي، قد تحد من اغراء الحرب لدى العدو المحتمل»^(١٥). أما القول بأن الأرض الواقعة وراء الخط الأمامي يمكن أن تشكل جزءاً من كيلومترات العمق الاستراتيجي، اذا لم تكن للعدو فيها قوات عسكرية دائمة، فيردّ عليه ياريف قائلاً بأن ذلك لا يمكن القبول به «لأن المقصود هنا هو ارض لا سيطرة لنا عليها، وفي إمكان العدو أن يتحرك عليها كما يشاء، الا اذا التزم بتجربتها من السلاح. ولكن، حتى في هذه الحالة، سيكون اعتبار هذه المساحة «مجال اذار» أكثر معقولة من اعتبارها جزءاً لا يتجزأ من العمق الاستراتيجي. والتجربة أكبر برهان»^(١٦).

إن ذلك كله يعني، بما لا يدع مجالاً للشك، أن تحديد أرض اسرائيل، وتعيين حدودها، تالياً، مستقبلاً، لا بد سوف تحكمه هذه النظرة حول «العمق الاستراتيجي». واذا

(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٢٤.

كانت تلك النظرة هي التي كانت وراء ضم اسرائيل الرسمي مرتفعات الجولان، فقد كانت أيضاً وراء اصرار اسرائيل - طبقاً للمعاهدة مع مصر عام ١٩٧٩ - على نزع سلاح المنطقة الشرقية من سيناء (المنطقة ب وفقاً لنص الملحق العسكري من المعاهدة) وتقييد السلاح في المنطقة الغربية منها (المنطقة أ وفقاً لنص الملحق العسكري)، كما أن تلك النظرة لأهمية العمق الاستراتيجي تفسر احتفاظ اسرائيل بالسيطرة الكاملة على الضفة الغربية لنهر الأردن، وقطاع غزة، حتى مع عدم اعلان الضم الرسمي لها. ويعني ذلك بالنسبة الى المستقبل، أن الضم الفعلي، وضمان حد معين من «السيطرة» على أرض الضفة الغربية وقطاع غزة، بيدوان من وجهة النظر الاسرائيلية مسألة حتمية غير قابلة للنقاش، وإن بقي الباب مفتوحاً لشكل هذه السيطرة. ولكن الأمر القابل للنقاش، هو مستقبل مليون وربع مليون فلسطيني تضمهم الضفة وغزة. تلك مسألة تخرج من اطار الجغرافيا والأمن والعمق الاستراتيجي، وتدخل في اطار السياسة والاجتماع، أي مستقبل الطابع اليهودي للدولة الاسرائيلية، ومستقبل نظامها السياسي. إن المواءمة بين ضرورة، أو حتمية، الاحتفاظ بأرض الضفة وغزة، وبين مخاطر ضم مليون وربع مليون فلسطيني هي واحدة من أكثر قضايا المستقبل تعقيداً وحيوية بالنسبة الى اسرائيل، إن لم تكن أهمها على الاطلاق.

٣ - مستقبل النشاط الاستيطاني

إذا كانت خصوصية اسرائيل تجعل من غير الممكن الحديث عن تطور السكان من دون الحديث عن الهجرة، ومن غير الممكن الحديث عن الأرض من دون الإشارة الى الميل للتوسع الاقليمي، فإن الحديث عن سكان اسرائيل وأرضها معاً لا يكتمل الا بالحديث عن الاستيطان ومستقبله فالاستيطان هو المشروع الصهيوني متجسداً في الواقع، وهو العملية التي يتم بمقتضاها «زرع» العنصر البشري اليهودي فوق «أرض فلسطين». ولذلك، فإن أي حديث عن أهداف اقتصادية أو سياسية أو عسكرية - أمنية للاستيطان، ينبغي ألا يغفل حقيقة أن الاستيطان هو الهدف في حد ذاته، قبل أي شيء آخر. وبعبارة أخرى، فإن تاريخ الاستيطان هو تاريخ المشروع الصهيوني وتاريخ دولة اسرائيل ولم يكن غريباً - تالياً - أن احتل الاستيطان أولوية تكاد تكون مطلقة لدى اسرائيل، على الرغم من أعبائه الاقتصادية الباهظة.

أ - الاستيطان وانشاء الدولة (قبل ١٩٤٨)

يرتبط الاستيطان اليهودي المنظم، وعلى نطاق واسع في فلسطين، بنشأة الحركة الصهيونية، وظهور منظماتها العالمية، خصوصاً المنظمة الصهيونية العالمية التي انشئت عام ١٨٩٨. أما قبل ذلك، فقد كان هناك وجود يهودي في فلسطين تركز أساساً في المدن مثل

القدس وطبريا وصفد. كذلك وجدت مجموعات يهودية للاستيطان الزراعي في أماكن محدودة على الساحل الفلسطيني، ارتبط وجودها خصوصاً بجهود بعض أصحاب الملايين اليهود في الخارج، وفي طليعتهم البارون روتشيلد. وحتى عام ١٨٩٨ كانت هناك ٢٢ مستوطنة يهودية في فلسطين بلغ مجموع مساحتها حوالي ٢٠٠ ألف دونم، وسكانها نحو ٤٩٠٠ نسمة. ولم يتعد إجمالي اليهود في فلسطين، في ذلك الوقت، ٢٥ ألف نسمة^(١٧).

ومع انعقاد المؤتمر الصهيوني الثاني، وإقرار قانون المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٨٩٨، أخذت هذه المنظمة على عاتقها كل الشؤون المتعلقة باستيطان فلسطين. وبدأ نشاطها الفعلي في عام ١٩٠١ مع تأسيس الصندوق القومي اليهودي. ومع بداية الحرب العالمية الأولى، كان عدد المستوطنات اليهودية في فلسطين قد ارتفع الى ٤٧ مستوطنة أقيم ١٤ منها، بدعم من المنظمة الصهيونية العالمية.

على أن الفترة الرئيسية للاستيطان اليهودي في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ تتمثل أساساً في فترة الانتداب البريطاني التي تمتد لعقود ثلاثة من ١٩١٨ الى ١٩٤٨، والتي سبقها صدور وعد بلفور عام ١٩١٧. وكما يقول أحد الدارسين الاسرائيليين: «ازدهرت الصهيونية خلال الانتداب البريطاني، وواصل اليسوف نموه، واشتد أثره على الرغم من صدور الكتاب الأبيض في ١٩٣٩، فازداد عدده من ٦٠ ألف يهودي الى أن تضاعف عشر مرات خلال ٣٠ عاماً، وأقام مؤسساته، وتوسع في الاستيطان، وطور صناعة، وأقام شبكة تعليم ومستشفيات، وعزز قدرته العسكرية»^(١٨). وبعد صدور وعد بلفور، وبدء موجة الهجرة اليهودية الثالثة في ١٩١٩ والسلاح بشرية الهجرة عام ١٩٢١، وتأسيس قسم الاستيطان في المنظمة الصهيونية، توسعت النشاطات الاستيطانية، واكتسبت أبعاداً أيديولوجية مع تبلور فكرة العقل الالكتروني (الكمبيوتر)، وقيام نظام الموساف. ويلاحظ أنه في تلك الأثناء، أيضاً، بدأت المقاومة العربية للاستيطان اليهودي. وهاجم المجاهدون العرب عام ١٩٢٠ عدداً من مستوطنات الجليل الأعلى. وكانت الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ ذات أثر مهم على طبيعة النشاط الاستيطاني والعوامل المحددة له. ووفقاً لـ «الاستراتيجية الاستيطانية» التي وضعها موشي شاريت عام ١٩٣٧ تم تفضيل الاعتبار السياسي - الأمني، على الاعتبار الاقتصادي - الزراعي في بناء المستوطنات، وتحديث بن غوريون عن حشد اليهود، من أجل الاستيطان «العادي»، وإنما من أجل الاستيلاء على مواقع رئيسة لتوسيع رقعة الأرض الواقعة تحت السيطرة اليهودية وتعزيز الأمن، وحماية طرق المواصلات^(١٩). وبعبارة موجزة، فإنه مع الالتزام البريطاني بإنشاء «الوطن القومي» لليهود،

(١٧) ألوف هارثفين، «إسرائيل نحو العام ٢٠٠٠: أربعة قرارات صعبة»، في: بيرس [وآخرون]، الكيان الصهيوني عام ٢٠٠٠، ص ١٨٧.

(١٨) عبدالرحمن ابو عرفة، الاستيطان: التطبيق العملي للصهيونية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر؛ عمان: دار الجليل، ١٩٨١)، ص ٢٠١.

(١٩) الحانات أوري، «دور الاستيطان واهدافه الأمنية»، في: أمن إسرائيل في الثمانينات، ص ١٩٩.

ومع بدء الأفكار التي طرحت حول إمكانية تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، اتجه النشاط الاستيطاني نحو الاستعداد لتلك اللحظة بضم أكبر مساحة من الأرض. وفي مواجهة السياسة البريطانية المعلنة في الكتاب الأبيض الذي صدر عام ١٩٣٩ والتي فرضت حظراً على الهجرة، وقلصت مساحات الأراضي المسموح بشرائها، نشط الصهاينة في استقدام الهجرة غير الشرعية، وتدعيم اليشوف اليهودي نفسه. وفي عام ١٩٤٨ وصل عدد اليهود في فلسطين الى ٦٥٠ ألف شخص. وعندما أصدرت الأمم المتحدة قرارها بتقسيم فلسطين، وتعيين حدود الدولة اليهودية في ذلك التقسيم، فإنما فعلت ذلك أساساً استناداً الى واقع الانتشار الاستيطاني، والطاقة المحتملة الاستيطانية في ذلك الحين^(٢٠).

ب - الاستيطان وتكريس الدولة (١٩٤٨ - ١٩٦٧)

تمخضت الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٨ عن تغييرات بعيدة المدى في المنطقة الواقعة تحت السيطرة اليهودية، وفي تركيب السكان فيها. وأبرز مظاهر ذلك التغيير هو هجرة مئات الألوف من العرب، وتركهم أراضيهم ومنازلهم وممتلكاتهم. ولقد ذُكرت تقديرات عدة لعدد اللاجئين الذين نزحوا من فلسطين عام ١٩٤٨^(٢١). ولكن يمكن القول، بشكل عام، أن عددهم يصل الى نحو ٧٥٠ ألف شخص، في حين بقي في اسرائيل نحو ١٦٠ ألف عربي، معظمهم في منطقة الجليل.

لقد استهدف الاستيطان في تلك الفترة (١٩٤٨ - ١٩٦٧) تكريس الدولة اليهودية وتثبيت أقدامها، في اطار الحدود التي تمخضت عنها اتفاقات الهدنة. واتجه جانب مهم من النشاط الاستيطاني، بعد الحرب مباشرة، الى شغل آلاف المساكن العربية في القرى العربية المهجورة، وفي مدن حيفا ويافا واللد والرملة وعسقلان ويثر السبع وطبريا وبيسان والقدس، فضلاً عن إقامة نقاط استيطانية جديدة فوق الأرض العربية المهجورة بلغت ٣٩ نقطة من منتصف أيار/مايو ١٩٤٨ الى نهاية ذلك العام. وفي عام ١٩٤٩ قام نحو ١٢٤ ألف مهاجر (يشكلون نصف عدد المهاجرين في ذلك العام) باستيطان القرى والبيوت العربية الخالية أيضاً^(٢٢).

على أن الاستيطان، داخل حدود اسرائيل، اتجه فضلاً عن ذلك، وفي الدرجة الأولى الى مناطق النقب والجليل والقدس.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٠٨.

(٢٢) أنظر عرضاً تفصيلياً لتلك التقارير المختلفة في: تيسير عبدالحافظ، «الوضع الديموجرافي للفلسطينيين، ١٩٢٢ - ١٩٧٥»، في: أحمد صديقي الدجاني، السيد يسين وعلى الدين هلال، الفلسطينيون في الوطن العربي: دراسات في اوضاعهم الديموجرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية (القاهرة: جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٨)، ص ٩١.

النقب: باعتبارها أرضاً صحراوية قفراء، تتيح المجال لتحقيق الحلم الصهيوني. وقد أفلح الاستيطان طوال الفترة من ١٩٤٨ حتى الآن في زيادة عدد السكان في بعض البؤر والمراكز المدنية في النقب الشمالي، خاصة في بئر السبع التي بلغ عدد سكانها نحو ١٢٠ ألف نسمة عام ١٩٨٤. كما ظهر انتشار استيطاني ملحوظ في النقب الشمالي الغربي، ولكن في ما عدا ذلك يعتبر الاستيطان في النقب ضعيفاً، بسبب عدم توافر المياه أو الأراضي الصالحة للزراعة، خصوصاً في أماكن مثل جبل النقب ووادي عربية. ولذلك، لا يزال ربع مليون نسمة فقط (يشكلون ٦ بالمائة من سكان إسرائيل) هم الذين يسكنون أراضي النقب التي تشكل ٦٠ بالمائة من مساحة سكان إسرائيل. لقد استمر هذا التجنّد في وضع النقب، منذ منتصف الستينات، خصوصاً بعد احتلال شبه جزيرة سيناء، وإعطائها أولوية «إثائية» في التخطيط الإسرائيلي. ومن وجهة النظر الإسرائيلية، فإن انسحاب الجيش من سيناء إلى النقب بعد المعاهدة مع مصر، وانتشاره فيها، لم يضيف الكثير إلى هدف إسكان النقب واستيطانه^(٢٣).

أما منطقة الجليل فإن الاتجاه نحو تكثيف الاستيطان اليهودي فيها، يعود في الدرجة الأولى إلى الرغبة في موازنة الكثافة العربية هناك خصوصاً في وسط الجليل، وهو ما يعرف بهدف «تهويد الجليل». ومع ذلك، ومن وجهة النظر الإسرائيلية، فإن هذا الهدف لم يتحقق بعد، وما تزال المراكز المدنية المعروفة باسم مدن «الاعار» أو «التطوير» في المنطقة ضئيلة السكان، وتفتقر المستوطنات القروية إلى الدعم الاقتصادي، خصوصاً مع تحويل الأولوية في الاستيطان الشمالي إلى الجولان^(٢٤).

أما القدس، فقد ظلت دائماً تحظى بأولوية في عمليات الاستيطان والتطوير، على الرغم من إقامة ٣٠ مدينة من مدن الاعار، بهدف نشر الاستيطان المدني وتوزيع السكان. وبداهة، فإن التركيز على القدس استند إلى الرغبة في تحويلها إلى عاصمة كبيرة، استناداً إلى أسباب سياسية و«دينية» وذلك على عكس المدن الأخرى القديمة أو مدن الاعار الجديدة. وبعد حرب ١٩٦٧ تزايدت أهمية القدس، وتكثفت الجهود لتحويلها إلى مركز حضري كبير ومقر للمؤسسات الرسمية.

وبعبارة موجزة، فإن الاستيطان داخل حدود إسرائيل قبل ١٩٦٧ (أي الخط الأخضر) ضعف، بعد ١٩٦٧ لمصلحة الاستيطان في المناطق العربية المحتلة، باستثناء مدينة القدس.

أما من حيث توزيع الاستيطان بين الحضر والريف، وعلى الرغم من حقيقة أن

(٢٣) أبو عرفة: الاستيطان: التطبيق العملي للصهيونية، ص ٢٠٧.

(٢٤) أليشع افرات، «جغرافية الاستيطان في إسرائيل حتى عام ٢٠٠٠»، في: بيرس [وآخرون]، الكيان الصهيوني عام ٢٠٠٠، ص ١١٠.

الاستيطان الزراعي هو أساس الاستيطان الصهيوني ووسيلته، وعلى الرغم من مثات المستوطنات الزراعية التي اقيمت، الا أن ظاهرة التجمع في المدن ليست عالية فحسب في اسرائيل، بل هي في ارتفاع مستمر. وفي عام ١٩٨٣ وصلت نسبة سكان المدن في اسرائيل الى ٨٩,٦ بالمائة (أي: ٣,٦١٦ ملايين نسمة)، في حين كانت نسبة سكان الريف (أو المستوطنات الزراعية) ١٠,٤ بالمائة (أي ٤٢٢ ألف نسمة تقريباً)، وبين السكان اليهود خصوصاً، فإن نسبة سكان المدن وصلت الى ٩٠,٢ بالمائة، (بتعداد قدره حوالى ٣,٠٢١ ملايين نسمة تقريباً). ويشير ذلك كله، الى قلة عدد السكان كاحدى الحقائق المميزة للاستيطان الزراعي.

وباستثناء المراحل الأولى من الاستيطان، حيث تحول كثير من المستوطنات الزراعية الى مراكز مدنية كبيرة، فقد اتجه التخطيط في اسرائيل الى انشاء ما يسمى مدن «الاعمار» أو «التطوير» - السابقة الاشارة اليها. وفي عام ١٩٨٣ وصل عدد المدن التي يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة الى ٦٢ مدينة، منها ثلاث مدن يزيد فيها عن ٢٠٠ ألف نسمة، وهي: القدس وتل أبيب وحيفا بضواحيها^(٢٥). (انظر جدول رقم (٢ - ٦)).

ج - الاستيطان وتوسع الدولة (بعد ١٩٦٧)

كما سبقت الاشارة توأ، فقد انتقل معظم النشاط الاستيطاني بعد حرب ١٩٦٧ الى المناطق المحتلة الجديدة، أي الضفة الغربية وغزة والجولان وسيناء. وارتبط توزيع المستوطنات، في تلك المناطق، بالهدف المعلن للتوصل الى «الحدود الآمنة» لاسرائيل، وخلق حقائق «أمر واقع» سياسي جديد. وعلى عكس الأمر قبل ١٩٦٧ حينما احتكرت «القيادة السياسية» في اسرائيل التخطيط للاستيطان وتنفيذه، فقد شهدت الأرض المحتلة مبادرات «شعبية» لجماعات يهودية، أنكرت ذلك الاحتكار للحكومة، وحملت على عاتقها تحقيق هدف «العودة الى أرض الاجداد»، في المناطق المحتلة، وهو ما بدا خصوصاً في جماعة «غوش ايمونيم».

وفي حين شككت وقائع حرب تشرين الاول/ اكتوبر، في الجدوى الزمنية الفعلية للمستوطنات حين أحليت مستوطنات الجولان في خلال التقدم الذي أحرزه الجيش السوري في بداية الحرب هناك، الا أن ذلك انعكس في الاعتقاد بضرورة تدعيم البعد «الأمني» للمستوطنات وضرورة اعدادها، بحيث تكون وقت الضرورة قاعدة ومقرّاً للقوات الميدانية^(٢٦). واقرن تسمّن الليكود للسلطة بالاصرار على توسيع الاستيطان في «أرض اسرائيل» بلا حدود.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ١١٠.

Statistical Abstract of Israel, 1985, p. 45.

(٢٦)

جدول رقم (٢ - ٦)
توزيع السكان في اسرائيل بين الريف والمدن
(حزيران/ يونيو ١٩٨٣)

عدد السكان (بالآلاف)	عدد الوحدات المدينة والريفية	النسبة المئوية	
٩٨٢	٣	٢٤,٣	اكثر من ٢٠٠ ألف ^(١)
٨١٨	٧	٢٠,٣	بين ١٠٠ أو ٢٠٠ ألف
٣٤٦	٥	٨,٦	بين ٥٠ و ١٠٠ ألف
٧٠٠	٢٢	١٧,٣	بين ٢٠ و ٥٠ ألفاً
٣٥١	٢٥	٨,٧	بين ١٠ و ٢٠ ألفاً
٤٢٠	٨٨	١٠,٤	بين الفين و ١٠ آلاف
٣,٦١٦	١٥٠	٨٩,٦	اجمالي المدن
١٤١	٤٠٥	٣,٥	موشاف
٩	٤٢	٠,٢	موشاف تعاوني
١١٦	٢٦٧	٢,٩	كيبوتزات
١١٦	٢٢٦	٢,٨	مخيمات أخرى
٤٠	—	١	بدو رحل وآخرون
٤٢٢	٩٤١	١٠,٤	اجمالي الريف
٤,٠٢٨	١٠٩١	١٠٠	الاجمالي

(١) هي مدن: القدس (٤٢٩ ألف نسمة)، تل ابيب وضواحيها (٣٢٧ ألف نسمة)، وحيفا (٢٢٦ ألف نسمة).
Statistical Abstract of Israel, 1985, p. 45 . المصدر:

وكما سبقت الإشارة، فإن أهمية الاستيطان في الاراضي المحتلة، تبدو واضحة من الأولوية القصوى التي يحتلها في الموازنة الاسرائيلية، على الرغم من نفقاته الباهظة. والواقع أنه يصعب كثيراً حصر المبالغ الفعلية التي تنفق على انشاء المستوطنات، خصوصاً بسبب تعدد مصادر التمويل، سواء من ميزانية الحكومة، أم من ميزانيات الوزارات المختلفة، أم

من ميزانية الوكالة اليهودية، أم التبرعات الداخلية والخارجية. وعلى ذلك، فإن بعض التقديرات تشير إلى أن إجمالي المبالغ التي انفقت على الاستيطان في المناطق المحتلة بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٨٣ كانت في حدود ٣ مليارات دولار (٣, ٢ مليار بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٨١ حسب التقديرات الإسرائيلية، يضاف إليها ٨٠٠ مليون دولار بافتراض متوسط سنوي لتكاليف الاستيطان مقداره ٤٠٠ مليون). وبحساب النفقات غير المباشرة للاستيطان، ربما يتراوح المعدل السنوي للانفاق على الاستيطان بين ٤٠٠ و ٨٠٠ مليون دولار. ويقدر أن كل مستوطنة تكلف ما بين نصف و ٢,٥ مليون دولار، كما يكلف بناء كل وحدة سكنية في الضفة ٦٤ ألف دولار^(٣٧).

وإذا انتقلنا إلى إشارة سريعة للواقع الاستيطاني في الأراضي العربية المختلفة، فإننا نجد تميزاً في كثافة الاستيطان وطبيعة انتشاره، من منطقة إلى أخرى. ولقد كان قرار الكنيسة في ٢٧ حزيران/ يونيو ١٩٦٧ بضم القدس الشرقية المحتلة إلى القدس الغربية، و«توحيد» المدينة، نقطة البداية لعملية التهويد الواسعة للمدينة التاريخية. وأعيد تخطيط الحدود البلدية للمدينة، بما سمح باستبعاد أعداد كبيرة من العرب خارجها، وأصبح التوازن السكاني فيها ٣: ١ لمصلحة اليهود. وطبقاً لما يذكره أحد الباحثين، فإن السياسات الإسرائيلية إزاء القدس منذ عام ١٩٦٧ وحتى الآن، انما سعت إلى تحقيق عدة أهداف محددة، في مقدمتها:

- تركيز أغلبية يهودية مطلقة في القدس، تكون العامل الحاسم في أي اتفاق مستقبلي حول المدينة.

- خلق حقائق تمنع تقسيم المدينة، مرة أخرى.

- محاصرة القسم العربي من المدينة استراتيجياً، وتوطينه بكثافة يهودية عالية تلغي عملياً أي أهمية لاحتلال إعادة تقسيم المدينة أو تسليم الجزء الشرقي فيها لسلطة أخرى.

- عزل القدس العربية عن غيرها من باقي مناطق الضفة الغربية، بتجمعات يهودية ضخمة.

- دفع المواطنين العرب إلى إقامة المساكن خارج الحدود البلدية^(٣٨).

ولقد تم تنفيذ هذه الأهداف، من خلال سياسات وإجراءات محددة للاستيلاء على

(٢٧) أوري، «دور الاستيطان وأهدافه الأمنية»، ص ١٢٢.

(٢٨) فؤاد حدي بسيسو، الاقتصاد الإسرائيلي بين دوافع الحرب والسلام (عمان: دار الجليل، ١٩٨٤)، ص

الأراضي العربية في المدينة، وتفيد إقامة المواطنين العرب فيها، ثم من خلال سياسة طموحة للاستيطان اليهودي واسع النطاق «وطبقاً لآخر الأرقام المتاحة، فقد بلغ عدد اليهود في القدس (طبقاً لاحصاء حزيران/ يونيو ١٩٨٣) ٣٠٦ آلاف نسمة تقريباً، في حين بلغ عدد السكان العرب ١٢٢ ألف نسمة تقريباً»^(٢٩).

أما الضفة الغربية ككل، فقد تعرضت - مقارنة بباقي المناطق التي وقعت تحت الاحتلال - لأكبر «هجمة» استيطانية، سواء من حيث عدد المستوطنات أم من حيث مساحة الأرض التي صودرت لمصلحة المستوطنات. وحتى أوائل عام ١٩٨٥، أقيمت في الضفة ١١٢ مستوطنة جديدة^(٣٠)، كان لها تأثير سلبي خطير على المواطنين العرب، وعلى مصالحهم الواسعة في المنطقة، حيث استنزفت المستوطنات اليهودية مصادر الانتاج الرئيسية لديهم، وبخاصة مصادر المياه والأرض الزراعية. وكانت الضفة الغربية هي محل الاهتمام الأساسي في المشروعات الاستيطانية العديدة التي طرحت بعد ١٩٦٧ مثل «مشروع الون» المعبر عن حزب العمل، وخطة شارون (من تجمع الليكود) التي طرحها عام ١٩٧٧، وخطة «غوش ايجونيم» في ١٩٧٨ وخطتي «دروبلس» و«فايتس» - مسؤولي الاستيطان في الوكالة اليهودية.

وعلى الرغم من أن معظم المستوطنات التي أقيمت في الضفة صغيرة للغاية، ويتراوح عدد المستوطنين في كل منها بين ١٠٠ و ٣٠٠ نسمة، إلا أن انتشارها كان من الاتساع بحيث وجدت المستوطنات في كل مفترق وكل زاوية تقريباً، في الضفة الغربية. على أن الأمر يختلف في ما يتعلق بحجم السكان في المنطقة، وفي اجزائها الأساسية، لأن عدد اليهود المقيمين الآن في الضفة هو نحو ٢٨ ألف نسمة فقط، في حين يبلغ عدد السكان العرب نحو ٨٠٠ ألف نسمة موزعين على أكثر من ٤٥٠ تجمعاً سكانياً، يتراوح عدد سكان كل منها بين مائة فرد في القرى وحتى ٧٠ ألف نسمة أو أكثر في المدن. وبذلك، فإن نسبة السكان اليهود إلى العرب في الضفة لا تتعدى ٢,٥ بالمائة^(٣١).

أما في قطاع غزة، فإن الاكتظاظ السكاني الهائل، والذي يتمثل في وجود ٥٠٠ ألف نسمة على ٣٦٣ كلم، أي بمعدل ١٣٨٠ شخصاً للكيلومتر المربع الواحد (ما يجعل القطاع من أكثر المناطق اكتظاظاً في العالم) كان من أهم الأسباب التي صعبت بشدة من التوسع الاستيطاني فيه، فضلاً عن محدودية مصادر المياه في المنطقة. ومع ذلك، فإن الموقع الاستراتيجي للقطاع، وخصوبة الأراضي الزراعية فيه، فتحا الشهية للاستيطان اليهودي.

(٢٩) ابو عرق، الاستيطان: التطبيق العملي للصهيونية، ص ٢٢٣.

(٣٠) Statistical Abstract of Israel, 1985, p. 45.

(٣١) الفرات، «جغرافية الاستيطان في اسرائيل حتى عام ٢٠٠٠»، ص ١٢٢.

ولذا، فإن التوسع الاستيطاني في القطاع ظل مرهوناً بمشروعات السلطات الاسرائيلية لنقل اعداد من سكان القطاع خارجة^(٣٢).

وعلى عكس قطاع غزة، فإن هضبة الجولان، التي طرد منها ١٥٣ الف نسمة خلال حرب عام ١٩٦٧، كانت منطقة مثالية للاستيطان اليهودي، باعتبارها تجسد أكثر من غيرها فكرة «أكبر مساحة من الارض، وأقل عدد من السكان». ونظراً إلى الأهمية الاستراتيجية للهضبة، فإن جميع الاحزاب الصهيونية اتفقت على ضرورة الاستيطان المكثف فيها، وهو ما حدث فعلاً منذ عام ١٩٦٧. على أن حقيقة اجتياح القوات السورية لمستوطنات الجولان في بداية حرب ١٩٧٣، انعكست على طبيعة التخطيط الاستيطاني في المنطقة، بحيث تم تجنب فكرة اقامة مستوطنات انفرادية منعزلة، والاستعاضة عنها بإقامة ما يسمى «مجمعات استيطانية». وكان اول تطبيق لذلك هو انشاء مدينة «كتسرين» في وسط الهضبة، لتكون حلقة ربط بين مستوطنات شمال الهضبة، والمستوطنات الواقعة في جنوبها^(٣٣).

اما شبه جزيرة سيناء، وعلى الرغم من عدم دخولها ضمن «املاك ارض اسرائيل»! في التوراة، فقد كانت دائماً محل الاطماع الاستيطانية الصهيونية منذ بداية القرن الحالي. وعلى عكس الحال بعد حرب ١٩٥٦ حينما أخلت اسرائيل سيناء قبل أن تتمكن من زرع المستوطنات فيها، فإن الفترة الواقعة بين حرب ١٩٦٧ وبين توقيع اتفاقات كامب ديفيد، شهدت نشاطاً استيطانياً ملحوظاً في سيناء، بدوافع اقتصادية وأمنية. وقد تركز النشاط الاستيطاني في سيناء في ثلاث مناطق محددة، وهي: منطقة شرم الشيخ بسبب تحكمها في مضائق تيران، والشريط الساحلي الموازي لخليج العقبة، الذي يتيح السيطرة على الخليج كما يربط بين شرم الشيخ واسرائيل، ثم منطقة مشارف رفح، وتتمثل أهمية الاستيطان فيها في خلق حاجز سكاني يهودي يفصل بين التجمع السكاني العربي الكثيف في قطاع غزة، وبين التجمع السكاني العربي المصري في مدينة العريش. وتبلورت مشروعات الاستيطان في تلك المناطق، في مشروعين آخرين، أولهما خاص بالقطاع الشرقي الجنوبي يشمل شرم الشيخ والساحل الشرقي لسيناء على خليج العقبة، ولم ينفذ منه في الواقع الا اقامة مدينة «اوثيرا» في شرم الشيخ نفسها، فضلاً عن مستوطنتين اثنتين، على الرغم من الخطط التي كانت موضوعة لانشاء تسع مستوطنات على الأقل. اما المشروع الثاني والخاص بالقطاع الشمالي، أو ما سمي بمنطقة مشارف رفح فقد أقيمت بمقتضاه - حتى عام ١٩٧٧ - ١٢ مستوطنة قروية ومدينية، وأنشئت ايضاً ضمنه مدينة ياميت كمركز بلدي لتلك المستوطنات^(٣٤)، قبل ان يتم اخلاؤها جميعاً، طبقاً لاتفاقات كامب ديفيد.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٢٣.

(٣٣) ابو عرفة، الاستيطان: التطبيق العملي للصهيونية، ص ٢٦٨.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

د - مستقبل الاستيطان

إن النتائج الفعلية للسياسة الاستيطانية بعد ١٩٦٧ ، مضافاً إليها إخلاء مستوطنات سيناء طبقاً لاتفاقات كامب ديفيد، كانت كلها عوامل دفعت مسؤولي الاستيطان في إسرائيل والمهتمين بشؤونه، إلى مراجعة الخطوط العريضة لتلك السياسة، بحيث يمكن القول إن محتوى تلك المراجعة يمكن أن يقدم لنا مؤشرات تطور السياسة الاستيطانية في إسرائيل، في العقود الثلاثة المقبلة.

وكما سبقت الإشارة، فإن السياسات الاستيطانية الإسرائيلية اتجهت في أعقاب حرب ١٩٦٧ إلى التركيز الشديد على الاستيطان في الأراضي العربية المحتلة، مع ما يعنيه من تغليب الاعتبارات السياسية والعسكرية والأمنية في عمليات الاستيطان، قبل أي شيء آخر، أي خلق الوقائع الجديدة في الضفة الغربية وغزة والجولان وسيناء، بما يخدم ضم أكبر قدر من هذه الأراضي لإسرائيل مستقبلاً، وفرض ما تعتبره إسرائيل «الحدود الأمنة». على أن هذا الأمر بدأ في التغير في أواخر السبعينات، ومع الانسحاب من سيناء، وظهرت الدعوة إلى ضرورة إعادة الاهتمام بالاستيطان اليهودي، داخل حدود إسرائيل ما قبل عام ١٩٦٧ أي داخل ما يسمى بـ «الخط الأخضر»، بما يعنيه ذلك من تغليب للاعتبارات الاقتصادية والزراعية (أي الاعتبارات الاستيطانية الأصلية)، على الاعتبارات السياسية والأمنية التي نشأت بعد ١٩٦٧. ولكن هذه الدعوة إلى إعادة الاهتمام بالاستيطان داخل الخط الأخضر، لم تكن على الإطلاق الدعوة إلى إهمال الاستيطان اليهودي في الأراضي العربية المحتلة، بقدر ما عنيت أولاً: ألا يكون هذا الاستيطان على حساب الاستيطان داخل الخط الأخضر، وثانياً: أن يكون الاستيطان في الأراضي المحتلة أكثر «كفاءة» في تحقيق الأهداف الإسرائيلية. عند هذه النقطة يمكن القول، إن الاتفاق على ضرورة دعم الاستيطان داخل الخط الأخضر، لا يوازيه اتفاق على حدود الاستيطان في الأرض العربية المحتلة، وهو ما يظهر خصوصاً في اختلاف الخطط الاستيطانية بين كل من المعراخ والليكود.

في ما يتعلق بالاستيطان داخل الخط الأخضر، في العقود الثلاثة المقبلة، ليس هناك اختلاف على ضرورة توسيع القدس وترسيخ طابعها اليهودي، وعلى تنمية الاستيطان في منطقة الجليل للحد من الثقل العربي فيها، وعلى الاهتمام بما يسمى مدن «الاعمار» الكثيرة التي انشئت منذ قيام إسرائيل.

وهناك توجه لدى المؤسسات الاستيطانية لمضاعفة عدد السكان اليهود في القدس في السنوات الخمس والعشرين - بدءاً من عام ١٩٨٥، أي حوالي عام ٢٠١٠ وعلى أن يصبح عدد سكان القدس عام ٢٠٠٠ قرابة ٧٥٠ ألف نسمة على الأقل، مع توزيع السكان على مناطق أكبر، تتجاوز الحدود الحالية للمدينة. وهناك مشروعات أخرى تتحدث عن هدف

حشد مليون يهودي في «القدس الكبرى» في خلال ثلاثة عقود (تبدأ من أوائل الثمانينات). وفي جميع الحالات، فإن التحدي المستقبلي الذي تنطوي عليه مثل تلك الأهداف هو مدى القدرة على اضافة ما بين ثلاثة آلاف وستة آلاف يهودي إلى المدينة سنوياً. وكذلك القدرة على الحفاظ على التوازن السكاني الحالي بين العرب واليهود. وفي هذا السياق، فإن الذين يستبعدون امكان تحقيق الزيادة المرجوة في عدد اليهود، يجهلون التركيز على مدينة القدس نفسها، وعدم التوسع الكبير خارجها^(٣٥).

ولقد كان من الطبيعي أن تكون منطقة الجليل في مقدمة المناطق التي تحظى بالاهتمام في إطار الدعوة إلى عودة الاستيطان داخل الخط الأخضر، بسبب الغالبية العربية فيها، كما سبقت الإشارة. وقد جاء أبرز تصور لمستقبل الجليل في إطار مشروع رعنان فايتسي الاستيطاني، والذي خطط للفترة بين ١٩٧٧ و ١٩٩٢ وكانت المشكلة هي أن منطقة الجليل، وتحديدًا المنطقة الواقعة بين الناصرة والحدود اللبنانية لم يزد عدد اليهود فيها - لدى بدء تطبيق الخطة عام ١٩٧٨ - عن ٦٢ ألف شخص، في مقابل ١٦٠ ألف مواطن عربي. وفي مواجهة هذا الواقع، فإن مستقبل منطقة الجليل يضحى، من وجهة النظر الاسرائيلية، مرهوناً أولاً بالقدرة على الحد من التفوق الديمغرافي العربي، وثانياً بالحفاظ على الأراضي غير المستغلة التي تسيطر عليها اسرائيل، وذلك لمصلحة الاستيطان اليهودي. ولأن كل الجهود الاستيطانية الماضية لم تسفر عن تغيير جذري في تلك الأوضاع، فإن مستقبل منطقة الجليل في العقود القليلة المقبلة يبدو، من وجهة النظر اليهودية، مرهوناً بمستقبل «المراصد» أو «نقاط المراقبة» الاستيطانية، التي أنشئت في المنطقة، بعد ١٩٧٧ وبلغت حتى أوائل ١٩٨٥ ٣٢ مرصداً، إضافة إلى عدد آخر من المستوطنات ومدن الإعمار في المنطقة. ومع ذلك، وكما يقدر أحد الباحثين الاسرائيلين: «من المحتمل أن ينجح تشكيل المراصد في الحيلولة في المستقبل، دون استمرار السيطرة العربية على أراضي الدولة، لكن من المشكوك فيه أن ينجح في تحسين الميزان الديمغرافي في المنطقة مع حلول عام ٢٠٠٠، خصوصاً وأن الطاقة الاستيعابية لكل مرصد مكبلة، ولا تتعدى بعض عشرات من العائلات^(٣٦)».

وأخيراً، يرتبط مستقبل الاستيطان داخل الخط الأخضر بمستقبل ما يسمى «مدن الاعمار» أو التطوير، التي أنشئت منذ عام ١٩٤٨ كشكل للاستيطان المدني، بهدف اعادة توزيع السكان اليهود للمناطق ذات الكثافة السكانية المنخفضة، وتركيز الاستيطان قرب مراكز التجمع السكاني العربية مثل الناصرة والجليل، فضلاً عن اقامة تجمعات مدنية في الأماكن ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية (مثل ايلات وأشدود) أو في وسط المناطق الزراعية حيث تلعب مدينة الاعمار دور «عاصمة» تلك المنطقة الريفية. وعلى الرغم من أن

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

(٣٦) افرات، «جغرافية الاستيطان في اسرائيل حتى عام ٢٠٠٠»، ص ٨١٩.

تلك المدن تضم الآن ما يقرب من ٢٠ بالمائة من السكان اليهود في اسرائيل، إلا أنها ما تزال تعاني مشاكل عدة، فضلاً عن عدم تحقيق الكثير من أهدافها الأساسية مثل اعادة توزيع السكان، والتقريب بين مستويات التنمية والتقدم في الأجزاء المختلفة من الدولة. ولذلك كله، فإن مستقبل الاستيطان في اسرائيل، يرتبط أيضاً بالقدرة على تطوير الاستيطان المدني الذي يمثله مدن الاعمار، والذي يعني أيضاً - في اللحظة نفسها - التركيز على الصناعة المتطورة، إلى جانب الاستيطان الزراعي التقليدي.

على ان مستقبل الاستيطان في الأراضي العربية المحتلة يبدو محلاً للاختلاف بين القوى السياسية المختلفة. ولكن هذا الاختلاف لا يتعلق بضرورة الاستيطان في الأرض المحتلة أو بجدواه، وإنما يتعلق بدرجة اتساعه والمسار الاقليمي الذي يتخذه. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٣، وفي إطار مشروع الخارطة السكانية في اسرائيل الذي يتحدث عن اسرائيل ذات السبعة ملايين نسمة عام ٢٠١٠، والذي أقرته اللجنة الاسرائيلية للتخطيط والبناء، فإن ذلك المشروع استهدف ايصال عدد السكان اليهود في الضفة الغربية وقطاع غزة خلال عام ٢٠١٠ إلى حوالى ١٢٥ ألف نسمة، أي بنسبة ١,٨ بالمائة من عدد سكان اسرائيل، خلال التاريخ نفسه^(٣٧).

داخل هذا التوجه العام، تتجه استراتيجية حزب العمل خصوصاً، كما وضعها ايغال ألون، إلى تركيز الاستيطان في الأراضي العربية المحتلة على المواقع الاستراتيجية والمناطق الصالحة للزراعة وذات الموارد المائية، وتجنب مناطق الكثافة السكانية العربية.

وفي المقابل، فإن قوى اليمين الصهيوني، وكما تتجسد بشكل واضح في مشروعات الحزب القومي الديني، تؤكد على مبدأ أن من حق كل يهودي الاستيطان في أي مكان من أرض اسرائيل، وأنه ينبغي التطلع في المدى القريب للاستيطان مناطق ميراث اجدادنا، والأماكن التي كانت نحن البها الأمة خلال كل سنوات المنفى». وفي ظل ذلك المبدأ، تعطي الأفضلية للاستيطان في قلب الضفة الغربية والجولان، ونشر المستوطنات، بصرف النظر عن التداخل مع التجمعات السكانية العربية.

إن هذا الاختلاف في النظرة إلى الاستيطان في الأرض المحتلة، يترجم - على صعيد المؤسسات الاستيطانية - في الاختلاف بين كل من رعنان فايتسي رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية وعضو حزب العمل، وميتياهو دروبلس الذي يرأس قسم الاستيطان في المنظمة الصهيونية العالمية ويتقاسم - مع فايتسي - وضع الخطط الاستيطانية في الأرض المحتلة. ووفقاً لخطة فايتسي، عن الاستيطان الصهيوني بين ١٩٧٧ و ١٩٩١ فإنه ينبغي تجنب

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١٢٢.

التداخل مع التجمعات العربية، والتركيز على خط استيطاني يمتد من شمال الضفة إلى جنوبها على المنحدرات المحاذية لخط طولكرم - قلقيلية، على أن تقام المستوطنات على أعماق تتراوح بين ٢ و٣ كلم شرق خط الهدنة، مع استثناء منطقتي القدس وكفر عصيون حيث يقام عدد من المستوطنات في هذه المناطق على الرغم من الوجود العربي في محيطها. أما الخطط الأخرى، التي تبناها اليمين الصهيوني، مثل خطط «شارون» وجماعة «غوش إيمونيم» والتي يعبر عن روحها العامة أيضاً دروبلس، فإنها كلها تتحدث عن مستقبل للاستيطان في الأراضي العربية المحتلة، يقوم ليس فقط على التداخل في قلب تلك المناطق، وإنما أيضاً على محاصرة وتطويق مناطق الكثافة العربية، وعزلها بعضها عن البعض الآخر، وبذل أقصى الجهود لتوفير العدد اللازم من اليهود للوفاء بتلك المشروعات.

وفي واقع الأمر، فإن مصداقية كل تلك المشروعات، وقابليتها للتطبيق العملي، تظل مرتبطة بظروف أخرى تتجاوز مجرد النيات والأهداف الإسرائيلية، وترتبط بمجمل ظروف المواجهة بين إسرائيل وبين القوى العربية، في الأرض الفلسطينية المحتلة وخارجها.

إن مقتضى المعطيات السابقة عن السكان والأرض ومستقبل النشاط الاستيطاني في إسرائيل، هو التداخل الوثيق بين تلك المتغيرات الثلاثة ذات الأهمية الاستراتيجية الحيوية. فزيادة السكان - أي السكان اليهود تحديداً - ترتبط ارتباطاً مباشراً بالنجاح في جذب أعداد كبيرة من المهاجرين. وإحكام قبضة إسرائيل على الأراضي التي تطمح في ابتلاعها، مرهون بدرجة أساسية بالنجاح في توفير السكان اليهود لتلك الأراضي.

وفي الواقع، فإن فحص تلك المتغيرات يقودنا - في ما يتعلق بعناصر القوة الإسرائيلية مستقبلاً - إلى ملاحظة مشكلتين أساسيتين:

اولهما: مشكلة التناقض بين رغبة إسرائيل في الاحتفاظ بالضفة الغربية وقطاع غزة، وبين عدم الرغبة في ضم مزيد من السكان العرب إليها، والذين يبلغون في المنطقتين معاً أكثر من مليون وربع مليون فلسطيني. إن رؤية إسرائيل لحل هذه المشكلة سوف يؤثر على توجهاتها المستقبلية إلى حد بعيد، وفي الوقت نفسه، فإن علاقات توازن القوى بينها وبين جيرانها العرب، سوف تنعكس بدورها على كيفية هذا الحل.

ثانيهما: مشكلة اتجاها التوازن الديمغرافي بين العرب واليهود، داخل إسرائيل، الذي يميل باطراد إلى مصلحة الطرف العربي، طبقاً لمعدلات الزيادة الطبيعية المتوقعة. إن هذا التطور لا يؤثر فقط على الطابع «اليهودي» للدولة، ولكن يحمل أيضاً - وكما سوف يظهر في الأجزاء التالية - إمكاناً متزايداً لحدوث تغييرات لا مفر منها في النظام السياسي الإسرائيلي نفسه، وفي طبيعة الصراعات الاجتماعية في داخله.

وهاتين المشكلتين، فإن أثر التطورات في أرض اسرائيل وفي النمو الديمغرافي فيها، على توجهاتها المستقبلية، بخاصة في الصراع مع الوسط الاقليمي المحيط بها، يبدو أكبر بكثير مما هو قائم، بالنسبة الى أية دولة أخرى.

ثانياً: الآفاق المستقبلية للاقتصاد الاسرائيلي

بعد ما يقرب من أربعة عقود من قيام دولة اسرائيل، تبلور عدد من العوامل أو المتغيرات الرئيسية التي يمكن القول إنها تحكم مستقبل هذا الاقتصاد، في العقود الثلاثة المقبلة. وقيل تحديد هذه العوامل أو المتغيرات، سيكون من المفيد، ابتداء، التعرف على الملامح العامة المميزة للاقتصاد الاسرائيلي، وعلى هيكل هذا الاقتصاد، وفق آخر البيانات المتاحة، أي بيانات منتصف الثمانينات.

١ - ملامح الاقتصاد الاسرائيلي

تتفق أغلبية الكتابات عن الاقتصاد الاسرائيلي على عدد من «اللامح العامة» التي يتسم بها، ويمكن تلخيصها على النحو التالي:

أ - غلبة الاعتبارات الاستراتيجية والايديولوجية على الاعتبارات الاقتصادية المحضة

لم يكن مشروع إنشاء «وطن قومي» لليهود، مجرد مشروع اقتصادي لكنه، بالدرجة الأولى، مشروع استيطاني ذو ملامح عرقية وعنصرية، تلاقى مع مصالح استراتيجية دولية كبرى، بحيث وظّف الاقتصاد لخدمة هذا الهدف، قبل أي شيء آخر «لقد تلازمت تلك الصفة منذ بدايات الاقتصاد الصهيوني في فلسطين قبل ١٩٤٨ بفترة طويلة، وظلت تميزه بعد قيام الدولة ولا تزال لصيقة به حتى الوقت الراهن»^(٣٨). والأمثلة على ذلك في التاريخ الاقتصادي الاسرائيلي لا حصر لها: فتركيز النشاط الاستيطاني الصهيوني، منذ البداية، على الزراعة كان لتعميق الانتماء إلى الأرض، ولسد حاجة الأعداد المتزايدة من المهاجرين إلى الغذاء. واختيار مواقع المستوطنات اليهودية كان يتم لاعتبارات استراتيجية وأمنية، ولتحقيق السيطرة على أكبر مساحة من الأرض، بصرف النظر عن الجدوى الاقتصادية المباشرة. والتركيز على الصناعات الاستهلاكية التقليدية، وقطاعات الاسكان والتشييد ومشروعات البنية الأساسية كان يخضع أيضاً لاعتبارات خدمة النشاط الاستيطاني، وبناء دولة قومية حديثة. والاتجاه المبكر إلى تشغيل المفاعلات الذرية كانت تحكمه الاعتبارات الاستراتيجية أساساً. والمستويات العالية

(٣٨) بيسسو، الاقتصاد الاسرائيلي بين دوافع الحرب والسلام، ص ٨٥.

للأجور للعمال اليهود، والتضحية بالأجور الأقل للعمال العرب، تفسّر بالحفاظ على العمل اليهودي وتثبيته في وطنه الجديد، وهكذا.

ب - الدور المركزي للدولة في توجيه الاقتصاد

اتساقاً مع ما سبق، فإن السلطة المركزية للدولة، وكما تتجسّد في الحكومة الاسرائيلية على وجه التحديد، تلعب الدور الحاسم في توجيه الاقتصاد القومي على الرغم من الدور الكبير للقطاع الخاص في ذلك الاقتصاد. وتزاوّل الحكومة هذا التأثير في البيئة الاقتصادية، من خلال السياسات النقدية والمالية وسياسة الأجور والهجرة واستخدامات الأراضي والدفاع. وفضلاً عن ذلك، ترتفع نسبة الانفاق الحكومي إلى الناتج القومي الاجمالي، بحيث تعدت الـ ٥٠ بالمائة في بعض السنوات، كما يساهم القطاع الحكومي (بخاصة إذا أضيفت إليه مشروعات المستدروت) بأقل من نصف الناتج القومي الاجمالي بقليل. كما تراوحت مساهمة الحكومة في تمويل الاستثمار بين الثلثين في الخمسينات، والنصف في الستينات، ثم عادت وارتفعت بعد حرب ١٩٦٧ ثم حرب ١٩٧٣. وكما يقرر ناداف صفران فإن «كل هذه العوامل مجتمعة تجعل النشاط الحكومي محور الاقتصاد، وتتيح للحكومة وسائل التأثير في الحياة اليومية ورفاهية المواطنين، إلى درجة غير معتادة في بلاد أخرى»^(٣٩).

ج - ضعف الامكانيات الذاتية

الاقتصاد الاسرائيلي اقتصاد صغير الحجم، فقير الوارد. فتعداد سكان اسرائيل في بداية عام ١٩٨٥ كان ٢,٢٣٠ مليون نسمة، وتنتمي اسرائيل، وفقاً لبيانات البنك الدولي للإنشاء والتعمير، إلى مجموعة الدول ذات الدخل المتوسط التي بلغت ٥٩ دولة عام ١٩٨٣، ومن بين هذه الدول لا نجد سوى ١٧ دولة يقل عدد السكان فيها عن ٤ ملايين نسمة^(٤٠). ويعني ذلك، من الناحية الاقتصادية، أن هذا الحجم لا يشكل قاعدة تكفي لاستيعاب ناتج الكثير من المشروعات الانتاجية في حجمها الأمثل، أي أن الانتاج في مثل هذا المجتمع ليس «اقتصادياً» بالتعبير الفني، مما يقتضي تخصيص مبالغ كبيرة لدعم المشروعات وإعانتها، وهو ما يحدث فعلاً في اسرائيل^(٤١). من ناحية أخرى، فإن مساحة اسرائيل البالغة حوالي ٢٠,٥ ألف كلم^٢ هي مساحة ضئيلة، فضلاً عن أن نصفها تقريباً يقع في المنطقة القاحلة في صحراء النقب. وهذا يجعل الموارد الزراعية في اسرائيل محدودة للغاية، كما يضيف على المياه أهمية

George T. Al - Abed, «The Israel Economy: A Historical and Prospective Interpretation», (٣٩) paper presented at: Symposium on «Israel and U.S. - Israeli Relation», Centre for Hebraic Studies of Yarmouk University, Amman (Jordan), 12 - 14 January 1986, p. 5.

Nadav Safran, *Israel: The Embattled Ally* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, (٤٠) 1978), p. 113.

(٤١) البنك الدولي، تقرير عن التنمية في العالم، ١٩٨٥ (القاهرة: مؤسسة الاهرام، ١٩٨٥)، ص ٢٠٠.

محورية في التخطيط الاستراتيجي لاسرائيل. وطبقاً لبيانات البنك الدولي أيضاً، لا توجد من بين مجموعة الدول متوسطة الدخل (التي تنتمي إليها اسرائيل) سوى خمس دول فقط تقل مساحتها عن ٢١ ألف كلم^(١١). ونتيجة لضيق الرقعة هذا، يقل بشدة نصيب اسرائيل من الموارد الطبيعية، التي يبرز في مقدمتها البوتاس والفوسفات، كما يوجد الحديد بكميات قليلة ونوعية منخفضة. وتعاي اسرائيل أيضاً فقراً في موارد الطاقة، إذ يقارب انتاجها من النفط والغاز الطبيعي الـ ١ بالمائة فقط من استهلاكها السنوي^(١٢).

د - العلاقة الحيوية بالخارج

ابتداءً، يمكن أن نفسر تلك العلاقة الحيوية مع العالم الخارجي بالطابع الاستيطاني للدولة اليهودية، والذي يعني، من الناحية الاقتصادية، الاعتماد على جلب البشر والأموال (أي العمل، ورأس المال) من الخارج. ولقد سبقت الإشارة إلى الهجرة اليهودية باعتبارها في مقدمة العوامل التي تفسر نمو السكان في اسرائيل في الفترة الماضية، كما سنشير - في الأجزاء التالية - إلى التدفق الهائل والمستمر لرؤوس الأموال على الكيان الصهيوني قبل انشاء الدولة وبعده، وتضاعفه إلى مستويات قياسية بعد ١٩٧٣. إن هذا التدفق يشكل ظاهرة فريدة لم يسبق لها مثل في العلاقات الدولية، فلم يحدث أن تلقت دولة مثل هذا المدد المتصل من المعونات، ولتمويل الزيادة المباشرة في الاستهلاك وليس لأغراض التنمية فقط. ولم يحدث أن كانت المعونات لأية دولة بالكثافة التي حدثت في الحالة الاسرائيلية (مقياس متوسط نصيب الفرد)، بل يصعب أن نجد مثل هذا التدفق الغزير المنتظم داخل الدولة الواحدة لمساعدة المناطق الأقل تقدماً داخلها. إن هذه الموارد هي التي مكنت الاقتصاد الاسرائيلي «من تحقيق مستويات استهلاكية تعتبر من أعلى المستويات العالمية، على الرغم من ضخامة الاستثمارات، وعلى الرغم من الانفاق الكبير في أوجه التوطين وفي القطاع العسكري والقطاعات المعاونة له. وهذه الموارد نفسها هي التي أعطت القيادة السياسية والإدارة الاقتصادية هامشاً واسعاً للمناورة، وبجاًلاً واسعاً لتجاهل قواعد الاستخدام الرشيد للموارد الاقتصادية، من دون أن ينهار الاقتصاد»^(١٣).

والواقع، وكما يقرر جورج العابد بحق، أن تلك السمة للاقتصاد الاسرائيلي إنما تعود إلى أصول الاقتصاد اليهودي في فلسطين، عندما كانت دول المتروبول في أوروبا وأمريكا الشمالية تشكل «ليس فقط مصدراً للقوة البشرية رفيعة المستوى، والايديولوجية والنظرة إلى العالم... وإنما أيضاً - وعلى المستوى الاقتصادي الضيق - ولدت المصدر الأول للتفاعل والتبادل في السلع والخدمات ورأس المال»^(١٤). وفي هذا السياق، لم يكن غريباً، أن الاقتصاد اليهودي في فلسطين - الذي كان منعزلاً عن الاقتصاد المحلي - استفاد بقوة من فترة الانتداب البريطاني، كما انتعش الاقتصاد

(٤٢) جودة عبدالحق، من يساعد اسرائيل (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٥)، ص ١٥.

(٤٣) البنك الدولي، المصدر نفسه، ص ٢٠١.

(٤٤) *Quarterly Economic Review of Israel* (1984), p. 9.

(٤٥) عادل حسين، العلاقات الاقتصادية بين مصر واسرائيل، أوراق مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٣

(قبرص: شركة الخدمات النثرية المستقلة المحدودة، ١٩٨٤)، ص ١٢.

اليهودي وقت الحرب العالمية الثانية، من جراء توفير الخدمات والسلع للقوات البريطانية المحاربة^(١٧).

هـ - العزلة عن الاقتصاد الاقليمي المحيط

إن الوجه الآخر للرابطة الحيوية للاقتصاد الاسرائيلي بالعالم الخارجي (بخاصة أوروبا الغربية والولايات المتحدة) هو عزلة هذا الاقتصاد وغربته، وسط البيئة الاقليمية المحيطة به. وإذا كانت بعض المنافذ الاقليمية قد أُنِحت للاقتصاد الاسرائيلي منذ ١٩٦٧ بسبب احتلال الضفة الغربية وغزة، ثم من خلال معاهدة السلام مع مصر في ١٩٧٩ وغزولبنان في ١٩٨٢، فإن ذلك لم يبلغ حقيقة أن التوجه الأساسي للاقتصاد الاسرائيلي هو مع العالم الخارجي، وأن التفاعلات الاقتصادية والتجارية مع بلاد المنطقة لا تزال متواضعة. إن هذا يعني افتقاد الاقتصاد الاسرائيلي للتعاون الاقتصادي في مجاله الحيوي الاقتصادي - الجغرافي الرحب، وحرمانه من مزايا اقتصادات النطاق (أو اقتصادات الحجم الكبير) بما تعنيه من تكامل الأسواق والاستغلال الأمثل للطاقة الانتاجية المتاحة، فضلاً عن إقامة المشروعات التنموية المشتركة ذات الحجم الكبير^(١٨).

٢ - الهيكل الحالي للاقتصاد الاسرائيلي

إن نقطة الانطلاق للتعرف على الاحتمالات المستقبلية للاقتصاد الاسرائيلي إنما تتمثل في التعرف على واقعه الراهن، وذلك في إطار الملامح العامة له، والتي تمت الإشارة الموجزة إليها، ويمكن تناول الهيكل الحالي للاقتصاد الاسرائيلي، من خلال التعرف على مجالات توليد الناتج المحلي، وقطاعات توظيف قوة العمل، ثم التعرف على استخدامات الناتج المحلي، قبل التعرف، في النهاية، على هيكل الانتاج في الاقتصاد الاسرائيلي.

أ - مصادر الناتج المحلي

يوضح الجدول رقم (٢ - ٧) توزيع الناتج المحلي الصافي في اسرائيل على الفروع الرئيسية للنشاط الاقتصادي للفترة بين ١٩٥٠ و ١٩٨٤. وطبقاً لهذا الجدول، فإن قطاع الصناعة ولد ما يقرب من ٢٣ بالمائة من الناتج المحلي عام ١٩٨٤، في حين يساهم قطاع الزراعة والغابات والصيد بـ ٤ بالمائة فقط من هذا الناتج، كما تصل مساهمة قطاع الخدمات إلى ٣٣,٣ بالمائة. فهذه الأرقام تجعل الاقتصاد الاسرائيلي أقرب إلى اقتصادات الدول الرأسمالية، منه إلى الدول الآخذة في النمو، وذلك طبقاً لتقارير البنك الدولي^(١٩).

(٤٦) Al - Abed, «The Israel Economy: A Historical and Prospective Interpretation,» p. 2.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٤.

(٤٨) بيسسو، الاقتصاد الاسرائيلي بين دوافع الحرب والسلام، ص ٤٢.

جدول رقم (٢ - ٧)
تطور الناتج المحلي الصافي في اسرائيل

السنة	١٩٥٠	١٩٦٠	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٨٤
القطاع					
الزراعة والغابات والصيد	١١,٤	١١,٦	٦,٦	٦,٥	٤
الصناعة	٢١,٧	٢٣,٩	٢٤,٧	٢٠,٥	٢٢,٩
التنبييد والكهرباء والماء	١٠,٩	٩,٤	١٢,٤	١١,٣	٧,٥
التجارة والمطاعم والفنادق	١٢,٥	١٠,٦	١١,٦	١٢,٨	١٢,٩
النقل والتخزين والمواصلات	٧,٤	٨	٨,٩	٦,٩	٦,٨
المال وخدمات الأعمال	٢,٥	٣,٨	٦,٣	٨	١٠,٨
ملكية المساكن	٥,٢	٥,٩	٦,٣	٧,٢	٨,٩
الخدمات العامة والمجتمعية	١٨,٢	١٨,٨	١٩,٦	٢٣,٩	٢٣,٣
الخدمات الشخصية والأخرى	١٠,٢	٨	٣,٦	٢,٩	٢,٩
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

المصدر: المصدر نفسه، ص ٨.

ب - توزيع العمالة على القطاعات الاقتصادية

يوضح الجدول رقم (٢ - ٨) توزيع المشتغلين (أي: قوة العمل المدنية مطروحاً منها العاطلين عن العمل) على القطاعات الاقتصادية المختلفة في اسرائيل من عام ١٩٥٠ إلى ١٩٨٤. وأولى الملاحظات هنا تتعلق بالدور المهم الذي يلعبه قطاع الخدمات في استيعاب العمالة، حيث استوعب هذا القطاع وحده عام ١٩٨٤ ٢٩,٥ بالمائة منها. ويمكن أن يعزى ذلك إلى أهمية واتساع البيروقراطية الحكومية في مجتمع قائم على الاستيطان، كذلك الطبيعة العسكرية للكيان الصهيوني. أما قطاع الصناعة فهو يلي قطاع الخدمات ويستوعب ٢٣,١ بالمائة من اجمالي المشتغلين عام ١٩٨٤. فلماذا اضعفنا إلى ذلك حقيقة أن قطاع التجارة يستوعب ١٢,٦ بالمائة من المشتغلين، فربما يفسر ذلك كله بما تتسم به اسرائيل من صغر الحجم، وتواضع قاعدة الموارد المتاحة لها.

على ان الانخفاض المستمر في نسبة المشتغلين في الزراعة، من ١٧,٦ بالمائة عام ١٩٥٠ إلى ٥,٣ بالمائة عام ١٩٨٤ يوضح، أكثر من غيره، أوجه تشابه هيكل الاقتصاد الاسرائيلي مع هيكل اقتصادات الدول المتقدمة.

جدول رقم (٢ - ٨)
هيكل المشتغلين في القطاعات الاقتصادية المختلفة

القطاع	السنة	١٩٥٠	١٩٦٠	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٨٤
الزراعة	١٧,٦	١٧,٣	٨,٨	٦,٤	٥,٣	
الصناعة	٢١,٥	٢٣,٢	٢٤,٣	٢٣,٧	٢٣,١	
الكهرباء والماء	٢,٠	٢,٢	١,٢	١,٠	٠,٩	
التشييد	٩,٣	٩,٣	٨,٣	٦,٤	٥,٩	
التجارة	١٣,٥	١٢,٣	١٣,٠	١١,٧	١٢,٦	
النقل	٦,٦	٦,٢	٧,٥	٦,٩	٦,٦	
المال	—	—	٥,٢	٨,٢	٩,٦	
الخدمات العامة	٢١,٢	٢٢,٠	٢٤,٠	٢٩,٦	٢٩,٥	
الخدمات الخاصة	٨,٣	٧,٥	٧,٧	٦,٢	٦,٤	
اجمالي العدد (بالآلاف)	٥٨٥,٧	٧٠١,٨	٩٦٣,٢	١٢٥٤,٥	١٣٥٩,٠	

المصدر: المصدر نفسه، ص ٥.

ج - استخدامات الناتج المحلي

طبقاً للجدول رقم (٢ - ٩) يحتل الاستهلاك الحكومي مكاناً مهماً في استخدامات الناتج القومي الاجمالي لاسرائيل، ويعتبر ذلك مؤشراً تقريبياً للدور المهم الذي تلعبه الحكومة في الاقتصاد، كما أنه مؤشر على أهمية الانفاق العسكري، حيث يشمل الانفاق الحكومي العام الانفاق الرأسمالي على المشروعات ذات الطبيعة العسكرية، إضافة إلى أوجه الانفاق الجاري جميعاً. وطبقاً لرقم الانفاق الحكومي لعام ١٩٨٤ فإن نسبة هذا الانفاق من اجمالي الاستخدامات المحلية تصل إلى حوالي ٢٧ بالمائة وإلى ٣٤ بالمائة من الناتج القومي الاجمالي.

وطبقاً للجدول نفسه، يبدو واضحاً أن الاستخدامات المحلية تزيد على الناتج القومي الاجمالي بنسبة تتراوح بين ٢١,٢ بالمائة و٥٩ بالمائة وهي تساوي بالضرورة نسبة الواردات الصافية، وتقدم مؤشراً مهماً على اعتداد الاقتصاد الاسرائيلي على الموارد الخارجية، منذ نشأته وحتى الآن.

كذلك يرصد الباحثون حقيقة، ليس فقط تصاعد الاستهلاك الحكومي العام، وإنما أيضاً تعرضه لارتفاعات حادة في سنوات الحروب بين العرب واسرائيل. فمن متوسط ١٩

بالمائة خلال ١٩٥٠ - ١٩٥٥ قفزت النسبة إلى ٢٦ بالمائة عام ١٩٥٦ ثم ارتفعت إلى ٢٠ بالمائة خلال ١٩٦٠ - ١٩٦٦ إلى ٣٠ بالمائة عام ١٩٦٧ . أما بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر فقد سجلت هذه النسبة مستوى قياسياً حيث بلغت عام ١٩٧٥ حوالى ٤٥ بالمائة^(٢١).

جدول رقم (٢ - ٩)
بعض المؤشرات الاقتصادية الكلية
(بالمليون شاقل - أسعار ١٩٨٠)

١٩٨٤	١٩٨٠	١٩٧٠	١٩٦٠	١٩٥٠	
١٠٨,٢٣٥	١٠٣,٠٦٢	٦٢,٥٩١	٢٧,٢٦٣	٩,٨٢٠	النتاج القومي الاجالي (كلي)
٧٥,٥٠٥	٦٣,٠٠٢	٢٧,٢٠٠	١٧,٤٦٣	٦,٨٢٠	الاتفاق الاستهلاكي الخاص (كلي)
٣٦,٦٧٧	٣٧,٠٩٨	٢٦,٧٥١	٦,٧٩١	٢,٩٨٠	الاتفاق الاستهلاكي الحكومي العام
٢٥,٤٣٤	٢٤,٨٥٢	٢١,١٨٥	٩,٢٥٨	٥,٨١٣	اجمالي التكوين الرأسمالي المحلي
١٣٧,٦١٦	١٢٤,٩٥٢	٨٥,١٣٦	٣٣,٥١٢	١٥,٦١٣	اجمالي الاستخدامات المحلية
١٢٧,١	١٢١,٢	١٣٦	١٢٢,٩	١٥٩	نسبة الاستخدامات المحلية إلى الناتج القومي الاجمالي (نسبة مئوية)

المصدر: المصدر نفسه، ص ٨.

٣ - العوامل الحاكمة لمستقبل الاقتصاد الاسرائيلي

يفضي التحليل الدقيق للاقتصاد الاسرائيلي، ولأهم ملامحه، واهيكل العام له، إلى تحديد عدد من العوامل أو المتغيرات التي يمكن القول بأنها سوف تحكم، أكثر من غيرها،

(٤٩) انظر: البنك الدولي، تقرير عن التنمية في العالم، ١٩٨٥، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

مستقبل هذا الاقتصاد، في العقود القليلة المقبلة. إن العلاقة الحيوية مع الخارج تتجسد الآن في العلاقة الشديدة الخصوصية مع الولايات المتحدة الأمريكية، وتغلب الاعتبارات الاستراتيجية على القرارات الاقتصادية إثمًا قاد في النهاية إلى عسكرة الاقتصاد الاسرائيلي، والنمو المطرد للصناعات الحربية فيه. والضعف الكامن في الاقتصاد الاسرائيلي، وضعف موارده، دفعا بقوة إلى تعظيم إمكانيات هذا الاقتصاد، من خلال التركيز الشديد على البحث العلمي والتطوير التكنولوجي، وأخيراً، فإن الاستراتيجية الاسرائيلية سوف تظل تسعى إلى كسر طوق العزلة الإقليمية، كشرط مهم للإزدهار المستقبلي للاقتصاد الاسرائيلي. وبذلك كله، فإننا سنكون ازاء أربعة عوامل حاکمة لمستقبل الاقتصاد الاسرائيلي:

العلاقة مع الولايات المتحدة - مستقبل الصناعة العسكرية - إمكانيات التطوير العلمي والتكنولوجي - ثم العلاقة بالوسط الاقليمي.

أ - العلاقات الاقتصادية مع الولايات المتحدة

يخلص كثير من الباحثين إلى أن عام ١٩٦٧ مثل نقطة تحول مهمة في العلاقات الأمريكية - الاسرائيلية. لقد حسن الأداء الاسرائيلي في تلك الحرب من «موقعها الاستراتيجي»، وتلازم مع عمليات إنشاء علاقات وثيقة ودائمة مع الولايات المتحدة. وفي ذلك الوقت تقريباً، بدأت الولايات المتحدة زيادة مستوى مساعداتها الاقتصادية والعسكرية إلى اسرائيل، خصوصاً بعد أن فرضت فرنسا حظرها على مبيعات السلاح لاسرائيل بسبب حرب ١٩٦٧. وهكذا فإن المعونة الأمريكية الرسمية لاسرائيل، والتي كان متوسطها السنوي في الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٥ نحو ٦٠ مليون دولار سنوياً، ارتفعت إلى متوسط سنوي مقداره ٢٣٠ مليون دولار خلال السنوات الثمانية التالية. وشهدت تلك الفترة نفسها قفزة في النمو الاقتصادي في اسرائيل، بحيث كان معدله حوالى ١٤ بالمائة سنوياً في الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٢.

وكانت حرب ١٩٧٣ نقطة حاسمة تالية، في تطور العلاقات الأمريكية - الاسرائيلية. فقد ترتب على أحداث تلك الحرب تأكيد حيوية وألوية التفوق العسكري الاسرائيلي على البلدان العربية المجاورة، وهو ما استلزم، لدى الاسرائيليين، توثيق العلاقات مع الولايات المتحدة. ومن جانبها، فإن الولايات المتحدة - وكما عبرت عن ذلك بوضوح ممارسات هنري كيسنجر - رأت اسرائيل، في اطار الصراع الكبير بين الشرق والغرب، حليفاً يعتمد عليه في المنطقة، أكثر من أي طرف آخر. وكان من شأن ذلك كله، ان انتقلت العلاقة الأمريكية - الاسرائيلية إلى مستوى كيني جديد، صارت اسرائيل بمقتضاه مصلحة مباشرة للولايات المتحدة. هذه العلاقة الجديدة بدت واضحة من خلال مؤشرات أساسية عدة^(١):

(١) عبدالحالقي، من يساعد اسرائيل، ص ١٤.

- فالتدفق السنوي للمعونة الأمريكية، العسكرية والاقتصادية، إلى إسرائيل والذي كان قد ارتفع في الفترة السابقة، كما أشرنا تسواً، ارتفع بشدة مرة أخرى بعد ١٩٧٣. فمن متوسط سنوي مقداره ١٢٢ مليون دولار في أثناء الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٧٢ ارتفع إجمالي المعونة الرسمية الأمريكية إلى إسرائيل إلى ٢٣٢٠ مليون دولار سنوياً، في العقد التالي لحرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣. وفي حين لم تكن المعونات السابقة تتضمن هبات معينة، فإن نسبة المعونة التي أخذت تقدم كهبات ارتفعت باطراد بحيث وصلت عام ١٩٨٥ إلى نسبة ١٠٠ بالمائة وهي نسبة يحتمل أن تظل قائمة في المستقبل غير المنظور.

إن الدين الخارجي الرسمي على إسرائيل، للولايات المتحدة، والذي وصل عام ١٩٨٥ إلى حوالي ٤٥ بالمائة من إجمالي الدين الخارجي العام لإسرائيل، والبالغ حوالي ٢٤ مليار دولار، ثم استبعد فعلياً من قائمة الأعباء على إسرائيل منذ ١٩٨٤، فبدءاً من ذلك الحين، استقر العمل على أن تكون المعونة الاقتصادية الأمريكية دائماً من الكبر بحيث تغطي مدفوعات خدمة الدين الأمريكي على إسرائيل. وكان ذلك، في الواقع، بمثابة اعلان رسمي بانتهاء السمة «الخارجية» لذلك الدين، كما لو أن الدين الأمريكي على إسرائيل، يشبه دين الولايات المتحدة على نفسها، وتالياً فهو لا يستحق الدفع^(٥١).

- عملت إسرائيل، بعد ١٩٧٣، على تكثيف جهودها لتنمية التكنولوجيا العليا، وبخاصة في الصناعات المرتبطة بالدفاع. وهذا السعي إلى الحصول على آخر التطورات التكنولوجية لم يكن ممكناً من دون الحصول على الضوء الأخضر من الإدارة الأمريكية، بحيث أمكن لإسرائيل الوصول إلى آخر التطورات العلمية والتكنولوجية في الصناعة الأمريكية. وإلى جانب رؤوس الأموال الأمريكية، تدفق العلماء ورجال الأعمال، وعقدت المؤتمرات الاستثمارية، من أجل إنشاء مشروعات مشتركة، وخلق فرص للاستثمار، في مجالات التكنولوجيا العليا.

- وعلى المستوى العسكري، تكثف التعاون بين إسرائيل والولايات المتحدة ليس فقط في مجالات الاستخبارات وجمع وتبادل المعلومات، وإنما أيضاً في ميدان تصميم وتصنيع الأسلحة. لقد وجد هذا التعاون أقصى تعبير عنه في مذكرة التفاهم بين البلدين التي وقعت عام ١٩٧٩، والتي أتاحت الفرص لأنشطة البحوث المشتركة ولتطوير الصناعة العسكرية الإسرائيلية، كما تحسنت أيضاً فرص بيع الأسلحة الإسرائيلية للولايات المتحدة، وتقديم خدمات لصيانة الطائرات والسفن الحربية. وأخيراً، في تحرك غير عادي وغير مسبوق، خصّصت الولايات المتحدة اعتمادات رسمية لتطوير الطائرة المقاتلة الجديدة (لافي) التي تصنع في إسرائيل، وهي ميزة نادرة ما قدمت إلى الصناعة المحلية الأمريكية. ولقد تم فعلاً

Al - Abed, «The Israel Economy: A Historical and Prospective Interpretation», p. 14.

(٥١)

تخصيص حوالى مليار دولار لذلك المشروع، كما سوف يلزم تدبير مبلغ يتراوح بين ٢,٥ و ٣ مليارات دولار، قبل ان تتمكن الطائرة من العمل. وحتى يتم انتاج العدد المطلوب من الطائرات، ستكون هناك حاجة إلى اتفاق ما يزيد عن ١٢ مليار دولار، وبداهة فإن اسرائيل لا تملك القدرة التكنولوجية أو المالية اللازمة للنهوض بأعباء مثل ذلك المشروع الطموح، من دون الاغداق الأمريكي الهائل عليها. وأخيراً، وفي أثناء الشهور الأولى من عام ١٩٨٦ أعلن عن مشاركة اسرائيل في مبادرة الدفاع الاستراتيجي الأمريكية أو ما عرف باسم برنامج «حرب النجوم»^(٥٢).

والواقع أن العلاقة الأمريكية - الاسرائيلية أصبحت منذ بداية الثمانينات، وكما يخلص جورج العابد بحق، «رابطة حميمة بل ورابطة عضوية تقريباً» وبناء عليه، لم يعد من الملائم الحديث عن تلك العلاقة ضمن السياق المعتاد للعلاقات الدولية، بالمفهوم الشائع^(٥٣).

وفضلاً عن تلك المؤشرات الأساسية، فإن العلاقات الاقتصادية بين الولايات المتحدة واسرائيل، اتسمت أيضاً بلامح إضافية فريدة:

- فالمعونة الأمريكية الرسمية لاسرائيل أخذت تقدم مؤخراً في شكل تحويلات نقدية، تندفع في بداية كل فترة، من دون أي قيود على كيفية إنفاق تلك النفود أو نواحي الانفاق. وهو أمر غير معتاد بالنسبة إلى برامج المعونة الأمريكية، التي تربط تلك المعونة بوجود مشروعات تنموية محددة سلفاً بدقة.

- حصلت اسرائيل على ما يقرب من ١٥ مليار دولار في شكل تحويلات خاصة من الولايات المتحدة منذ إنشاء دولة اسرائيل، ذهب معظمها لتمويل مشروعات البنية الأساسية المادية والاجتماعية، كما أخذت، منذ ١٩٦٧، تتجه إلى تمويل إنشاء المستوطنات اليهود الجديدة في الأراضي العربية المحتلة: مرتفعات الجولان، والضفة الغربية وقطاع غزة.

- ابتداء من أول أيلول/سبتمبر ١٩٨٥، وطبقاً لاتفاق أمريكي - اسرائيلي، ألغيت كل الرسوم المفروضة على جميع الواردات الاسرائيلية تقريباً، مع ملاحظة أن الولايات المتحدة هي أكبر شريك تجاري لاسرائيل، حيث تقدم لها ٣٠ بالمائة من وارداتها، وتحصل على حوالى ٢٥ بالمائة من صادراتها.

في ضوء تلك الحقائق، يكون من المنطق استنتاج أن مستقبل الاقتصاد الاسرائيلي، في فترة الاستشراف، سوف يعتمد إلى حد بعيد على تطور تلك العلاقة العضوية الخاصة مع

(٥٢) المصدر نفسه، ص ١٦. انظر أيضاً: توماس ستوفر، المساعدات الأمريكية لإسرائيل: الرباط الحيوي، أوراق مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢١ (قبرص: شركة الخدمات النشرية المستقلة المحدودة، ١٩٨٣)، ص ١٩.
Al - Abed, Ibid., p. 17. (٥٣)

الولايات المتحدة، وهي العلاقة التي تحكمها أيضاً - من وجهة النظر الأمريكية - احتياجات المصالح الأمريكية في المنطقة، في إطار استراتيجيتها العالمية في مواجهة الاتحاد السوفياتي.

ب - تطور صناعة السلاح

يستند إدراج تطور صناعة السلاح ضمن أهم العوامل التي سوف تحكم التطور المستقبلي للاقتصاد الإسرائيلي عموماً، إلى الموقع القيادي الفريد الذي أخذت تلك الصناعة تحتله فيه، وعلى الرغم من أنه يمكن العودة، في ما يتعلق بتاريخ صناعة السلاح في إسرائيل، إلى ما يزيد عن ٥٠ عاماً، وتحديدًا، عام ١٩٣٣ أي قبل إنشاء «الدولة» بحوالي عقد ونصف العقد، إلا أن تتبّع هذه الصناعة عبر ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ثم ١٩٧٣ يوضح بوضوح بجلاء أن الحقبة الأخيرة، التي بدأت مع حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣ كانت حاسمة في تقرير مصير هذه الصناعة. فبعد تلك الحرب الأخيرة حسم نهائياً الجدل الذي طال في إسرائيل حول جدوى السعي إلى تحقيق اكتفاء ذاتي فعلي في الأسلحة الرئيسية، وذلك لمصلحة الاتجاه المجدد لفكرة الاكتفاء الذاتي، والتي مثلها أساساً شمعون بيريز. وعلى الرغم من أن ذلك الاتجاه كان قد اكتسب مصداقية معينة بعد إيقاف فرنسا شحن أسلحتها إلى إسرائيل عام ١٩٦٧ إلا أن جدواه ظلت محلاً للشك، فضلاً عن تواضع مضامينه الاقتصادية. وعلى ذلك، وعلى الرغم من أن نصيب الانفاق الدفاعي من إجمالي الناتج المحلي قد ارتفع في السنين من ١٠ بالمائة إلى حوالي ١٨ بالمائة في أوائل السبعينات، إلا أنه بعد حرب ١٩٧٣ فقط بدأ يحظى بنسبة مهمة، حيث ارتفع إلى ما يزيد عن ٣٠ بالمائة في أوائل الثمانينات. أما الصناعات العسكرية التي كانت توظف أقل من ١٠ بالمائة من القوة العاملة الصناعية لدى قيام حرب ١٩٧٣، فإنها أصبحت تستوعب أكثر من ٣٠ بالمائة منها بعد ذلك بعقد من الزمان. كما أن الصادرات العسكرية التي كانت قيمتها عام ١٩٧٢ ٥٠ مليون دولار، ارتفعت بشدة لتصل إلى ١٢٠٠ مليون دولار عام ١٩٨٥ بما يساوي ٤٠ بالمائة من الصادرات الصناعية، و ٢٠ بالمائة من الصادرات الإسرائيلية كلها^(٥٤) (انظر أيضاً جدول رقم (٢ - ١٠)).

وبذلك احتلت إسرائيل مكانها ضمن أهم الدول المصدّرة للسلاح في العالم (انظر جدول رقم (٢ - ١١)). وكما يقول جوثيل بنين: «لقد ألقي الانتاج العسكري الضخم عبئاً ثقيلاً على الموارد الرأسمالية في إسرائيل. وعمدت إسرائيل إلى التصدير المكثف لانتاجها العسكري، في محاولة منها لمعادلة هذا العبء. وكلما اتسع القطاع العسكري من الاقتصاد، كلما تزايدت الصادرات من السلع العسكرية. ويبدو أن عسكرة الاقتصاد الصناعي، والتوسع في الصادرات العسكرية، قدما علاجاً لكل من الضعف الهيكلي والتأرجح للقطاع الصناعي في إسرائيل، والتكلفة العالية للأسلحة المستوردة، والقيود

(٥٤) المصدر نفسه، ص ٢٥.

جدول رقم (٢ - ١٠)
الصادرات العسكرية الاسرائيلية
(١٩٧٢ - ١٩٨٣)

السنة	النسبة المئوية من جملة الصادرات	القيمة بملايين الدولارات (أسعار جارية)
١٩٧٢	٩,٧	٥٢,٤
١٩٧٥	١٧,٩	١٧٩
١٩٧٦	٢٢,٨	٢٨٥
١٩٧٧	٢٤,٨	٣٩٠
١٩٧٨	٢٥,٧	٥٠٣
١٩٧٩	٢٥,٩	٦٥٧
١٩٨٠	٢٠	٦٦٨
١٩٨١	٢٢,٢	٨٠٧
١٩٨٢	٢٣	٨٠٩
١٩٨٣	٢٢	٧٠٣

المصدر: جوثيل بينين، «إسرائيل: الاقتصاد السياسي ومستقبل الدولة العسكرية»، المستقبل العربي، السنة ٩، العدد ٩١ (أيلول/سبتمبر ١٩٨٦)، ص ١٠٧، نقلًا عن:

Yoram Peri and Amnon Neubach, *The Military Industrial Complex in Israel: A Pilot Study* (Tel Aviv: International Centre for Peace in the Middle East, 1985), p. 69.

السياسية التي يحتمل فرضها على هذه الواردات. ومن الجلي اليوم أن انتاج الأسلحة وتصديرها هما حجر الأساس في الاقتصاد القومي الاسرائيلي، وفي التوجهات السياسية الخارجية لاسرائيل»^(٥٥).

وبهذا القول، يتفق بنين مع أهارون كليمان في تقريره أنه «مع اقتراب منتصف الثمانينات، صار تصدير الأسلحة التزاماً قومياً واستراتيجياً، أكثر من كونه تكتيكاً ذرائعياً لأي إئتلاف حكومي منفرد، ويستتبع ذلك - إذا ما تأكد استمرار هذه التوجهات - أن تصنيع وتصدير السلاح سوف تكون له أهمية مركزية في سعي الدولة اليهودية إلى تحقيق الأمن، وإحياء الاقتصاد وتنميته، واتخاذ مسار سياسي مستقل خلال هذا العقد. وبالتالي في التسعينات أيضاً»^(٥٦). وعموماً، فإن تأثير صناعة السلاح وتصديره، على

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٥٦) جوثيل بينين، «إسرائيل: الاقتصاد السياسي ومستقبل الدولة العسكرية»، المستقبل العربي، السنة ٩، العدد ٩١ (أيلول/سبتمبر ١٩٨٦)، ص ١٠٧.

جدول رقم (٢ - ١١)
أهم الدول المصدرة للسلاح (١٩٨٢)

١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢
الاتحاد السوفياتي	الاتحاد السوفياتي	الاتحاد السوفياتي
الولايات المتحدة الامريكية	الولايات المتحدة الامريكية	الولايات المتحدة الامريكية
فرنسا	فرنسا	فرنسا
بريطانيا	ايطاليا	بريطانيا
المانيا الغربية	بريطانيا	رومانيا
تشيكوسلوفاكيا	المانيا الغربية	الصين
ايطاليا	هولندا	ايطاليا
يوغوسلافيا	السويد	تشيكوسلوفاكيا
بولندا	الصين	المانيا الغربية
سويسرا	تشيكوسلوفاكيا	البرازيل
كوريا الجنوبية	سويسرا	بولندا
الصين	كندا	اسبانيا
كوريا الشمالية	اليابان	كوريا الشمالية
هولندا	البرازيل	كوريا الجنوبية
السعودية	اسرائيل	اسرائيل
تركيا	الجمهورية العربية الليبية	الجمهورية العربية الليبية
النمسا	كوريا الجنوبية	مصر
اسرائيل (*)	مصر	سويسرا
بلجيكا	السعودية	كندا
البرازيل	السعودية	هولندا

(*) تقدر صادرات السلاح لكل من الدول الثلاث بـ ١٤٠ مليون دولار.

«ACDA, 1970-1980», pp. 75-116.

SIPRI Yearbook, 1982, pp. 188 and 192-193.

«ACDA, 1972-1982», pp. 58-94.

المصدر: Aaron S. Klieman, *Israel's Global Reach: Arms Sales as Diplomacy* (Washington, D.C.: Pergamon-Brassey's, 1985), p. 208.

مجمّل الاقتصاد الاسرائيلي في الوقت الراهن، وفي المستقبل المنظور، تنبعان من تأثيرهما في خمسة مجالات محددة:

- فصناعة السلاح تستوعب في إسرائيل، كما سبقت الإشارة، ما يقرب من ٣٠ بالمائة من اجمالي القوة العاملة الصناعية في اسرائيل، وإن كان أهارون كليمان لا يصل إلى ذلك التحديد الدقيق، ويذكر أن اجمالي عدد العاملين في صناعة السلاح يتراوح بين ٥٨ ألفاً و١٢٠ ألفاً، وأن نسبتهم في جميع الأحوال لن تقل عن ٢٠ بالمائة من اجمالي القوة العاملة الصناعية^(٥٧). ومن الناحية الكيفية، تسهم الصناعات العسكرية، أكثر من غيرها، في استيعاب المهاجرين الماهرين تكنولوجياً، وفي منع نزوح تلك المهارات خارج اسرائيل، خصوصاً وأن العاملين في هذا القطاع يتمتعون بظروف عمل طيبة ومريحة.

- كما تسهم صناعة السلاح، من خلال التصدير الى الخارج تحديداً، في تقليل نفقات الوحدات المنتجة، وتالياً خفض اسعارها. وفي تلك الحالة، فإن التصدير المتوقع يضحى أحد العوامل التي تبرر انتاج أسلحة معينة، من حيث اسهامه في خفض تكاليفها، وهو ما قابلته اسرائيل خصوصاً في ما يتعلق بانتاج الطائرة «كفير»، والدبابة «ميركافا»، ثم الطائرة «لافي».

- تسهم صناعة السلاح، أكثر من أي مجال آخر، في دفع وتقدم البحث العلمي والتطوير التكنولوجي. وكما سنشير حالاً، فإن الاعتماد على التفوق التكنولوجي كان عنصراً مهماً في النمو الاقتصادي الاسرائيلي عموماً، ولكنه يكتسب أهمية خاصة في مجال السلاح الذي تطرأ عليه باستمرار تحسينات وتطورات علمية وتكنولوجية. كما ان التقدم الذي يتم احرازه في مجال البحث والتطوير العسكري، لا يلبث ان ينقل الى الصناعات المدنية.

- وتسهم صناعة السلاح، من خلال التصدير، في توفير النقد الاجنبي لمواجهة اعباء الدين الخارجي على اسرائيل، ومواجهة نفقات توفير الطاقة ومشتريات السلاح من الولايات المتحدة، فضلاً عن توافر السلع الاستهلاكية. كما ان توافر السلاح محلياً، يساعد على توجيه موارد النقد المحلي نحو استثمارات محلية أخرى.

- واخيراً، فإن صناعة السلاح، وتصديره، تقدمان أهم مصدر لموازنة الميزان التجاري الاسرائيلي مع العالم الخارجي. وإذا كان من الصعوبة بمكان تقدير اجمالي العائدات من تلك التجارة على وجه الدقة، الا ان جميع المصادر تشير الى ان الرقم في السنوات الاخيرة، لا

(٥٧) المصدر نفسه، نقلاً عن:

Aaron S. Klieman, *Israeli Arms Sales: Perspectives and Prospects* (Tel Aviv: Tel Aviv University, Jaffe Centre for Strategic Studies, 1984), p. 3.

يمكن ان يقل عن مليار دولار^(٥٨).

على ان مستقبل صناعة السلاح في اسرائيل وصادراتها من السلاح، يظل مرهوناً بثلاثة شروط أو تحديات:

- التحدي الأول، يتعلق بالحدود الموضوعية للقدرة الاسرائيلية على انتاج السلاح وتصديره. فهناك، على سبيل المثال، حقيقة ان الشرق الاوسط، لأسباب سياسية، هو منطقة مغلقة تقريباً امام صادرات السلاح الاسرائيلية، كما يشير احد الباحثين الى طبيعة النظام السياسي في اسرائيل، التي لا تسمح في احيان كثيرة باحترام السرية الواجب مراعاتها في تصدير السلاح. كذلك، فان صادرات السلاح تكون عرضة للتغير بتغير الحكومة في اسرائيل. على ان النقطة المحورية هنا، تتعلق بحقيقة ان اسرائيل ربما تكون قد وصلت الى الحدود القصوى في النمو الصناعي العسكري، وأحد الأمثلة البارزة على ذلك هو مشروع انتاج الطائرة «لافي» الذي تجاوزت نفقات انتاجه التقديرات التي وضعها الخبراء الاسرائيليون. ونتيجة لذلك، فان الهيكل الاقتصادي الحالي لاسرائيل، انما يعاني خطر أن يصبح متجاوزاً لحدود قدراته، معتمداً بشدة على تصنيع السلاح وتصديره.

- التحدي الثاني، يتعلق بتقلب ظروف الطلب على السلاح وصعوبة الاعتماد على بعض العملاء أو الزبائن بشكل موثوق فيه. كذلك، فان الظروف الاقتصادية الصعبة، تجعل كثيراً من الدول المشتري للسلاح تعجز عن استكمال سداد ثمن السلاح الذي تسلمته.

- أما التحدي الثالث، فيتعلق بالمنافسة القوية في عالم تسويق السلاح، وحدوث حالات من زيادة العرض العالمي له. فالغلبة المطلقة في سوق السلاح سبقت لقرى كبرى مثل الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا والمانيا الغربية. وفي مواجهة هذا الواقع، يظل على اسرائيل ان تتوقع باستمرار ان تفقد، ولأسباب عدة، المزايا النسبية التي تتمتع بها.

ج - البحث العلمي والتطوير التكنولوجي

اذا كان هناك اليوم ما يشبه الاجماع، لدى العلماء والمختصين على أن «التقدم التكنولوجي، يشكل واحداً من أهم العوامل المسؤولة عن النمو الاقتصادي، ان لم يكن أهمها على الاطلاق»^(٥٩)، فان هذا يعني ان محاولة استشراف مستقبل اقتصاد ما، لا يمكن ان تتجاهل موقع عمليات البحث والتطوير (R and D) في ذلك الاقتصاد والامكانات المحتملة المكرسة

Aaron S. Klieman, *Israel's Global Reach: Arms Sales as Diplomacy* (Washington, D.C.: Pergamon-Brassey's, 1985), p. 57.

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٦٣.

لها. ولسنا هنا، بالطبع، في مجال استعراض الدراسات والبحوث التي سعت الى أن تقيس بدقة مسؤولية البحث العلمي والتطوير التكنولوجي عن النمو الاقتصادي في الدول المتقدمة، الرأسمالية والاشتراكية. ومع ذلك يمكن القول، أيضاً، ان تلك الأهمية الحيوية للبحث والتطوير، تكتسب أبعاداً أخطر في المجتمعات التي تعاني فقراً في مواردها الطبيعية. ففي تلك الحالة، يصبح البحث العلمي والتطوير التكنولوجي بمثابة المورد الاقتصادي «الأكثر أهمية». وفي هذا الإطار، أوضحت إحدى الدراسات ان نحو ٥٠ بالمائة من الزيادة في حصة الفرد من الدخل القومي في اليابان، ترجع الى التقدم التكنولوجي بمفهومه الواسع الذي حققته اليابان، خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً. كما كان لسيطرة اليابان على التكنولوجيا الحديثة، ونجاحها الباهر في خلق تكنولوجيا محكّمة، وبيئة بحثية موجهة لايجاد الحلول العملية للمشاكل التي يعانيها الاقتصاد الياباني، وبالأخص قطاع الصناعة الحديث، أثر بالغ الأهمية على مجمل النشاط الاقتصادي في اليابان، ومستوى المعيشة فيها، وقدرتها على المنافسة العالمية^(٦١).

لم يكن من الغريب اذاً، إن أدركت النخبة الحاكمة في الدولة الصهيونية، ومنذ وقت مبكر للغاية، أهمية التفوق العلمي والتكنولوجي، لتعويض الفجوة الهائلة في الامكانيات والموارد الطبيعية، بين اسرائيل والبلدان العربية المحيطة بها. وكما يقول أحد الباحثين الاسرائيليين: «ان اهداف دولة اسرائيل القومية في مجالات الأمن والاقتصاد والمجتمع، هي أهداف صعبة الانجاز في الظروف الجغرافية - السياسية التي نعيش فيها. لكن اسرائيل تملك مستودعاً كبيراً نسبياً من الطاقة البشرية العلمية والتكنولوجية التي يمكن أن تساعد على تحقيق هذه الاهداف القومية. ومن هنا تنبع الأهمية البالغة التي تكتسبها بلورة سياسة بحث وتطوير قومية منطوقة، تكون دلالتها تحديد أولويات مجالات العلم والتكنولوجيا المختلفة، وتخصيص موارد وفقاً لهذه الأولويات. ستحدد صورة اسرائيل وصناعتها في سنة ٢٠٠٠ الى حد بعيد، بناء على تقدمها في مجالي العلم والتكنولوجيا. وتطور اسرائيل العلمي والتكنولوجي برهن حتى الآن على ان فيها طاقة كامنة من القوة البشرية من أجل تحقيق التقدم في هذه المجالات، ومن واجبتنا العمل على استغلال ناجح لهذه الطاقة في السنوات المقبلة»^(٦٢).

لقد شهدت البحوث العلمية والتكنولوجية نمواً مطرداً في اسرائيل، بتخطيط وتوجيه «المجلس القومي للبحث والتطوير». وفي خلال السبعينات، وضع ذلك المجلس نصب عينيه هدفين: أولها تكريس الانجازات في العلوم الاساسية، وثانيها توجيه النشاط في مجالي البحث والتطوير صوب القطاعات الانتاجية. وفي عام ١٩٧٨ / ١٩٧٩ بلغ مجموع الانفاق على البحوث المدنية والعسكرية ٢,٢ مليون ليرة اسرائيلية بنسبة ٣,٢ بالمائة من الناتج

Simon Kuznets, *Modern Economic Growth: Rate, Structure and Spread* (New Haven, (٦١)
Conn.: Yale University Press, 1966), p. 80.

(٦٢) انطونينوس كرم، العرب امام تحديات التكنولوجيا، سلسلة عالم المعرفة، ٩٥ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٢)، ص ٦٣.

القومي الاجمالي^(١١). وفي عام ١٩٨٣ / ١٩٨٤ وصلت تلك النسبة الى ٢,٥ بالمائة تقريباً. ووفق ذلك المعيار، تقف اسرائيل في مقدمة الدول المهتمة بالبحث والتطوير بمقياس ما تخصصه من مواردها، وذلك مقارنة بالولايات المتحدة (٢,٤ بالمائة عام ١٩٨١) وألمانيا (٢,٣ بالمائة) وسويسرا (٢,٤ بالمائة)، واليابان (٢ بالمائة)^(١٢).

ولدى استشراف مستقبل البحث العلمي والتطوير التكنولوجي في اسرائيل عام ٢٠٠٠ طرحت احدى الدراسات الاسرائيلية أهم ميادين التطور في الاتصال والمعلومات وتكنولوجيا التثقيف والتعليم، والتسيير الآلي للصناعة، والطاقة والبيوتكنولوجيا.

ووفقاً لتلك الدراسة، فإن التطورات التكنولوجية في مجال المعلومات والاتصال، تمثل واحدة من أهم التحديات امام التطور التكنولوجي في اسرائيل. وبالنظر الى حقيقة ان ٤ بالمائة من القوة العاملة المنتجة في الولايات المتحدة تعمل في الزراعة، و٢,٥ بالمائة تعمل في الانتاج، في حين ان اكثر من نصف تلك القوة يعمل في قطاع المعلومات، أي الذي يضم الصناعات التي تنتج أجهزة وأدوات لمعالجة المعلومات والخدمات المعلوماتية... الخ، فإن اسرائيل تكون في موقع متقدم تجاه الانتقال الى المجتمع ما بعد الصناعي، حيث ينتمي ثلث العاملين الى قطاع المعلومات، كما يتراد هذا العدد باستمرار.

أيضاً، هناك مجال لتطوير قطاع اقتصادي جديد في اسرائيل يعالج تطوير أجهزة التعليم من خلال ملائمة طريقة التعليم مع التكنولوجيا الجديدة المتاحة. وبالنظر الى حقيقة ان عمليات التخطيط والانتاج بواسطة الحاسب الالكتروني بدأت تدخل فعلاً الى الصناعة الاسرائيلية، فإن هناك توقعاً بتقدم ملموس نحو مزيد من اعتماد الصناعة على الآلة والانسان الآلي، مما سوف يؤثر على بنية طاقة العمل هناك، ويستلزم ايضاً اعادة توجيهها وتأهيلها. ومن المنظور المستقبلي ايضاً، فإن الاتجاه نحو بعض المجالات الأكثر تطوراً، مثل مجال المعلومات، لن ينطوي على استهلاك لمزيد من الطاقة، وفي الوقت نفسه، فإن الفرصة واسعة امام مزيد من البحوث في اسرائيل لاستغلال طاقة الرياح، والطاقة الشمسية، وفي هذا المجال الاخير - أي الطاقة الشمسية - احرزت اسرائيل تقدماً ملحوظاً.

كذلك، فإن تقدماً مطرداً يجري في اسرائيل في مجالات البيوتكنولوجيا، بما يتضمنه من امكانيات كبيرة لتطوير الزراعة والثروة الحيوانية.

(١٢) يعقوب باعل شيم، «العلم والتكنولوجيا في اسرائيل سنة ٢٠٠٠»، في: بريس [وأخرون]، الكيان الصهيوني عام ٢٠٠٠، ص ١٣٢. (هذا الكاتب هو نائب مدير مركز التحليل والتنبؤ التكنولوجي في جامعة تل أبيب).

(١٣) انطوان زحان، العلم والتكنولوجيا في الصراع العربي - الاسرائيلي، أوراق مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٦ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ٣٢.

وإضافة الى ذلك كله، فإن اسرائيل - وفي حدود ما يمكن ان تسهم به دولة صغيرة - شهدت اهتماماً مبكراً بأبحاث الفضاء. وفي عام ١٩٥٩ أنشأت اللجنة القومية لأبحاث الفضاء، التي انضمت بدورها الى اللجنة الدولية لأبحاث الفضاء، واستضافت، عام ١٩٧٦، المؤتمر الدولي لأبحاث الفضاء. وتجري أبحاث الفضاء، على نطاق ضيق، في جامعتي تل ابيب والنقب، كما تجرى في التخنيون في حيفا، فضلاً عن باحثين افراد في الجامعة العبرية ومعهد وايزمان. وذلك كله يعني ان ثمة نواه بشرية بحثية في اسرائيل تتعلق بموضوع أبحاث الفضاء، وان لم تستخدم بعد في اطار برنامج قومي اسرائيلي.

وفي نيسان/ ابريل ١٩٨٣ أنشئت «الوكالة الاسرائيلية لاستغلال الفضاء» بهدف «بناء بنية تحتية صناعية وعلمية لاستغلال الفضاء، لتعود بالفائدة على الدولة والرخاء لسكانها»، وهو ما يعني قطع شوط جديد نحو مزيد من الاهتمام بالأبحاث الفضائية في اسرائيل، في المستقبل القريب.

د - العلاقة مع الوسط الاقليمي

إن غربة الاقتصاد الاسرائيلي وانفصاله عن الوسط الاقليمي المحيط به، تجعلان من احتمالات تغير هذا الواقع، أحد المؤشرات المهمة للتكهن بمستقبل الاقتصاد الاسرائيلي. وكما سبقت الاشارة، فإن فترات ما بعد ١٩٦٧ و ١٩٧٩ ثم ١٩٨٢ شهدت فتح ثغرات أو فجوات في جدار العزلة الاقتصادية حول اسرائيل، عبر العلاقات الاقتصادية مع المناطق العربية المحتلة خصوصاً الضفة والقطاع، ثم عبر العلاقات السلمية مع مصر، ثم عبر غزو لبنان وفتح الباب للتعامل الاقتصادي والنفوذ الاقتصادي في جنوب لبنان.

على ان التصورات التي طرحت لمستقبل العلاقة بين الاقتصاد الاسرائيلي والاقتصادات العربية والشرق اوسطية المحيطة باسرائيل، تتجاوز بكثير الواقع الراهن لتلك العلاقة، وهي كلها تصورات أسهم في طرحها باحثون وخبراء وساسة اسرائيليون وغربيون، بخاصة من اليهود والمتعاطفين مع اسرائيل.

وبعد ١٩٦٧ خصوصاً، وأملاً في الانكسار الكامل للعزلة حولها، شرعت المؤسسات الاسرائيلية في اعداد دراسات مستفيضة عن البيئة السكانية العربية، وتمركزها، ومستويات الدخل ومعدلات الانفاق وأثر المحاكاة ومستويات المعيشة والانشاط الاستهلاكية والعادات والتقاليد والمعتقدات العربية، ومدى تغاير هذه الاعتبارات في المستقبل، وامكانات تلبية هذه الطلبات في ضوء الطاقات الانتاجية الاسرائيلية. «وتقدر الدراسات الطاقة العاطلة في البناء الصناعي الاسرائيلي بنحو ٤٠ - ٦٠ بالمائة في المتوسط من الطاقة الانتاجية لمعظم الوحدات الصناعية، وتشير هذه الدراسات ايضا الى ان الوحدات الصناعية في معظمها، مهيأة لزيادة انتاجها بنسبة حوالى ٥٠ بالمائة،

وفي أقصر وقت ممكن، ومن دون استثمارات تجهيزية اضافية، شرط توافر المنافذ التسويقية لهذه المنتجات^(١١).

والواقع ان العلاقات الاقتصادية بين اسرائيل، والضفة الغربية وقطاع غزة، والتي تقترب الآن من استكمال عقدين من الزمن، تقدم لنا غوذجاً بارزاً لنوعية التأثيرات والتطورات التي تصيب الاقتصاد الاسرائيلي، والفوائد التي يمكن ان يجنيها من التعامل مع الوسط العربي المحيط به. وربما كانت أبرز الحقائق هنا، وأكثرها دلالة، ان الضفة الغربية وغزة تحتلان منذ عدة سنوات المركز الثاني في قائمة البلدان المستوردة من اسرائيل، ولا تسبقها في ذلك غير الولايات المتحدة. وكما يظهر في الجدول رقم (٢ - ١٢) فان الضفة الغربية وغزة استوردتا من اسرائيل عام ١٩٨٤ ما قيمته ٦١٩,٩ مليون دولار أي بنسبة ٩٠,٣ بالمائة من اجمالي واردات الضفة وغزة. وفي المقابل، فان ٦٥,٤ بالمائة من صادرات الضفة وغزة بقيمة ١٩٥,٧ مليون دولار اتجهت الى اسرائيل، وذلك بعجز قدره ٤٢٤,٢ مليون دولار لمصلحة اسرائيل. وهذا الوضع في عام ١٩٨٤ يمثل استمراراً لنمط العلاقة الذي نشأ بين الطرفين منذ عام ١٩٦٧ حتى الآن، والذي أخذ يتفاقم كميّاً. وكما تسجّل الاحصاءات الاسرائيلية، فان قيمة واردات الضفة وغزة من اسرائيل عام ١٩٦٨ بلغت ٥٣,٥ مليون دولار، وذلك من اجمالي واردات قدره ٦٩,٩ مليون دولار، أي بنسبة ٧٦,٥

جدول رقم (٢ - ١٢) التجارة الخارجية للضفة الغربية وقطاع غزة (١٩٨٤) (بالمليون دولار والنسبة المئوية)

البلد	قيمة الواردات	النسبة المئوية للواردات	قيمة الصادرات	النسبة المئوية للصادرات
اسرائيل	٦١٩,٩	٩٠,٣	١٩٥,٧	٦٥,٤
الأردن	٨,٢	١,٢	٩٨,٤	٣٢,٩
بقية الدول	٥٨,١	٨,٥	٥,٣	١,٨
الاجمالي	٦٨٦,٢	١٠٠	٢٩٩,٤	١٠٠

Statistical Abstract of Israel, 1984, p. 713.

المصدر:

(٦٤) باعل شيم، المصدر نفسه، ص ١٣٤.

بالمائة. وأخذ هذا الوضع يتزايد باستمرار الى ان بلغ أرقامه المشار اليها عام ١٩٨٤. والأمر نفسه ينطبق على صادرات الضفة الغربية وغزة الى اسرائيل في العام نفسه (١٩٦٨)، والتي بلغت حينئذ ١٥,٣ مليون دولار، من اجمالي صادراتها التي بلغت ٣٥,٥ مليون دولار، أي بنسبة ٤٣ بالمائة^(٦٥).

وفي مجال العمالة، وكما يوضح الجدول رقم (٢ - ١٣) فان عدد المشتغلين من ابناء الضفة الغربية وغزة في اسرائيل ارتفع من ٢٠,٦ ألفاً (أي بنسبة ١١,٩ بالمائة من اجمالي قوة العمل) في عام ١٩٦٨ الى ٩٠,٣ ألف نسمة (أي بنسبة ٣٧,٤ بالمائة من اجمالي قوة العمل) عام ١٩٨٤، وذلك بخلاف اعداد يصعب حصرها من العمالة «غير الشرعية» والتي لا تدخل في الاحصاءات، وتختلف التقديرات في شأنها بشدة^(٦٦).

جدول رقم (٢ - ١٣)
المشتغلون من الضفة الغربية وغزة بحسب
مكان العمل (الداخل - اسرائيل)

السنة	الاجالي (بالآلف)	في الضفة وغزة		في اسرائيل	
		العدد (بالآلف)	النسبة المئوية	العدد (بالآلف)	النسبة المئوية
١٩٧٠	١٧٣,٣	١٥٢,٧	٨٨,١	٢٠,٦	١١,٩
١٩٧٤	٢١٠,٤	١٤١,٧	٦٧,٣	٦٨,٧	٣٢,٧
١٩٧٥	٢٠٤,٩	١٣٨,٦	٦٧,٦	٦٦,٣	٣٢,٤
١٩٧٦	٢٠٥,٨	١٤٠,٩	٦٨,٥	٦٤,٩	٣١,٥
١٩٧٧	٢٠٤,٤	١٤١,٤	٦٩,٢	٦٢,٠	٣٠,٨
١٩٧٩	٢١٢,١	١٣٨,٠	٦٥	٧٤,١	٣٥
١٩٨٠	٢١٥,٧	١٤٠,٦	٦٥,٢	٧٥,١	٣٤,٨
١٩٨١	٢١٥,٩	١٤٠,١	٦٤,٩	٧٥,٨	٣٥,١
١٩٨٢	٢٢٢,٧	١٤٣,٦	٦٤,٥	٧٩,١	٣٥,٥
١٩٨٣	٢٣٢,٥	١٤٤,٧	٦٢,٢	٨٧,٨	٣٧,٨
١٩٨٤	٢٤١,٣	١٥١,٠	٦٢,٦	٩٠,٣	٣٧,٤

المصدر: المصدر نفسه، ص ٧٢٥.

(٦٥) حسين، العلاقات الاقتصادية بين مصر واسرائيل، ص ٢٣.

Statistical Abstract of Israel, 1985, p. 713.

(٦٦) انظر:

ويخرج عن اطار هذا الجزء، استعراض السياسة الاقتصادية الاسرائيلية في الضفة الغربية وقطاع غزة، وهي السياسة التي يعرض ابعادها يوسف صايغ باعتبارها «سياسة افقار» وليست سياسة للتنمية أو للرخاء في الأرض المحتلة^(٧٧). يهنا هنا الاستدلال فقط على طبيعة الامكانات الواسعة التي ينطوي عليها فتح الجسور بين الاقتصاد الاسرائيلي والاقتصادات العربية المحيطة. وبداهة، فليس من المتصور ان تكون العلاقات الاقتصادية الاقليمية الجديدة لاسرائيل تكراراً لنمط علاقاتها مع الضفة الغربية وقطاع غزة، ولكنهما بالتأكيد ستكون ذات تأثير ملموس للغاية على التطور المستقبلي لذلك الاقتصاد.

ثالثاً: المجتمع ومستقبل النظام السياسي

يعكس النظام السياسي في اسرائيل - كما سبقت الاشارة في المبحث الثالث من الفصل الأول - الخصائص العامة للنظم السياسية الاستيطانية، مثلما يعكس أيضاً الخصوصية «الصهيونية» لذلك النظام. ويسعى هذا المبحث إلى تحديد الملامح العامة للنظام السياسي الاسرائيلي، وذلك كمقدمة ضرورية للتعرف على التغيرات التي طرأت عليه في العقد الأخير، قبل تحديد أهم التناقضات التي سوف تحكم النظام الاسرائيلي مستقبلاً.

١ - الملامح العامة للنظام السياسي في اسرائيل

أدى إنشاء دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ إلى تحويل الاطارات السياسية السابقة (التطوعية والمتعددة) إلى إطار موحد، يقوم على فكرة السيادة السياسية، كما أن قادة الحركات والتنظيمات والأحزاب «الريادية» المختلفة، تحولوا إلى نخبة حاكمة. وجنباً إلى جنب، مع مواجهة مقتضيات التناقض العدائي مع الوسط الاقليمي، فإن هذه الخصائص والاعتبارات السابقة كلها، أسهمت في تشكيل الملامح العامة للنظام السياسي في اسرائيل، والتي تظل قائمة حتى اليوم^(٧٨). ومن بين العديد من الملامح أو السمات التي وضعها الباحثون والدارسون للنظام السياسي في اسرائيل، يمكن القول إن أهم تلك الملامح، والتي يمكن اعتبارها متغيرات «أصلية»، تنفرع عنها ملامح أخرى عدة كمتغيرات فرعية، تدور حول ثلاثة: أولوية الايديولوجيا - المركزية - التعددية الحزبية.

(٦٧) انظر: اسامة الغزالي حرب، الاستراتيجية الاسرائيلية والمقاومة في الأراضي المحتلة (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام، ١٩٧٧)، ص ٢٩.

(٦٨) انظر: Yusif A. Sayigh, «The Palestinian Economy under Occupation», paper presented at: Symposium on «Economic Development under Prolonged Occupation», St. Catherine's College, Oxford, 3-5 January 1986, and S.N. Eisenstadt, «The Israeli Political System and Transformation of Israeli Society», in: Ernest Krausz, ed., *Politics and Society in Israel* (Oxford: Transaction Books, 1985), p. 415.

أ - أولوية الايديولوجيا

هذا العنصر لصيق بالطابع الاستيطاني للنظام السياسي، مثلما هو يكتسب خصائص مميزة من المحتوى الصهيوني لتلك الايديولوجيا. فالمهجرات الاستيطانية ترتبط بوجود دوافع وحوافز لدى المستوطنين، «والذين يهجرون مجتمعهم الأصلي إلى مجتمعهم الآخر، لا يفعلون ذلك - في الغالب - من دون محرك أو دافع ذاتي أو خارجي. قد تكون روح المخاطرة والبحث عن المجهول، وقد يكون الرغبة في الثراء السريع وجمع المال، وقد يكون البحث عن الأمان، وقد يكون لأسباب ايديولوجية وعقيدة»^(٩٩). وإذا كان بناء الدولة، وبناء النظام السياسي الاستيطاني، يعني الانتقال من نظام تعددي يتصف بالتطوعية ويقوم على اللامركزية إلى مركز موحد للسلطة السياسية، وبالتالي درجات متفاوتة من ممارسة الإكراه^(١٠٠)، فإن هذا يعني حتمية أن تصبح للدولة «وظيفة عقيدة»، بل أن القوى السياسية على اختلاف تياراتها تفرض على الدولة الالتزام بهذه الوظيفة في الداخل، رغم رفع مبادئ الحرية الاعلامية والحرية الحزبية.

ولسنا، هنا، في حاجة إلى تأكيد أهمية العناصر الايديولوجية في الحركة الصهيونية، وفي تطور «البشوف» اليهودي في فلسطين، ولكن يظل من المفيد التمييز، في تطور الايديولوجية الصهيونية، بين البعد «الأصولي» للايديولوجيا (Fundamental) والبعد الاجرائي أو العملي (Operative). وفي أوسع الصياغات عمومية، يمكن القول إن الأبعاد الأصولية للايديولوجية الصهيونية وكذلك امتداداتها الاجرائية أو العملية، إنما تعلقن أولاً برؤية العلاقة مع عنصر الزمن: أي، الماضي، والحاضر، والمستقبل، والايقاع الملائم للتغيير في سياق الحركة الاجتماعية، وكيفية إدراك عنصر التوقيت. وفي هذا الخصوص، فإن الايديولوجية الصهيونية إنما تضمنت تأكيداً أساسياً على التوجه المستقبلي، وذلك بدعوتها إلى خلق نظام سياسي واجتماعي جديد في «المستقبل» وتعلقت «الايديولوجية الصهيونية ثانياً، في أوسع معانيها، بالعلاقة مع البيئة الاجتماعية والطبيعية. وفي هذا الاطار، دار الصراع بين ما يمكن اعتباره التوجه «السلبى» في العلاقة مع البيئة، والتوجه الايجابي أو «النشط» إزاءها. وتضمن هذا التوجه الأخير دفع الدعوة إلى الهجرة والاستيطان، على نطاق مخطط ومتسع، كما تضمن هذا الاتجاه الايجابي نوعاً من الالتزام بـ «الجماعية» في مقابل الفردية»^(١٠١).

وفي هذا الاطار، شهدت الايديولوجية الصهيونية خلافات وسجلات حول أربع

(٦٩) على الدين هلال، «في مفهوم الكيانات الاستيطانية»، المستقبل العربي، السنة ١، العدد ١ (أيار/ مايو ١٩٧٨)، ص ٩٤.

(٧٠) مجدي حاد، النظام السياسي الاستيطاني: دراسة مقارنة، اسرائيل وجنوب افريقيا (بيروت: دار الوحدة،

١٩٨١)، ص ٢٠٦.

(٧١) Dan Horowitz and Moshe Lissak, «Ideological Dimensions», in: Krausz, ed., *Politics and Society in Israel*, pp. 121-134.

قضايا أساسية: المسألة القومية، خاصة في مواجهة «المشكلة العربية، والمسألة الاجتماعية المتعلقة بطبيعة النظام الاجتماعي الذي ينبغي إقامته، والمسألة الديمقراطية ومشكلات التعددية السياسية، وأخيراً مسألة وضع الدين في المجتمع»^(٧٢).

ولقد انتقلت تلك السمات والمجاذلات الأيديولوجية إلى الدولة الصهيونية بعد ١٩٤٨ واتسم النظام السياسي الوليد بسيادة المفاهيم الأيديولوجية على تصرفاته وقراراته، وعلى سلوك مواطنيه، وأضحى المواطن العادي يعيش حالة «استيعاب أيديولوجي». ووصل بعض الباحثين إلى القول أنه «لا توجد دولة معاصرة، ارتفعت فيها نسبة التحكم العقائدي، والاستيعاب الأيديولوجي، مقرونة بالرغبة والاهتمام بالمشاركة السياسية، بدرجة تماثل حالة إسرائيل (وجنوب إفريقيا)»^(٧٣).

وإذا كان التطور التاريخي للكيانات الاستيطانية، يميل بالعامل الأيديولوجي إلى التقلص المستمر، والتحول من أيديولوجيا ومفاهيم «الريادة» إلى مفاهيم الاستهلاك والاستقرار، واهتزاز وزن المؤسسات التي مثلت تاريخياً هذه الأيديولوجيا، فإن هذا الأمر عرفته إسرائيل في إطار خصوصيتها، فاهتز نموذج الإنسان الأفضل الذي قدمته الصهيونية، وهو نموذج «الخالوتز» أي الرائد، الذي ارتبط بالأرض، ومارس العمل اليدوي، واتسم بالتشقق والتضحية بالذات من أجل المثل الأعلى، فضلاً عن ازدياد حدة التمايز الطبقي والاجتماعي، وازدياد اتجاه الشباب إلى قيم المهنية والفردية والنفع الذاتي. وارتبط ذلك كله باهتزاز وزن الكيبوتز وتقلص تأثيره^(٧٤). وربما يزيد من ذلك كله، حقيقة أن الاعتبارات البراغماتية بدأت تحتل جانباً متزايداً في السياسة، بخاصة بعد تبلور كتلتين سياسيتين كبيرتين تتنافسان على جمهور الناخبين^(٧٥).

على أنه يمكن القول، أيضاً، إن وصول الليكود إلى الحكم عام ١٩٧٧ واستمراره في السلطة بشكل أو بآخر، حمل معه تغيراً أيديولوجياً محدداً، وذلك بإخلاء الأيديولوجية الصهيونية «العالية» مكانها لكي تحتله الأيديولوجية «الاصلاحية» أو «التنقيحية» التي وجدت، في إطار النظام السياسي لإسرائيل، فرصة غير مسبوقة لتحقيقها. ولقد بدا ذلك واضحاً في مجالات السياسة الخارجية والأمن، خصوصاً في ما يتعلق بقضية الاستيطان في

(٧٢) المصدر نفسه، ص ١٣٤ - ١٤٩.

(٧٣) حماد، النظام السياسي الاستيطاني: دراسة مقارنة، إسرائيل وجنوب إفريقيا، ص ٢٠٨. وهو يشير في ما يتعلق بإسرائيل خاصة إلى:

A. Arian, *The Choosing People: Voting Behavior in Israel* (Cleveland, Ohio: Case Western Reserve University Press, 1973).

(٧٤) هلال، «في مفهوم الكيانات الاستيطانية»، ص ٩٤.

(٧٥) سامي سموحة، «نظام الحكم في إسرائيل بعد جيل: كيف سيواجه الجماعات غير المهيمنة في المجتمع»،

في: بيرس [وأخرون]، الكيان الصهيوني عام ٢٠٠٠، ص ٤٨.

الصفة الغربية، حيث ادّعت حكومة الليكود أنها تسترشد في سياستها برؤية «ارض اسرائيل الكاملة» أكثر من الضرورات الأمنية، أو الواقعية السياسية.

على أي حال، فإن استمرار اسرائيل كمجتمع في طور التكوين سوف يظل مبرراً، في المستقبل، لمركزية وضع الايديولوجيا في النظام السياسي^(٧٦). وفي هذا الاطار، فإن التساؤل يكون هو: أي نوع من الايديولوجيا سوف يكون أكثر ملاءمة لمواجهة المشاكل الداخلية والتوجهات الخارجية في المستقبل؟

ب - المركزية

يذهب دارسو النظام السياسي الاسرائيلي إلى أنه، على الرغم من وجود القيم الديمقراطية التي تبدو للهولة الأولى شاملة ومطلقة، فإن هذا النظام يظل يقوم على أساس سيادة السلطة العامة أو «مركزية السلطة»، وينطوي ذلك في جوهره على نوع من التوفيق بين كفالة درجة معينة من المشاركة لجميع فئات وطبقات المجتمع، من ناحية، وممارسة السلطة من قبل «فئة مختارة» تتمثل فيها صفات معينة للقيادة، من ناحية أخرى.

ويستند تمتع الحكومة (أو السلطة التنفيذية عموماً) بتلك القوة والسيادة، إلى ظروف متعددة، ربما كان أبرزها طرفان محددان: الأول، هو الهجرة من الخارج كمطلب حيوي لاستمرار الدولة، حيث يفرض القدوم المستمر للمهاجرين الجدد مشكلات عدة. وفي مواجهة هذه المشكلات فإن الاستيعاب يضحي إحدى الوظائف الأساسية للحكومة، من أجل توفير فرص الإقامة والعمل وتحقيق الاندماج في المجتمع. لقد كان مؤدى هذه المشكلات ضرورة الاعتماد على الأداة الحكومية بشكل يصعب الجدل حوله. الطرف الثاني، هو مشكلة مناخ الحرب الدائمة الذي يسيطر على الدولة بحكم حقيقة أن التناقض الأساس الذي يسيطر عليها - كدولة استيطانية - هو تناقضها مع البيئة الاقليمية المحيطة بها والرافضة لها. إن هذا الوضع يفرض التزامات ضخمة تتعلق بالأمن الداخلي - من ناحية، وبالأمن الخارجي واحتمالات الصراع مع الدول المحيطة - من ناحية أخرى، خصوصاً بالنظر إلى الطابع «التوسعي» للاستيطان الصهيوني.

وفي مواجهة سلطة الدولة، يكون المهاجرون الجدد مجردين من أسباب القوة، مما يعني أنّصاف علاقاتهم معها بالتبعية الكاملة، بل إن مفهوم الاستيعاب نفسه يؤكد هذه العلاقة. وينقل عن «ايزنشتادت» في بحثه حول الاعتبارات التي حكمت سياسة الاستيعاب في اسرائيل «إن أحدث تلك الاعتبارات هو الرغبة في تشكيل الحياة الاجتماعية للمهاجرين، وفي القيم والمؤسسات الاجتماعية القائمة بقدر الامكان، وتقليل آثارها التصادمية المحتملة»، وهو ما يعني أن الدولة

(٧٦) المصدر نفسه، ص ٤٨.

الاستيطانية تعتمد إلى أن تخلق من المهاجرين مواطنين على صورتها^(٧٧).

وعلى الرغم من أن الايديولوجية الرسمية لليكود تدعو إلى تقليل تدخل الحكومة في الاقتصاد وفي حياة الشعب والأفراد، إلا أن تسنمه للحكم للمرة الأولى عام ١٩٧٧ لم يعن أحداث تغيير في مركزية هذا الحكم^(٧٨).

ج - الحزبية المفرطة

يفضي النظام الحزبي في اسرائيل إلى ما يسميه «سارتوري» نظم التعددية المستقطبة أو المتطرفة، والتي يطلقها على النظم التي لا يقل عدد الأحزاب فيها عن خمسة أو ستة أحزاب، وتتسم بقوة وفعالية المعارضة فضلاً عن تعددها^(٧٩). ويحتل النظام الحزبي مكاناً محورياً في الحياة السياسية الاسرائيلية، بحيث يكاد الحديث عن النظام السياسي في اسرائيل في العديد من الأدبيات السياسية، يكون هو الحديث عن النظام الحزبي على وجه التحديد. كذلك فإن الحقيقتين السابقتين الإشارة إليها للنظام السياسي (أي: سيادة الايديولوجيا، والنزعة المركزية) إنما تتبعان أيضاً، وبقوة، للنظام الحزبي على وجه التحديد.

ويجمع الدارسون على خصائص مميزة للنظام الحزبي في اسرائيل، ربما كان مقدمتها:

(١) ان هذه الأحزاب نشأت قبل قيام الدولة، بل إن الكثير منها ربما لعب دوراً بارزاً في قيامها، كما أن الكثير من تلك الأحزاب نشأ في ظل مجتمعات غربية خصوصاً في أوروبا الشرقية وروسيا القيصرية، وذلك قبل أن تنتقل إلى أرض فلسطين، بعد أن سبقتها الهجرة الاستيطانية.

(٢) وبحكم الخصيصة السابقة - أي بحكم سبقها على وجود الدولة - فإن تلك الأحزاب أخذت، عموماً، تمثل منظمات شاملة، تمتد نشاطها إلى النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والاعلامية. وبذلك الوظائف، فإن الحزب يضحى أداة للتكامل والتضامن.

(٣) التعدد الشديد في الأحزاب، على نحو يعكس طبيعة التكوين الاجتماعي في اسرائيل، والقائم على تناقضات التركيب السكاني المتنافر، وثقافته العديدة.

ويرتبط بتلك الخصيصة، استمرار حالات الانشقاق والاندماج بين الأحزاب بعضها

(٧٧) حماد، النظام السياسي الاستيطاني: دراسة مقارنة، اسرائيل وجنوب افريقيا، ص ٢١٢. انظر أيضاً:

Shmuel Noah Eisenstadt, *Israeli Society* (NewYork: Basic Books, 1967), p. 196.

(٧٨) سموحة، نظام الحكم في اسرائيل بعد جيل: كيف سيواجه الجراعات غير المهيمنة في المجتمع، ص ٤٧.

Giovanni Sartori, *Parties and Party Systems: A Framework for Analysis* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1976).

بالبعض الآخر، كما ترتبط بها طبيعة وتأثيرات نظام القوائم النسبية.

ويلخص أحد الدارسين الاسرائيليين الخصائص المميّزة لتعددية الأحزاب الاسرائيلية، بالإشارة إلى ثلاث ظواهر مترابطة:

(أ) أن هناك عدداً كبيراً جداً من الأحزاب، وهذا وضع يمكن أن يطلق عليه تسمية التشرذم.

(ب) معظم الأحزاب صغير جداً، وهذا وضع يمكن تسميته بالتجزئة.

(ج) بعض الأحزاب، لاسيما المتطرفة منها، بعيد عن البعض الآخر، وهو ما يمكن أن يسمّى الاستقطاب الحزبي^(٨٠).

(٤) إن التنوع التنظيمي المشار إليه، لا يوازيه تنوع ايديولوجي أو مذهبي، عل رغم الشعارات التي يرفعها كل حزب، وعلى رغم الصراع العقائدي الذي يبدو بينها كبيراً. وبعبارة محددة، فإن الصهيونية هي القاسم المشترك لأكثر هذه الأحزاب.

(٥) تصنف الأحزاب السياسية في اسرائيل بالمركزية الشديدة في القيادة، بحيث تنحصر السلطات الحزبية في أيدي فئة قليلة من الزعماء، بل هي تكاد تقترب من مفهوم «الديمقراطية المركزية». وتنعكس هذه الخاصية بالضرورة على عمليات التعبئة، والرقابة، وغيرها، سواء في علاقات الحزب الجماهيرية، أم علاقاته بنوابه في البرلمان، أم بالحكومة، أم علاقاته بالحكومة التي تمثله إذا كان الحزب في السلطة.

(٦) ارتباط التعدد الحزبي بالحكومات الائتلافية منذ قيام الدولة. وترتبط بذلك أيضاً حقيقة أن حزباً واحداً هو حزب الماباي، سيطر طوال الفترة بين ١٩٤٨ و ١٩٧٧ على السلطة السياسية، ولم يكن بمقدور أحزاب الائتلاف الأخرى، سوى أن تمارس الضغط لمنع قرار معين، أكثر من أن تشارك بيجابية في صنع القرار السياسي، فضلاً عن تركيز السلطة في يد رئيس الوزراء، ورئيس حزب الماباي في الوقت نفسه^(٨١).

ويشير بعض الدارسين فكرة أن قوة الأحزاب بدأت تتناقض، نسبياً، فلم يعد المواطن، كما كان في الماضي، متعلقاً بالحزب للحصول على عمل أو مسكن أو خدمات صحية، ولكن أصبح بإمكانه التأثير على الحكم من دون الحزب. كذلك ينظر البعض إلى انتقال السلطة لليكود عام ١٩٧٧ على أنه انقلاب سياسي وجه ضربه إلى النزعة الحزبية،

(٨٠) سمير جبور، معذّ، انتخابات الكنيست الحادي عشر، ١٩٨٤: الأبعاد الاجتماعية والسياسية، سلسلة الدراسات، ٧١ (نيقوسيا: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٥)، ص ٣، نقلاً عن: النظام السياسي الاسرائيلي، تحرير موشيه ليساك وميانونيل جومان (تل أبيب: عام عوفيد، ١٩٧٧)، ص ١٢٣. (بالعبرية)

(٨١) حماد، النظام السياسي الاستيطاني: دراسة مقارنة، اسرائيل وجنوب افريقيا، ص ٢١٤.

وبخاصة بعد انهيار مركز حزب العمل كحزب مهيمن .

ومن وجهة نظر المستقبل، يرى هؤلاء أن «اصلاح الحكم» يستلزم فتح وتنوع قنوات التأثير السياسي على حساب الأحزاب، وإعطاء شرعية أكثر لقنوات التأثير غير الحزبية، فضلاً عن ضرورة التخلص من «الحزبية الزائدة» والأخذ في الاعتبار صوت المجموعات التي تفضل العمل السياسي المستقل عن الأحزاب^(٨٢).

٢ - انتخابات ١٩٨٤ في سياق تطور النظام السياسي

ليس هناك شك في أن أهم التغيرات التي شهدتها المسرح السياسي الاسرائيلي، في السنوات الأخيرة، إنما كانت فقدان حزب العمل موقعه المسيطر ليس فقط منذ ١٩٤٨ وإنما أيضاً منذ ثلاثينات القرن قبل إنشاء الدولة، وتحوله، منذ ١٩٧٧، من وظيفة الحكم إلى وظيفة المعارضة .

وفضلاً عن ذلك، يسجل العالم الاسرائيلي «ايزنشتادت» عدداً آخر من التغيرات السياسية العامة التي شهدتها المجتمع الاسرائيلي، والتي تبلورت منذ انتخابات ١٩٨١ تقريباً، وتبدت، على سبيل المثال، في تصاعد العنف الشفوي الذي اقترب أحياناً من العنف الجسدي، والانقسام المتزايد حول القضايا العرقية، والانقسام الأعمق بين القطاعات الدينية والعلمانية، والعنف المتنامي من جانب الجماعات الدينية المتطرفة، ثم الانقسامات التي سببتها وقائع الحرب اللبنانية وما بعدها . كما يشير ايزنشتادت أيضاً إلى تغيرات في بيئة ولهجة الجدل السياسي، وتزايد الشعبية وضعف حكم القانون، وغمو الحركات المتطرفة والخارجة عن البرلمان^(٨٣).

ولدى تقويم حكم الليكود والتطورات السياسية التي شهدتها اسرائيل بين ١٩٧٧ و١٩٨٤ يتفق كثير من الدارسين الاسرائيليين على عدد من «المنجزات» التي تحققت، بخاصة في عهد رئيس الوزراء الاسرائيلي السابق مناحيم بيغن، وهي التي تجلّت أساساً في إقامة السلام مع مصر، وقصف المفاعل النووي العراقي، ودعم الاحساس بالانتماء لدى الطوائف الشرقية في المجتمع الاسرائيلي .

وفي مقابل ذلك، فإن معارضي الليكود يرون حدوداً حقيقية تظل قائمة على مدى قوته أو فاعليته في المجتمع الاسرائيلي :

- فمجمعي الليكود إلى السلطة عام ١٩٧٧ بما عناه من تحول حاسم في السلطة في

(٨٢) سموحة، «نظام الحكم في اسرائيل بعد جيل: كيف سيواجه الجماعات غير المهيمنة في المجتمع»، ص ٤٨ .

(٨٣) Eisenstadt, «The Israeli Political System and Transformation of Israeli Society», p. 415.

اسرائيل، لم يكن بسبب نجاحه في اجتذاب قطاعات متزايدة من الناحيين بقدر ما كان نتيجة لفشل المعراخ (وهو الفشل الذي ارتبط بآثار حرب ١٩٧٣ والأزمة الاقتصادية)، فضلاً عن ظهور «الحركة الديمقراطية للتغيير». ومن وجهة النظر هذه، فإن بقاء الليكود في السلطة عام ١٩٨١ كان أساساً بسبب تفوقه على المعراخ في جذب شركاء إلى الائتلاف.

- إن وصول الليكود إلى السلطة استند إلى أصوات فئات غير مسيطرة في المجتمع، وفي عام ١٩٨١ جاءت ٧ بالمائة من الأصوات التي فاز بها الليكود من الطوائف الشرقية. إن هذه الحقيقة، مضافاً إليها حرمانه من الأصوات القوية لمؤيدي المعراخ، اضعفت موقف الليكود.

- على عكس المعارضة الضعيفة التي كانت تقف في وجه الماباي، فإن المعارضة التي وقفت أمام الليكود كانت معارضة قوية: فالمعراخ منظم جيداً، ووسائل الاعلام في أغلبها تدعم أفكاره، وله قاعدة اقتصادية منظمة تتمثل في المستدروت. أما قاعدته الديموغرافية فتتألف من الطبقة الوسطى وما فوقها، ومن ذوي الأصل الغربي أساساً. كما يتمتع مؤيدو المعراخ بالتزام ايديولوجي ومستوى عال من الوعي، يجعل من الصعب على الليكود فرض نهجه عليهم.

- إن الفكرة الايديولوجية المركزية لليكود (أي فكرة أرض اسرائيل الكبرى) تلقى المعارضة من قطاع كبير من السكان، ومن المتعاطفين مع اسرائيل في الخارج. كذلك فإن حلفاء اسرائيل وعلى رأسهم الولايات المتحدة، ويهود الخارج، يعترضون على سياسة رفض الحل الوسط الاقليمي في الضفة الغربية، وسياسات الاستيطان والضم المستمرة. إن مؤدى ذلك، هو ان الليكود اصطدم بصعوبات كثيرة في تثبيت سلطته، وتأكيد شرعيته لدى غالبية الناحيين، ولذلك فإن سياسته اتسمت بالهجوم على المعارضة (المعراخ) وسياساتها، أكثر من تحقيق أهداف متميزة^(٨٤).

لقد كانت تلك التغيرات المتباينة، هي الأرضية العامة التي جرت عليها انتخابات الكنيست الحادي عشر في اسرائيل في تموز/يوليو ١٩٨٤، والتي انتهت بحصول المعراخ على ٤٤ مقعداً، والليكود على ٤١ مقعداً، ووزعت باقي المقاعد الـ ١٢٠، للكنيست على ١٣ قائمة صغيرة أخرى (انظر الجدول رقم (٢ - ١٤)).

وبتلك النتيجة، التي اقتربت من التعادل بين الكتلتين الرئيسيتين، المعراخ والليكود، يبدو أن النظام الحزبي الاسرائيلي اقترب من صيغة الحزبين الكبيرين المتعادلين تقريباً في قوتها. ولسنا هنا، بالطبع، في مقام تحليل نتائج وآثار انتخابات عام ١٩٨٤ (باعتبارها آخر

(٨٤) سموحة، المصدر نفسه، ص ٥١.

المعارك الانتخابية حتى الآن) ولكن من الممكن الإشارة فقط إلى أن ذلك التعادل يعني - أكثر من أي شيء آخر - استمرار عدد من المشكلات المزمنة على الصعيدين الداخلي والخارجي، وصعوبة الحسم في شأن أي منها.

أما من منظور مستقبل النظام السياسي في إسرائيل، فإن انتخابات الكنيست الحادي عشر، ألقت الضوء على بعض الحقائق المهمة، أبرزها:

- إن نسبة التصويت العالية المستقرة في الانتخابات الإسرائيلية (بلغت ٧٨ بالمائة عام ١٩٨٤ (انظر جدول رقم ٢ - ١٥))، تدل على الدور الفعال الذي تمارسه الأحزاب الصهيونية في ربط المجتمع الإسرائيلي الاستيطاني بسياساتها وعقائدها، وفي نشر الثقافة السياسية.

- على الرغم مما أكدته انتخابات ١٩٨٤ حول ظاهرة التغير المستمر في الأحزاب الإسرائيلية، من خلال الاندماج والانشقاق وظهور واختفاء الأحزاب الصغيرة، فإنها أكدت أيضاً على استقرار التعادل بين الكتلتين الكبيرتين في المعارك الانتخابية الثلاث الأخيرة. وبالتالي ازدياد حدة الاستقطاب داخل المجتمع الإسرائيلي وانقسامه إلى معسكرين متكافئين تقريباً، واستمرار ذلك الوضع في المستقبل المنظور.

- يشير المجلد العام للانتخابات إلى المزيد من التحول تجاه اليمين على الخريطة السياسية، وسيادة الاتجاهات المتشددة والعنصرية. ومع أن قوة الليكود انخفضت من ٤٨ مقعداً عام ١٩٨١ إلى ٤١ مقعداً عام ١٩٨٤ إلا أنه بقي يشكل قوة سياسية كبيرة، على الرغم من التوقعات المعاكسة بسبب الأزمة الاقتصادية وأثار حرب لبنان. إن ذلك يقوّي وجهة النظر القائلة إن الصعود السياسي لليكود، لم يكن مسألة عابرة، وإنما أصبح حقيقة ثابتة تقريباً في الحياة السياسية. وبما أكد ذلك أيضاً تزايد قوة الأحزاب التي تقف على يمين الليكود.

- امتداداً لما سبق، يمكن القول إن التعادل الذي حدث بين الكتلتين الرئيسيتين، هو تعادل «تنظيمي» وليس أيديولوجياً، أما على هذا الصعيد الأخير، فإن الأيديولوجيا التي أصبحت راجحة بوضوح هي الأيديولوجية اليمنية.

- فشل الحركة العمالية في استعادة مكانتها، بحيث يمكن الانفاق مع القول بأنه إذا لم تأت الحركة العمالية بأطروحات جديدة تميزها عن اليمين، فسوف تشهد مزيداً من التراجع، لمصلحة قوى يمنية متشددة^(٨٥).

(٨٥) جبور، معذ، انتخابات الكنيست الحادي عشر، ١٩٨٤: الأبعاد الاجتماعية والسياسية، ص ١٧٧.

٣ - التناقضات الحاكمة لمستقبل النظام السياسي

استناداً إلى الملامح العامة للنظام السياسي الاسرائيلي، وإلى طبيعة التطورات التي شهدتها طوال العقد الأخير، وفي اطار السيات الاستيطانية لذلك النظام، فضلاً عن خصوصيته الصهيونية، يمكن أن يخلص الباحث إلى ثلاثة مؤشرات عامة للمستقبل السياسي الاسرائيلي، في سياق علاقته بتطور المجتمع الاسرائيلي. وإذا كانت الحقيقة المركزية في هذا المجتمع ككيان استيطاني - وبصرف النظر عن التجاهل المعتمد من جانب الباحثين الاجتماعيين والسياسيين في اسرائيل - هي التناقض مع البيئة العربية المحيطة، فإن ذلك يفسر الدور المركزي للعسكريين في النظام السياسي الاسرائيلي، ويسمح، تالياً، باعتبار العلاقة العسكرية - المدنية أول المؤشرات التي يمكن اعتمادها للتعرف على مستقبل النظام السياسي في اسرائيل. أما المؤشران الآخران، فيتعلقان بالتناقضات داخل المجتمع اليهودي نفسه، وبالتناقضات بين المجتمع اليهودي والمجتمع العربي، داخل دولة اسرائيل.

أ - العلاقات العسكرية - المدنية

سبقَت الاشارة، في المبحث السابق، إلى الأولوية التي يحظى بها الانفاق العسكري في اسرائيل، وإلى الموقع الرئيس الذي يحتله القطاع العسكري في الاقتصاد الاسرائيلي، في اطار الاعتبارات الأمنية - الاستراتيجية المسيطرة على الدولة الاسرائيلية والمجتمع الاسرائيلي منذ ١٩٤٨ حتى اليوم، وهو الأمر الذي يتجسد في حقيقة أن تاريخ اسرائيل، والنقاط الحاسمة في تطوره، إنما ارتبطت أولاً وقبل كل شيء بحروبها مع العرب: ١٩٤٨، و١٩٥٦، و١٩٦٧ و١٩٧٣ ثم التورط في الحرب اللبنانية منذ ١٩٨٢.

ولقد استعمل دارسو النظام السياسي الاسرائيلي العديد من الألفاظ للتعبير عن الحقائق السابقة، مثل وصف اسرائيل بأنها «دولة عسكرية» و «دولة معسكر» أو الدولة الحصن أو «القلعة».. الخ. وإذا كانت تلك التوصيفات تنطبق على الدولة الاسرائيلية منذ أيامها الأولى، فإنها تصدق خصوصاً على فترة ما بعد ١٩٦٧ ثم ١٩٧٢. وفي خلال العقدين الأخيرين، تزامن الدور المتصاعد للمؤسسة العسكرية في المجتمع الاسرائيلي، مع إعادة توجيه الاقتصاد للوفاء بالمتطلبات العسكرية، بحيث ظهر ما اعتبره البعض مجمّعاً صناعياً عسكرياً اسرائيلياً، على غرار المجمع العسكري الصناعي في الولايات المتحدة، والذي كان الرئيس اينهاور أول من نبّه إلى وجوده، وإلى خطاطره الكامنة على المجتمع والنظام السياسي الامريكيين.

على أن هذا المال للعلاقات المدنية العسكرية في اسرائيل، إنما تمّ عبر تطور تاريخي معقد منذ إنشاء الدولة عام ١٩٤٨، حتى اليوم.

وعلى الرغم من الاختلافات بين الدارسين في توصيف بعض نواحي ذلك التطور، إلا أن ذلك لا يلغي حقيقة وجود اتجاه عام له، يسمح ليس فقط بتتبع مساره في الفترة السابقة، وإنما أيضاً بتصور مساره المستقبل، في العقود القليلة المقبلة.

لقد كان دافيد بن غوريون هو أقوى من صاغ النمط المؤسس للنظام العسكري الاسرائيلي، وموقع ومكانة العسكريين في الدولة والمجتمع، في المراحل الأولى من عمر الكيان الصهيوني، وبكلمات بن غوريون في ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٩: «ليس للعسكريين أن يحددوا سياسة الدولة، أو نظامها أو قوانينها أو قواعد الحكم فيها، بل إن الجيش نفسه لا يملك تحديد هيكله أو تنظيماته أو طرق عمله، ولا هو يحدد مسائل الحرب والسلام. أن القوة العسكرية هي الفرع التنفيذي، هي الفرع الدفاعي والأمني للحكومة الاسرائيلية... والحكومة هي التي تتحمل العبء الكامل للمسؤولية عن القوة العسكرية أمام نواب الكنيست المنتخبين. القوة العسكرية تخضع للحكومة، وليست سوى منفذ للخط السياسي، وللأوامر التي تلقاها من السلطتين التشريعية والتنفيذية للدولة، أي الكنيست ومجلس الوزراء...»^(٨٦). ويمقتضى هذه الرؤية، فإن الجيش الاسرائيلي لم يكن سوى أداة تنفذ السياسة الحكومية المتفق عليها، ويخضع، تالياً، لإشراف القيادة القومية، كما أنه ينفصل كلياً عن النظام الحزبي.

لقد اتسق هذا التوصيف لدور العسكريين في اسرائيل مع أدبيات التحديث المرتبطة بالنظم الديمقراطية المستقرة، التي سادت في الخمسينات والستينات، مثلما عبر بدرجة أو بأخرى عن حدود الدور السياسي للعسكريين في تلك الفترة. على أن فترة السبعينات، وتحديدًا منذ ما بعد ١٩٦٧، حلت معها تغيرات أساسية في موقع المؤسسة العسكرية في الحياة السياسية الاسرائيلية، عكست، في اللحظة نفسها، عدم ملاءمة الأفكار التقليدية لنظرية التحديث. لقد جسدت المرحلة الجديدة حقيقة أن اسرائيل هي، في الدرجة الأولى، «دولة في حال حرب دائمة، سواء تمثل ذلك في قتال فعلي، أم في حرب ضمنية». وفي مواجهة التساؤل عن مدى امكان ألا يتحول «المجتمع المحاصر» إلى نمط من «الدولة العسكرية»، فإن الدراسات النظرية حول المجتمع الاسرائيلي دارت حول فكرة انه، على الرغم من مركزية الأمن في المجتمع الاسرائيلي، فإن هذا لم يؤد إلى عسكرة هذا المجتمع، وإن اسرائيل ظلت تمثل نموذجاً اثنياً، وليس نموذجاً اسبرطياً^(٨٧).

لقد عبر ايزنشتات عن مثل تلك الرؤية لدى تحليله لاستجابة المجتمع الاسرائيلي للتهديد الأمني الخارجي له. ووفقاً له، فإن تلك الاستجابة «لم تؤد إلى اقامة دولة عسكرية كما تنبأ البعض، وإنما أدت إلى نمط اسرائيلي فريد لقلعة مدنية مفتوحة (Open civilian fortress) والسبات الرئيسية

Yoram Peri, «Civilian Control during a Protracted War», in: Krausz, ed., *Politics and Society in Israel*, p. 363.

نقلاً عن: دافيد بن جوريون، الفرد والرسالة (تل أبيب: مارشوت، ١٩٧١)، ص ٨٢. (بالعبرية)

(٨٧) المصدر نفسه، ص ٣٦٤.

لمجتمع القلعة المفتوحة هذا تمثلت في تنمية روح عسكرية وأمنية قوية، والتأكيد على المجتمع الواقع تحت الضغط، كمقومات أساسية للهوية الجماعية الصاعدة. وفي الوقت نفسه، يرى ايزنشتادت أن ممارسات عدة، مثل تقاعد الضباط الكبار في سن مبكرة نسبياً، والتحاقهم بالمراكز المدنية الاقتصادية والسياسية، لم تؤد إلى تكوين كيان جامد مغلق أو قوة سياسية مستقلة بذاتها، كما أن المؤسسة الأمنية خضعت لإشراف رئيس الوزراء ووزير الدفاع، مما وفر رقابة مدنية قوية على الجيش، على الرغم من امتلاك العسكريين لنفوذ قوي على الفكر السياسي والمفاهيم الأمنية في مجالات الدفاع القومي^(٨٨).

على أن أعداداً متزايدة من الباحثين الاسرائيليين بدأت مؤخراً في رؤية جوانب أخرى لعسكرة الدولة الاسرائيلية، ولتصاعد دور المؤسسة العسكرية منذ ما بعد ١٩٦٧ و ١٩٧٣ على نحو لا بد وأن يؤثر في مستقبل المجتمع الاسرائيلي^(٨٩). وانطلاقاً من رؤية «تعددية» للمجتمع الاسرائيلي، ولتعدد أنماط العلاقة بين المؤسسة العسكرية والقطاعات المدنية المختلفة، يخلص يورام بيري - الذي يعتبر واحداً من أبرز الدارسين المعاصرين للعلاقات العسكرية المدنية في اسرائيل - إلى أن العلاقات بين المؤسسة العسكرية والمجال المدني إنما تتسم بالتشتت، والتأثير المتبادل. فالعسكريون «يخترقون النظام السياسي في حين يخترق النظام السياسي الجيش. ويمكن تالياً الحديث عن تمدين المؤسسة العسكرية، وعن عسكرة المجتمع المدني، في اسرائيل». وفقاً لتلك الرؤية، فإن الجيش الاسرائيلي «لا يلعب دوره فقط كأداة لتنفيذ سياسة الحكومة، ولكنه يمارس أيضاً تأثيراً قوياً على صياغة السياسة، كما أن الرقابة المدنية على الجيش ليست بالقدر الكافي بل - على العكس - فإن أدوات الاشراف القومي تعاني من القصور، وكثير من ألبانها الرقابية غير فعالة». وأخيراً، فإن الجيش الاسرائيلي غير منفصل عن النظام الحزبي، ولكنه، على العكس، شديد الارتباط به، ويتأثر به، بل هو أحياناً ما يؤثر عليه. ويخلص بيري من ذلك إلى أن اسرائيل تشهد «مطأً جديداً، يمكن أن يعرف بأنه شراكة سياسية عسكرية، أو هو مجمع سياسي - عسكري»^(٩٠).

في هذا الاطار، يلعب الجيش الاسرائيلي دوراً مهماً في صياغة سياسة الأمن القومي في اسرائيل:

(١) فالسياسة الدفاعية الاسرائيلية لا تنفصل عن سياستها الخارجية، وهو ما ترمز إليه لجنة الكنيست المشتركة للدفاع والشؤون الخارجية. بل إن السياسة الخارجية ينظر إليها أساساً كدالة للسياسة الدفاعية. وبكلمات موشي دايان: «ليس لدى الدول الصغيرة سياسة خارجية، وإنما فقط سياسة أمنية» وذلك يعني أن المسؤولين عن الدفاع، يتمتعون بحق التأثير على السياسة الخارجية.

(٨٨) Eisenstadt, «The Israeli Political System and Transformation of Israeli Society», p. 416.

(٨٩) بينين، «اسرائيل: الاقتصاد السياسي ومستقبل الدولة العسكرية»، ص ١٠٢.

Peri, «Civilian Control during a Protracted War», p. 367.

(٩٠)

(٢) إن الجيش الاسرائيلي يمثل الأداة الوحيدة للتفكير الاستراتيجي في شؤون الدفاع القومي، لدى مجلس الوزراء. ولم تقلع المحاولات الهزيلة لخلق جهاز استراتيجي مدني مواز. وفي هذا الصدد، فإن لجنة «اغرانات» (التي شكلت عقب حرب ١٩٧٣) لاحظت أن الاستخبارات العسكرية كانت الجهاز الوحيد المسؤول عن وضع التقديرات القومية.

(٣) إن المذهب العسكري الاسرائيلي، وضع قيوداً على الجوانب السياسية للتخطيط الاستراتيجي، ليس فقط على مستوى التصور والادراك، وإنما أيضاً على مستوى صنع القرار.

(٤) إن الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة، تجنب وضع وثيقة تحدد أهداف اسرائيل الحربية، ولكن على العكس، فإن القيادة العسكرية كانت دائماً تعلن تلك الأهداف، في سياق الحرب، ووفقاً لما تمليه «التطورات الميدانية» ولا تلعب الحكومات غير دور ثانوي، أو تابع بعد ذلك، لتبرير أهداف الحرب أو تفسيرها.

(٥) إن هيكل القيادة العامة للجيش الاسرائيلي، الذي يربط بين فروع الجيش الثلاثة، كذلك اندماج وظائف القيادة العامة، يوقر لرئيس الأركان الاسرائيلي قوة أكبر بكثير من أقرانه في الجيوش الغربية. كما أن قوته السياسية تتعاطم باعتباره الصلة الرسمية الوحيدة بين المستويات العسكرية والمدنية. فضلاً عن ذلك، فإن مشاركة رئيس الأركان في جميع اجتماعات مجلس الوزراء - وليس فقط تلك المخصصة للأمور العسكرية - ليست الا مظهراً واحداً لوضعه الخاص، فضلاً عن انه الموظف العام الوحيد الذي يمكنه تجاوز قرارات الوزير التابع له.

(٦) إن اعتبار الجيش الاسرائيلي هو سلطة الحكم الوحيدة في المناطق المحتلة بعد ١٩٦٧، أدى إلى جعل الحكم العسكري، في تلك المناطق، مسؤولاً عن وظائف مدنية بحته أيضاً^(١).

أما في ما يتعلق بضعف الرقابة القومية (المدنية) على القوات المسلحة الاسرائيلية، فقد كانت إحدى النقاط المهمة التي كشفتها تحقيقات لجنة اغرانات. وفي واقع الأمر، فإن صدور القانون الأساسي عن «الجيش» عام ١٩٧٦ إنما كان بهدف سد الفجوة بين السلطة «النظرية» لمجلس الوزراء على الجيش الاسرائيلي، وبين الواقع الفعلي لتلك السلطة، والذي يتجسد تحديداً في العلاقة بين رئيس الوزراء ووزير الدفاع من ناحية، والعلاقة بين المستوى السياسي (الذي يمثله وزير الدفاع) والمستوى العسكري (الذي يمثله رئيس الأركان) من ناحية أخرى.

(٩١) المصدر نفسه، ص ٣٦٩.

وفي جميع الحالات، فإن اليد العليا كانت فعلياً للجيش، وللمستويات العسكرية في مواجهة المستويات المدنية.

إضافة إلى ذلك، فإن سلطة لجنة الدفاع والشؤون الخارجية في الكنيست هي سلطة هامشية للغاية، وقراراتها ليست لها صفة الزامية، كما أنها تفتقد سلطة إرغام أي من العسكريين على المثول أمامها. كما أن سلطتها - هي ولجنة الموازنة - في الرقابة على موازنة الدفاع، تبدو هزيلة للغاية. كذلك فإن تأثير الحكومة على موازنة الدفاع، هو أيضاً تأثير هامشي. وفي واقع الأمر فإن موازنة الدفاع انما تحددها أساساً القيادة العليا للجيش، وليس الفرع المدني من وزارة الدفاع^(٩٢).

لقد ارتبط هذا التصاعد في عسكرة المجتمع الاسرائيلي، ومؤسساته السياسية مع أفول سياسي «للصهيونية الاجتماعية» التي ظلت تسيطر على الحركة الصهيونية وعلى المجتمع الاسرائيلي، من عشرينات القرن الحالي وحتى السبعينات. وأفسح في المجال للاعتبارات العسكرية البحتة، وللمعايير الدينية، التي صيغت كلها بقومية شوفينية، ذات توجهات عدوانية، وعنصرية، ومعادية للديمقراطية. ولم تكن هذه التطورات مجرد انحرافات منقطة الصلة بالمجرى العام للفكر الاسرائيلي، والمسار العام لتطور اسرائيل، فضلاً من ارتباطها بالتغيرات التي حدثت بعد ١٩٦٧^(٩٣).

وكان العسكريون الذين انخرطوا في العمل السياسي، هم أكثر العناصر تعبيراً عن تلك التغيرات كلها، «وتحت حكم العمل كان هؤلاء مسؤولين عن أعمال العنف ضد العرب في الخمسينات، وتحمسوا لشن ضربة ١٩٦٧، كما أنهم قادوا، تحت حكم الليكود، غزو لبنان في ١٩٧٨ و١٩٨٢. وظهرت حملة انتخابات ١٩٨٤ درجة الضعف التي أصابت صهيونية حزب العمل، وتغتر التيار الاشتراكي الديمقراطي داخله مع صعود القادة العسكريين السابقين»^(٩٤).

ويعني ذلك كله بالنسبة إلى المستقبل، ضعف احتمال قيام حكومة في اسرائيل تبحث عن حل للصراع مع العرب، بشروط تضمن للشعب الفلسطيني حق تقرير مصيره، خصوصاً إذا ظل توازن القوى مع الجانب العربي، على حاله الراهنة.

ب - الصراعات الاجتماعية في المجتمع اليهودي

ليس جديداً القول إن إحدى السمات الأساسية للمجتمع الاسرائيلي إنما تتمثل في التناقض بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، فضلاً عن تناقضات أخرى، بين المتدينين

(٩٢) المصدر نفسه، ص ٣٧٣.

(٩٣) بينين، «اسرائيل: الاقتصاد السياسي ومستقبل الدولة العسكرية»، ص ١٠٣.

(٩٤) المصدر نفسه، ص ١١٠.

والعلمانيين، وبين الأجيال الجديدة الصاعدة والأجيال القديمة.

لقد أثبتت نتائج انتخابات عام ١٩٨٤ تزايد حدة الاستقطاب الطائفي في إسرائيل. فعلى الرغم من اخفاقات الليكود في غزو لبنان في صيف ١٩٨٢، واستحكام الأزمة الاقتصادية، إلا أن الليكود حصل على نتائج تفوق جميع التوقعات قبل الانتخابات، وهي كلها نتائج نُسبت، أساساً إلى تصويت اليهود الشرقيين لمصلحته.

وإذا كنا نهتم، هنا، بالبعد السياسي للعلاقة بين الاشكناز والسفارديم، فإن هذا لا ينفي أن الأبعاد الأخرى لتلك العلاقة غير المتكافئة، تظل هامة وضرورية للتعرف على مستقبل المجتمع والدولة في إسرائيل. فالانقسام بين اليهود الشرقيين والغربيين ينطوي على انقسام طبقي واضح، يشكل بمقتضاه اليهود الشرقيون الطبقة العمالية والبروليتاريا الفقيرة كلها تقريباً. وفي حين كانت الدعوة الصهيونية تهتم بدمج اليهود في العمل البدوي والانتاج المباشر، باعتبار العمل البدوي رسالة وطنية، كانت تتقلص النزعة البروليتارية لدى اليهود الغربيين الذين صاروا يشكلون في الأساس الطبقات البرجوازية وشبه البرجوازية.

وعلى الصعيد الثقافي، فإن الهيمنة الثقافية الاشكنازية والانتفاء الاشكنازي للغالبية العظمى من الكتاب والأدباء والفنانين والمثقفين، لم ينطويا على ملامح لعدم المساواة فقط، وإنما أيضاً على توجه حضاري يشعر ازاءه الشرقيون بالغربة وعدم الالتئام^(٩٥).

وفي الجانب السياسي، يمسك اليهود الاشكناز بكل مفاتيح القوة السياسية، منذ اللحظات الأولى لقيام إسرائيل، وكان قرار اعلان قيام دولة إسرائيل، في الواقع، قراراً اشكنازياً اتخذته القيادة الاشكنازية الممثلة للماباي اساساً، ولم تعد مشاركة السفارديم في اتخاذ الصفة الرمزية. على أن تشكيل السفارديم نسبة ١٠ بالمائة من سكان الليشوف عند اعلان قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ ما لبث أن تغير بشدة بفعل موجات الهجرة الجماهيرية الكبيرة من اليهود الشرقيين في الخمسينات والستينات، لكن ذلك لم ينعكس أبداً على صعيد التمثيل السياسي، والقوة السياسية لهم، على رغم توافر الحقوق السياسية المتساوية نظرياً. وكان الوضع الاقتصادي المتردي لهؤلاء في مقدمة الأسباب التي حالت دون تمثيل اليهود الشرقيين في مؤسسات الحكم، حيث كان همهم الأساسي هو الركض وراء توفير الفرص المعيشية، فضلاً عن افتقارهم لقيادة فعالة خاصة بهم. وتسابقت الأحزاب القائمة، خصوصاً حزب الماباي، لكسب اصواتهم في الانتخابات، من خلال انتهاج سياسات مخططة تجاههم^(٩٦).

(٩٥) سموحة، «نظام الحكم في إسرائيل بعد جيل: كيف سيواجه الجماعات غير المهيمنة في المجتمع»، ص ٥٣.

(٩٦) حنه شاهين، «الهوة الطائفية في التمثيل السياسي في إسرائيل»، شؤون فلسطينية، العددان ١٣٨ - ١٣٩ (أيلول / سبتمبر - تشرين الأول / أكتوبر ١٩٨٤)، ص ١٠٢.

جدول رقم (٢ - ١٤)
توزيع الأصوات على القوائم في انتخابات الكنيست الحادي عشر

القائمة	عدد الأصوات	الأصوات المئوية	النسبة المئوية (١٢٠)
المعراخ	٧٢٤٠٧٤	٣٤,٩	٤٤
الليكود	٦٦١٣٠٢	٣١,٩	٤١
هتسيا - تسومت	٨٣٠٣٧	٤	٥
المقدال	٧٣٥٣٠	٣,٥	٤
حداش	٦٩٨١٥	٣,٤	٤
شاس	٦٣٦٠٥	٣,١	٤
شينوي	٥٤٧٧٤	٢,٦	٣
راتس	٤٩٦٩٨	٢,٤	٣
ياحد	٤٦٣٠٢	٢,٢	٣
القائمة التقدمية للسلام	٣٨٠١٢	١,٨	٢
اغودات إسرائيل	٣٦٠٧٩	١,٧	٢
دورشا	٣٣٢٨٧	١,٦	٢
تامي	٣١١٠٣	١,٥	١
كانخ	٢٥٩٠٧	١,٢	١
اومش	٢٣٨٤٥	١,٢	١
لوف ايلياف	١٥٣٤٨	٠,٧	—
منظمة المشوهين	١٥٣٢٩	٠,٥	—
حركة متحدشوت (التجدد)	٥٨٧٦	٠,٣	—
حركة الهجرة والشبيبة	٥٧٩٤	٠,٣	—
شيلوف (الاندماج)	٥٤٩٩	٠,٣	—
عنزرت (الاستقلال)	٤٨٨٧	٠,٢	—
المنظمة القطرية لحماية المستأجر	٣١٩٥	٠,٢	—
بتراح فيشالوم (يلانو شارون)	٢٤٣٠	٠,١	—
هاس - ساس	١٤٧٢	٠,١	—
(الغاء قانون ضريبة الدخل)	١٤١٥	٠,١	—
الحركة من أجل الوطن	٧٣٣	صفر	—
عائنا (شعبيك)			

المصدر: سمير جبور، معذ، انتخابات الكنيست الحادي عشر، ١٩٨٤: الأبعاد الاجتماعية والسياسية، سلسلة الدراسات، ٧١ (نقريسيا: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٥)، ص ١٣٧، نقلاً عن: هآرتس، ١/٨/١٩٨٤، ودافار، ١/٨/١٩٨٤.

جدول رقم (٢ - ١٥)
نسبة التصويت منذ الكنيست الأول حتى الكنيست الحادي عشر

النسبة المئوية للمشاركين في التصويت	الكنيست
٨٨, ١	الجمعية التأسيسية (١٩٤٩)
٧٦, ٢	الكنيست الثاني (١٩٥١)
٨٥, ٤	الكنيست الثالث (١٩٥٥)
٨٤, ٣	الكنيست الرابع (١٩٥٩)
٨٤, ٥	الكنيست الخامس (١٩٦١)
٨٦, ١	الكنيست السادس (١٩٦٥)
٨٥, ٩	الكنيست السابع (١٩٦٩)
٨٠, ٧	الكنيست الثامن (١٩٧٣)
٨٠, ٤	الكنيست التاسع (١٩٧٧)
٧٩, ٤	الكنيست العاشر (١٩٨١)
٧٨	الكنيست الحادي عشر (١٩٨٤)

المصدر: المصدر نفسه، ص ١٢٥.

ويتجسد التفاوت في التمثيل السياسي لغير مصلحة اليهود الشرقيين في جميع مراكز القوة السياسية في إسرائيل خصوصاً في الكنيست، والحكومة، والمؤسسات الصهيونية. ولم يؤد انتقال السلطة الى اليمين الى تحسين الوضع التمثيلي لليهود الشرقيين، على رغم الدعم الذي قدمه هؤلاء له في انتخابات الكنيست التاسع (١٩٧٧) والعاشر (١٩٨١) والحادي عشر (١٩٨٤).

كذلك، فان العناصر من اليهود الشرقيين التي استطاعت الوصول الى مراكز القوة السياسية، تواجه تمييزاً في تولي المناصب العليا داخلها، حيث يلاحظ اتساع الهوة بينهم وبين الممثلين الاشكناز كلما ارتفع سلم المناصب داخل مؤسسات الحكم. وعلى سبيل المثال، فان رئاسة حكومة اسرائيل لم تسلم ابداً الى زعيم يهودي شرقي، سيما ان الوزارات الرئيسية الاربع: الخارجية والداخلية والدفاع والمالية، ظلت حكراً على الوزراء الاشكناز^(٩٧).

ان هذا الوضع التمييزي الذي تعرض له اليهود الشرقيون لم يمر من دون ردود فعل

(٩٧) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

رافضة، ليس هناك مجال لسردها. ولكن يمكن الإشارة، خصوصاً الى ظهور حركة الفهود السود منذ كانون الثاني/ يناير ١٩٧١ التي لفتت الأنظار - أكثر من أي شيء قبلها - الى مظاهر الفقر وعدم المساواة التي يعانيها الشرقيون. ولكن ما هو أهم من ذلك، انما يتمثل في حقيقة ان اليهود الشرقيين، كانوا من أبرز القوى التي اسهمت في صعود اليمين الى الحكم في عام ١٩٧٧ وفي احتفاله به في الانتخاين التاليين.

ويعزى هذا السلوك التصويتي لليهود الشرقيين الى اكثر من عامل:

فهناك أولاً البحث عن هوية سياسية لهم، وهناك ثانياً الأزمة الاقتصادية التي تجعلهم يجمعون عن حزب العمل لانه حزب أجهزة ومؤسسات، أي انه حزب «أرباب العمل». ثم ان الاحزاب اليمينية تشعرهم، أكثر من غيرها بالتمييز بينهم وبين القوة الاجتماعية الأدنى، أي العرب! وبعبارة يوري افنيري، «فان عنصرية اليهود الشرقيين ازاء العرب، هي الى حد بعيد، نتيجة مباشرة لعنصرية الاشكناز ازاء الشرقيين انفسهم»^(٩٨).

اما الصراع بين اليهود المتدينين والعلمانيين، فانه يستند الى حقيقة لتقسام اليهود في اسرائيل - طبقاً لما يقرره الباحثون الاسرائيليون - الى أربع مجموعات رئيسية، وفقاً للمحافظة على التقليد الديني، وهم: - الحرديم، او غلاة المتمسكين بالشعائر الدينية (٨ بالمائة) والمتدينون الوطنيون (١٧ بالمائة)، والتقليديون (٥٠ بالمائة) ثم العلمانيون (٢٥ بالمائة) ويشكل الحرديم والمتدينون الوطنيون معا الاقلية الارثوذكسية التي تتمسك بسلطة «الملاحاه» (أي الشريعة) وتمارس الفرائض الدينية العملية، في حين ان التقليديين والعلمانيين يشكلون الاغلبية غير المتدنية، التي تحافظ - بشكل انتقائي - على جزء من الشعائر الدينية^(٩٩).

من الناحية العقيدية، فان المتدينين (والحرديم خصوصاً) يجمع بينهم رفضهم لثلاث قيم أساسية في المجتمع الاسرائيلي، أي: رفض نمط الحياة العلماني السائد، ورفض الطابع الصهيوني للدولة، ورفض الديمقراطية السياسية وسلطة القانون، بما يترتب على ذلك من رفض الخدمة العسكرية واستعمال العنف مع المعارضين.

ومن الناحية التنظيمية أو المؤسسية، تعتبر الأقلية المتدنية شديدة القوة والتناسك، فلها مؤسساتها الخاصة، واحياؤها المستقلة، ولها شعاراتها وطقوسها، وخدماتها الدينية المستقلة. ويرتبط نفوذ هذه الأقلية بحقيقة ان الشريعة اليهودية هي التي تحكم الأحوال الشخصية، ويتمويل الدولة لعدد من الخدمات الدينية، والاحتفال الرسمي بالأعياد الدينية، والمكانة

(٩٨) جيور، معدّ، انتخابات الكنيست الحادي عشر، ١٩٨٤: الأبعاد الاجتماعية والسياسية، ص ٢٠١، نقلاً عن: يوري افنيري، في: هاعولام هازيد، ٢٣/٩/١٩٨٤. (بالعبرية)
(٩٩) سموحة، «نظام الحكم في اسرائيل بعد جيل: كيف سيواجه الجماعات غير المهيمنة في المجتمع»، ص ٥٥.

الرسمية للحاخامية والمجالس الدينية .

وربما كانت النقطة الفاصلة في تاريخ الصراع بين المتدينين والعلمانيين في اسرائيل، هي لحظة وصول الليكود الى الحكم . فقبل ذلك، وفي ظل سيطرة المعراخ كانت العلاقة مع المتدينين مستقرة، فضلاً عن ان عدم احتياج الحزب الحاكم لاصوات المتدينين جعله غير خاضع لمساوماتهم . أما الليكود فبعد وصوله الى الحكم، وانتهاج سياسات متشددة ترفع لواء الدين، اصبح - باعتباره التكتل الحاكم - في حافة دائمة لتأييد الاحزاب الدينية، واضمح تالياً عرضه لابتزازها، وهو ما بدا خصوصاً في اتفاقيتي الائتلاف الحكومي عامي ١٩٧٧ و ١٩٨١، اللتين تضمنتا في معظمهما نصوصاً خاصة بالشؤون الدينية^(١٠٠).

على أن أبرز مظاهر التطور في الصراع بين المتطرفين الدينيين والعلمانيين في اسرائيل انما هو اتجاه هذا الصراع لان يتخذ أبعاداً عنيفة متصاعدة، كما ظهر في حوادث متعددة عام ١٩٨٦، فضلاً عما سبق ان عكسته انتخابات ١٩٨٤ من ازدياد قوة العنصر الديني، وهو ما بدا بالذات في انفصال بعض القوائم عن الاحزاب السياسية مثل قوائم «شاس» و «مورشا» التي خاضت الانتخابات على أساس ديني - طائفي .

على ان صورة الصراعات الاجتماعية، وانعكاساتها السياسية، في المجتمع اليهودي في اسرائيل، لا تكتمل الا بالتعرف على التوجهات الايديولوجية لدى الأجيال الشابة الحالية في اسرائيل . وكما ظهر من نتائج انتخابات عام ١٩٨٤ فقد اتجه الشباب نحو اليمين المتطرف، كما بينت ذلك نتائج التصويت في الجيش والاصوات التي منحت لحركة هتحيما، وحركة الحاخام كهانا العنصرية . ان هذا الميل لدى الشباب في اسرائيل لا يمكن فصله عن البيئة السياسية والدعائية التي نشأ فيها، واذا تذكرنا هنا ان حرب عام ١٩٦٧ مر عليها ما يقرب من العقدين، فان هذا يعني ان الجيل الحالي من الشباب الاسرائيلي يرى ويدرك الضفة الغربية وقطاع غزة مثلاً، باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من أرض اسرائيل، ولا يتصور التخلي عنها . وفصلاً عن ذلك، فان الاحزاب الصهيونية، بنزعاتها كافة، صورت نتائج حرب ١٩٦٧ باعتبارها انتصاراً للفكرة الصهيونية والمشروع الصهيوني . ونظرا الى ان هذا المشروع يقوم على الاحتلال والتوسع، فقد مثل الاحتلال في نظر الشباب فتحاً جديداً للفكر الصهيوني^(١٠١) . ويربط بعض الباحثين الاسرائيليين ظاهرة التطرف اليميني لدى الشباب بما مر بالمجتمع الاسرائيلي من تغيرات اجتماعية واقتصادية، خصوصاً في اعقاب حرب ١٩٦٧، وانتهاء هيمنة الايديولوجية العالية الاشتراكية . لقد خلق ذلك كله فراغاً ايديولوجياً حاداً،

(١٠٠) فاروق رياض مبروك، «الصراع بين المتطرفين الدينيين والعلمانيين في اسرائيل»، الأهرام، ١٩٨٦/٨/١،

ص ٦.

(١٠١) جبور، معدي، انتخابات الكنيست الحادي عشر، ١٩٨٤: الأبعاد الاجتماعية والسياسية، ص ٢٠٤.

لم يجد معه الشباب سوى التوجهات والافكار اليمينية لتتقدم من ذلك الفراغ^(١٠١).

إن ملاحظة المسار الأخير الذي اتخذته التناقضات السابقة الاشارة اليها في المجتمع الاسرائيلي (بين اليهود الشرقيين والغربيين، وبين المتدينين والعلمانيين، وبين الشباب والأجيال الاقدم) انما تشير الى دعم للتيار اليميني والعنصري، على نحو ينافس بقوة التيار العمالي الذي فقد سيطرته على الحياة السياسية في اسرائيل منذ اواخر السبعينات. وربما كان أبرز الظواهر التي تلخص تلك التطورات كلها التنامي في قوة ونفوذ الحاخام المتعصب مائير كاهانا، الذي فاز بانتخابات ١٩٨٤، وللمرة الأولى، بعضوية الكنيست الاسرائيلي، منضياً الى دعاة العنصرية الآخرين أمثال يوفال نثيان وجئولا كوهين ورفائيل ايتان. لقد حصل كاهانا على ٥٠ بالمائة من اصوات المستوطنين في الضفة الغربية، وعلى ٣, ٧ بالمائة من اصوات مدن الاعمار الصغيرة، وعلى ٢, ٢ بالمائة من اصوات المستعمرات الدينية، وعلى نسبة ٢, ٧ بالمائة من اصوات الاحياء الصغيرة في القدس وعلى ٦, ٢ بالمائة من اصوات المستعمرات من الطوائف المنحدرة من آسيا وافريقيا، كما حصل على نسبة ٥, ٢ باللائة من اصوات الجنود في الجيش.

ج - التناقض مع السكان العرب في اسرائيل

خلال ٣٧ عاماً، تضاعف عدد السكان العرب في اسرائيل اكثر من أربع مرات. وبعد ان كان عددهم عام ١٩٥٠ يبلغ ١٦٠ الف نسمة (بعد تهجير ٨٥ الف نسمة) يشكلون حوالى ١١ بالمائة من مجموع السكان، فان آخر الاحصاءات الاسرائيلية قدرت عددهم في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٣ بنحو ٧١٢, ٥٠٠ نسمة، تستأثر المنطقة الشبالية (الجليل وما حوها، كما سبقت الاشارة) بحوالى ٦٠ بالمائة منهم، باستثناء عرب مدينة القدس. ويبدو ان ثمة علاقة بين الخصائص الديمغرافية للعرب في اسرائيل ونموهم العددي، وبين تطور اوضاعهم النفسية والاجتماعية والسياسية. فتزايد العدد، بالنسبة اليهم يعني التخلص من مشاعر العجز والدونية المرتبطة بوضع الاقلية، والانتقال من النظام العشائري الى اطار الانتماء القومي، فضلاً عن تنامي القدرات الفكرية والثقافية. اما على الصعيد السياسي، فان ازدياد عدد سكان اسرائيل العرب يعني امكانية تحوّلهم الى قوة انتخابية مؤثرة^(١٠٢).

وبعد أحداث ١٩٤٨ وخلو الساحة العربية من الأحزاب التي كانت قائمة، نشأ فراغ في العمل السياسي لدى العرب، جرت المحاولات ملته في اتجاهين. الأول، حزب الماباي،

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٥.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٢١٦ - ٢٢٠.

وهو ارتبط بالزعامات العشائرية التقليدية، حيث نظم هؤلاء أنفسهم في قوائم انتخابية خاصة بهم، ومرتبطة بتلك الأحزاب واستحوذت هذه القوائم وفي الخمسينات، على ٧٥ بالمائة من اصوات العرب. اما الاتجاه الثاني، فهو اتجاه الحزب الشيوعي الاسرائيلي (ماكي) الذي ظل يستحوذ على نسبة كبيرة من أصوات العرب، الى عام ١٩٦٥، حيث انشق (ماكي) الى حزبين: حزب يهودي فقط احتفظ باسم ماكي، وحزب (راكاح) الذي يضم الاعضاء العرب مع قليل من اليهود بزعامة مثير فلتر وتوفيق طوبى واميل حبيبي واميل توما. أما محاولات العرب الاسرائيليين انشاء حزب او هيئة تمثلهم مباشرة فقد أحبطت، وكان ابرز تلك المحاولات حركة «الارض» التي اعتبرت - بمقتضى قرار وزير الدفاع الاسرائيلي عام ١٩٦٤ - حركة خارجة عن القانون. وكان الخلاف بين حركة الارض والحزب الشيوعي (ماكي) تركز حول رؤية حركة الارض لعرب اسرائيل جزءاً من الشعب الفلسطيني ومن الأمة العربية ككل، بما يعنيه ذلك من طابع قومي شامل لنضالهم، عكس موقف الحزب الشيوعي من عرب اسرائيل كأقلية قومية داخل دولة اسرائيل. وبعد شل حركة الأرض، بقيت القائمة الشيوعية الجديدة (راكاح) تستقطب القسم الاكبر من العرب، اذ حصلت على ٥٠ بالمائة تقريباً من اصوات العرب في انتخابات الكنيست التاسع عام ١٩٧٧ و٤٠ بالمائة من اصواتهم في انتخابات الكنيست العاشر. وفي انتخابات المجالس البلدية التي جرت في تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٣ وصل راکاح الى رئاسة ١٩ مجلساً بلدياً ومحلياً، أهمها مجلس مدينة الناصرة.

على انه يعزى الى ما ترتّب على حرب ١٩٦٧ من اتصال عرب اسرائيل وعرب المناطق المحتلة، تعزيز الشعور القومي لدى عرب اسرائيل، وتنمية اهتمامهم بالمسألة الفلسطينية عموماً، وبدا ذلك خصوصاً في اوساط المثقفين، وطلاب الجامعات. لقد انعكس ذلك كله، تنظيمياً، في انشاء هيئات عربية لأغراض محددة، مثل اللجنة الوطنية للدفاع عن الأراضي العربية التي انشئت في ١٩٧٥، ودعت الى الاضراب العام الاول لعرب اسرائيل يوم ٣٠ آذار/ مارس ١٩٧٦ وعرف باسم «يوم الأرض»، واللجنة القطرية لرؤساء المجالس المحلية العربية، كما انشئت ايضاً هيئات وطنية ذات انتباءات سياسية وايدولوجية مثل حركة «أبناء البلد» التي انشئت عام ١٩٧٢ كامتداد لحركة الارض السابقة، و «مؤتمر الجماهير العربية» الذي عقد في ايلول/ سبتمبر ١٩٨٠ في «شفا عمرو» وصادق على الميثاق الوطني لعرب اسرائيل، و «الحركة الوطنية التقدمية» التي انشئت عن «أبناء البلد» و «الحركة التقدمية العربية» في اسرائيل والتي أعلن انشاؤها في كانون الثاني/ يناير ١٩٨٢ في مدينة الناصرة^(١٤).

وفي ضوء هذه التحولات، شهدت انتخابات عام ١٩٨٤ ظواهر جديدة في مقدمتها

(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٦.

إلغاء الأحزاب الصهيونية للقوائم العربية المرتبطة بها، بخاصة المعراخ، بعد ان تقلص نصيب تلك القوائم من ٤٠ بالمائة من اصوات العرب عام ١٩٦٩ الى ١٢ بالمائة عام ١٩٨١. وفي الوقت نفسه ظهرت قوة جديدة انضمت الى حلبة التنافس على الاصوات العربية، وهي: «القائمة التقدمية للسلام» برئاسة المحامي محمد ميعاري وماتي بيليد، وهي حركة يهودية - عربية ذات برنامج مؤيد لحقوق عرب فلسطين. وبذلك، فان التنافس عام ١٩٨٤ على أصوات العرب جرى بين الأحزاب الصهيونية من جانب، وبين كل من حداث (راكاح وآخرين)، والقائمة الديمقراطية. ولقد تأسست حداث (أي الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة) من تآلف كل من: راکاح والفهود السود، وجبهة الناصرة الديمقراطية واليسار الديمقراطي الاسرائيلي (شاس) ولجنة المبادرة الدرزية.

إن ابرز التطورات التي شهدتها انتخابات عام ١٩٨٤ (والتي اتسمت ايضا بارتفاع نسبة التصويت الى ٧٢ بالمائة من الذين لهم حق الاقتراع) كان الانجاز المهم الذي حققته القائمة التقدمية للسلام التي نالت حوالى ١٧ بالمائة من اصوات العرب، حيث صوت لها «قيميون» ممن امتنعوا في السابق عن التصويت، وكذلك قسم من الناخبين الشباب الذين صوتوا للمرة الأولى. أما «حداث»، بزعامة راکاح فقد حصلت على ٣٤ بالمائة من الأصوات العربية مسجلة انخفاضاً في قوتها. ولكن ذلك يعني ان القائمتين غير الصهيونيتين (حداث والتقدمية للسلام) قد حصلتا معاً على ٥١ بالمائة من اصوات العرب، في حين حصلت الأحزاب الصهيونية على ٤٩ بالمائة من تلك الأصوات، مما يعني هبوطاً في قوة هذه الأخيرة (مقارنة بـ ٦٣ بالمائة عام ١٩٨١ و٧٠ بالمائة عام ١٩٧٧). وقد توزعت الأصوات العربية للأحزاب الصهيونية بين المعراخ وياحد والليكود وشينوي، استأثر منها المعراخ بـ ٢٤ بالمائة من أصوات العرب^(١٠). وبذلك النتيجة تكون حداث قد حصلت على المركز الأول في التصويت العربي (٣٤ بالمائة) وحصل المعراخ على المركز الثاني (٢٤ بالمائة) والقائمة التقدمية للسلام على المركز الثالث (١٧ بالمائة). وبذلك فان النسبة الغالبة من العرب صوتت للمرة الأولى منذ انشاء اسرائيل، لأحزاب غير صهيونية، مما اعتبرته الأوساط الاسرائيلية تحولاً «نحو التطرف والراдикаلية».

في ضوء هذه التطورات كلها، ومن وجهة نظر مستقبل النظام السياسي في اسرائيل، تظل هناك اشكالياتان في شأن عرب اسرائيل: الأولى، ان الاقلية العربية أقلية «مشقة» ترفض الايديولوجية الأساسية للنظام، وتخرج عن «الاجماع الوطني» في ما يتعلق بالطابع الصهيوني للدولة، وبكيفية تسوية الصراع العربي الاسرائيلي. الثانية، وامتداداً للمواصفات السابقة، فان الاقلية العربية هي أقلية «معادية»، بل هي جزء من العدو، ومن الممكن ان

(١٠٥) المصدر نفسه، ص ٢٣١ - ٢٣٦.

تتحول الى طابور خامس، اذا لم تفرض عليها الرقابة الصارمة.

من الناحية النظرية، فان حل هاتين الاشكالتين يعني أولاً: تعزيز الطابع المدني للدولة الاسرائيلية، والاعتراف بالمواطنة كمصدر وحيد تقريبا للحقوق والواجبات، بغض النظر عن الأصل الطائفي، بما يعنيه ذلك من اضعاف الطابع الصهيوني لاسرائيل، او على الاقل اعادة تحديده. ثانياً: النظر، تالياً، الى عرب اسرائيل كمواطنين غير مشكوك في ولائهم، ومطالبتهم بتأدية الخدمة العسكرية، واحترام آرائهم الخارجة عن الاجماع^(١٠٦).

على ان التطور الفعلي للوضع السياسي لعرب اسرائيل، يبعد كثيراً عن تلك التصورات. وفي حين يدعو بعض الاسرائيليين الى السماح بانشاء حزب عربي غير قومي، وغير معاد للصهيونية، يسهم في مزيد من الدمج السياسي لعرب اسرائيل، فان ما يحدث فعلياً هو مزيد من التناقض والاستقطاب، بين تحول نحو مزيد من اليمينية، بل والعنصرية، في الجانب اليهودي، ومزيد من القومية والراдикаلية في الجانب العربي. وطالما بقيت الظروف الاقليمية والدولية، وتطورات حل القضية الفلسطينية على ما هي عليه، فان هذا الاستقطاب المتزايد هو الذي سوف يشكل صورة المستقبل السياسي لعرب اسرائيل، اكثر من أي شيء اخر.

رابعاً: القوة العسكرية الاسرائيلية وديناميات الصراع مع الوطن العربي^(*)

أياً كانت أهمية الأبعاد الاقتصادية والسياسية، في تقدير قوة الطرف الاسرائيلي في معادلة الصراع العربي - الاسرائيلي، فسوف تظل القوة العسكرية هي الأكثر خطورة وحسماً. ولقد سبقت الاشارة في المبحث الاول، الى الأبعاد الأمنية لحدود اسرائيل، وسياستها الاستيطانية. كما تناول المبحث الثاني موقع الانفاق العسكري وصناعة السلاح، في الاقتصاد الاسرائيلي. وعالج المبحث الثالث خصائص النظام السياسي الاسرائيلي والمحددات الحاكمة لمستقبله، وعلى رأسها، موقع العسكريين من السلطة السياسية. ان ذلك كله يصب، في نهاية الأمر، في القوة العسكرية الاسرائيلية، بالمعنى المباشر.

سيعالج هذا المبحث القوة العسكرية الاسرائيلية من خلال التعرّف، أولاً، على حجم

(١٠٦) سموحة، «نظام الحكم في اسرائيل بعد جيل: كيف سيواجه الجياعات غير المهيمنة في المجتمع»

ص ٥٩.

(*) كتب هذا الجزء اللواء طلعت مسلم.

القوة العسكرية الاسرائيلية مقارنة بالقوة العسكرية العربية، ثم، ثانياً، من خلال تحديد ديناميات الصراع العربي - الاسرائيلي في الفترة السابقة، وتطوراتها المستقبلية.

١ - توازن القوى العسكرية بين العرب واسرائيل

إن دراسة توازن القوى في الصراع العربي - الاسرائيلي لا بد وان تضع في اعتبارها التوازن المحتمل بين القوى العسكرية الداخلة في الصراع فعلاً، وليس كل القوى التي تمتلكها الاطراف الداخلة فيه، ومدى فاعلية هذه القوى في ميدان القتال. وهكذا، فإن هذا التوازن لا يمكن ان يقتصر على دراسة حجم القوات سواء أكانت بشرية أم معدات، بل يجب ان يقرنها بنوعية هذه القوى، كما يجب أن يضع في الاعتبار القوات التي يمكن وضعها لمصلحة الصراع، وبخاصة من جانب العرب. اذ ان جميع القوات الاسرائيلية مشتركة بلا شك في الصراع العربي - الاسرائيلي، بينما تضطر القوات العربية الى الاحتفاظ بأجزاء من قواتها لمواجهة التهديدات الاخرى المحتملة، سواء من دول الجوار الجغرافي أم من القوى العظمى. ودول الجوار الجغرافي لها دور في اثارها، اضافة الى العوامل المحلية الصرفة التي تثير هذه القوى الداخلية.

وفي مجال دراسة توازن القوى، يجب عدم الاكتصار على دراسة القوة التقليدية، بل يجب ان تمتد الدراسة الى توازن أسلحة التدمير الشامل، وبخاصة التوازن النووي بين أطراف الصراع، ومدى فاعلية هذا التوازن في الصراع.

اذا كان للدراسة طابع استشرافي مستقبلي، فلا بد ان يمتد افقها الى دراسة التطورات المتوقعة والمحتملة في هذه القوى، وهو ما يرتبط بتطور القوة البشرية والاقتصادية والعلمية، وكذلك التطور الاجتماعي للمجتمعات المشتركة في الصراع، واخيراً فان تطور العلاقات السياسية والعسكرية لا بد وان يضيف بعداً جديداً الى توازن القوى العسكرية.

تقدم الجداول المرفقة تصوراً رقمياً للميزان العسكري العربي - الاسرائيلي، خلال فترة الاستشراف، ويلاحظ فيه ان اسرائيل وكثيراً من البلدان العربية قد وصلت تقريباً الى الحد الكمي لنمو قواتها عديداً في منتصف الثمانينات، بحيث لا ينتظر زيادة حجم هذه القوات كثيراً خلال فترة الاستشراف. ولكن هذا لا يعني توقف نمو هذه القوات، انما يتجه النمو الى زيادة قدرة وكفاءة هذا الحجم بالاتجاه الى تحسين النوعية بما يعني زيادة في خفة الحركة، والدقة، وقوة الثيران، والمدى وما الى ذلك، وهو ما يمكن ان يغير كثيراً من ميزان القوة العسكرية.

لا شك ان اسرائيل وصلت، قبل البلدان العربية، الى الحد الكمي لنمو قواتها. ومنذ ذلك الوقت وهي تركز على النمو الرأسي لقواتها، بتحسين نوعية القوات، وتحسين مستوى

التدريب والروح المعنوية. ويظهر ذلك، أساساً، في شراء وإنتاج اسلحة جديدة، كما يبدو في تحسين قدرات الدبابات «ميركافا»، وإنتاج ذخيرة للمدفعية ضد المدرعات، وإنتاج عربات صواريخ متعددة القواذف، وإنتاج الطائرات من طراز «كفير» و«لافي»، وزوارق الصواريخ من طراز «سغر - ٥» إضافة الى شراء الصواريخ جو- جو وجو- أرض من طرازات حديثة. ويبدو ذلك أخيراً من تزويد الولايات المتحدة إسرائيل طائرات «ف - ١٦ تي». على ان أهم التطورات الكيفية للقوات الاسرائيلية، تظهر في إنتاج الاسلحة النووية ووسائل إيصالها الى أهدافها، وبخاصة الصواريخ «أريحا - ٢» وتدريب الطيارين على مناورات قذف القنابل النووية.

جدول رقم (٢ - ١٦)
المؤشرات العسكرية المتوقعة لإسرائيل خلال فترة الاستشراف (*)

السنة	١٩٨٥	١٩٩٠	١٩٩٥	٢٠٠٠	٢٠١٥
السكان (مليون)	٤,٣	٥	٥	٥	٦
إجمالي القوات المسلحة (الف)	٥١٢/١٤٢ ^(١)	٥١٢/١٤٢	٥١٢/١٤٢	٥١٢/١٤٢	٥١٢/١٤٢
دبابات القتال الرئيسية	٣٦٠٠	٣٦٠٠	٣٦٠٠	٣٦٠٠	٣٦٠٠
قطع المدفعية	١٨٥٠ ^(١)	١٨٥٠	١٨٥٠	١٨٥٠	١٨٥٠
صواريخ أرض أرض	٣٦ ^(١)	٣٦	٤٨	٤٨	٤٨
طائرات القتال	٦٨٤٠ ^(١)	٦٨٤٠	٦٨٤٠	٦٨٤٠	٦٨٤٠
الغواصات	٣	٣	٤	٥	٨
السفن الرئيسية	٦	١١	١١	١٢	١٢
زوارق الصواريخ	٢٤	٢٤	٢٤	٢٤	٢٤
هليكوبتر مسلحة	٦٠	٦٠	٦٠	٦٠	٦٠

(*) المعلومات معدلة وفقاً لبيانات المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن ١٩٨٥ - ١٩٨٦.

(١) الرقم في اليمين هو القوات العاملة، وفي اليسار بعد التبعئة، ولا يمكن فصل القوات الاحتياطية الاسرائيلية عن العاملة في صراع شامل.

(٢) تقدير المدفعية الاسرائيلية وفقاً لمراجع: «التوازن العسكري في شرق البحر المتوسط» (دراسة غير منشورة). انظر النقص في بعض بيانات المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن.

(٣) تقدير الصواريخ أرض أرض يشمل الصواريخ التقليدية أو المزدوجة الاستخدام، وليست هنا تقديرات صحيحة لقواذف الصواريخ النووية «جيريكو ١، ٢» المعروفة بـ «أريحا».

(٤) يحتمل ان تكون هناك حوالي ٩٠ طائرة مخزنة كاحتياط، ويحتمل ان تكون اي زيادة تالية احتياطية.

جدول رقم (٢ - ١٧)
توازن القوى العسكرية بين اسرائيل وتجمع المشرق العربي
وفقاً للمؤشرات العسكرية للدول عام ١٩٩٠

البيان	اسرائيل	سوريا	العراق	الأردن	لبنان	للسطين	المجموع العربي
السكان (مليون)	٥	١٣	١٦,٤	٤	٢		٣٦,٤
اجمالي القوات المسلحة (الف)	٥١٢/١٤٢	٦٦٢	٥٧٠	٨٨	١٩		١٣٣٩
دبابات القتال الرئيسية (دبابات)	٣٦٠٠	٤٢٠٠	٣٧٥٠	٨٥٥	١٣٧		٨٩٢٤
قطع المدفعية (قطعة)	١٨٥٠	٤٠٠	٣٦٠٠	٤١٩	٨٤		٨٠١٣
الصواريخ أرض أرض (قاعدة)	٣٦	٥٤	٤٣	—	—		٩٧
طائرات القتال (طائرة)	٦٨٠	٥٣٦	٥٠٠	١٢١	٧		١١٦٤
القواصص (غواصة)	٣	٢	—	—	—		٢
السنن الرئيسية (سفينة)	٦	٦	١١	—	—		١٧
زوارق الصواريخ (زورق)	٢٤	٢٥	١٠	—	—		٣٥
هليكوبتر مسلحة (هليكوبتر)	٦٠	١٠٠	١٠٠	٢٤	١٠		٢٢٤
أسلحة نووية (رأس)	—	—	—	—	—		—
تطور الصناعة العسكرية	(ج)	(د)	(د)	—	—		(هـ)
طائرة انتار ميكرو	٤	—	—	—	—		—

المصادر: بنيت التقديرات على أساس موجودات عام ١٩٨٦، واحتمالات تزايد عدد السكان وفقاً لـ: البنك الدولي، تقرير عن التنمية في العالم، ١٩٨٥، واتجاهات نمو القدرات العسكرية للدول وفقاً لوارداتها وصناعة الأسلحة فيها عام ١٩٨٦ وفقاً لـ: SIPRI Yearbook 1985 and 1986.

جدول رقم (٢ - ١٨)
توازن القوى العسكرية الممكن اشتراكها في الصراع العربي - الاسرائيلي
من تجمع المشرق العربي ومن اسرائيل عام ١٩٩٠

البيان	اسرائيل	سوريا	العراق	الأردن	لبنان	للسطين**	المجموع العربي	المقارنة بين التجمع واسرائيل
اجمالي القوى المسلحة (الف)	٥١٢/١٤٢	٥٦٢	١٠٠	٨٨	١٩		٧٦٩	١,٥
دبابات القتال الرئيسية (دبابات)	٣٦٠٠	٣٩٠٠	٧٥٠	٨٥٥	١٣٧		٥٦٤٢	١,٠٦
قطع المدفعية (قطعة)	١٨٥٠	٣٧٠٠	٦٠٠	٤١٩	٨٤		٤٨٠٣	٢,٦
الصواريخ أرض أرض (قاعدة)	٣٦	٥٤	٢٧	—	—		٨١	٢,٥
طائرات القتال (طائرة)	٦٨٤	٥٣٦	٣٠٠	١٢١	٧		١٠٦٤	١,٠٦
القواصص (غواصة)	٣	٢	—	—	—		٢	٠,٧
السنن الرئيسية (سفينة)	٦	٦	—	—	—		٦	٠,٥
زوارق الصواريخ (زورق)	٢٤	٢٥	—	—	—		٢٠	٠,٨
هليكوبتر مسلحة	٦٠	١٠٠	٤٨	٢٤	١٠		١٨٢	٣
قنبلة نووية	—	—	—	—	—		—	صفر
طائرة انتار ميكرو	٤	—	—	—	—		—	صفر
تطور الصناعة العسكرية	(ج)	(د)	(د)	—	—		(هـ)	

(*) لم تحدد قدرات منظمة التحرير الفلسطينية حتى الآن.

جدول رقم (٢ - ١٩)
المعدلات المحققة من المؤشرات العسكرية الرئيسية لبعض الدول
لكل مليون فرد من مجموع السكان

اليان	الولايات المتحدة الأمريكية	الاتحاد السوفياتي	اسرائيل	مصر	المحقي عربياً عام ١٩٨٥	النسبة المقترحة لدول الوحدة
اجمالي القوات المسلحة	١٠ آلاف	٢٠ ألف	٣٣ ألف	١٠ آلاف	١٢ ألف	١٥ ألف
دبابات القتال الرئيسية	٥٨	١٩٠	٨٣٧	٤٦	٨٨	٦٠
قطع المدفعية	٢٤	١٢٠	٤٢٠	٤٩	٩٢	٧٥
صاروخ أرض أرض تكتيكي	١٠	٥	٩	٠,٤	١	٢
غواصة هجومية	٠,٤	٠,٧	٠,٧	٠,٣	٠,١	٠,٣
سفينة سطح رئيسية	٠,٩	٠,١	٢	٠,٢	٠,٢	٠,٢
زورق صواريخ	—	٠,٥	٥	٠,٦	٠,٩	١
طائرات قتال	٢٢	٢٦	١٦٠	٩	١٧	١٥
هليكوبتر مسلحة	٣٦	١٤	١٤	١	٢	٨
أسلحة نووية	٤٢	٣٦	١٠	—	—	٠,٢
طائرات انذار مبكر	٠,٤	٠,٥	١	٠,١	٠,٥	٠,١

المصدر: International Institute for Strategic Studies [IISS], *The Military Balance. 1985-1986* (London: IISS, 1985).

جدول رقم (٢ - ٢٠)
المعدلات المحققة من المؤشرات العسكرية نفسها بواسطة بعض البلدان
العربية الأخرى عام ١٩٨٥ لكل مليون من مجموع السكان

اليان	الاردن	الجمهورية العربية السورية	السعودية	سوريا	الكويت	اليمن الديمقراطية
اجمالي القوات المسلحة	٢٦,٥ ألف	٢٠ ألف	٥,٢ ألف	٣٦ ألف	٩,٧ ألف	١٢,٢ ألف
دبابات القتال الرئيسية	٣٠٠	٧٨٨	٣٧	٣٨١	١٣٣	٢٠٠
قطع المدفعية	٢٧٣	٦٠٤	٢٨,٦	٣٦٤	٢١	١٥٥
صاروخ أرض أرض تكتيكي	—	١٣,٥	—	٤,٩	٢,٢	٨
غواصة هجومية	—	٣,٤	—	٠,٢	٤	—
سفينة سطح رئيسية	—	٢,٨	٠,٧٥	٠,٢	—	—
زورق صواريخ	—	٧	٠,٧٥	—	٢,٣	٣,٦
طائرات قتال	٤٥,٦	١٥١	١٧	٤٥	٤٢	٤٥
هليكوبتر مسلحة	٨	١٤	٢,٤	٩	١٢	٦

المصدر: المصدر نفسه.

يضاف الى ما سبق، استمرار تدريب القوات واكتساب خبرة القتال عن طريق القيام بعمليات محدودة في مناطق الصراع الساخنة، وضد الاهداف العربية المهمة مثل العمليات المحدودة في لبنان، وقصف المفاعل النووي العراقي وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية في تونس .

على الرغم من جهود اسرائيل الكبيرة في مجال النمو الكيفي للقوات، ونجاحها في كثير من المجالات، الا ان هذا النجاح يواجه مشاكل كثيرة بعضها داخلي بصورة أساسية وبعضها الآخر يتعلق بالمناخ الخارجي الذي تعيش فيه، ومنه موقف البلدان العربية. وربما تكون أهم العوامل الأساسية، هي الأزمة الاقتصادية التي تمرّ بها اسرائيل، والتي مشكوك في قدرتها على الخروج منها، نظراً لطبيعة تكوينها كدولة دخيلة في محيط رافض لها، وكونها مجرد اداة لقوى خارجية، إضافة الى قيامها على أساس عنصري يتعامل مع السكان العرب على أسس غير مساوية لمعاملة اليهود. وقد تفاقت أزمة اسرائيل الاقتصادية حتى تضاعفت ديونها، واصبحت مرتبطة الى حد كبير بالمعونات والهبات التي تصلها من الخارج. ومهما كان سخاء القوى الخارجية، الا انها لا تستطيع ان تقوم بالانفاق على اسرائيل حتى النهاية. وقد أدى ذلك، خلال الثمانينات، الى الارتفاع البالغ في الاسعار وزيادة معدل التضخم، ثم ارتفاع البطالة. وقد أثر ذلك على نوعية القوات الاسرائيلية، سواء بقلّة ساعات تدريب قواتها الاحتياطية أم اضطرابها الى الاعتقاد على وسائل تدريبية غير كافية، وهو ما يقلل من فاعلية هذه القوات التي تعتمد بدرجة كبيرة على القوات الاحتياطية، وعلى التفوق النوعي بالتدريب. كما أدى ذلك الى فقدان كثير من افراد الخدمة الدائمة (الضباط والمتطوعين) الذين فضّلوا الخدمة خارج القوات المسلحة لتوافر اجور وتعويضات افضل. وتأثرت الصناعة العسكرية الاسرائيلية، واضطرت الى الاستغناء عن كثير من العمال والفنيين، فضلاً عن ان الروح المعنوية التي تمتعت بها القوات الاسرائيلية في فترة سابقة أصيبت بضربة قوية في القتال في لبنان، واخيراً فقد أثّرت الأزمة الاقتصادية على مستويات الاحتياط الاستراتيجي من الاحتياجات مما يقلل من قدرة اسرائيل على القتال لفترة طويلة من دون الاعتماد على امداد خارجي، وكذلك على احتياط القوة البشرية نتيجة زيادة الهجرة المضادة من فلسطين، وانخفاض معدلات الهجرة اليها الامر الذي يقلص الوعاء البشري للتجنيد.

واذا كانت اسرائيل اتخذت من الاجراءات الاقتصادية ما قلل من معدلات الانهيار الاقتصادي، بما بدا منه ان الاقتصاد الاسرائيلي بدأ يتعافى من نكسته، الا ان المقاييس المتعارف عليها عالمياً، لا تصلح كثيراً لاسرائيل، اذ ان هذه المقاييس لا تتم كثيراً بمعدلات البطالة ومستويات المعيشة للطبقات الدنيا، وهو ما يؤثر على معدلات الهجرة من اسرائيل واليه، بما هو ليس في مصلحة الدولة العبرية. كذلك فان الاصلاحات التي ادخلت بغرض نجاحها في علاج الأزمة الاقتصادية، لن تعيد الى اسرائيل الضباط والجنود والفنيين المهرة

الذين تركوا الخدمة العسكرية الى وظائف اخرى، بل انه حتى في حال عودتهم، لن يكونوا بالكفاءة التي كانوا عليها قبل خروجهم من الخدمة. ويصعب توقع ان تقوم اسرائيل بتعويضهم بأفراد من أجيال جديدة، اذ ان استمرار نجاح الحلول الاقتصادية المتخذة مرتبط بخفض الانفاق الحكومي الذي تمثل ميزانية الدفاع نسبة كبيرة منه.

يزيد من حدة هذه المشكلة بالنسبة الى اسرائيل، ان جيل الرواد الذي اقام دولة اسرائيل، أخذ في الانقراض. وقد كان هذا الجداً مشبعاً بالفكرة الصهيونية، وهو بذلك أكثر استعداداً من غيره للتضحية في سبيل ذلك. اما الاجيال التالية التي تتقدم لتولي المسؤولية، فهي بلا شك أقل تحمساً للفكرة، وتتم بسبل الحياة ومستوى المعيشة أكثر من اهتمامها بالفكرة الصهيونية، وان كانت، على عكس الجيل السابق، لا تعرف لنفسها وطناً غير اسرائيل.. ولذلك فان هذا الجيل - غالباً - سيكون أكثر تقبلاً لفكرة التعايش السلمي والتساوي مع الشعب العربي المحيط به في فلسطين وخارجها، وأقل رغبة في فرض فكرة الدولة الاسرائيلية من الجيل السابق.

يتأثر الميزان العسكري الاسرائيلي، ومقارنته بالميزان العربي، بتطور القوات المسلحة العربية، وتطور مواقف الدول تجاه اسرائيل. ويمكن بدراسة المرحلة السابقة من وجود اسرائيل، ملاحظة انها فقدت كثيراً من التأييد الذي حصلت عليه عند تكوينها، اذ فقدت تأييد الاتحاد السوفياتي وأغلب الدول الاشتراكية، كما ضعف تأييد دول اوربا الغربية على الرغم من استمرار انجيازها الى اسرائيل. كما أصبحت العلاقات التي اقامتها اسرائيل بكثير من دول العالم الثالث بنكسات، رغم ما قد تكون حققته من استعادة بعضها، الا انها ايضا لها قيودها على هذه العلاقة مما يوجب باحتمال ضعف تأييدها لها في فترة تالية، وبخاصة في حال تنظيم العرب لصفوفهم، واتخاذهم مواقف أشد قوة.

يلاحظ ان الميزان العسكري الاسرائيلي هدف، في غالبية الاوقات، الى تحقيق كل من التفوق العددي والتنوعي على أي بلد عربي وحده، ويقدر الامكان على باقي البلدان العربية. وفي هذا المجال، فان الميزان العسكري العربي - الاسرائيلي يشير الى ان حجم القوات المسلحة الاسرائيلية (بعد التقسيم) يفوق في عدده حجم القوات العاملة العربية في جميع البلدان العربية كل على حدة، ويمكن استثناء العراق حالياً، اذا احتسبنا قوات الدفاع الشعبي. وترى اسرائيل ان نظام التعبئة الذي تعتمد عليه، يسمح لها بأن تستخدم قواتها المعبأة قبل وصول الاحتياط الى البلدان العربية.

تتفوق اسرائيل في عدد الدبابات على كل بلد عربي على حدة، عدا كل من سوريا والعراق. وهي تتقارب نوعياً من حيث نوع الدبابات بينها. ففي مقابل الدبابة «ت-٧٢» لدى سوريا والعراق، نجد الدبابة «ميركافا-٢» وفي مقابل الدبابة «ت-٦٢» نجد الدبابة «م-٦٠-٣١».

يتميز كل من العراق وسوريا ومصر وليبيا على اسرائيل في عدد قطع المدفعية. الا ان المدفعية الاسرائيلية تتميز بزيادة قطع المدفعية ذات العيار الكبير والتي لها مدى اطول ونقل دانة أكبر. الا ان بعض البلدان العربية حصل على بعض هذه الانواع، مع استمرار تفوق اسرائيل فيها، اذ تتميز اسرائيل عموماً بالمدافع ١٧٥ ملم، والهاوتزر ٢٠٢ ملم والتي ليس لدى أي بلد عربي شيء منها.

زاد عدد الصواريخ العربية سطح - سطح في الفترة بعد حرب ١٩٧٣. على الرغم من ذلك فانه حسب الارقام المعروفة، فان اسرائيل تتفوق في عدد الصواريخ من هذا النوع على جميع البلدان العربية كل على حدة، اذا استثنينا كلاً من العراق وسوريا وليبيا، اذ تتفوق كل منها وحدها على اسرائيل في هذا المجال. الا اننا يجب ان نضع في الاعتبار أن المعلومات المتيسرة عن الصواريخ الاسرائيلية تقتصر على تلك الصواريخ التي سلحتها بها الولايات المتحدة الامريكية من نوع «لانس»، في حين انه من المعروف ان اسرائيل انتجت صواريخ سطح - سطح محلياً باسم «اريجا» و«اريجا - ٢» أو المعروفة باسم «جيريكو». ولا تتوافر معلومات كافية عن اعدادها ما يجعل محتملاً ان تتساوى اسرائيل مع بعض البلدان العربية التي تحتفظ باعداد أكبر من الصواريخ. كذلك، لا بد من ان نضع في الاعتبار ان استخدام هذه الصواريخ في الحرب العراقية - الايرانية، أوضح ان نتائج استخدام هذه الصواريخ برؤوس تقليدية ليست كبيرة، وان استخدامها بشكل مؤثر يتطلب رؤوساً مسلحة بأسلحة التدمير الشامل، وهو ما تفتقر اليه البلدان العربية، وتتفوق فيه اسرائيل بحيازتها لأسلحة نووية.

تحرص اسرائيل على أن تتفوق عددياً ونوعياً على أي بلد عربي في عدد طائرات القتال. ولذا، فانها تتفوق على أي بلد عربي وحده في هذا المجال، وعلى رغم الجهود الكثيرة للبلدان العربية، فاننا نجد ان ليبيا هي الآن أقرب البلدان العربية الى اسرائيل في عدد طائرات القتال، كما تتفوق برياً على كل دولة عربية على حدة، باستثناء مصر. الا ان اتجاهات التطوير في كل من سوريا وليبيا تشير الى قرب سدّ الفجوة بينها وبين القوى البحرية الاسرائيلية. ومن حيث التطور النوعي، تطورت بعض البلدان العربية تطوراً نوعياً ملموساً، وبخاصة في ما يتعلق بطائرات القتال والصواريخ أرض أرض وصواريخ الدفاع الجوي - وربما يكون ما أذيع خلال تموز/ يوليو ٨٦ عن تسليح الولايات المتحدة الامريكية اسرائيل بالطائرات «ف - ١٦ تي» لمواجهة الطائرات «ميغ - ٢٩» السوفياتية الصنع والتي تسلمتها سوريا، دليلاً على مدى اقتراب الفاصل النوعي بين القوات. كذلك فان وصف القوات الامريكية للنشاط الالكتروني الليبي خلال الغارات، يدلّ على ان القوات العربية الليبية قد تقدمت في مجال الحرب الالكترونية تقدماً كبيراً. ويتنظر ان يكون التقدم في سوريا على المستوى نفسه. ولكن يبقى ان القوات العربية ما زالت متخلفة في المجال النووي، ولم

تتقدم أي خطوة في هذا المجال، الا ان التقدم الاسرائيلي في هذا المجال مشكوك في قيمته، نظراً للمحاذير الدولية في إمكان استخدام الأسلحة النووية أو التهديد باستخدامها في الحروب، وان كان هذا الشك يجب الا يمنع من حساب احتمالاته. وإذا كان التقدم النوعي في البلدان التي تحصل على اسلحتها من الاتحاد السوفياتي قد برز، فان البلدان التي تتسلح من الغرب تقدمت كمياً ونوعياً هي الاخرى، وبخاصة السعودية ومصر. الا انه يبقى ان الولايات المتحدة الامريكية تحافظ على فاصل معين بينها وبين اسرائيل كمياً ونوعياً، كما انها تضع قيوداً تحظر استخدام هذه الاسلحة في الصراع العربي - الاسرائيلي، مما يفقد غالبية هذه الاسلحة قيمتها القتالية الحقيقية بدرجة كبيرة، غير انه من المتصور امكان هذه البلدان التخلص من بعض هذه القيود في مرحلة تالية، والسعي الى تعويض الفجوة بينها وبين اسرائيل، بالتعاون في ما بينها أولاً ومع البلدان العربية الاخرى ثانياً.

وقد أظهرت ظروف القتال في كل من لبنان وحرب الخليج، والهجوم الامريكي على ليبيا، تقدماً واضحاً في الاداء القتالي العربي في مواجهة اسرائيل، وايران والولايات المتحدة، كما ابرزت نقاط ضعف أخرى تتركز أساساً في درجة الاستعداد القتالي، ونظام القيادة والسيطرة، وكفاءة القيادة. ومن المتوقع ان تكون البلدان العربية كلها - سواء من عانى هذه المشاكل أم من لم يعان - تدرس هذه النقاط وتعمل على التغلب عليها. وقد كانت هذه الصراعات العسكرية فرصة لاكتساب القوات العربية خبرة قتال عالية، لا بد وانها ستعكس على الاداء العربي مستقبلاً. الا انه لا بد أن يكون للعامل المعنوي تأثيره، اذ ان العجز والتشتت العربيين حالياً لا بدوان ينعكسا على نفسية المقاتل. وقد برزت في القوات العربية، وبخاصة المقاومة اللبنانية، والمقاومة الفلسطينية امثلة تدل على ارتفاع روح القتال والفداء بين القوات العربية. الا ان هذه الحالات نفسها تدل على يأس المقاتلين من القيادات العربية، بقدر ما تدل على ناضل روح القتال والفداء بين المقاتلين.

يزيد من احتمالات التوازن العسكري بين البلدان العربية واسرائيل، ارتفاع نسب ومستويات التعليم، واللياقة الصحية في الشعب العربي، وبخاصة في البلاد التي كانت تتميز بتخلف واضح في هذا المجال. وهو ما يمكن ان يبشر بزيادة قدرة المقاتلين العرب على استيعاب التكنولوجيا العسكرية الحديثة وفن الحرب بدرجة أكبر. وقد كان في ما مضى أحد العوامل المؤثرة، سواء على حجم أم نوعية القوات المسلحة في البلدان العربية.

تتخلف البلاد العربية، كمّاً ونوعاً، عن اسرائيل، في مجال الصناعة العسكرية. ويرجع ذلك، أولاً، الى التباين في توزيع القوة البشرية، خصوصاً الفنيين والعمال المهرة وكذلك رؤوس الاموال، وضعف المستوى العلمي في هذه البلاد. وتعتبر مصر الدولة العربية الوحيدة التي لديها صناعة عسكرية تتعدى صناعة الذخيرة والاسلحة الصغيرة في منتصف

الثانينيات. الا ان احتمالات التجمعات العربية بأنواعها الاقليمية منها والوظيفية، تزيد من احتمالات تقدم الصناعة العربية العسكرية. ويبرز أول هذه الاحتمالات في تجمّع مجلس التعاون الخليجي، خصوصاً اذا تعاون مع العراق. الا ان ارتباط هذا التجمع بالغرب يجعل من الصعب الوصول الى مستوى يقارب المستوى الاسرائيلي.

٢ - ديناميات الصراع العسكري (المسلح) ونماذج الحرب الماضية والمستقبلية

إن تتبّع الجوانب العسكرية في الصراع العربي - الاسرائيلي، منذ الصراع المسلح على أرض فلسطين منذ اوائل القرن العشرين، وخصوصاً بعد الانتداب البريطاني على فلسطين، يمكن ان يؤدي بنا الى استنتاج عوامل لها صفة الثبات أو الثبات التقريبي في الصراع وسيكون لها بلا شك تأثيرات على مستقبل الصراع المسلح العربي - الاسرائيلي. ويمكن تقسيم هذه العوامل الى اقسام فرعية عدة تتعلق بدوافع الصراع، وصوره، ونقط التحول الى أقصى صور الصراع، وعلاقة الصراع بالقوى العالمية الاخرى، وطبيعة سلوك الجوانب المتصارعة، وتأثير التجمعات العربية على الصراع واستراتيجية أطرافه.

أ - دوافع الصراع

يلاحظ أن دوافع الصراع لها صفة الثبات الاستاتيكي، حيث تظل دوافع الصراع المسلح ثابتة، وإن حدثت تغيرات ديناميكية على السطح أو القمة. ويمكن تقسيم دوافع الصراع الى اقسام فرعية تتعلق بأطراف الصراع المباشرة داخل الاقليم العربي، وكذلك بأطراف الصراع غير المباشرة والتي تتمثل في القوى والتكتلات العظمى العالمية، والتي لها تأثير غير مباشر، ولكنه قوي على ديناميات الصراع.

ويمكن اعتبار ان دوافع الصراع الاسرائيلية هي اقامة دولة صهيونية داخل الأرض العربية، تبدأ من فلسطين وتوسع على حساب الأرض العربية، بقدر ما تستطيع قواتها ذلك، وفرض هذا الوجود بالقوة لاقامة علاقات «طبيعية» مع البلدان المجاورة. ويتّصف هذا الدافع بثباته من حيث القاعدة، بينما يتّسم بمرونة بالغة في القمة. فقد تراوح بين اقامة دولة اسرائيل على جزء من أرض فلسطين في الفترة من نهاية الحرب العالمية الاولى وحتى عام ١٩٦٧ مع الاتجاه الى انشاء الدولة على أرض اسرائيل من الفرات الى نهر مصر (يفسر احياناً بأنه وادي العريش واخرى النيل) وبين الاستناد الى حدود آمنة تمثلت في نهر الاردن وهضبة الجولان والبحر الاحمر وقناة السويس في الفترة من ١٩٦٧ الى ١٩٧٣، الى توسيع نطاق الأمن الاسرائيلي ليشتمل على المنطقة من باكستان شرقاً الى غرب افريقيا غرباً بعد ذلك. كما ان مفهوم التوسع يحتمل اشكالا مختلفة تتراوح من الاحتلال الفعلي، والاعتماد على قوى

عملية موالية (جنوب لبنان)، الى الاعتماد على نظم حكم متعاونة (الأردن)، الى الاحتفاظ بالقدرة على الاحتلال من دون الاحتلال الفعلي (جنوب لبنان وسيناء)، الى القدرة على ممارسة القهر المسلح على باقي البلدان العربية. وإذا كانت حدود التوسع الاسرائيلي مازالت غامضة، فان ذلك لا يرجع غالباً الى عدم تحديدها، بقدر ما يرجع الى عدم توافر الظروف والقوة المناسبة، وبخاصة القوة البشرية لتحقيقها. ويمكن تصور ان التوسع الاسرائيلي بمعناه الواسع وبصوره العديدة المختلفة، سيشمل الوطن العربي كله، وجزءاً من العالم الاسلامي مثل ايران وباكستان وأفغانستان وجزءاً من افريقيا السوداء مثل جنوب الصحراء، بحيث تسيطر اسرائيل في النهاية على منابع النيل ومنطقة القرن الافريقي.

اما الدافع العربي، فكان ومازال وسيظل هو ضرورة استعادة الأرض العربية المحتلة، واستئصال الخطر الصهيوني الدخيل من الارض العربية لحياة عملية التنمية من القوى الدخيلة (حماية عملية بناء المجتمع من الأخطار الخارجية)، ويتخذ هذا الدافع صوراً مختلفة على السطح، ابتداء من استعادة الارض السليبية والقضاء على اسرائيل، الى ازالة اثار العدوان واستعادة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين، الى تحقيق تسوية عادلة للصراع من خلال مؤتمر دولي، وحق جميع دول المنطقة في العيش في سلام. وهكذا فان الدافع العربي، مثل الدافع الاسرائيلي، يتخذ اشكالاً مختلفة ليتلاءم مع الظروف الدولية، وطبيعة موازين القوى من دون ان يلتزم صراحة بتغيير الدافع الاساسي.

ظل دافع الكتلة الرأسمالية الغربية ثابتاً في المحافظة على استمرار السيطرة الغربية على الوطن العربي، واستغلال موارده امتداداً للسيطرة الاستعمارية، وهي ايضا تغيرت تسمياتها لهذا الدافع، من اعتبار أجزاء من الوطن العربي جزءاً من أراضيها مثلاً حدث في المغرب العربي، الى المحافظة على حرية الملاحة في الممرات الدولية، الى محاربة انتشار خطر الشيوعية، الى المحافظة على الاستقرار في المنطقة، وحماية نظم الحكم الصديقة، الى حماية أمن اسرائيل وحققها في الحياة داخل حدود آمنة، الى مكافحة الارهاب، وضمان حرية التجارة والوصول الى المناطق التي لها فيها مصالح حيوية.

اما دافع الكتلة الاشتراكية فهو، طبقاً للنظرية الماركسية اللينينية، تشجيع حركات التحرر الوطني كمقدمة للحرب الأهلية التي تؤدي الى انتصار الطبقة العاملة، وانتشار النظام الاشتراكي. وقد كان هذا الدافع هو أساس معاونة هذه الكتلة لاسرائيل في بداية عهدها، وظل هو الدافع نفسه بعد ظهور انحياز اسرائيل الواضح الى المعسكر الرأسمالي.

وهكذا، فان دوافع الصراع ظلت وستظل ثابتة، وان تغيرت تسمياتها. ولكن هذه الدوافع تظل كامنة مستترة خلف احدى صور الصراع المسلح، الى ان تتوافر ظروف دولية، أو تطراً ظروف تؤدي الى انتقال الصراع المسلح من صورة الى أخرى.

ب - صور الصراع

اتخذ الصراع المسلح بين العرب واسرائيل ثلاث صور رئيسية.

(١) العمل الفدائي والاشتباكات المحدودة.

(٢) المعارك والموقعات المحدودة.

(٣) الحرب الشاملة بين اسرائيل وبلد عربي أو أكثر.

ويلاحظ ان هذه الصور تتدرج في درجة عنفها وكثافتها (معدلات ترددها) وطول مدتها. فالصورة الاولى هي أقل عنفاً وأعلى تردداً وأقصرها مدة، إذ عادة ما تشتمل على أعمال قتال مجموعات صغيرة من القوات، قد تصل الى فرد واحد، أو وحدات فرعية صغيرة من القوات شبه النظامية أو النظامية. كما قد تكون هذه الوحدات الفرعية الصغيرة من قوات برية أو بحرية أو جوية، وتالياً فإن حجم النيران المستخدمة في مثل هذه الصورة عادة ما يكون محدوداً. وهكذا فإن مثل هذه الاعمال يمكن تكرارها يومياً تقريباً، بل وقد تتكرر في اليوم الواحد، كما ان مدتها عادة ما تزيد عن ساعة. ومن الطبيعي ان تكون هذه الصورة هي الغالبة في الصراع العربي - الاسرائيلي خصوصاً في مراحل الاولى، واثناء حرب الاستنزاف، والان داخل الارض المحتلة في فلسطين، وفي منطقة الحدود بين اسرائيل ولبنان، وداخل الشريط الأمني في جنوب لبنان الذي تسيطر عليه اسرائيل. وقد تبادل كل من العرب والاسرائيليين هذه الاعمال في اثناء الانتداب البريطاني وحتى عام ١٩٦٧ حيث توقفت اسرائيل تقريباً عن هذه الاعمال، ولجأت الى الصورة الثانية بدرجة أكبر، بينما استمر العرب في استخدامها في الظروف التي تسمح بذلك، حينما تتداخل القوات الاسرائيلية مع الشعب العربي، ولا توجد مناطق عازلة بين الطرفين.

ظهرت الصورة الثانية من الصراع المسلح، مع تزايد قوى اطراف الصراع وتقارب موازين القوى مع عدم توافر ظروف أو قوة مناسبة لانتقال أحد الاطراف الى الحرب الشاملة، ولجأت اليها اسرائيل خصوصاً مع نمو قوتها العسكرية، ولأنها اقل تكلفة من سابقتها وبخاصة بمقياس الخسائر البشرية. وهي تعتمد على توجيه ضربة قوية مفاجئة الى الخصم تضعف من قدراته وتضطره الى اعادة حساباته، ثم سحب القوات بعيداً عن متناول ضربة مضادة. وهكذا، تنصّف هذه الصورة بأنها تجري بوحدة فرعية كبيرة أو وحدات كاملة، مما يجعلها أشد عنفاً من سابقتها، ولكنها أقل تردداً بحيث تجري بفواصل شهور، وأحياناً سنين، في ما بينها، وغالباً ما تستمر ساعات أو أياماً قليلة. وإذا كانت اسرائيل هي التي غالباً ما تقوم بمثل هذه الصورة الا ان العرب - وبخاصة مصر اثناء حرب الاستنزاف - لجأوا اليها، ولكن بدرجة أقل.

ارتبطت الصورة الثالثة بقيام كيانات سياسية مستقلة أو شبه مستقلة لكل من اسرائيل

والعرب، وهي وان اتخذت صورة الحرب الشاملة عموماً، الا انها كانت أقرب الى الحرب المحلية المحدودة، اذ لم تشترك فيها قوى دولية بشكل سافر، الا في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، كما ان اهدافها كانت غالباً محدودة باستثناء العدوان الثلاثي على مصر أيضاً. ففي الصراع المسلح عام ١٩٤٨ لم يكن هدف العرب من الحرب واضحاً، كما ان اسرائيل لم تسع الى اخضاع البلدان العربية المضادة. وفي عام ١٩٦٧ اكتفت اسرائيل بالاستيلاء على سيناء والضفة الغربية والجولان، ولم تسع الى توسيع اعمال قتالها اكثر من ذلك. وفي عام ١٩٧٣ لم يهدف العرب الى القضاء الكامل على اسرائيل، كما ان اسرائيل في ضربتها المضادة لم تسع الى الاستيلاء على كل الاراضي المصرية أو السورية أو اقتحام العواصم العربية. وهكذا كانت الأهداف غالباً غامضة أو محدودة، على عكس العدوان الثلاثي على مصر الذي استهدف تغيير نظام الحكم والقضاء على الثورة المصرية. ولا يمكن القطع بالمدى الذي كان يمكن ان تصل اليه القوات البريطانية والفرنسية، اذا لم تتدخل القوى الأعظم فيه. على انه يلاحظ، ايضا، ان الأهداف الاسرائيلية كانت محدودة أيضاً، اذ انه على رغم انسحاب القوات المصرية من سيناء بالكامل، الا ان القوات الاسرائيلية لم تتعد الحائط الغربي لسيناء، وذلك على رغم خلو المنطقة بينه وبين قناة السويس. من الطبيعي، في هذه الحالة، ان تشترك كل القوات المسلحة للأطراف المتحاربة أو غالبيتها في الصراع المسلح؛ الا انه يلاحظ انه في اكثر الاحوال لم تشترك كل القوات المسلحة للأطراف العربية المشتركة، باستثناء مصر وسوريا خصوصاً في عام ١٩٧٣، وفي عام ١٩٦٧ بدرجة أقل، اما باقي البلدان العربية فهي، وان ساهمت بقوات كبيرة نسبياً عام ١٩٧٣، الا ان هذا الحجم كله أقل بكثير من القول بأنها أشركت كل أو أكثر قواتها المسلحة. على ان هذه الصورة من الصراع المسلح، بلغت أقصى درجات العنف، وتعتبر من أعنف الصراعات المسلحة التي دارت بعد الحرب العالمية الثانية. اما معدلات تردّد هذه الصورة فقد تراوحت بين خمس سنوات وعشر سنوات، وتراوحت فترة استمرارها من ستة ايام الى حوالي الشهر. ويلاحظ ان حرب الاستنزاف والغزو الاسرائيلي للبنان عام ١٩٧٨ كانا أقرب الى الصورة الثانية من صور الصراع منها الى الصورة الثالثة، كما ان الغزو الاسرائيلي للبنان اتخذ في عام ١٩٨٢ صورة الحرب الشاملة (المحدودة) حتى حصار بيروت، ثم انتقل مرة اخرى الى الصورة الثانية فالاولى، الى حين الانسحاب الاسرائيلي من لبنان.

ج - نقاط التحول

سبق ايضاح ان دوافع الصراع المسلح ثابتة، بما يعني ان أطراف الصراع تمارسه كلما توافرت لها الظروف لممارسته. وهكذا، فان العمل الفدائي والاشتباكات المحدودة تكاد لا تتوقف منذ بدء الصراع المسلح، وهي الصورة اليومية للصراع. الا ان طبيعة الصراع

وصورته تتحولان من صورة الى أخرى، عندما تتوافر الفرصة أو الظروف التي تدعو الى هذا التحول، وقد توافرت هذه الفرص والظروف في بعض الحالات. وقد كان التحول الاسرائيلي الى الصورة الثانية من الصراع مختلفاً نسبياً عنه لدى العرب، اذ ان طبيعة اسرائيل لا تجعل الصورة الأولى مناسبة لها، وتبدو لها أكثر تكلفة، مما دعاها الى استبدالها بالصورة الثانية خصوصاً وان الظروف الدولية لا تسمح لها دائماً بالانتقال الى الصورة الثالثة (الحرب الشاملة). وهكذا كان اتجاهها الى المعارك والموقعات المحدودة. اما بالنسبة الى الجانب العربي، فقد كان التحول الى الصورة الثانية راجعاً، عادة، الى أن الاعمال الفدائية والاشتباكات المحدودة لم تعد قادرة على تحقيق أهداف الصراع المسلح، بينما لم يصل ميزان القوى الاستراتيجي الى الدرجة التي تسمح لها بالانتقال الى الصورة الثالثة (الحرب الشاملة). وهكذا لجأت اسرائيل الى هذه الصورة مباشرة، بعد عقد اتفاقات الهدنة عام ١٩٤٩، بينما لم يلجأ اليها الجانب العربي الا اثناء حرب الاستنزاف بين ١٩٦٨ و١٩٧٠. وتعتبر أهم نقاط التحول في هذا المجال بالنسبة الى اسرائيل، تخطي النشاط الفدائي للفلسطيني والعربي الحدود التي تحتلها اسرائيل، سواء في مصر وغزة قبل عام ١٩٥٦ واثناء حرب الاستنزاف، وفي الضفة الغربية قبل عام ١٩٦٧، وفي الاردن من عام ١٩٦٧ الى عام ١٩٧٠، وفي لبنان منذ عام ١٩٧٨، وهو الدافع نفسه الى ضرب قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في تونس عام ١٩٨٥. ونقطة التحول الأخرى المهمة هي قرب انتهاء انشاء المفاعل النووي العراقي مما دعا اسرائيل الى تدميره. اما الجانب العربي، فقد لجأ اليها بعد تحسن الميزان العسكري المصري عام ١٩٦٨ والتأمين النسبي للعراق المصري، مع عدم الوصول الى القدرة على شن حرب شاملة.

اما التحول الى الصورة الثالثة، فان دراسة نقاط التحول يجب ان ترتبط أولاً بدراسة الظروف التي اتخذ فيها قرار الحرب. ويلاحظ هنا صعوبة الفصل بين الظروف السياسية والعسكرية، الا ان الظروف السياسية عادة ما تتعلق بدوافع الحرب، وليس بنقاط التحول، بينما ترتبط الظروف العسكرية أكثر بنقاط التحول الى الحرب الشاملة. فعلى رغم صدور قرار التقسيم الخاص بفلسطين في عام ١٩٤٧، وعلى رغم استمرار اعمال القتال اليومية من هجمات فدائية واشتباكات محدودة من قبل ذلك، فان التحول الى الحرب الشاملة في ١٥ ايار/ مايو ١٩٤٨ كان مرتبطاً بعاملين عسكريين رئيسيين، أولهما إمكان تجميع جهود عدة جيوش عربية تحت قيادة واحدة بشكل ما، طبقاً لقرار مجلس الجامعة العربية، وثانيهما انسحاب القوات البريطانية من فلسطين، مما يوحي برفع الحماية العسكرية التي كانت توفرها هذه القوات للوجود الاسرائيلي في فلسطين تحت الانتداب، مما أحدث تغييراً واضحاً في الميزان العسكري في فلسطين، أدى الى اختلاف في توازن القوى الامر الذي شجع البلدان العربية في ذلك الوقت على بدء حرب نظامية ضد الكيان الاسرائيلي الجديد. اما في عام

١٩٥٦ فعلى رغم ان السياسة المصرية كانت معادية للنظام الاستعماري السائد في الوطن العربي في ذلك الوقت، منذ بدء ثورة تموز/ يوليو ١٩٥٢ ومن قبلها، وعلى رغم أن تأييم قناة السويس حدث في ٢٦ تموز/ يوليو عام ١٩٥٦ فإن قرار الحرب، اتخذ في سفير في فرنسا قرب نهاية شهر تشرين الاول/ اكتوبر من السنة نفسها. وقد ارتبط ذلك بشكل كبير بعوامل عدة. ففي الجانب العربي، برز قيام مصر باعمال فدائية في اسرائيل، رداً على اعتداءاتها على الأردن، وارسال قوات مصرية الى سوريا في النصف الثاني من عام ١٩٥٦ والدعم المصري في ذلك الوقت لثورة الجزائر، مما أخل بالتوازن الاستراتيجي السابق وبخاصة بعد الانسحاب البريطاني من مصر في حزيران/ يونيو من العام نفسه. الا ان المحرك النهائي للتحول الى الصراع الشامل، هو تحقيق التحالف البريطاني - الفرنسي - الاسرائيلي، مما مكن القوى الثلاث من البدء في مواجهة شاملة مع مصر، ولم تكن اسرائيل حتى ذلك الوقت قادرة على بدء مواجهة شاملة مع بلد عربي وحدها.

اتخذت اسرائيل قرار الحرب عام ١٩٦٧ في اول حزيران/ يونيو على رغم ان القوات المصرية قد اتخذت مواقعها في سيناء قبل ذلك بأكثر من اسبوعين، وعلى رغم اغلاق الملاحقة في خليج العقبة قبل عشرة ايام، بينما برز في ذلك الوقت بدء التنسيق المصري السوري الاردني عسكريا، وبخاصة بعد وصول ملك الاردن الى القاهرة والاعلان عن تنسيق عسكري بين الاردن والقاهرة، بما يعني ان اسرائيل قررت أن توجه ضرباتها الى القوى العربية قبل ان يتم التنسيق. ويؤكد ذلك ان اسرائيل لم تسع الى توجيه ضرباتها وتحقيق اهدافها (دوافعها) عندما كانت سيناء خالية من القوات أو أثناء احتلالها أو بعد إغلاق خليج العقبة مباشرة. ولا شك ان هذا كله مرتبط بالموقف الدولي، واعطاء الولايات المتحدة الأمريكية اشارة السماح (الضوء الاخضر) والحصول على الدعم الأمريكي غير المباشر، والتأكد من عدم تورط السوفييات، اذا لم تتورط الولايات المتحدة الأمريكية مباشرة. وهكذا مرة اخرى، يكون الانتقال الى صورة الحرب الشاملة من الصراع المسلح نتيجة الاختلال أو قرب اختلال موازين القوى، مما يجعل الجانب الذي يتصور انه يمتلك تفوقا لحظية بدء الاختلال يندفع الى الانتقال الى الحرب الشاملة.

يختلف الانتقال الى حال الحرب الشاملة عام ١٩٧٣ من حيث ان الجانب الذي بدأ الحرب هو العرب على عكس الحالتين السابقتين. واذا كنا قد سلمنا ان دوافع الحرب ثابتة ومستمرة، فلا شك ان نقطة التحول كانت هي التنسيق الجدي بين كل من مصر وسوريا، والتنسيق المحدود مع باقي البلدان العربية، مما اعطى فرصة للجانب العربي لتغيير ميزان القوى لمصلحته وبدء الحرب الشاملة. ويمكن القول انه لولا التنسيق الجدي بين مصر وسوريا، لما تمكنت احدهما من اتخاذ قرار الحرب. ويمكن أن يشار سؤال حول أسباب عدم مبادرة اسرائيل بتوجيه الضربات الى العرب، وبدء الحرب الشاملة قبل اتمام التنسيق. ولا

شك ان العامل الاساسي في ذلك هو اعتقاد اسرائيل بعدم جدية هذا التنسيق، خصوصاً بعد تجارب التنسيق المصري السوري - الاردني قبل عام ١٩٥٦، والوحدة بين مصر وسوريا ومؤتمرات القمة العربية، وانشاء القيادة العربية الموحدة، ثم التنسيق الذي سبق الحرب عام ١٩٦٧. اما موقف القوى الدولية وبخاصة القوتين العظميين، فإن سيادة حال الانفراج الدولي جعلت الجانب العربي يتصور عدم التدخل الامريكي المباشر لمصلحة اسرائيل. ومرة اخرى، يتأكد ان اختلال الميزان الاستراتيجي لمصلحة جانب، يؤدي الى بداية التحول الى الحرب الشاملة.

لا تختلف الحرب الاسرائيلية في لبنان كثيراً عن حالة عامي ١٩٥٦، ١٩٦٧، اذ ان الميزان الاستراتيجي في لبنان بدأ يتحول لمصلحة العرب بتحالف القوى الفلسطينية والسورية وبعض العناصر اللبنانية، مما أصبح يشكل خطراً على الاتجاه الاستراتيجي الشمالي لاسرائيل، واحتاجت اسرائيل الى ان تمهض قدراته قبل ان يبدأ العمل النشط القوي والمنسق. وقد صاحبه أيضاً الاتفاق المبدئي بين اسرائيل والولايات المتحدة على بدء الهجوم.

ارتبط الصراع المسلح بالقوى العالمية الأخرى، وقد سبق ذكر هذه القوى عند استعراض دوافع الصراع المسلح، وصوره، ونقاط التحول. غير ان سير الصراع تأثر هو الآخر بالقوى العالمية. فقد تأثر الصراع عام ١٩٤٨ بتدخل القوى العظمى في ذلك الحين بفرض الهدنة، واعادة تسليح اسرائيل، لتغيير الميزان الاستراتيجي لمصلحتها. وهكذا فرضت القوى الاستعمارية أساساً الهدنة عام ١٩٤٩. وفي عام ١٩٥٦ كان للانداز السوفياتي والتدخل الأمريكي اثرهما الحاسم في وقف الصراع وانسحاب القوات المعتدية والتسوية المؤقتة للصراع. اما في عام ١٩٦٧ فقد كان تدخل القوى العظمى محدوداً للغاية، وقد ارتبط ذلك بمحاولات القوتين العظميين الابتعاد عن المواجهة فيما بينهما، والاكتفاء بما لدى اطراف الصراع من اسلحة. لذا كان الدعم الامريكي لاسرائيل غير مباشر، واحتفظت القوتان العظميان باستمرار الاتصالات فيما بينهما، والعمل على وقف اطلاق النيران من خلال جهودهما في الامم المتحدة ومجلس الامن خصوصاً. وقد استمر هذا الاسلوب في عام ١٩٧٣ وفي لبنان، الا ان التهديد النووي الاسرائيلي وعدم احترام اسرائيل لقرار وقف اطلاق النار أدباً الى تدخل القوى العظمى مما أُنذر لأول مرة باحتمال المواجهة بينهما، مما أدى في النهاية الى وقف اعمال الحرب.

د - طبيعة سلوك الأطراف المتحاربة

تشير طبيعة سلوك الأطراف المتحاربة الى أن اسرائيل حاولت الاحتفاظ، لنفسها بالمبادأة منذ نهاية عام ١٩٤٨، بعد أن استعادت من العرب. وقد احتفظت لنفسها بالمبادأة

في اغلب العمليات العسكرية المحدودة والحروب الشاملة، في حين احتفظ العرب بالمبادأة في غالبية الاشتباكات المحدودة والأعمال الفدائية، وأنه حتى في حالة الحرب عام ١٩٧٣، وعلى رغم انتزاع العرب للمبادأة، إلا أنهم لم يحتفظوا بها، وسمحوا لاسرائيل بانتزاعها والاحتفاظ بها. وإن اسرائيل، بعد هذه الحرب، أكدت في سياستها الدفاعية ضرورة أن تكون المبادرة، ولا تسمح بتلقي الضربة الأولى كما حدث في عام ١٩٧٣. وتعمل اسرائيل على تحقيق الشروط اللازمة لامتلاك المبادأة والاحتفاظ بها عن طريق بناء القوة، والاحتفاظ باحتياطات كبيرة وقوية مع توافر وسائل انذار وجمع معلومات جيدة، والاحتفاظ بأقل قوات في أوضاع دفاعية، وأخيراً العمل الدائم على عدم توافر القوة اللازمة للعرب للحصول على المبادأة، وبخاصة عن طريق التفرقة بينهم، وعدم قتالهم معاً دفعة واحدة. وعلى العكس من ذلك، فقد اعتمد العرب على اتساع رقعتهم، وزيادتهم العددية، لانهاج سلوك دفاعي بتوزيع قواتهم في اوضاع دفاعية عادة ما تستنزف احتياطاتهم، ويساعد على ذلك افتقار القوات العربية الى خفة الحركة، ووسائل الكشف البعيد والحصول على المعلومات ويعتبر احتفاظ اسرائيل بقوات جوية متفوقة وسيلة رئيسة لامتلاك المبادأة.

هـ - اثر التجمعات الفرعية

لم يتأثر الصراع المسلح كثيراً بالتجمعات الاقليمية العربية، او الوحدة السياسية، كما لم يتأثر بمؤتمرات القمة وانشاء القيادة العربية الموحدة، بينما تأثر بالتجمعات العسكرية العملية، سواء أكانت في مرحلة التكوين أم بعدها. ويعتبر التجمع الوظيفي العسكري أحد المحركات الاساسية لتطور الصراع. وليس المقصود، هنا، التجمعات العسكرية الناتجة عن توقيع اتفاقات او معاهدات للدفاع المشترك أو انشاء قيادة موحدة، وإنما التجمع الذي يحقق فاعلية او ينسب بذلك. أما التجمعات السياسية العربية، بما فيها الوحدة بين مصر وسوريا في الخمسينات، فقد افرزت كثيراً من المشاكل التي أغرقت القيادات السياسية والعسكرية بما لم يدع لها مجالاً للعمل الفعال. كما ان بعض هذه التجمعات السياسية، وحتى العسكرية (مثل القيادة المصرية السورية المشتركة واتحاد البلدان العربية واتحاد الجمهوريات العربية، والاتحاد الهاشمي) اتخذت طابعاً شكلياً منذ بدايتها، ولذا فانها لم تؤد الى تطور في سير الصراع، الا انه لم يتوافر للتجمعات العسكرية العربية ذات الطابع الجاد والعمل وقت كاف لتحويل التجمع الى قوة فاعلة تغير من ميزان القوى ما خلا في عام ١٩٧٣، وعلى الرغم من ذلك، فقد ثبت خلال الحرب عدم كفاية فاعليتها، وانها لم تكن جادة، بدرجة كافية.

و - استراتيجية الاطراف المتصارعة

إذا حاولنا معرفة استراتيجيات الأطراف المتصارعة في الصراع العربي - الاسرائيلي،

فاننا لا نجد استراتيجية عربية بالمعنى المفهوم، حيث لكل بلد عربي استراتيجية منفصلة، بل ان هذه الاستراتيجية نجدها فقط في بعض البلدان الرئيسة التي ترتبط بالصراع ارتباطاً وثيقاً، في حين ان لدى اسرائيل استراتيجية محددة.

تعتمد الاستراتيجية الاسرائيلية على مبادئ عدة رئيسة: أهمها الاحتفاظ بالتفوق العام، بما يعني محصلة الكم والنوع على كل بلد عربي بمفرده، وقدر الامكان على بلدان المواجهة مجتمعة، وان تحتفظ لنفسها بالمبادأة، بحيث لا تسمح للأطراف العربية ببدء الهجوم عليها، عن طريق ما تسميه بالحرب الوقائية او ضربات الاجهاض أو الضربات المسبقة. ثم الاستناد الى قوة عظمى تتدخل لمصلحتها ان هي فشلت. وفي النهاية، فانها تتجه في ادارة الصراع المسلح بحيث تواجه كل بلد عربي على حدة، حتى لا تشتت جهودها. وتعتمد اسرائيل، في الاحتفاظ بالتفوق، على الحصول على الأسلحة الخفيفة الحركة ذات القوة الميدانية العالية، والاحتفاظ بفاصل نوعي يجعل معداتها تسبق المعدات العربية في نوعيتها، وذلك عن طريق القوى الاستعمارية المساندة لها وبخاصة الولايات المتحدة الامريكية، وبحيث لا تحصل القوى العربية على أسلحة من هذا النوع، وان توضع قيود على مشتريات البلدان العربية من الأسلحة، سواء من حيث كميتها أم نوعيتها. اما بالنسبة الى البلدان التي لا يمكن لاسرائيل تحقيق ذلك بالنسبة اليها، فانها تقوم بضربات مسبقة ضدها، قبل ان تتمكن من استيعاب هذه الأسلحة. ونظراً لصعوبة تحقيق ذلك، فقد اتجهت اسرائيل الى صنع الأسلحة النووية وامتلاكها، واجهاض أي محاولة عربية للحصول عليها.

اتخذت الاطراف العربية استراتيجية دفاعية في معظم الاحوال، ويرجع ذلك غالباً الى ضعف الامكانات العربية وبخاصة القوات الجوية، كما يرجع أيضاً الى عجز القيادات العسكرية العربية عن القيام بالمخاطرة المحسوبة اللازمة للهجوم، واثار الظروف الدولية على السياسة العربية عموماً، بما يجعلها تواجه موقفاً دولياً ضاعطاً لمنعها من القيام بالهجوم. وقد أدى كل ذلك الى توقف الهجوم العربي عام ١٩٤٨ بعد فترة قصيرة من بدئه، والتزام الدفاع في القتال في عامي ١٩٥٦ و١٩٦٧، وحتى هجوم القوات العربية عام ١٩٧٣، تم باستراتيجية دفاعية اعتمدت على نقل الحد الامامي للدفاعات الى خطوط متقدمة جديدة من دون اتخاذ استراتيجية هجومية نشطة تهدف الى تدمير قوات العدو أكثر من الاستيلاء على اراضٍ أو خطوط معينة، ولا غرابة في أن تكون الاستراتيجية العربية في لبنان استراتيجية دفاعية. ولكن يلاحظ، عموماً، خلال الفترة السابقة من الصراع العربي - الاسرائيلي، ان الجانب العربي لم يحتفظ بالمبادأة لفترة طويلة، بل ويمكن القول انه سلمها في بعض الاحوال اختياراً الى العدو.

ز - نماذج الحرب المقبلة

يتوقع أن تكون نماذج الحرب المقبلة قريبة الشبه من الحروب الماضية، نتيجة لثبات الموقف الدولي وضعف الموقف العربي الذي يضمن التوازن الاستراتيجي لمصلحة اسرائيل، مما يدعو العرب الى الاحتفاظ بالصورة الاولى من صور الصراع المسلح، عبر القيام باعمال فدائية واشتبكات محدودة داخل الاراضي المحتلة، وعلى الحدود اللبنانية - الاسرائيلية، وداخل الشريط الحدودي الملاصق لهذه الحدود، بينما تعتمد اسرائيل اساساً على العمليات العسكرية المحدودة لقهر هذه الاعمال، وتدمير الجهود النووية العربية قبل ان تصل الى مرحلة العمل، واجهاض الجهود العربية لتحسين التوازن الاستراتيجي لمصلحتها مع اسرائيل. ويرتبط تحول الصراع المسلح الى حال الحرب الشاملة، بتغير الميزان الاستراتيجي لمصلحة العرب أو ظهور بوادر هذا التغير. ويمكن حصر احتمالات هذا التغير في الحالات الآتية:

(١) انضمام منظمة التحرير الفلسطينية وحدها، أو مع الأردن، الى سوريا مع تصاعد قوى هذه الاطراف، الى درجة تحل بالتوازن الاستراتيجي لمصلحة التجمع الجديد.

(٢) تصاعد القوة العسكرية السورية الى درجة تجعلها، أو تجعل اسرائيل، تعتقد انه يمكنها القيام بعمل عسكري يحقق استعادة الجولان على الأقل.

(٣) الوصول الى تسوية مقبولة من طرفي الصراع العراقي - الايراني، وحدث تنسيق عسكري جدي بين كل من العراق وسوريا، مما يغير من الميزان الاستراتيجي لمصلحة الجانب العربي.

(٤) حدوث تقارب مصري - سوري، وغالباً مصري - سوري - ليبي، نتيجة تغيير حاد في احد البلدين أو كليهما.

(٥) امتداد الأزمة الاقتصادية في اسرائيل الى درجة ترى فيها ضرورة قيامها بعمل عسكري تجدد فيه اضافة مناسبة الى الاقتصاد الاسرائيلي.

وعلى رغم ان غالبية هذه الاحتمالات تشير الى تغير الميزان الاستراتيجي لمصلحة العرب، الا ان الطابع الذي اتسمت به استراتيجيات كل من اسرائيل والبلدان العربية ينتظر ان يظل كذلك في النموذج القريب للحرب المقبلة، اذ ان هذا التغير لا بد وان يتم في ظل التفوق الاسرائيلي الحالي، مما ينتظر أن يدفع اسرائيل للبدء باجهاض التغير المقبل قبل ان يكتمل، خصوصاً وان اغلب هذه التغيرات يرتبط بحدوث تغيرات حادة في علاقات بين بلدان عربية تسودها اختلافات حادة، مما يتطلب أولاً التغلب على أسباب ومظاهر ونتائج الخلاف، ثم التحول الى التعاون الفعال، وهو ما يتطلب وقتاً وجهداً يصعب أخفاؤه.

وبذلك تتوافر لدى اسرائيل كل من المعلومات والزمن اللازم للتحضير للحرب وبدؤها وإدارتها، قبل ان يصبح هذا التغيير واقعياً له اثاره على مسرح العمليات. ويرتبط نجاح العرب في تحقيق المبادأة، والاحتفاظ بها، بقدرتهم على اخفاء هذا التعاون، أو عدم إبراز جديته حتى وقت قريب من وقت بدء اعمال القتال، ثم قدرة القيادة (القيادات) العسكرية العربية على تحقيق متطلبات المبادأة والاحتفاظ بها، وحرمان العدو من انتزاعها، أو قدرة هذه القيادات على انتزاع المبادأة من القيادة الاسرائيلية، بحيث تسمح باجبار القوات الاسرائيلية على التصرف وفقاً لأعمالها، ويكون ذلك بتلقي الضربة الأولى المعادية، ثم التحول بسرعة الى الهجوم بدفع احتياطات قوية الى مسرح العمليات. وعلى العموم، فان هذا الامر بعيد الاحتمال نسبياً بالنسبة الى الجولة العربية - الاسرائيلية المقبلة، الا ان هذه الجولة نفسها بما تحتمله من نتائج في اتجاه البلدان العربية الى التوحيد، يمكن ان تكون دافعاً أكبر الى التعاون العسكري الفعلي بين البلدان العربية، وتالياً تغيير الميزان الاستراتيجي لمصلحتها، وبحيث تحتاج الى القدر نفسه من الزمن والجهد للجولة التالية لها.

ترتبط الحرب المقبلة بالقوى العالمية الأخرى، سواء في اثناء التحضير أم ادارة الحرب، اذ ترتبط بتغير الميزان الاستراتيجي في اتجاه العرب أكثر مما يمكن ان تقدمه الولايات المتحدة الامريكية لاسرائيل. فما زالت بعض المعدات السوفياتية التي يسلح بها العرب أقل من متطلبات البلدان العربية خصوصاً بلدان المواجهة، بينما تلتزم الولايات المتحدة باحتفاظ اسرائيل بالتفوق على العرب. كما ان استمرار الحرب وتوقفها سيرتبطان بدرجة كبيرة برغبة وقدرة القوى العالمية على دعم حلفائها من العرب. واذا كان ليس متوقعاً ان تمد الولايات المتحدة الامريكية بلداً عربياً في اثناء صراعه مع اسرائيل، والعكس هو المتوقع بان تمد امريكا اسرائيل - فان سبق الحرب يرتبط اكثر بقدرة الاتحاد السوفياتي على الاستجابة الى مطالب «أصدقائه» العرب، بالهجوم والنوع المناسب، وفي توقيت مناسب. وهنا، سترز القدرة العربية على الوفاء باحتياجات البلدان من احتياجاتها العسكرية، وهو ما سيرتبط بدرجة كبيرة بتحريك البلدان العربية نحو التجمع والوحدة، أي بالمشاهد المقترحة.

الفصل الثالث : مُستقبل الصراع العربي - الإسرائيلي

تتتمي دراسة «مستقبل الصراع العربي الاسرائيلي» الى مجال غير مزدهر من مجالات الدراسات المستقبلية، على الأقل في واقعها الراهن. فالصراع الذي تناولته غالبية الدراسات المستقبلية حتى الآن هو الصراع بين الانسان والطبيعة، من أجل تأمين الحصول على المزيد من مصادر الغذاء، والطاقة، والمواد الخام والحد من مخاطر تلوث البيئة. وفي هذا السياق، فان قضايا التقدم العلمي والتكنولوجي، وتطور السكان، وتطور الموارد الاقتصادية، (وهي كلها قضايا يمكن قياسها كمياً أو رقمياً، الى حد بعيد) احتلت مكاناً مركزياً في دراسات المستقبل. وفي هذا النوع من الصراع - أي صراع الانسان مع الطبيعة - فإن المبادرة بالهجوم وتراكم الاسلحة والخبرات، انما يتناح من جانب واحد، أي من جانب الانسان، ويقدر ما يتسلح هذا الانسان بالمزيد من العلم والتكنولوجيا بقدر ما يأخذ من الطبيعة. وحتى إذا ما أبدت قوى الطبيعة مقاومة، أو أخذت تطلق مكوناتها الضارة أو المدمرة (كما يتبدى في أقصى صورة في التعامل مع الطاقة النووية) فان ذلك انما يعود لقصور الجهد الانساني، في ترويض تلك القوى الطبيعية، بتداعياتها كافة، وليس الى «رد فعل» ايجابي من الجانب الآخر.

على أن الأمر يختلف بشدة لدى دراسة مستقبل علاقة صراعية بين قوى انسانية متعارضة. ففي تلك الحالة لا تتم ممارسة الصراع من جانب واحد، ولكننا نضحي إزاء علاقة جدلية متصاعدة يضيف فيها الصراع عناصر سلبية أو ايجابية الى أطرافه.

من ناحية أخرى، فان دراسة مستقبل الصراع بين جانبيين انسانيين، تعني أيضاً درجة أكثر تعقيداً من دراسة مستقبل جماعة انسانية واحدة، سواء تحدثنا عن مستقبل مجتمع ما، أو دولة ما، أو حتى اقليم جغرافي ما. لا شك أن علاقة التأثير بين أي من تلك الوحدات، والعالم الخارجي، تظل مدخلاً مهماً في دراسة مستقبلها، ولكن التركيز يكون أساساً على

امكاناتها الذاتية ودينامياتها الداخلية. ولكن دراسة الصراع تعني، أساساً، دراسة «علاقة» ما، بما تنطوي عليه من تفاعل ومن تأثير وتأثر، أي، بعبارة أخرى، بما تنطوي عليه من طابع جديلي محدد، فضلاً عن شمولها لدراسة «مستقبل» أطرافها كل على حدة.

وإذا كانت هذه الخصائص العامة، تنطبق على الصراع العربي - الاسرائيلي مثلما تنطبق على دراسة أي «صراع» مماثل، في محيط السياسة الدولية، كالصراع الأمريكي - السوفياتي، أو السوفياتي - الصيني، أو صراع الدول الافريقية مع النظام العنصري في جمهورية جنوب افريقيا أو الصراع العربي مع ايران... الخ، فإن الصراع العربي - الاسرائيلي، بخاصة من منظور الدراسة المستقبلية، يتسم بخصائص مميزة:

١ - يجري الصراع العربي - الاسرائيلي بين طرفين يختلفان في قابلية الخضوع لقياس التطور المستقبلي المستقل لها. وعموماً، فإن اسرائيل تبدو، من تلك الناحية، أكثر انتماء الى بلدان العالم المتقدم، في حين يظل الطرف العربي متسماً بخصائص بلدان العالم الثالث أساساً. ولا يتعارض ذلك مع الحقيقة التي سبقت الإشارة إليها^(١)، من أن كلا الطرفين يمر بمرحلة تغير أو تطور، لأن قياس معدلات التغير، أو وضع احتمالات التوجه المستقبلي لها. يظل أكثر يسراً في حالة اسرائيل، منه في حالة البلدان العربية. ولا يعود ذلك فقط لتوافر الاحصاءات الكثيرة والدقيقة حول كل نواحي الحياة في اسرائيل، وحول معدلات نموها وتطورها، وانما أيضاً لوضوح الخصائص العامة للنظام السياسي والاقتصادي، والمشكلات الاجتماعية والثقافية، على نحو يصعب معه تصور حدوث تقلبات حادة غير مرصودة بوادرها سلفاً. وعلى العكس، فإن الوطن العربي، وعلى الرغم من توافر معلومات كثيرة في شأن جميع نواحي الحياة فيه، إلا أن اتساع مساحته، وتعدد اقطاره، وتفاوت ظروف ومعدلات النمو فيها، وطبيعة النظم السياسية الحاكمة، تجعل الباب مفتوحاً لتطورات مستقبلية شتى، يصعب حصرها.

وعلى أي حال، فانه يتسق مع هذا الواقع قيام الدراسة على أساس افتراض ثلاثة مشاهد بديلة لمستقبل الوطن العربي. ان دراسة مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي تعني - من هذا المنظور - المقابلة بين مشهد اسرائيلي واحد، أكثر احتمالاً، للمستقبل، وبين ثلاثة مشاهد عربية، تجدد كلها من الاسباب ما يؤيدها في ظروف مختلفة وبعيدة محددة، فنحن نصير ازاء دراسة مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي، في ظل ثلاثة مشاهد للمستقبل العربي، تكون هي المتغير المستقل في تصور مشاهد مستقبل الصراع.

٢ - في حدود ما سبق، يظل من الصحيح أيضاً، ان مستقبل كل من الطرفين العربي والاسرائيلي، يتوقف، الى حد معين، على تطورات الصراع مع الطرف الآخر. فالصراع مع

(١) انظر القسم الأول من الفصل الأول حول «معدلات الصراع العربي - الاسرائيلي».

اسرائيل، يؤثر على الأوضاع الداخلية للبلدان العربية، خصوصاً تلك المحيطة بإسرائيل، سواء من حيث شرعية نظمها الحاكمة، أم تخصيص مواردها الاقتصادية أم العلاقة بين قواها الاجتماعية والسياسية، كما يؤثر الصراع مع إسرائيل على العلاقات بين البلدان العربية بعضها ببعض الآخر، وتطوي تأثيراته على احتمالات دفع تلك البلدان الى التعاون والتكاتف في ما بينها، مثلاً يمكن ان تدفعها الى الصراع أو التفكك، كما سبقت الإشارة^(١). وأخيراً، فإن الصراع مع إسرائيل لعب ايضاً دوراً مهماً في تكييف علاقات البلدان العربية، وبخاصة تلك المحيطة بإسرائيل، مع العالم الخارجي، سواء في ذلك القوى الإقليمية المجاورة، أم القوى الدولية البعيدة، ذات التأثير المباشر أو غير المباشر على مجريات الصراع.

وبالمثل، فإن الصراع مع الوسط العربي المحيط يبدو في مقدمة العوامل التي تؤثر على التماسك الاجتماعي في إسرائيل، وعلى تخصيص مواردها الاقتصادية خصوصاً ما يتعلق بالأمن والنفقات العسكرية، كما أن هذا الصراع يقع على رأس قضايا الجدل السياسي الداخلي، ويؤثر مساره وتداعياته على المناخ الثقافي والايديولوجي السائد.

ويفسر الصراع مع الوطن العربي، أكثر من أي شيء آخر، توجهات إسرائيل الخارجية، ومساعدتها للنفوذ في بلدان الشرق الأوسط وإفريقيا، فضلاً عن علاقتها الشديدة الخصوصية مع الولايات المتحدة.

٣ - إن الصراع العربي - الإسرائيلي يتسم بنوع من «الانفصال»، في الجانب العربي بين طبيعة أطراف الصراع، والموضوع المباشر للصراع نفسه. فأطراف الصراع هم العرب جميعاً: الفلسطينيون، والبلدان العربية المجاورة، ثم بقية بلدان الوطن العربي. أما الموضوع الجوهري للصراع فهو «القضية الفلسطينية». لقد سلبت إسرائيل فلسطين، ولكنها في سعيها الى تكريس وجودها على أرض فلسطين، لا تواجه الفلسطينيين فقط، ولكنها تواجه العرب جميعاً، وتهدد بأطباعها الوطن العربي كله. لقد انعكس هذا، على حقيقة بروز العنصر «العربي» بكل إمكاناته، في ما يتعلق بديناميات الصراع مع إسرائيل، وعلى بروز العنصر «الفلسطيني» في ما يتعلق بتسوية الصراع. ان مؤدى ذلك هو أنه، كلما انتقل العنصر الفلسطيني ليصير عنصراً «فاعلاً» في الصراع، وليس مجرد «موضوع» للصراع، كلما أثر ذلك على طبيعة «تسوية» الصراع، وعلى حل القضية الفلسطينية كجوهرة للصراع.

٤ - اتسم الصراع العربي - الإسرائيلي أيضاً بالانفصال بين دوافع «الصراع» ودوافع «التسوية». ففي حين ينسب الصراع لدوافع وعناصر داخلية - أي من داخل المنطقة - فإن التسويات التي كانت تتم، اما ارتبطت أساساً بقوى خارجة عنها. ان هذا يعكس «السقف»

(٢) انظر القسم الثاني من الفصل الأول حول «العلاقة بين الصراع العربي - الإسرائيلي والتوجه العربي نحو الوحدة».

الذي تضعه القوى الخارجية على مجريات الصراع، وسأحبا بتصاعده الى درجات محكومة لا يمكن تجاوزها. وفي المقابل، فان ذلك يعني اتصاف التسويات التي تمت بطابع «مؤقت»، لا تشعر معه القوى المنغمسة في الصراع بانتهائه، على نحو يرضي أهدافها.

وفي ضوء ما سبق، سيسعى هذا الفصل الى دراسة مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي، طبقاً للمشاهد الثلاثة التي تطرحها الدراسة لمستقبل الوطن العربي، أي التجزئة - التنسيق - الوحدة. وفي كل من تلك المشاهد فان معالجة مستقبل الصراع ستستند الى المحددات الثلاثة للصراع، كما سبق تحديدها في المبحث الأول من الفصل الأول. وبداهة، فان كل مشهد سينطوي على «مضمون» مختلف لكل من تلك المحددات، الأمر الذي ينعكس في النهاية على تسوية الصراع في كل مشهد. وبشكل أكثر تفصيلاً، يمكن القول أن كل المحددات لمسار الصراع العربي - الاسرائيلي تتعلق بـ : ١ - تطور القوة الذاتية لكل من طرفي الصراع - وهذا هو ما عُبر عنه بـ «التناقض بين الكيف الاسرائيلي، غير القابل للتطور الكمي، والكم العربي القابل للتطور الكيفي». و ٢ - درجة استجابة كل من طرفي الصراع للتحدي الذي يمثله الطرف الآخر، وذلك، تحديداً، في ما يتعلق بالتوجه نحو تحقيق الكيان السياسي الأمثل الذي يتوخاه الطرفان. أي مشروع الدولة الصهيونية أو الدولة اليهودية فوق «أرض اسرائيل»، ومشروع «الدولة العربية الواحدة» فوق الأرض العربي من المحيط الى الخليج. وذلك ما عُبر عنه بـ «الطابع التحويلي والمتغير للمرحلة التاريخية التي يمر بها أطراف الصراع المباشرون، أي العرب واسرائيل». ٣ - نوعية ودرجة التأثير الذي تمارسه البيئة الاقليمية والدولية على مجريات الصراع، وعلى تحويل دفته لمصلحة ذلك الطرف أو ذاك، وهو ما عبر عنه بـ «انتهاء اطراف الصراع المباشرين الى القوى التابعة أو الهامشية في العالم».

إن تأمل تلك المحددات يفضي بنا الى صورة معقدة نوعاً لطبيعة التغيرات التي يمكن ان تطرأ على كل منها في ظل كل من المشاهد الثلاثة :

- الملاحظة الأساسية في ما يتعلق بالمحدد الأول، المتعلق بالقوة الذاتية، مقدرة بالكم والكيف، لطرفي الصراع، هي أن الطرف الاسرائيلي سيطر - في المشاهد الثلاثة - في حالة واحدة تقريباً، بمعنى أن عناصر القوة الاسرائيلية، العسكرية والاقتصادية والسياسية، وفق ما تمت دراسته، انما وصلت الى استغلال طاقاتها القصوى في النمو، وانها، تالياً، تنحو الى مزيد من التطوير الكيفي باستمرار. ان هذه الحقيقة تظل ثابتة في المشاهد الثلاثة. وعلى العكس، ووفقاً لمنطق المشاهد ذاته، فان الخيارات مفتوحة أمام التطور الكيفي للقوة العربية، ومن هذه الزاوية، فنحن ننظر الى «الوحدة» بدرجاتها المختلفة باعتبارها تنطوي على تغير «كيفي» جذري في القوة العربية، حتى وان وجد أساسه في التغير الكمي - أي، اضافة الكميات العربية المتفرقة بعضها الى البعض الآخر.

على أن الأمر يختلف كثيراً في ما يتعلق بالمحدد الثاني، أي درجة استجابة كل طرف لتحدي الصراع، في شأن الاقتراب أو الابتعاد عن مشروعه النهائي. فوفقاً لما خلصت إليه الدراسة في أجزائها السابقة، فإن المشروع الصهيوني ما زال مفتوحاً، لم تتحدد ملامحه النهائية بعد، وحدوده التي يصل إليها، إنما ترتبط بما تسمح به تطورات الصراع مع القوى العربية المحيطة. وبالمثل، فإن المشروع العربي، أو بتعبير دقيق، المشروع الوحدوي العربي، ما زال مطروحاً ينتظر التطبيق أو الاقتراب منه بشكل أو بآخر. والمنطقة العربية زاخرة باحتلالات عدة تتراوح بين المزيد من التفكك والتشرذم...، وبين الاتجاه نحو التنسيق بل والوحدة الكاملة. هنا أيضاً، فإن مسار هذا المشروع يرتبط بقوة بتأثيرات الصراع مع اسرائيل. إن ذلك يعني أننا سنصبح ازاء انماط مختلفة للتأثير والتأثر في كل من المشاهد الثلاثة: بين حرية مطلقة لاسرائيل في تحقيق مشروعه، أو قيود تصل الى حد تهديد ذلك المشروع بالانحسار، من ناحية، بين مزيد من التفتت والتشتت العربي أو التوجه نحو مزيد من التنسيق ثم الوحدة العربية، من ناحية أخرى. ووفقاً للمشاهد، فإن كل حالة من حالات المستقبل العربي (من زاوية التجزئة والوحدة) ستناظرها درجة معينة من درجات الحرية لدى اسرائيل في تنفيذ مشروعه النهائي، مع الأخذ في الاعتبار المؤثرات «الأخرى» على حرية الحركة الاسرائيلية. وذلك يعني ايضاً ان القدرة على المبادرة - لدى الطرف العربي - ستختلف من مشهد الى آخر، بل وفي داخل الاطار الزمني لكل مشهد على حدة.

- وإذا كان المحدد الأول ينطوي على ثبات نسبي للطرف الاسرائيلي وتغير عربي متعدد الاحتمالات، وإذا كان المحدد الثاني ينطوي على تغيرات عدة محتملة بالنسبة الى الطرفين، فإن المحدد الثالث، أي المتعلق بتأثيرات البيئة الاقليمية والدولية على مجريات الصراع، وعلى طرفيه، يظل مستقراً الى حد بعيد في المشاهد الثلاثة، الا في ما يتعلق بردود الفعل المحتملة، للتوجهات العربية نحو التنسيق، ثم الوحدة، ثم أثر ردود الفعل هذه على مجريات الصراع مع اسرائيل.

في ضوء ذلك، فإن معالجة التطورات المحتملة للصراع العربي - الاسرائيلي وفقاً لكل مشهد من المشاهد الثلاثة، ستقسم الى:

- مقدمة، تحتوي على مضمون المشهد كما تحدده وثائق البحث، ورؤية الباحث لذلك المضمون وتسلسله الزمني، في علاقته بالصراع العربي - الاسرائيلي خصوصاً.

- جزء أول عن محددات الصراع في ظل معطيات كل مشهد، أي العلاقة بين الكم العربي والكيف الاسرائيلي، وظروف التغير التي يمر فيها الطرفان، ثم تبعية كلا الطرفين للقوى الخارجية، مع استخلاص الشكل النهائي للصراع في صورته العسكرية.

- جزء ثان عن تسوية الصراع في ظل المشهد موضع البحث، خصوصاً وإن التسوية

ستتعلق أولاً بالقضية الفلسطينية، وثانياً بمستقبل الأراضي المحتلة، وثالثاً بنوعية العلاقات الاسرائيلية - العربية مستقبلاً.

أولاً: المشهد الأول: استمرار التجزئة العربية (المشهد الاتحادي)

وفقاً لوثيقة «مشروع بحث استشراف مستقبل الوطن العربي - الاطار العام» فان المشهد الأول يفترض استمرار الأوضاع التي سادت الوطن العربي منذ حرب تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧٣ وحتى بداية الثمانينات، وذلك الى نهاية المدة موضع الاستشراف، أي الى عام ٢٠١٥. ومن وجهة نظر الصراع مع العدو الخارجي، فان هذا المشهد يتضمن افتراضات معينة، ترد في الملامح العامة للمشهد، والاطار الاقليمي والدولي، واطاره المؤسسي:

من حيث الملامح العامة، فان استمرار التجزئة في شكل دول قطرية، سيعني تكريس «المؤسسات والنزعات القطرية على مستوى النخبة». وستوجد «محاولات تعاون أو تكامل سياسي - اقتصادي - عسكري بين الأقطار، ولكن ستظل محاولات غير مستقرة وغير ناجحة، ومرتبطة بمصالح وأمزجة النخب الحاكمة، ومرتبطة بموقف بعض القوى الأجنبية منها». وسوف «تزداد احتمالات ومحاولات البلقنة والنزعات الانفصالية على أسس اثنية». وسوف تزداد التبعية بين أقطار الوطن العربي والعالم الخارجي، ويتزايد اندماج الوطن العربي ككل في النظام الرأسمالي العالمي». «وستفرض البيئة العالمية بأحداثها وتطوراتها السياسية والاقتصادية والتكنولوجية نفسها على كل قطر من دون مقاومة محسوسة». «وستزداد النزاعات العربية - العربية حدة». «وستستمر ادارة الصراع العربي - الاسرائيلي على حالها، بكل التدايعات السلبية لذلك» «وستزداد محاولات الهيمنة الاسرائيلية على الوطن العربي في مجمله. ويكون رد الفعل العربي، أما في شكل مقاومة متفرقة ولكن مؤثرة في بعض الأحيان، وأما تنهار هذه المقاومة وتسود سياسة الاستسلام والتهاون مع اسرائيل».

أما في ما يتعلق بالاطار الدولي الاقليمي خصوصاً، فان السمة الرئيسية لعلاقة الوطن العربي بالاطار الدولي «ستتمثل في أن التأثيرات الدولية ستطرح تأثيرها بغير مقاومة محسوسة، وستكون بمثابة معطيات للموقف العربي. وتكون البلاد العربية، عموماً، في موقف التلقي والتأثر بهذه التطورات، وليس الفاعل أو المؤثر في مسارها». «وستستمر تبعية الأقطار العربية للقوى الخارجية» «وستستمر النزاعات العربية - العربية»، «وتستند قدرأ كبيراً من الطاقة العربية وبذلك كله - يستمر منهج التعامل مع اسرائيل، وكذا العائد من ادارة الصراع».

وفي ما يتعلق بالاطار المؤسسي لذلك المشهد، فانه يدور حول تقوية الدولة القطرية، من النواحي كافة. وعلى وجه الخصوص، فان المؤسسة العسكرية سوف تنمو «من حيث حجم الانفاق، ولكن بقدر أقل في فعاليتها القتالية. وسيزداد دورها في الحفاظ على الأمن الداخلي، أو في اشتباكات محدودة مع الاطراف المجاورة - باستثناء اسرائيل، وستتم الصناعات العسكرية، غالباً من خلال انتاج مشترك

أو بتراخيص من شركات السلاح الأجنبية، ولكنها لن تكون مرتبطة عضوياً بالهيكل الانتاجي العام، أو الهيكل الصناعي في المجتمع. . . وستنمو نزعات المؤسسة العسكرية القطرية نحو تكريس التجزئة في أقطار عديدة^(٣).

إن جوهر هذا المشهد، ليس انعدام حدوث أي تغير - فذلك مستحيل بداهة - ولكن جوهره سيادة منطق التجزئة، القائم حالياً، على أي تغير، وذلك هو ما يجعله أقرب الى ما يسمى في الدراسات المستقبلية «المشهد الاتجاهي»^(٤). وهذا يعني بالنسبة الى الصراع مع اسرائيل:

- إن أي تغير في مسار الصراع عن اتجاهه العام الحالي، ليصبح في لحظة معينة في مصلحة الطرف العربي، لن يعكس تغيراً في عناصر القوة العربية بسبب تجمع أو تكتل دول عربية عدة مع بعضها البعض في كيان أكبر تذبذب فيه تلك البلدان. ولكن أقصى شكل من أشكال التكتل أو التجمع، سوف يكون لحظوياً أو جزئياً، عند المواجهة المباشرة للخطر الاسرائيلي، وسرعان ما ينقرض عقده بعد تلك المواجهة. والصورة المثل لذلك النوع من التنسيق، في ظل التجزئة، هو ما حدث ابان حرب تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧٣. بذلك المعنى، فان ذلك المشهد لن ينطوي على لحظة انقطاع تاريخية حاسمة، تتغير بمقتضاها القوة العربية المواجهة لاسرائيل تغيراً ملموساً (جزئياً، أو كلياً) الى وضع متغير بعدها.

٢ - إن المشهد الأول، من منظور مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي هو «المشهد الاسرائيلي»، لان حجر الزاوية في السياسة الاسرائيلية الراهنة، هو «تثبيت الوضع الراهن» وخلق المزيد من «الوقائع الجديدة» في اطار هذا الوضع. وهذا يسري على طبيعة علاقات القوى بين اسرائيل والأطراف العربية المحيطة بها (مصر، سوريا، الاردن ولبنان) وعلى نمط «التسوية» الذي بدأ سريانه فعلاً، أي التسوية المصرية - الاسرائيلية.

١ - محددات الصراع في ظل المشهد الاتجاهي

أ - ان أول المحددات لمجرى الصراع الاسرائيلي، وفقاً لما سبق ذكره، هو المتعلق بنمو القوة الذاتية لطرفي الصراع، وسوف يتوقف نمو القوة الاسرائيلية في العقود القليلة المقبلة الى حد بعيد، على التطور الكيفي أو النوعي في تلك القوة، بخاصة في ابعادها الاقتصادية والعسكرية. أما النمو الكمي، فان حدوده تظل مقيدة، على الرغم من التركيز الشديد عليه. وأهم مجالات النمو الكمي للقوة الاسرائيلية، والذي ترتب عليه تنمية عوامل القوة

(٣) انظر: مركز دراسات الوحدة العربية، مشروع بحث استشراف مستقبل الوطن العربي: وثيقة الاطار العام (بيروت: المركز، ١٩٨٦)، ص ٤٥ - ٦٢. (غير منشور)

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٤.

الأخرى، انما تتمثل في زيادة عدد السكان، من خلال الهجرة أساساً. ووفقاً لما سبق بيانه حول الاحتمالات المستقبلية لنمو السكان في اسرائيل، فان أقصى الاحتمالات تصل الى ما يزيد قليلاً عن سبعة ملايين نسمة في عام ٢٠١٥، بعدد للسكان اليهود يقترب من ٥, ٢٥ ملايين نسمة. والأمر نفسه ينطبق على مساحة الأرض، والموارد الاقتصادية، وحجم القوات المسلحة. وتوضح جميع المقارنات الرقمية بين اسرائيل والبلدان العربية (سواء تلك المحيطة باسرائيل، أم التي يمكن أن تشارك بفعالية في الحركة ضدها، أم مجمل البلدان العربية) أن الميزان يكون للمصلحة العربية.

- على أن أهم عناصر الجدل حول القوة الاسرائيلية في المستقبل، انما تظل ترتبط بالتوازن الديمغرافي في الداخل، بين اليهود والعرب، بخاصة في حالة ضم الأراضي العربية المحتلة. ووفقاً للبيانات السابق ذكرها عن تطور عدد السكان في اسرائيل، وتوزيعهم بين اليهود وغير اليهود، فان تفوق معدلات الانخصاب لدى السكان العرب تنبئ من تزايد نسبتهم الى مجمل السكان في اسرائيل باستمرار. وفي حين تقترب النسبة الآن عن حوالى ١٧ بالمائة، فان من المحتمل وصولها الى ٢٢ بالمائة عام ٢٠٠٠ الى ٢٧ بالمائة عام ٢٠١٥. أما اضافة سكان المناطق المحتلة، فيعني امكان وصول هذه النسبة عام ٢٠١٥ الى حوالى ٤٠ بالمائة.

ان ذلك الهاجس، يمثل مصدراً حقيقياً للقلق لدى قادة الدولة الصهيونية، ودافعاً للجري المحموم وراء زيادة معدلات الهجرة، سعياً الى الحفاظ على «الطابع اليهودي» للدولة.

على أن العلاقة بين الأغلبية اليهودية والأقلية العربية تظل مرهونة بالعلاقة المعقدة الأشمل بين اسرائيل والوطن العربي من حوها، اكثر منها رهناً بالتطور «الذاتي» داخل الدولة الصهيونية.

ويعني استمرار الملامح الرئيسة للوضع الراهن، خصوصاً في ما يتعلق بالتجزئة العربية، أن الشروط الموضوعية التي أدت الى التفوق الاسرائيلي الكيفي في الصراع، والى تحييد أثر التفوق الكمي العربي، سوف تظل قائمة، على اساس ان الوحدة ذاتها، أو التنسيق على الأقل، هي أهم شروط التطور الكيفي. ولكن الواقع هو ان استمرار منطق التجزئة، انما يعني، ليس المواجهة بين كيف اسرائيلي قوي وكم عربي ضعيف، ولكن هذا «الكم» العربي نفسه يصبح محلاً للتساؤل، أو هو يكون مجرد فكرة «نظرية» لا أكثر. ففي ظل منطق التجزئة، والى جانب القصور الكيفي، فان المواجهة لا تصبح بين اسرائيل وبين البلدان العربية جميعها أو على الأقل جزء منها (بلدان المواجهة أساساً)، وانما تصبح بين اسرائيل، وبين أي من البلدان العربية على حدة، فنضحي ازاء مواجهة اسرائيلية - مصرية، واسرائيلية - سورية، واسرائيلية - أردنية، واسرائيلية - لبنانية، واسرائيلية - فلسطينية،

وهكذا. هنا، فإن التفوق الاسرائيلي يضحى في أحيان كثيرة نفوقاً كمياً وكيفياً في آن واحد. كما إن التفوق الاسرائيلي يجد ترجمته في بعض الأحيان، في شكل تفوق كمي، كما هو الحال مثلاً في المقدرة العالية على تعبئة نسبة كبيرة من السكان، في وقت الحرب، في أقل وقت ممكن، وكذلك في إعداد وتدريب أكبر نسبة من العلماء والباحثين في مجالات البحوث والتطوير... وهكذا.

وبالنسبة الى الفلسطينيين تحديداً، فإن استمرار الأوضاع الحالية يعني استمرار حال التشرذم والتفكك داخل القوى الوطنية الفلسطينية، كما سبقت الإشارة. والنقطة المحورية هنا، هي أن حركة المقاومة الفلسطينية، انما عكست بحكم تعقيدات نشأتها وتطورها، واقع النظم العربية. وتأثرت مباشرة بانقساماتها وتناقضاتها. ان ذلك يعني ان استمرار التجزئة العربية هو في اللحظة نفسها استمرار للتفكك الفلسطيني.

من ناحية أخرى، وفي ضوء الخبرة التاريخية للصراع العربي - الاسرائيلي، فإن قدرة الفلسطينيين في الأرض العربية المحتلة (بل وداخل اسرائيل نفسها) على مواجهة عدوهم، انما ارتبطت الى حد بعيد بالمناخ العربي السائد «خارج» الأرض المحتلة، بحيث ان الزخم أو الانتعاش اللذين يصيبان القوى العربية ضد اسرائيل (كما حدث في تشرين الأول / اكتوبر ١٩٧٣ مثلاً) انما ينعكسان رفعا للمعنويات في الأرض المحتلة، ويقويان من ارادة المقاومة لدى السكان، والعكس صحيح. وبعبارة أخرى، فإن هذه الحقيقة، اي حقيقة تأثير «الخارج» على «الداخل» انما تعني نقل كل سلبات الواقع العربي الخارجي، واحباطاته، الى الداخل الفلسطيني.

وفي ظل هذا المشهد، فإن أقصى صورة للتفوق العربي على اسرائيل، على نحو يمكن أن يؤثر في مجرى الصراع، انما تتمثل في نمو قوة احد بلدان المواجهة، أو أكثر، بشكل منفرد، على نحو كيفي متغير بشدة، بحيث يصل به الى المقدرة على مناصرة القوة الاسرائيلية بفعالية. ولأن نقطة الانطلاق، التي يمكن ان يبدأ بها التغيير في هذا البلد العربي أو ذاك ستكون أدنى من النقطة التي تقف عندها اسرائيل، فإن حدوث تغيير ملموس في قوة البلد العربي المعني، انما يكون رهناً بحدوث ثورة شاملة فيه، تضع نصب عينيها مباشرة التنمية السريعة لعناصر قوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية. على أن مثل هذا التغير الشوري لا يمكن ان يتم، كما اثبتت ذلك الدراسات الموضوعية كافة، طالما ظلت الثورة مقيدة بحدودها القطرية، مفتقدة الأبعاد القومية، وذلك ما يؤدي بنا الى المشاهد الأخرى. وعلى أي حال، فالمتصور هو أن اسرائيل، في ظل أوضاع التجزئة التي يفترضها المشهد، سوف لا تجد أي مصاعب في العمل على اجهاض أي قوة عربية محتملة، باعتبار ان «المبادرة» في مواجهة التهديدات العربية هي إحدى السمات الرئيسية للتفوق الكيفي الاسرائيلي. والتاريخ القريب للصراع العربي - الاسرائيلي، يبرهن على حقيقة الرصد الاسرائيلي لكل عناصر القوة العربية

الحقيقية والمحتملة، والسعي الى تعقبها واجهاضها، كما بدا خصوصاً في ضرب المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١.

ب - وتعني سيادة منطق التجزئة، ان الاستجابة العربية للتحدي الصهيوني لن تكون في اتجاه التضامن والوحدة، وانما ستكون في اتجاه المزيد من التفكك والفرقة. وكما سبقت الاشارة، فان تلك الاستجابة تجد ما يؤيدها في ماضي الصراع العربي - الاسرائيلي: فاسرائيل بمجرد وجودها «المادي» سوف تظل تشكل عائقاً بين المشرق العربي والمغرب العربي. كذلك فان التداعيات المتوالية للآثار المريعة للاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وغزة وجنوب لبنان ولتقتضيات المواجهة الاردنية والسورية. . . سوف تسهم في أن تعمق، على نحو متزايد، الاحساس بتفاوت الاعباء والتكاليف والتضحيات بين البلدان العربية. ومثلما كان هذا الشعور في مصر وراء الاندفاع الى كامب ديفيد، فان تولده وتضخمه في تلك المناطق الأخرى، انما سيمثلان ارضية خصبة للاذعان لتسويات منفردة اخرى، ينحوبها كل طرف بنفسه من متاعب المواجهة المستمرة. وفي ظل هذه المواجهة المنفصلة، التي يقع عبئها الأول على الفلسطينيين، فان المشاعر الوطنية «الفلسطينية»، التي وجدت أهم تبلور لها بعد عام ١٩٦٧ وخروج الضفة الغربية من تحت السيطرة الأردنية، وتحول الفلسطينيين الى المواجهة المباشرة مع عدوهم، انما سوف تتجه، في ظل المنطق العام للتجزئة، الى مزيد من التأكيد على الهوية الفلسطينية وعلى الاستقلالية الفلسطينية. واذا كان هذا التوجه هو المشروع والمنطقي في مواجهة الاسرائيليين، فانه يضحى، في مواجهة العرب الآخرين، مظهراً من مظاهر التجزئة والتشتت القومي. وبعبارة أخرى، فان الاحتكاك العربي - الاسرائيلي، في ظل منطق التجزئة، لا يفترض أن يؤدي الى المزيد من الوعي العربي العام بالهوية «العربية» الخاصة ومشاعرها الموحدة، في مواجهة التحدي الخارجي، وانما هو يفضي الى تبلور مشاعر قطرية متباينة ومتمايزة، أي مشاعر مصرية، وسورية، واردنية، ولبنانية وفلسطينية. . . الخ.

على أن المسألة لا تقف في الواقع عند حد الشعور بالتمايز الوطني أو القطري (وهو تمايز تقوي منه طبيعة المرحلة التاريخية التي تمر بها الأقطار العربية، أي مرحلة بناء الدولة، كما سبقت الاشارة) وانما تعدى ذلك الى العداء والتناحر بين الأطراف العربية ذاتها أي «تعريب الصراع». وفي خلال العقد الأخير، فان ابرز مظاهر «تعريب الصراع» انما تمثلت في الصراع بين مؤيدي اتفاقية كامب ديفيد، والمعارضين لها، وبين البلدان العربية «المعتدلة» وبين جبهة الصمود والتصدي، ثم داخل جبهة الصمود نفسها حول الموقف من منظمة التحرير الفلسطينية^(٥).

(٥) لطفي الحولي، «مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي واحتمالاته المتوقعة حتى عام ٢٠٠٠»، المستقبل العربي، السنة ٩، العدد ٩١ (أيلول/سبتمبر ١٩٨٦)، ص ١٥١.

كذلك فإن الأمر، في ظل سيادة منطق التجزئة، لم يقف عند حد بلورة التمايز القطري، أو عند حد تعريب الصراع، وإنما تعداه الى سريان تأثيرات الصراع الى داخل الأقطار والفواعل العربية نفسها. لقد شهد العقدان الاخيران مظاهر شتى للصراع الداخلي، أو احتمالات للصراع، في أكثر من قطر عربي، لم تكن بعيدة عن الصراع العربي - الاسرائيلي. وإصابت تلك المظاهر العديد من الاقطار العربية، بما فيها مصر أكثر البلدان العربية تماسكاً وانسجاماً اجتماعياً. وكانت «الفننة الطائفية» والدعوة الى «الوحدة الوطنية» هما اللافتتان اللتان جرت في ظلها وقائع الصراع في مصر، ومحاولات رأيه. على أن بداية الثمانينات شهدت، على هذا الصعيد، أبرز تطورين حتى الآن: أولها تفاقم الصراع الطائفي في لبنان، وتشابكه بقوة مع تداعيات الصراع العربي - الاسرائيلي منذ الغزو الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. وفي هذا السياق، يمكن الحديث عن «لبنة الصراع»، حيث أفضت المواجهة مع اسرائيل، ليس الى صهر الشعب اللبناني كله في بوتقة واحدة ضد العدو الخارجي، وإنما الى تمايز قواه الاجتماعية والسياسية المتناحرة، في مواجهة ذلك العدو. لا شك أن بعض القوى الوطنية اللبنانية التحمت بعضها مع البعض الآخر، ومع بعض الفصائل الفلسطينية، غير أن المنطق العام الذي ظل يسيطر على الحركة اللبنانية في مواجهة اسرائيل هو منطق التجزئة والتفكك، الذي دُعم من النزاعات الطائفية والانفصالية، وغذاها بوقود هائل من المراتة والعداوة. وليست المذابح الطائفية هنا الا أبرز الامثلة.

إن الأمر نفسه ينطبق، بصورة مختلفة، على القوى الوطنية الفلسطينية، وعلى منظمة التحرير الفلسطينية نفسها. وهنا نكون ازاء «فلسطنة الصراع» اذا جاز هذا التعبير، ويقصد به «تفجير الصراع الذاتي» حول ادارة الصراع السياسي والعسكري مع اسرائيل، داخل الساحة الفلسطينية ومنظمة التحرير، وفصائلها المختلفة، وذلك الى حد استخدام السلاح في حسم الصراع، وكذلك تفجير انشاقات داخل البنية التنظيمية للثورة حول قضايا متعددة من أهمها الموقف من سوريا، والاقتراب من مصر رغم كامب ديفيد... والاتفاق الاردني - الفلسطيني...، وتعدّر حل الصراعات الفلسطينية - الفلسطينية بالحوار الديمقراطي داخل الأطر الشرعية للمنظمة^(٦).

إن هذا المسار للتطور يعني ان سيادة منطق التجزئة في العقود الثلاثة المقبلة، لن تعني مجرد «بقاء» الدول العربية «المستقلة» على ما هي عليه الآن، لكن يعني تعرضها، بشكل متزايد، لمخاطر الانقسام والبلقنة. وبعبارة أخرى، فإن التوجه نحو التكامل والتنسيق والوحدة يبدو في المستقبل ضرورة حتى للحفاظ على «الدولة» العربية ذاتها، وحققها بامكانات «الاستمرار». وعلى العكس، فإن افتقاد هذا التوجّه، سيعني تهديد مجرد تلك الاستمرارية.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٥١.

وفي هذا السياق، يمكن هنا الإشارة الى دراسة الاسرائيلي «عوديد بانون» التي كتبها في ١٩٨٠ عن استراتيجية اسرائيل في الثمانينات. ومن دون المبالغة في تقدير أهمية تلك الدراسة أو قيمتها، فإن المهم هو أن ما تحدثت عنه من افكار لتقسيم وبلقنة المنطقة العربية، كهدف حيوي ينبغي على اسرائيل ان تسعى اليه، تظل افكاراً غير بعيدة عن تطورات المنطقة عبر السنوات الست الماضية، بل، على العكس، فإن تلك التطورات طرحت من الوقائع ما يقترب من هذه الأفكار، وليس ما يبعد عنها. فضلاً عن تطورات الحرب اللبنانية، هناك المخاطر التي تهدد العراق وبلدان الخليج العربية الأخرى، تحت وطأة الحرب العراقية - الايرانية، بما في ذلك مخاطر التقسيم؛ وكذلك المخاطر التي تهدد السودان بسبب التمرد في الجنوب، بما في ذلك أيضاً، مخاطر الانفصال والتقسيم. وفي هذا السياق، فإن دعم العلاقات الاسرائيلية - الايرانية، والاسرائيلية - الاثيوبية، يضحي هدفاً اسرائيلياً ثابتاً، وموظفاً لتغذية تلك الاحتمالات.

هذه التطورات السابقة، تغري بالعودة، مرة أخرى، الى ما طرحه عويد يانون. ووفقاً لذلك الطرح، فإن «الضمان الطويل المدى لأمن اسرائيل لن يتحقق الا باستعادة سيناء، وتقسيم مصر الى أقاليم جغرافية، تحت وطأة صراع ديني اسلامي مسيحي، بحيث تقوم دولة مسيحية - مصرية في مصر العليا، وتفتت السلطة المركزية. أما سوريا فترشح لقيام دولة شيعية علوية على الساحل، ودولتين سنييتين في حلب ودمشق، فضلاً عن دولة الدروز، اما العراق فيقسم الى دويلات ثلاث: شيعية وسنية وكردية»^(٧) وهكذا.

الواقع العربي اذاً، وفق هذا المشهد، سوف يظل في العقود الثلاثة المقبلة، في حال انكشاف أو تعرض للاثار السلبية للصراع مع اسرائيل. وفي ظل التفوق الاسرائيلي شبه المطلق - وهو ما يعنيه استمرار الوضع الراهن - فإن ذلك يعني أولاً، الاغراء بالهجوم على أكثر البلدان العربية تهديداً لأمن اسرائيل، نسبياً على الأقل، وهو ما يعني، وفق منطق التجزئة، ان المساندة العربية للبلد محل العدوان لن تصل الى حد الدخول في حرب مشتركة معها بشكل كامل، وتظل مفتوحة تالياً احتمالات هزيمة عربية أو اخفاق عربي آخر. وهنا نصبح إزاء احتمالين: أما ان تكون الهزيمة هي نقطة الانطلاق نحو واقع عربي آخر، ينطوي على مزيد من التنسيق لمواجهة الخطر المشترك، أو على توجه نحو الوحدة (المشاهد ٢، ٣)، وإما ان تكون الهزيمة، خطوة نحو مزيد من التدهور العربي، والتفكك الداخلي.

إذا انتقلنا الى الجانب الآخر للتأثير الذي يمارسه الصراع العربي - الاسرائيلي، أي تأثيره على الطرف الاسرائيلي، في ظل المشهد الاتحادي، فإن الافتراض الاساسي هنا هو ان استمرار الاحال العربية الراهنة (وحجر الزاوية في توصيفها هو سيادة منطق التجزئة) يعني

(٧) انظر: نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية (نيسان/ ابريل ١٩٨٠)، ص ٢١.

توافر الشرط الأمثل لاستكمال ملامح المشروع الصهيوني، خلال العقود الثلاثة المقبلة. سبق ورأينا، في الفصل الثاني، آفاق النمو في سكان اسرائيل، واقليمها، والاستيطان اليهودي، والقوة الاقتصادية والنظام السياسي والقوة العسكرية. وبشكل محدد، يمكن القول أن استمرار التفوق الاسرائيلي شبه المطلق، في العقود الثلاثة المقبلة، سوف يعني، على وجه الخصوص:

- امكانية اكبر لدى اسرائيل، لجذب أعداد متزايدة من المهاجرين الجدد. والقيود التي يمكن ان تحول دون ذلك، ترتبط بالظروف الدولية الأخرى المرتبطة بتسيير الهجرة (بخاصة من الاتحاد السوفياتي) وليس بموقف الوطن العربي.

- امكانية اكبر لدى اسرائيل، تالياً، لتوسيع نطاق الاستيطان في الضفة الغربية وقطاع غزة. وفي مواجهة العجز العربي، فان الجدل حول الاستيطان في الأراضي المحتلة، سوف يحسم غالباً لمصلحة اليمين الصهيوني المجدد للاستيطان فوق كل جزء في الضفة، وكذلك محاصرة المراكز السكانية العربية.

- المزيد من دعم السيطرة الاسرائيلية فوق الأراضي العربية المحتلة، لتوفير العمق الاستراتيجي للدولة

- وفق هذا المشهد، فان قدرة الطرف العربي على التأثير على العلاقات الامريكية - الاسرائيلية (بخاصة في بعدها الاقتصادي) تكاد تقترب من الصفر.

- سوف يتيح الوضع العربي المفكك لاسرائيل فرصاً متزايدة ببطء، ولكن في اتجاه متصاعد، لتنمية علاقات اقتصادية اسرائيلية - عربية، تعمل لمصلحة الطرف الاسرائيلي أساساً.

- من المرجح، أن هبوط التهديد العربي المباشر لاسرائيل الى مستوياته الدنيا، لن يعني اضعاف القدرة العسكرية الاسرائيلية أو التأثير على درجة استعدادها. وفي ضوء علاقات اسرائيل الدولية، ورؤيتها الاقليمية الشاملة «لمجالها الحيوي»، فان درجة التفوق العسكري سوف تظل قائمة، ومتنامية كیفاً.

- على ان اكثر التساؤلات اثاراً للجدل سوف يكون على الصعيد السياسي، وهو: الى أي مدى يمكن أن يؤثر هزال التحدي العربي على تماسك المجتمع الاسرائيلي، وعلى خصائص النظام السياسي، التي ارتبطت دائماً بضرورة مواجهة التحدي العربي؟ هذا التساؤل يعيد الى الازهان الافكار التي طرحت حول أثر السلام على المجتمع الاسرائيلي والدولة الاسرائيلية. ان نقطة الانطلاق، هنا، هي حقيقة أن اسرائيل مشروع لم تكتمل ملامحه النهائية بعد، انه مشروع قابل للامتداد والتوسع والسيطرة ويعني ذلك ان حال

الضعف المحيطة بإسرائيل تضحي عنصر اغراء بمزيد من التوسع، ومزيد من فرض الوقائع الجديدة. والقول بأن إسرائيل، في حال انتفاء الخطر العربي عليها، سوف تركز الى السلام، هو قول يتناقى مع جوهر المشروع الصهيوني وطموحاته الاقليمية. وفي ظل هذا المشهد إذ لا محل لسلام حقيقي، وانما توسع وسيطرة، يجدان اساسهما في الطابع التوسعي للمشروع الصهيوني، ويستندان الى طبيعة الدولة - المعسكر. وبعبارة أخرى، فان التحدي الذي يواجهه المشروع الصهيوني، ليس هو تحدي القوة العربية، وانما هو تحدي انجاز المشروع الصهيوني، وتحدي الوصول الى الهدف الصهيوني. وبهذا المعنى، سوف تظل «الايديولوجيا» حاکمة للنظام السياسي الاسرائيلي، وسوف تظل مركزية الحكم باقية، وسوف يزداد ويترسخ دور العسكريين في الحياة السياسية الاسرائيلية.

إن تلك النتيجة تتسق تماماً مع حقيقة الازدهار الذي يتمتع به اليمين الصهيوني في اللحظة الراهنة، بخاصة لدى الاجيال الشابة، كما سبقت الاشارة. ولنتذكر هنا ان مجيء الليكود الى السلطة، انما بدأت خطواته الفعلية بعد عام ١٩٧٣، أي بعد الاخفاق الحزبي للمعراخ في مواجهة العرب. وقد أتى الليكود رافضاً تقديم التنازلات، رافعاً أكثر الشعارات تطرفاً في مواجهة العرب عموماً، والفلسطينيين خصوصاً، ومراهناً على سياسة عدم المهادنة، باعتبارها أكثر السياسات ملائمة للتعامل مع العرب. كذلك لم تر اسرائيل، في السلام مع مصر، سوى فرصة ذهبية لتحقيق باقي أطماعها. ولم تكن مصادفة غزو لبنان بعد أقل من شهرين من اتمام الانسحاب الاسرائيلي من سيناء في نيسان / ابريل ١٩٨٢. وخلال العقد الذي قضاه الليكود في الحكم (١٩٧٧ - ١٩٨٧) فان الظرف الوحيد الذي استطاع فيه العرب الحد من تلك التوجهات اليمينية المتغطسة، انما كان الظرف الذي افلحت فيه بعض القوى العربية في التعامل بمنطق «القوة» ورفض الاستسلام، أي ظرف: المقاومة الشجاعة لبعض الفصائل الوطنية اللبنانية والفلسطينية، ضد العدو الاسرائيلي في اثناء الحرب اللبنانية. وفي ما عدا ذلك، فان الاستسلام العربي، والتجزئة العربية، انما كانتا (وسوف تظلان دائماً) تغريان أكثر القوى يمينية وتطرفاً في اسرائيل، بضرب مصادر القوة العربية أينما كانت، وابتلاع مزيد من الأرض الفلسطينية، وزرع مزيد من المستوطنات.

على أن تصوّر هذا التصلب الاسرائيلي في المستقبل، لا يعود فقط الى افتراض الضعف العربي، الذي ينطوي عليه «مشهد التجزئة»، وانما يعود أيضاً الى التوجهات اليمينية، التي تجمع عليها دراسات المجتمع الاسرائيلي، لدى الأجيال الشابة. وكما سبقت الاشارة، فان اصوات الشباب كانت وراء وصول مائير كاهانا الى عضوية الكنيست في انتخابات عام ١٩٨٤. كما ترصد جميع الابحاث الميدانية تزايد الميل نحو التشدد مع العرب، والشعور بكرهائهم، بل والدعوة الى طردهم بين تلاميذ المدارس وطلاب الجامعات في اسرائيل، بل وبين الشباب الاسرائيلي عموماً، أي لدى اولئك الذين سوف يشكلون اسرائيل المستقبل.

على أن الجانب الآخر لتلك الصورة، سوف يتمثل في رد الفعل العربي «المتطرف» - إذا جاز هنا هذا التعبير - لدى الأجيال الشابة من العرب سواء في داخل اسرائيل، أو في داخل الأرض العربية المحتلة، كما سبقت الإشارة. ويمكن ان نتصور رد الفعل ذلك، ليس فقط في مواجهة التطرف الاسرائيلي، وانما أيضاً في سياق اليأس العام من تدهور الموقف العربي، كما ينطوي عليه مشهد التجزئة. وكما سبقت الإشارة ايضاً، فان ذلك يعني، تالياً، ان تشهد اسرائيل، في الفترة المقبلة التناقض والاستقطاب بين مزيد من اليمينية بل والعنصرية، في الجانب اليهودي، ومزيد من القومية والراдикаلية في الجانب العربي، داخل اسرائيل والأرض المحتلة. وفي ظل ما يميله الموقف العربي العام من احساس باليأس لدى الأقلية العربية، ومن تنمية مشاعر العنصرية والعدوانية لدى الصهاينة، وفي ضوء حقيقة تزايد النسبة العددية للسكان العرب في اسرائيل، فلا مفر من أن تقترب اسرائيل أكثر وأكثر، في ظل مشهد التجزئة، نحو نموذج الدولة العنصرية الاستيطانية كما تمثلها اليوم تحديداً جمهورية جنوب افريقيا. وستبدو تلك السياسات والتوجهات العنصرية في ذلك الحين، ضرورة «وجود»، أي وجود الدولة الصهيونية، بنقائها العنصري المزعوم!.

ج - المحدّد الثالث الصراع العربي - الاسرائيلي، طبقاً للخبرة الماضية، هو تأثيرات البيئة الدولية. ووفقاً للمشهد الاتحادي، فان بقاء الأوضاع الراهنة على ما هي عليه، واستمرار واقع التجزئة العربية، يعنيان ان المنطقة العربية سوف تظل في موقع التغيّر التابع وليس التغيّر المستقل، وموقع رد الفعل وليس الفعل، و«موضوعاً» للسياسات الدولية وليست فاعلاً في تلك السياسات. وفي المقابل، سوف تظل اسرائيل في موقف افضل للتعامل مع تلك المتغيرات الدولية، وتوجيهها لمصلحتها في الصراع مع العرب.

وفي ضوء حقيقة أن العنصر الخارجي، وبخاصة تأثير القوى الكبرى الحاكمة للنظام العالمي، سوف يظل حاضراً دائماً في تقرير مجرى ومآل الصراع العربي - الاسرائيلي مباشرة، فان هذا الامر سوف يضاف اليه ما يمكن ان يحدّثه ذلك العنصر الخارجي من تأثير غير مباشر من خلال تأثيره على المنطقة العربية، في ظل مشهد التجزئة.

لقد نبعت أهمية الصراع العربي - الاسرائيلي، على الصعيد الدولي، مما حله دائماً من امكانية لاحداث عدم الاستقرار، بل والتفجر، في منطقة ذات أهمية استراتيجية للقوى الدولية المسيطرة في النظام الدولي، وعلى وجه التحديد الأهمية الاستراتيجية - الاقتصادية للمنطقة كمركز رئيس لانتاج النفط، والأهمية الاستراتيجية - الجغرافية الناتجة عن قربها من إحدى القوتين العظميين، أي الاتحاد السوفياتي، فضلاً عن موقعها الحيوي على طرق الاتصالات والتجارة العالمية، مما يعني انه اما ان تكون عرضة للتهديد السوفياتي، أو أن تكون منصّة لتهديد الاتحاد السوفياتي والوثوب عليه. لقد كانت هذه الأسباب وراء اهتمام

القوى الفاعلة الرئيسية في النظام الدولي بتلك المنطقة. وفي حين وجدت تلك القوى، في سياق تطورات الصراع العربي - الاسرائيلي، الفرصة لتدعيم وجودها ونفوذها في المنطقة، فان وجود طرف دولي منافس كان يشكل، في حد ذاته، دافعاً لدخول المنطقة ومحاولة التأثير في الصراع.

وتثلت أبرز أشكال الوجود والتأثير الأجنبي، أما في تقديم الدعم لأطراف الصراع (وأبرز مظاهره الحالية الدعم الامريكي لاسرائيل، الذي وصل في المرحلة الراهنة الى علاقة غير مسبوقة في تاريخ العلاقات الدولية، كما سبقت الإشارة، والدعم السوفياتي لسوريا)، وأما في التدخل - لدى احتدام الصراع وبخاصة في صورته العسكرية - لوضع الحدود التي يصل إليها ذلك الصراع، والمساعدة تالياً في تسويته.

ومؤدى ما سبق، هو أن اهتمام القوى الكبرى الفاعلة في النظام الدولي، بالصراع العربي - الاسرائيلي، سوف يتوقف، مستقبلاً، على استمرار الأهمية الاستراتيجية للمنطقة، وعلى استمرار أهمية تحالفاتها فيها، كأداة للحفاظ على مصالحها. فاذا افترضنا هنا أن منطقة «الشرق الأوسط» سوف تظل تحتفظ بأهميتها الاستراتيجية في العقود الثلاثة المقبلة، وأن القوى الدولية الكبرى سوف تستمر في الاهتمام بدعم مصالحها فيها، فان النقطة الحاسمة التي تفترق عندها بدائل العمل العربي (أو مشاهد المستقبل العربي) سوف تكون: الى أي مدى سوف تكون البلدان العربية قادرة على توظيف علاقاتها الدولية لدعم موقفها في الصراع العربي - الاسرائيلي؟ وهل سوف تتمكن من ذلك التوظيف، أم أن مصالحها وتناقضاتها الأخرى ستذهب بكل منها الى القوة الدولية الأقرب الى مصالح نخبتها الحاكمة؟ ان ذلك تحديداً، هو ما سوف يختلف من مشهد الى آخر.

سوف يستمر الطرف الآخر من الصراع، اي اسرائيل، على علاقته العضوية الوثيقة بالولايات المتحدة الأمريكية. وكما سبق الايضاح، فان الابعاد التي تتخذها تلك العلاقة الآن، بخاصة على الصعيدين الاقتصادي والاستراتيجي، تجعل منها احدى الحقائق الأساسية التي سيصبح على البلدان العربية ان تأخذها كاحدى «المسلمات» في العقود الثلاثة المقبلة، باعتبارها أمراً يرتبط أساساً بالمصالح الأمريكية في المنطقة، وبالدور الحيوي الذي أوكل الى اسرائيل، لحماية هذه المصالح. وفي هذا السياق، سوف يستمر توظيف القوة الأمريكية لمصلحة الطرف الاسرائيلي في الصراع.

يدعم من هذه النتيجة ان الطرف العربي، في ظل سيادة منطق التجزئة الحالي، (اي المشهد الأول) سوف يظل، بحكم تداعيات ذلك المنطق، غير قادر على أي ربط بين الموقف من المصالح الأمريكية، وبين الموقف الامريكي من الصراع من خلال عمل عربي مشترك وفعال، ولقد كان ذلك عموماً هو الخط الأساسي الذي حكم العلاقات العربية - الأمريكية،

باستثناءات نادرة أهمها على وجه الإطلاق الخطر العربي على امدادات النفط، في غمار حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣.

وبحكم ذلك المنطق أيضاً، أي منطق التجزئة، لن تكون هناك امكانية لتحالف «قومي» أو تنسيق قومي - عربي مع الطرف الآخر على الصعيد الدولي، أي الاتحاد السوفياتي. واقصى ما يمكن تصوره هو نمو علاقات سوفياتية وثيقة مع بعض الأطراف العربية (أبرزها الآن سوريا)، ولكنها يمكن ان تتسع لتشمل اقطاراً منفردة أخرى. فإذا أضفنا الى ذلك، الخبرة السوفياتية في التعامل مع البلدان العربية، في اثناء مجريات الصراع العربي - الاسرائيلي، والتقدير السوفياتي السلبي الحالي لامكانات القوة العربية في مواجهة اسرائيل، وعدم ممانعة السوفيات حالياً في تحسين علاقاتهم باسرائيل (الأمر الذي تعوقه أساساً قضية هجرة اليهود السوفيات)، فضلاً عن الظروف الصعبة للتوازن على الصعيد العالمي - مع الولايات المتحدة، فليس من المنتظر أن يكون مجمل التأثير الدولي على مجريات الصراع، وعلى تسويته، في مصلحة الجانب العربي للصراع، بمواصفاته في مشهد التجزئة.

على أن التساؤل الأكثر أهمية هنا، ربما تعلق بالأثر المباشر للتغيرات في البيئة الدولية، وفي النظام العالمي، على المنطقة العربية، وهو ما ينعكس تالياً على قدرتها على مواجهة التحدي الاسرائيلي. ان مقتضى مشهد التجزئة، هو ان تلك المنطقة سوف تظل في موقع رد الفعل، وفي موقع التلقي السلبي للتغيرات التي تقذف بها أمواج البيئة الدولية المحيطة. وجوهر الفكرة، هنا، هو أن هذا الثبات النسبي المفترض للواقع العربي الراهن، انما سوف يجري في اطار عالم «متغير»؛ واستمرار الوضع الراهن للوطن العربي، لن يوازيه استمرار للوضع الراهن في البيئة الدولية المحيطة. وبعبارة أخرى، فان العالم من حولنا لن ينتظر، الى أجل غير مسمى، حتى يحزم العرب أمرهم، ليتجهوا بفعل إيجابي واع نحو الوحدة.

إن الافكار الأساسية التي يمكن طرحها هنا تتعلق تحديداً، بأثر التطورات المستقبلية، على صعيد التقدم العلمي والتكنولوجي، على مستقبل الكيانات «السياسية» القائمة في عالم اليوم، وعلى مستقبل «القومية» والفكرة القومية خصوصاً. واستناداً الى افكار وكتابات بريزنسكي وتوفلر^(٨)، فان أهم تلك التطورات تتعلق بـ:

(١) التطور الهائل في وسائل الاتصال، الذي سيصبح بمقتضاه لبعض الدول الكبرى المتقدمة، ومن خلال التلفزيون والاتصال الهاتفي الآلي المباشر، عبر الأقمار الصناعية، أن

(٨) Zbigniew Brzezinski, *Between Two Ages: America's Role in the Technetronic Era* (New York: Penguin Books, 1970), and Alvin Toffler, *The Third Wave* (London: Collins, 1980).

انظر أيضاً إشارة الى ذلك الموضوع في: امين هويدى، «صراع القوى الخارجية ضد مشروعاتنا: الأسباب وأسلوب المواجهة»، المستقبل العربي، السنة ٣، العدد ٢٤ (شباط/فبراير ١٩٨١)، وعون فرسخ، «الفكر الامبريالي ومخطط التفنتيت»، المستقبل العربي، السنة ٤، العدد ٣٨ (نيسان/ابريل ١٩٨٢)، ص ١٢٣.

تغزو المنازل الخاصة في البلدان الاخرى، بل سيصبح في مقدور الاقبار الصناعية البث مباشرة لأجهزة الاستقبال، من دون محطات وسيطة تستقبل وتعيد البث ثانية.

(٢) التطوير الهائل في مجال التصنيع، والذي يتجسد في الموجة الثالثة (موجة ما بعد التصنيع) في توجه المصانع للانتاج الصغير الذي يمكن انتاجه في المنازل، وعدم الفصل، تالياً، بين المنزل والمصنع.

(٣) تزايد دور الشركات متعددة الجنسيات، مما يعني الاتجاه الى مزيد من التجاهل للحدود السياسية الدولية القائمة.

إن تأمل تلك المتغيرات الثلاثة على وجه التحديد، يؤدي بنا الى أن الوطن العربي لن يكون بعيداً عنها على الإطلاق:

- فالطور الهائل في وسائل الاتصال، بخاصة من خلال التلفزيون والشبكات الهاتفية، تدعمه بالنسبة الى الوطن العربي، حقيقة أن الاغراق الاستهلاكي الذي شهدته أجزاء كثيرة من هذا الوطن، إنما تمثل تحديداً في الاستيعاب المستمر لحدث ما انتجته المصانع العالمية من أجهزة الاستقبال المرئية والسمعية والفيديو، فضلاً عن التحسين الهائل في شبكات الاتصال التلفزيوني والهاتفي في شكل يضارع، في بعض المناطق، أكثر البلاد تقدماً في العالم.

- وإذا كان التطور الهائل في ميدان التصنيع، لا ينطبق في شكل كامل على البلدان العربية، فإن التبعية التكنولوجية المطلقة للوطن العربي، تجعله عرضة للتأثر بأبعاد موجة ما بعد الحضارة الصناعية، حتى وإن لم يكن قد استوعب كلياً أو حتى جزئياً، موجة الحضارة الصناعية السابقة لها.

- كما يظل الوطن العربي أيضاً عرضة لتأثير التوسع في دور الشركات متعددة الجنسيات في العالم. ويدعم من ذلك حقيقة أنه من المقدّر أن تنتج تلك الشركات في عام ٢٠٠٠ أكثر من نصف الانتاج العالمي، وأن يتزايد دورها في بلدان العالم الثالث بالذات، بخاصة في الدول الخارجة حديثاً من عقبة التخلف أو دول النفط^(٩). كما تزداد تلك الاحتمالات مع التوجه نحو مزيد من الليبرالية والرأسمالية، الذي تشهده البلدان العربية حالياً، وكما يتبدى، على سبيل المثال، في سياسة «الانفتاح» في مصر.

لقد خلص بريزنسكي من رصده للتطورات في مجال «الاتصال» خصوصاً الى أنه «بينما ساعد التقدم في وسائل الاتصال على زيادة الروابط بين الأمم، فإنه عمل في الوقت نفسه على تفتيت القوميات. فالإنسانية وجدت نفسها أكثر وحدة، وأكثر تفتتاً في الوقت نفسه، وتلك هي الحركة الرئيسية

(٩) انظر: عبد النعم سعيدي، العرب ومستقبل النظام العالمي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧)،

للتغير المعاصر». وسوف يحدث هذا التفتت لان الجماعات العرقية والدينية، في مواجهة هذا التهديد بالذوبان في المجتمع العالمي، والحضارة العالمية، سوف تسعى الى الانغلاق على نفسها، طلباً للحماية والانتقاء. كما خالص توفلر الى ان تطورات مجتمع ما بعد الصناعي، سوف تعني زيادة حدة الحركات الانفصالية والاستقلالية من ناحية، وهو ما يهدد الدولة من «أسفل»، في حين تهددها الشركات متعددة الجنسية من «أعلى».

والواقع أن الصورة المستقبلية للوطن العربي، في هذا السياق لم تكن بعيدة عن افكار بريزنسكي من زاوية العلاقات العربية - الاسرائيلية. ووفقاً لذلك التصور فإن الشرق الأوسط «مكون من جماعات عرقية ودينية مختلفة، يجمعها اطار اقليمي. فسكان مصر ومناطق شرق البحر المتوسط غير عرب، أما داخل سوريا فهم عرب. وعلى ذلك فسوف يكون هناك شرق أوسط مكون من جماعات عرقية ودينية مختلفة عن أساس مبدأ الدولة - الأمة، تتحول الى كاتونيات طائفية وعرقية يجمعها اطار اقليمي (كونفدرالي)، وهذا سيسمح للكانتون الاسرائيلي ان يعيش في المنطقة، بعد أن يصنّف فكرة القومية»^(١٠).

إن مقتضى استمرار الوضع الراهن، هو أن يقف الوطن العربي ازاء تلك التطورات المتوقعة، أو المخططات المتعمدة، في موقف الاستسلام وعدم المقاومة. وهناك من الشواهد في المنطقة العربية ما يؤيد بعض التكهّنات المشار إليها. وعلى سبيل المثال، فإن نمو النزعات الدينية المتطرفة، في بعض الأقطار العربية الآن، ليس بعيداً عن تأثيرات الاتصال المكثّف بالحضارة الغربية، الذي أتاحته وسائل الاتصال المتقدمة. والتفكك الاجتماعي الذي يشهده عدد من المجتمعات العربية، بعيداً عن وسائل المتعة والتسلية واستهلاك وقت الفراغ الذي تتيحه وسائل الترفيه والتسلية الحديثة التي تقوم على الفيديو «وأجهزة» السّتريو المنزلية على حساب الوسائل الأكثر جهايرية كالتلفزيون مثلاً، والانتشار الواسع النطاق لمحطات البث الاذاعي والتلفزيوني على مستوى الوحدات الصغيرة والضيقة، والذي تبدو صورته أكثر فجاجة في منطقة الخليج، إنما يزكّي من النزعات المحلية ويركّز على إبراز الخصائص «المحلية» وتمايزها في مواجهة الآخرين. ومن ناحية ثانية، فإن المزيد من تغلغل الشركات المتعددة الجنسيات في الاقطار العربية، إنما يعني التقليل المستمر من امكانات التكامل العربي لمصلحة دمج اقتصادات هذا القطر العربي أو ذاك في اطار خارجي أوسع، وفصله تالياً عن اقتصادات الاقطار العربية الأخرى.

فإذا أضفنا الى ذلك خطورة التوجيه الاعلامي المباشر، من جانب القوى الخارجية، واحتمالات الاختراق الاعلامي الكامل للوطن العربي في المستقبل، بدت لنا امكانات مخيفة للسيطرة والتأثير على الوعي العربي والقيم العربية السائدة. ولنتذكر هنا، مثلاً انه في ظل

(١٠) هريدي، «صراع القوى الخارجية ضد مشروعنا: الأسباب وأسلوب المواجهة»، ص ١٠٨.

واقع التجزئة العربي، والذي يفترض سريانه في العقود الثلاثة المقبلة، وفقاً للمشهد الأول، فإن الاقطار العربية عجزت عن ايجاد اعلام عربي واحد (اذاعي أو تلفزيوني) يمكن ان يضارع أو ينافس الاعلام الاذاعي الأمريكي والانكليزي والفرنسي الموجه من سنوات طويلة الى الوطن العربي؛ وما تزال الاذاعة البريطانية، وصوت امريكا، واذاعة مونت كارلو هي المصادر الأهم للمعلومات الاذاعية، لدى المواطن العربي، بخاصة النخبة المثقفة، من المحيط الى الخليج.

وأخيراً، فإن التخطيط الاستراتيجي الاسرائيلي، ليس بعيداً عن هذا كله، سواء بمعنى استيعاب آخر منجزات العلم والتكنولوجيا، خصوصاً في مجال الاتصال - بما في ذلك من خلال الفضاء - كما سبقت الإشارة، أو بمعنى استخدام تلك المنجزات بشكل مخطط ومباشر، لتحقيق أهدافها السياسية والايديولوجية، خصوصاً ازاء منطقة المشرق العربي ومصر.

وبذلك كله، فإن التبعية السياسية والاقتصادية والاعلامية للوطن العربي، وموقف «الدونية» المرتب على التجزئة لا بد وأن تفضيا أيضاً، في العقود الثلاثة المقبلة، الى تراجع الوطن العربي في مواجهة الخطر الاسرائيلي، والتوجه نحو حسم ذلك الصراع لمصلحة الطرف الاسرائيلي قبل أي شيء آخر.

١ - مستقبل الصراع عسكرياً(*)

في ظل معطيات المشهد الأول، فإن توازن القوى العربي - الاسرائيلي سوف ينتهي الى توازن سوري - اسرائيلي. ويمكن اضافة بعض عناصر القوات المسلحة لكل من الاردن ولبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية. ويلاحظ أن قدرة القوات المسلحة السورية على النمو أكبر منها في القوات الاسرائيلية، الا أن قدرة القوات الاسرائيلية على النمو الكيفي أكبر، وفقاً لارتفاع مستوى التعليم وكثير من مستويات المعيشة، وسيتوقف الأمر بدرجة أكبر على قدرة سوريا، على تنمية اقتصادها التنمية الاجتماعية. ويزيد من صعوبة الأمر، بالنسبة الى هذا المشهد، عمل الولايات المتحدة المستمر للاحتفاظ للقوات الاسرائيلية بالتفوق النوعي في مجال تكنولوجيا الاسلحة. كما ان الدعم الأمريكي لصناعة الاسلحة الاسرائيلية، لا يقابل في هذا المشهد بدعم سوفياتي لصناعة الأسلحة في سوريا، مما يجعل ميزان القوى يميل نحو اسرائيل. واطافة الى ما سبق، فإنه في ضوء قدرة اسرائيل على انتاج الاسلحة النووية واحتفاظها بمخزون منها، ثم العمل على تنمية هذا المخزون كما ونوعاً، فإن اسرائيل ستتمتع بتفوق واضح على سوريا التي ليست لديها امكانات انتاج اسلحة نووية وحدها، على طيلة

(*) كتب هذا الجزء اللواء طلعت مسلم.

فترة الاستشراق . وإذا وضعنا في الاعتبار اضافة القوات الاردنية والقوات اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية، فان هذه القوات تحسّن من الميزان العسكري السوري، ولكن يلاحظ أن أغلب الاسلحة التي تحصل عليها هذه القوات، أقل بكثير من حيث تقدمها مما تحصل عليه اسرائيل، بل وسوريا، إذ أن كلاً من الأردن ولبنان يحصل على أسلحته من الغرب الذي يعلم ان هذه الاسلحة لا بدّ وأن تحسب في الميزان العسكري ضد القوات الاسرائيلية. كما أن قوات المقاومة الفلسطينية، بحكم طبيعة عملها ومناطق تركزها، لا يمكنها الاستفادة من المعدات المتقدمة المعقدة، كونها معرضة لأن تحصل اسرائيل، وتالياً الولايات المتحدة، على عدد منها، وهو ما يضعه الاتحاد السوفياتي دائماً في اعتباره، عند تسليح القوات الفلسطينية.

ليس من المنتظر، في ظل سيادة منطق التجزئة، أن تعاون باقي البلدان العربية سوريا في حال نشوب الصراع المسلح. وإذا قامت بأي اجراء تعاوني، تحت ضغط شعبي، فإن هذا الاشتراك سيكون شكلياً ومتأخراً وغير منظم مما يقلّل من فاعليته، وإن كان يمكن ان تكون له آثاره البعيدة، نتيجة لدخول مصر ساحة الصراع العربي- الاسرائيلي المسلح مرة أخرى، حيث يتحول الى نوع من المشهد الثاني أو الثالث. أما العراق والسعودية، فستعوق الأول ظرووف الصراع في الخليج حتى في حال توقف القتال، كما ان السعودية ستواجه الشروط الأمريكية لاستخدام معداتها، واحتمالات نقص الذخيرة وقطع الغيار، إضافة الى ضرورة ابقاء قواتها في مواجهة ايران. واخيراً، فإن انتقال القوات الرمزية الى منطقة الصراع، يتطلب زمناً من مناطق التركز يقلّل من فاعلية هذه القوات بدرجة كبيرة، بحيث قد تصل قيمتها الحقيقية الى الصفر، أو حتى بالسالب، لما قد تتطلب من جهة التنسيق في وقت غير مناسب، أو نتيجة لاحتلالات اصطدام بعض القوات ببعضها الآخر نتيجة عدم التنسيق.

أما من حيث نموذج الصراع، في ظل مشهد التجزئة، فمن المتصور ان يتخذ الصراع في هذه الحال غالباً صورة الهجوم الاسرائيلي على سوريا، بهجوم مباشر عليها وهو احتمال ضعيف نسبياً نظراً لقوة الدفاع السوري على الحدود السورية، أو بالالتفاف حولها من اتجاه لبنان أو الأردن، واحتماله أكبر، مع تثبيت باقي الأطراف العربية. ويبدأ الهجوم بضربة جوية صاروخية شاملة على الأهداف الحيوية، وبخاصة المطارات ووحدات الصواريخ أرض أرض والدفاع الجوي السورية ومراكز السيطرة والقيادة لكل من سوريا والأردن، يعقبها هجوم بري مدرع اسرائيلي، بهدف الوصول الى عمق الدفاعات السورية من أحد اتجاهها، مع التهديد باختراق دمشق، أو الهجوم عليها فعلاً. ويتميز الهجوم بالاستخدام الواسع للطائرات العمودية (الهليكوبتر) وقوات الابرار الجوي بسرعة لتطويع الهجوم والتغلب على المواقع الطبيعية. كما يتميز بالاستخدام الكثيف لوسائل الحرب الالكترونية لاعاقة نظم

الكشف والانداز، وكذلك نظم السيطرة على القوات، ويمكن ان يكون الهدف المباشر للهجوم الاستيلاء على الخط العام: جبل ام الدرج، جبل الدروز، جبل الشيخ. على أنه يمكن تطوير الهجوم للاستيلاء على خط جبل عدة.. بحيرة حمص.

يتميز الصراع في هذه الحالة بانفراد اسرائيل بالقوات السورية، حيث لا يتوقع اشتراك القوات المصرية نتيجة لظروف معاهدة السلام المصرية - الاسرائيلية، وما تتضمنه من قيود على وجود هذه القوات في سيناء يؤخر من قدرتها على الاشتراك فيه، ولصغر حجم واتساع مواجهة القوات الاردنية، ولا نشغال القوات العراقية بحرب الخليج، أو حاجتها لاعادة التنظيم، في حين ان باقي البلدان العربية بعيدة، وتحتاج الى زمن طويل نسبياً حتى يمكنها معاونة القوات السورية. ويتميز الصراع أيضاً بطول مدته نسبياً من ١٠ الى ١٥ يوماً، وشدة عنفه مما يضيق الفارق بين القوات المشتركة، وطبيعة الأرض الجبلية، والمضمون السياسي للحرب. كما يتميز بكثافة القتال، حيث لا يشمل على فترات الهدوء قبل توقف القتال، إضافة الى نشاط عناصر المقاومة الفلسطينية واللبنانية ضد خطوط المواصلات الاسرائيلية وكذلك المستوطنات. وقد تهدد أطراف الصراع باستخدام اسلحة التدمير الشامل، ويظهر ذلك اساساً بتهديد اسرائيل باستخدام الأسلحة النووية، كما قد تلجأ سوريا الى استخدام أسلحة كيميائية، وبخاصة المواد الحارقة. تلعب القوات الجوية وصواريخ الدفاع الجوي والصواريخ أرض - أرض دوراً مهماً في الصراع، بينما تلعب البحرية دوراً ثانوياً. وقد تقوم ليبيا بمعاونة سوريا بقوات بحرية محدودة. من المشكوك فيه استخدام النفط كوسيلة للضغط، وبخاصة اذا لم يستمر الصراع المسلح فترة طويلة، ويقتصر دور الدول العظمى على امداد اطراف الصراع، والحيلولة دون حدوث الهزيمة كاملة لأي من الطرفين، مع تجنب حدوث مواجهة بين كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة. ويحدث هذا غالباً عند اقتراب قوات اسرائيلية من دمشق، أو وصول القوات السورية الى الحدود الدولية، واستعادة الجولان، وقبل اختراقها للحدود مع فلسطين.

قد يحدث الصراع في ظروف هذا المشهد بمبادء سوريا، بافتراض احساسها بتحول التوازن الاستراتيجي لمصلحتها، وهو ما لا ينتظر قبل نهاية الثمانينات، مع امكان اخفاء تحضيراتها عن اسرائيل وهو أمر ضعيف الاحتمال. ولا تختلف طبيعة الصراع في هذه الحالة عن سابقتها، الا في أن الاهداف السورية تقتصر على استعادة السيطرة على المنطقة المحتلة بعد حزيران/ يونيو ١٩٦٧، مع احتال معاونة عربية محدودة خصوصاً من الاردن والمقاومة الفلسطينية وليبيا والجزائر واليمن الديمقراطية. وتقتصر المعاونة الليبية والجزائرية باشتراك بعض قوات البلدين الجوية، وبعض الاعمال القتالية من قواتها البحرية، بينما قد يقتصر دور اليمن الديمقراطية على محاولة فرض حصار على اسرائيل من مضيق باب المندب، واحتلال

معاونة اقتصادية لسوريا من بلدان الخليج، وفرض حظر نفطي على الدول المعاونة
لاسرائيل.

٢ - التسوية في ظل التجزئة

بحكم التعريف، فإن تسوية الصراع العربي - الاسرائيلي، في كل مشهد من المشاهد
الثلاثة للمستقبل العربي، سوف تتوقف، في دوافعها، وآلياتها ومضمونها، على المحددات
الرئيسية للصراع، كما ذكرت في ذلك البحث، أي تطور القوة الذاتية لطرفي الصراع،
وطبيعة علاقة التفاعل بينهما، وظروف البيئة الدولية.

لقد خالصتنا أولاً، لدى عرض «محددات الصراع»، في ظل المشهد الأول، الى أن
العقود الثلاثة المقبلة سوف تشهد استمرار التفوق الاسرائيلي على الطرف العربي من
الصراع، واستمرار الاثر السلبي للصراع على الجانب العربي، ومن زاوية دفعه نحو المزيد
من التفكك والتجزئة، فضلاً عن الاثر غير المؤاتي للمؤثرات الدولية على الوطن العربي، طالما
ظل قابلاً في موقف المتلقي والمستسلم لتلك التأثيرات.

إن هذه الاستمرارية لجميع عناصر «الأمر الواقع»، بل ونموها في خلال فترة
الاستشراف، تعني ان الطرف المستفيد من هذا الأمر الواقع، أي اسرائيل، لن يسعى الى
تغييره، طالما لم توجد دوافع قوية ترغمه على التغيير، كما تعني أن الطرف المتضرر أي الطرف
العربي، سوف يظل عاجزاً عن ارغام اسرائيل على تغيير ذلك الأمر الواقع.

تسوية الصراع العربي - الاسرائيلي اذاً، وفق المشهد الأول هي، بالتحديد، «لا
تسوية» الصراع. أو بعبارة أخرى، فإن الخيار سيصير اما التسوية وفقاً للشروط الاسرائيلية،
وإما اللاتسوية على الاطلاق، مع الأخذ في الاعتبار ان التسوية، وفقاً للشروط الاسرائيلية،
إنما تعني، في جوهرها، اضافة الطابع الرسمي والقانوني والدائم على جوهر الوضع الراهن،
أي تكريس السيطرة الاسرائيلية.

وليس اختيار «اللاتسوية»، كأحد احتمالات المستقبل أمراً بعيداً عن كثير من الكتابات
التي عاجلت الموضوع، وبخاصة الكتابات الاسرائيلية والغربية^(١١)، ووفقاً لذلك الاختيار،
سوف تظل الضفة الغربية وقطاع غزة واقعين تحت السيطرة الاسرائيلية، من دون الضم
الرسمي الكامل لاسرائيل. وفي خلال فترة الاستشراف (في ظل المشهد الأول) إما أن يستمر

(١١) انظر على سبيل المثال: آفي بلاسكوف، الدولة الفلسطينية: فحص الخيارات، ترجمة احمد العلمي

(القدس: جمعية الدراسات العربية، [د. ت. ج.])، ص ٤١، و

Mark Heller, *A Palestinian State: The Implications for Israel* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1983), p. 21.

هذا الوضع، الى نهاية الفترة، مع حدوث بعض التغيرات الهامشية، أو تحدث تغيرات مهمة على الصعيدين الفلسطيني والعربي، بفعل تداعيات التجزئة العربية، تجعل من الممكن تطبيق التسوية وفق الشروط الاسرائيلية من دون مقاومة يعتد بها.

ومن وجهة النظر الاسرائيلية، فإن الحفاظ على الوضع الحالي لا يعني فقط الاحتفاظ بوحدة معظم أراضي «الوطن» الاسرائيلي «التاريخي» - أي الأراضي الممتدة من البحر المتوسط حتى نهر الأردن - وفقاً للنظريات الاسرائيلية في الحقوق التاريخية، وإنما يعني أيضاً تحديد فترة السيطرة السياسية على هذه الأراضي الى ما لا نهاية، مما يعني الحيلولة دون عودة أي نوع من السيادة العربية، وضمان «أمن اسرائيل» كما تتصوره النخبة الحاكمة.

إن القضية الأساسية لهذا الحل بالنسبة الى اسرائيل، هي أنه ينطوي على الحصول على أكبر مكسب، ويتمثل ذلك في «الأرض» أي أرض الضفة الغربية وقطاع غزة، وتفاذي أهم المخاطر، أي ضم السكان العرب في الضفة وغزة لاسرائيل. وفي واقع الأمر، فإن السكان الفلسطينيين في الضفة وغزة، (الذين يقرب عددهم من ١,٢٤٠ مليون نسمة) هم الذين سوف يحولون، بمجرد وجودهم، دون ضم اسرائيل لتلك المناطق رسمياً الى أرضها. وعلى ذلك، فإن العناصر «المتطرفة» التي تدعو الى الضم النهائي «للمناطق»، إنما تستند الى تقدير متفائل لحجم الهجرة اليهودية الى اسرائيل مستقبلاً. ولكن تواضع ارقام تلك الهجرة مؤخراً بخاصة من الاتحاد السوفياتي كما سبقت الإشارة، واستمرار ظاهرة النزوح خارج اسرائيل، سيجعلان من المخاوف من الطغيان الديمقراطي العربي، عنصراً أساسياً في تقرير شكل «التسوية» التي تحبذها اسرائيل. وفيما عدا ذلك، فإن المفهوم الاسرائيلي للعمق الاستراتيجي وحيويته «لأمن اسرائيل»، وتطورات سياسة الاستيطان بخاصة الخطط المستقبلية للاستيطان السياسي - الايديولوجي في الضفة، والعلاقات المتنامية بين اقتصاد المناطق المحتلة والاقتصاد الاسرائيلي، ونمو النزعات اليمينية والعنصرية، واستمرار تفوق القوة العسكرية الاسرائيلية. . . كلها عوامل تؤكد استمرارية الوضع القائم للأراضي العربية المحتلة، في ظل المشهد الأول.

وفي المقابل، فإن التداعيات التي ينطوي عليها مشهد التجزئة ذاته، تجعل من التكلفة التي تتحملها اسرائيل، من ذلك الاختيار، في حدها الأدنى. فجوهر المخاطر المترتبة على الابقاء على الوضع الراهن هو أنه وضع مهدد للسلام، على أساس أن الانسحاب الاسرائيلي من الأراضي العربية المحتلة هو شرط جوهري معلن للسلام من الجانب العربي، وعدم الوفاء بذلك المطلب يعني نظرياً امكانية تكوين تآلف أو تحالف عربي للحرب ضد اسرائيل، ولكن التجزئة العربية، والصراعات العربية، بل ومخاطر التفكك المتزايدة على بعض البلدان العربية، المتضمنة في مشهد التجزئة، تجعل من رد الفعل العربي ذلك، مجرد احتمال نظري يتضاءل باستمرار، خصوصاً مع استمرار تقيّد مصر بمعاهدة السلام مع اسرائيل.

وفي اطار معطيات المشهد الأول، فإن الانتقال من حالة «اللاتسوية» الى التسوية، إنما يتعلق أساساً بالصيغ الاسرائيلية للتسوية. وحتى الآن، وعلى الرغم من الصيغ العديدة التي طرحت من جانب الكثيرين من عناصر النخبة الاسرائيلية، فإن شكل التسوية الوحيد الذي أبدت اسرائيل التزامها الرسمي به، هو صيغة «الحكم الذاتي» في الضفة الغربية وقطاع غزة، كما جاءت في اتفاقات كامب ديفيد. ولكن تظل هناك فرصة بشكل أو بآخر لفرض العديد من مشروعات التسويات الأخرى المرتبطة باسرائيل، والتي يمكن ادراجها اجمالاً تحت مفهوم «الاستيعاب»، والذي يقصد به «تلك الآراء والاتجاهات الفكرية والسياسية، التي تتجاهل الحقوق القومية للشعب الفلسطيني، وتقدم حلولاً تقوم على أنكار حقه في تقرير مصيره، وحكم نفسه بنفسه، وممارسة حقوقه السياسية والقومية»^(١٢)، وفي هذا الاطار، سوف يتجدد الحديث عن توطين اللاجئين في المناطق التي يعيشون فيها، والروابط الاقتصادية المتنامية بين اسرائيل والضفة الغربية وغزة. . . الخ.

وتندرج أيضاً، تحت أنماط التسوية التي يمكن أن تؤدي إليها تداعيات مشهد التجزئة، أفكار مثل:

- «الحل الوسط الاقليمي» الذي يستهدف تحويل الغالبية العظمى من الفلسطينيين الى السيادة الأردنية، مما يخفف عن اسرائيل عبء الحكم المباشر، في حين يحتفظ لها بكثير من المستوطنات والمواقع الاستيطانية في الضفة الغربية، وأبرز أفكار هذا الحل الوسط الاقليمي، هي التي عرفت باسم مشروع آلون، والتي تتضمن تقسيم أراضي الضفة الغربية بين اسرائيل والأردن، حيث تحتفظ اسرائيل بالأماكن ذات الأهمية الاستراتيجية العالمية، والكثافة السكانية المنخفضة، في حين تلحق المناطق ذات الكثافة السكانية العالية بالأردن.

- التقسيم الوظيفي: أي الذي يقوم، ليس على تقسيم الأرض وإنما على تقسيم الوظائف بين اسرائيل وبين طرف عربي (سواء أكان أردنياً أم غير أردني). إن أفكار «الحكم الذاتي» تنتمي الى هذا النوع من التسويات، ولكن التقسيم الوظيفي يمكن أيضاً أن يتم في صورة دولة فدرالية أو كونفدرالية، تجمع بين اسرائيل وكيان فلسطيني تابع^(١٣).

وفي جميع الأحوال، فإن النقطة الحاسمة في الانتقال، داخل مشهد التجزئة، من حالة «اللاتسوية» الى التسوية الاسرائيلية، إنما ترتبط ببروز طرف عربي يكون مستعداً للتعامل المباشر مع اسرائيل، وفقاً لنمط كامب ديفيد. وفي حين تبدو سوريا الآن أقل الأطراف احتمالاً لذلك، فإن تداعيات مشهد التجزئة، وزيادة احتمالات المواجهة مع اسرائيل، يمكن

(١٢) علي الدين هلال، مشروعات الدولة الفلسطينية (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٧٨)، ص ٥١.

Heller, Ibid., p. 40.

(١٣)

أن ترشحها لتسوية منفردة جديدة تفتح الباب لأطراف عربية أخرى، وفي هذا السياق، فإن الأردن سوف يكون الطرف الأكثر احتمالاً للتسوية التالية. وعلى أي حال، فسوف يظل «الخيار الأردني» مطروحاً دائماً في إطار مشهد التجزئة، ولكن فقط من خلال «صيغة اسرائيلية» له، بمعنى أن يصبح وضع الفلسطينيين تحت الادارة المدنية الأردنية، وهو الحل الأمثل للتخلص منهم من دون التخلي عن المناطق الاستراتيجية في الضفة الغربية (وذلك خلافاً لمشروع المملكة العربية المتحدة، الذي طرحه الملك حسين عام ١٩٧٢ وتضمن استرجاع الضفة الغربية كلها). والتداعيات التي يمكن ان تقود الى هذا الخيار، في صيغته الاسرائيلية، تتمثل في ذبول دور منظمة التحرير الى حده الأدنى، واستمرار اللاتسوية في الضفة الغربية، بما تنطوي عليه من مزيد من الدمج الاقتصادي والسيطرة السياسية والعسكرية الاسرائيلية. وفي هذا السياق، فإن تقدم النظام الهاشمي «لإنقاذ ما يمكن إنقاذه»، قد لا يجد مقاومة فلسطينية نشطة.

ثانياً: المشهد الثاني: الأشكال الوسيطة للتنسيق والتعاون

وفقاً لوثيقة «مشروع بحث استشراف الوطن العربي - الاطار العام»، ولورقة العمل «بشأن تحديد بعض المفاهيم الواردة في وثيقة الاطار العام للمشروع»، فإن هذا المشهد ينشأ استجابة لأسباب وضغوط داخلية، أو خارجية، ويأخذ اما صورة تنسيق على مستوى تجمعات اقليمية، أو على مستوى الوطن العربي ككل. وفي ما يتعلق بالمواجهة مع العدو الخارجي، عموماً، أو بإسرائيل خصوصاً، وردت بعض الاشارات العامة، في الملامح العامة للمشهد، واطاره الاقليمي والدولي:

- فوفقاً لهذا المشهد، سترتفع القدرة العامة للمجتمع والدولة، وبخاصة في مجالات الانتاج والأمن والقوة العسكرية. ويبدو هذا الارتفاع أكثر وضوحاً في المشهد الفرعي (الخاص بالتجمعات الاقليمية) وذلك بالنسبة الى التجمعات التي تتم بعيداً عن مخططات قوى خارجية.

- سترداد فعالية المؤسسات والجماعات أكثر من غيرها، وأكثر مما كانت تلعبه في مشهد التجزئة، وعلى رأسها الأجهزة التكنوقراطية والجيش والأجهزة الأمنية.

- يحتمل أن تقلّ النزاعات بين الأقطار، وتزيد بين التجمعات القطرية، ولكن تأخذ شكلاً سلمياً تنافسياً، وتتطور آليات جديدة لفضّ هذه المنازعات.

- من المحتمل ألا يطرأ تغيرٌ كفي على منهج ادارة الصراع العربي - الاسرائيلي، ولكن

القدرات العسكرية المتنامية للوطن العربي ككل، أو لتجمعاته المحيطة بإسرائيل، ستمثل قيداً على قدرة إسرائيل التوسعية.

- سيظل غط التبعية في علاقات الوطن العربي بالخارج على ما هو عليه، من حيث الجوهر، وإن كان سيتمثل من حيث الدرجة، حيث سيزيد هامش الحركة والمناورة والمساومة في النظام العالمي القائم.

وفي ما يتعلق بالاطار الاقليمي والدولي، هناك فارق بين حالة التجمعات الاقليمية، وحالة التنسيق الوظيفي الجماعي:

- ففي حالة التجمعات الاقليمية، سوف تنمو شبكة معقدة من العلاقات التعاونية والخلافية بين التجمعات الاقليمية، وبين هذه التجمعات والاقطار العربية التي لم تنضم الى أحدها.

- ومن المتصور قيام أشكال للتعاون بين هذه التجمعات، وبالأذات في المجال العسكري، ضد عدوان مباشر لإسرائيل على بلد أو تجمع عربي.

- وسوف تعمل الدول الكبرى، صاحبة المصلحة الاقتصادية والاستراتيجية المباشرة في المنطقة، على إبراز الخلافات بين هذه التجمعات والتركيز عليها.

وفي ما يتعلق بالتنسيق الجماعي، فمن الأرجح عدم تبلور ردود فعل حادة اقليمية أو دولية لجهود التنسيق الجماعي بين البلدان العربية، ربما باستثناء محاولة بناء قدرة عسكرية عربية موحدة، وفي مواجهة المزيد من التنسيق العربي في خصوص مادة استراتيجية كالنفط.

- سوف لا يكون هناك رد فعل إسرائيلي عسكري مباشر وواضح أمام قيام التنسيق الجماعي. ولكن تسعى إسرائيل، من خلال علاقاتها الدولية، الى التأثير في تطور عملية التنسيق لوضع حدود لها، حتى لا تفقد إسرائيل تفوقها النسبي. أيضاً سوف يكون لإسرائيل رد فعل حاد ازاء المحاولات العربية المشتركة في مجال استخدامات المياه في المشرق العربي. كذلك من الأرجح أن تحاول القيام بضربات «وقائية» لأجهاز مشروعات التنسيق العسكري العربي، اذا ما تراءت فعاليتها^(١٤).

واستناداً الى هذه الملامح العامة، يمكن إيراد عدد من الملاحظات الأساسية في ما يتعلق بالمشهد الثاني:

١ - أولى هذه الملاحظات، أن جوهر هذا المشهد، ومحور تميزه عن مشهد التجزئة، هو

(١٤) انظر: مركز دراسات الوحدة العربية، مشروع بحث استشراف مستقبل الوطن العربي: وثيقة الاطار العام، ص ٧٣ - ٧٥.

التوجه نحو «التنسيق» بين بلدان عربية عدة، على نحو ينطوي على تنازل «جزئي» عن فكرة الأولوية المطلقة للسيادة القطرية في ميدان محدد من ميادين النشاط، وذلك لمصلحة مشتركة تجمع بين البلدان المعنية. وقد يشمل هذا التنسيق بلداناً داخلية في إقليم جغرافي بعينه أو يشمل البلدان العربية كافة، بل وقد يشمل بلدين أو أكثر لا يجمعها جوار جغرافي.

٢ - وامتداداً لما سبق، فسوف نلاحظ أن هذا المشهد لا يعدو، مثل المشهد السابق، أن يكون امتداداً للوضع القائم، ولكن محور الخلاف بين الاثنين هو أن المشهد الأول يتعلق بالواقع «المادي» و«الفعلي» القائم فقط، في حين أن المشهد الثاني يمتد إلى الواقع الرسمي أو الشكلي القائم بين البلدان العربية. فعل هذا الصعيد، أي صعيد العلاقات «الرسمية»، والأشكال المختلفة للتنسيق الوظيفي، وكذلك المؤسسات والمنظمات المرتبطة بذلك التنسيق، يتسم الوطن العربي بوفرة في تلك الأشكال الرسمية، والتي حصرت (حتى عام ١٩٨٣ تقريباً) في حوالي ١١٧ منظمة واتحاداً عربياً^(١٥). وبصعب أن يجد الباحث مجالاً لم تشمله تلك المؤسسات، ولكن الجديد في هذا المشهد هو افتراض حدوث بعض الظروف التي تؤدي إلى بث الروح والحياة في ذلك التنسيق القائم على الورق فقط ليصبح تنسيقاً حقيقياً، له عائد ملموس بالنسبة إلى البلدان المشاركة فيه. وفي واقع الأمر، فإن الجامعة العربية، والمنظمات الكثيرة المرتبطة بها، إنما تعكس في وضعها الراهن، تلك الروح المتقدمة. وإلى حد ما، أيضاً، فإن مشروعات وأفكار «التنسيق» بين البلدان الواقعة في إقليم جغرافي واحد، تعتبر متوافرة بشكل أو بآخر، والمشكلة هي في التطبيق. وفي ضوء هذا كله، يصبح من المنطقي وصف ذلك المشهد بأنه مشهد «اصلاحي»، بل أي شيء آخر.

٣ - في إطار ما سبق، فإن هذا المشهد، على عكس مشهد التجزئة (الاتجاهي)، يفترض لحظة انقطاع معينة في المسار المستقبلي للأحداث الراهنة، بحيث يجوز لنا الحديث عن سنة معينة (بين ١٩٨٦ و ٢٠١٥) تعتبر نقطة تحول (وهو تحول سياسي أساساً) يختلف مابعداً عما قبلها، من زاوية فعالية التنسيق، ووضع الكثير من اتفاقات ومشروعات التنسيق الوظيفي، موضع التطبيق العملي. وسوف نفترض هنا أن تلك النقطة تقع في عام ١٩٩٠ على أساس أن الفترة اللازمة لتثبيت هذا التنسيق، ووصوله إلى نقطة اللاعودة، لن تقل عن عقدين من الزمان^(١٦).

٤ - يعني ذلك، في ما يتعلق بتصور تداعيات المستقبل، أن الموقف العربي سوف يتحول،

(١٥) جميل مطر وعلي الدين هلال، النظام الإقليمي العربي: دراسة في العلاقات السياسية العربية، ط ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣)، ص ١٥٦.
(١٦) انظر: عبد النعم سعيد، العرب ودول الجوار الجغرافي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧)، ص ١٥١ - ١٥٢.

بعد تلك النقطة الزمنية الافتراضية، من موقع «رد الفعل» الى موقع الفعل، ومن موقع الاستسلام للتغيرات المفروضة عليه، الى موقع المبادرة، وذلك في ما يتعلق بالميدان موضع التنسيق تحديداً. وقد يتعلق هذا الموقف العربي بالبلدان العربية ككل، أو بالبعض الذي تضمنه صيغة التنسيق الاقليمي المفترض.

أ - محددات الصراع في ظل المشهد الاصلاحي

وفقاً لما سبق ذكره عن اسرائيل في العقود الثلاثة المقبلة، وكما جاء أيضاً في افتراضات المشهد الأول، فسوف يستمر النمو المتصاعد للقوة الاسرائيلية اقتصادياً وعسكرياً، وسوف تستمر معدلات الهجرة والاستيطان في الأرض العربية المحتلة، وسوف يتجه النظام السياسي الى مزيد من الاستقطاب الايديولوجي والعنصري. على أن التفوق الاسرائيلي شبه المطلق، كما يجسده المشهد الأول، سوف يحد منه، في المشهد الثاني، التنامي الجزئي الذي سوف يحدث في القوة العربية، نتيجة التنسيق الوظيفي (سواء على مستوى الوطن العربي ككل، أم على مستوى التجمعات الاقليمية):

(١) في ما يتعلق بالتنسيق على مستوى التجمعات الاقليمية، ليس من المتوقع أن تكون الاضافة للقوة العربية في مواجهة اسرائيل، متساوية بالنسبة الى كل من التجمعات المتصورة على حدة. فتجمع المغرب العربي، وعلى الرغم من أية مزايا اقليمية يحققها لأعضائه، فإن احتمال ما يضيفه الى مجمل القوة العربية ضد اسرائيل، انما لا يتوقف على مجرد قيامه في ذاته، وانما على امكانية تنسيقه مع التجمعات الاقليمية الأخرى. والأمر نفسه ينطبق على تجمع الخليج العربي، كما يتجسد الآن في مجلس التعاون الخليجي. ولكن الأمر يختلف بالنسبة الى تجمعي وادي النيل، والمشرق العربي. فتجمع وادي النيل، اذا اقتصر على مصر والسودان (وأيضاً الصومال وجيبوتي) لن يعني تغييراً ملموساً بالنسبة الى اسرائيل، ولكن اضافة ليبيا الى هذا التجمع تعني امكانية حدوث تغيير ملموس. أما بالنسبة الى المشرق العربي، فإن حدوث أي تجمع اقليمي فيه يعني تغييراً مهماً بالنسبة الى اسرائيل، ولكن درجة هذه الأهمية تختلف بحسب البلدان الداخلة في هذا التنسيق، وبحسب المجالات التي يغطيها التنسيق.

فاذا كان مقتضى الشرح السابق أن أهم تجمعين اقليميين بالنسبة الى اسرائيل هما، على التوالي حسب الأهمية، تجمع المشرق العربي، ثم تجمع وادي النيل (بشرط اضافة ليبيا اليه)، فإن هذا لا يعني فقط ثانوية الاضافة التي تترتب على التجمعين الآخرين (أي المغرب العربي، والخليج العربي) في ذاتها، بل هناك خطر أن يؤدي هذان التجمعان، في ظروف معينة، الى الانقراض من مجمل القوة العربية، اذا كان من شأن قيام أي منهما تغذية النزعات الاقليمية الضيقة، وازداد أوجه التمايز عن بقية البلدان العربية.

ويختلف الاسهام الذي سوف يؤفره كل تجمع، بالنسبة الى القوة العربية ضد اسرائيل. فتتجمع الخليج العربي يتوقف اسهامه على عوامل كثيرة، في مقدمتها التداعيات التي سوف تترتب على الحرب العراقية - الايرانية، والموقف المستقبلي لكل من العراق وايران من هذا التجمع، وطبيعة التوجهات السياسية لدى نظام الحكم القائم في السعودية وإحتمالات التغيير أو الاضطراب السياسي فيها، ومستقبل أسعار النفط. ان النقطة الأساسية بالنسبة الى التجمع الخليجي هنا، هي أنه على الرغم من أنه التجمع الاقليمي الوحيد القائم فعلاً في اللحظة الراهنة، فان مستقبله ما يزال محفوفاً بالمخاطر. فلقد نشأ هذا التجمع كنتيجة مباشرة لقيام الحرب العراقية - الإيرانية. وبعد تعثر المحاولات التي استمرت لما يقرب من عقد كامل لانشاء تنظيم للأمن الاقليمي في الخليج يجمع البلدان التي ضمها مجلس التعاون، اضافة الى العراق وايران، كان قيام الحرب بين هذين الأخيرين فرصة استغلتها السعودية لانشاء المجلس بالتعاون مع دويلات الخليج الخمس الباقية. ان هذا يعني ان مستقبل مجلس التعاون سوف يظل مرهوناً، الى حد بعيد، بتداعيات الحرب العراقية - الايرانية. وفي حين لم ينظر العراق بارتياح الى قيام المجلس، فإن ايران ايضاً تنظر اليه بعين الشك. في هذا الاطار، فان التوجهات الأساسية لمجلس التعاون الخليجي، انما ارتبطت بالدرجة الأولى بالتوجهات السعودية، مما يعني أن أي اضافة للقوة العربية ضد اسرائيل، من جراء قيام التجمع الخليجي، انما سوف ترتبط بالنظام السعودي، وبمصلحته المستقبلية. وفي ضوء حقيقة أن الاسهام الأساس للسعودية وللبلدان الخليجية في الصراع العربي - الاسرائيلي، انما كان من خلال الدعم «المالي»، فان ذلك يعني ان مستقبل الاضافة الخليجية للقوة العربية في هذا الصراع، انما يتوقف على مستقبل أسعار النفط، وعلى حجم العائدات النفطية لبلدان الخليج. على أننا اذا عدنا لتذكّر حقيقة أن بلدان الخليج سوف تتحمل، بشكل أو بآخر، نتائج الحرب العراقية - الإيرانية، بما في ذلك تكاليف «السلام»، إن تحقق، فإن هذا يعني أن بشر هذه الحرب سوف تظل لفترة غير قصيرة تبتلع فوائض أموال بلدان الخليج، وتضع حدوداً حقيقية على اسهامها المستقبلي في المواجهة ضد اسرائيل.

إن هذه القيود التي تضعها الحرب العراقية - الايرانية على مستقبل الاسهام الخليجي في الصراع ضد اسرائيل، تنطبق الى حد كبير على تجمع المشرق العربي. ان جزءاً أساسياً من أهمية المشرق العربي كتكتل اقليمي، بالنسبة الى اسرائيل، انما يرتبط بوجود العراق ضمن هذا التجمع المشرقي، بما يؤفره من دعم بشري ومادي لسوريا، وبما يؤمنه لها من عمق استراتيجي كبير. على أن عراق ما بعد الحرب العراقية - الايرانية لن يكون كعراق ما قبلها. فبعد انتهاء هذه الحرب، أيأ كانت النتيجة التي تنتهي اليها، سوف يظل الخطر الايراني - على الأقل في السنوات التالية مباشرة لانهاء الحرب - هاجساً حقيقياً للعراق، وللجيش العراقي، بحيث يجذّ بشدة من فعاليته، كاضافة الى القوة المشرقية العربية. والأمر نفسه

ينطبق على سوريا التي سوف تنمو تناقضاتها بسرعة مع ايران. وذلك كله يعني أن تجمع المشرق العربي سوف يكون مرشحاً للمواجهة ليس فقط ضد اسرائيل، وإنما أيضاً ضد ايران، بل ولن يكون موضع ارتياح من الدولة غير العربية الثالثة في المنطقة، أي تركيا. في هذه الحدود فقط، يمكن أن نتصور الوزن النسبي للخطر الذي ينطوي عليه تجمع المشرق العربي، بالنسبة الى اسرائيل. ويضاف الى ذلك، أن جانباً مهماً من الخطر العربي على اسرائيل، من خلال تجمع المشرق العربي، هو المتعلق بانضمام الأردن اليه. وربما يكون هذا الانضمام موضع محاولات عرقلة اسرائيلية، مباشرة وغير مباشرة للحد من تأثيراته السلبية عليها.

أما القول بأن تجمع وادي النيل لن يغير كثيراً من الوضع القائم، فيعود الى أهمية الوزن المصري في ذلك التجمع، الأمر الذي يجعل من تكتل السودان (بل وأيضاً الصومال وجيبوتي) مع مصر مسألة غير حاسمة في المواجهة ضد اسرائيل. ولكن الأمر يختلف، كما سبقت الإشارة، في حالة انضمام ليبيا الى التجمع. الا أنه يظل أن الاضافة التي يمثلها تجمع وادي النيل الى القوة العربية ضد اسرائيل إنما تتوقف، ابتداءً، على تطورات المعاهدة المصرية - الاسرائيلية. وإذا كان مقتضى التطورات المستقبلية، وفقاً للمشهد الأول (الاتجاهي)، هو أن تلك المعاهدة سوف تظل قائمة بما تتضمنه من التزامات على طرفيها، فإن الوضع الجديد، أي التكتل المصري - الليبي - السوداني في بعض الميادين على الأقل، سوف يكون محلاً للترقب الاسرائيلي.

أما تجمع المغرب العربي، فإن وزن القوة التي يضيفها الى الجانب العربي في الصراع ضد اسرائيل، وكما سبقت الإشارة، لن يكون، غالباً، كبيراً. إن هذا التقرير لا يستند فقط الى حقيقة «البعد الجغرافي» عن منطقة الصراع المباشرة، وإنما يستند أيضاً الى طبيعة توجهات النظم الحاكمة هناك حالياً من الصراع. ففي حين تتخذ الجزائر موقفاً متشديداً من اسرائيل، بحيث كانت أحد أعمدة «الصمود والتصدي»، فإن المغرب يتخذ موقفاً مغايراً تماماً، يصل الى حد التعامل السياسي المباشر مع اسرائيل، وهو ما تجسّد بكل وضوح في زيارة شمعون بيريز رئيس الوزراء الاسرائيلي الى المغرب. أما الموقف التونسي، فسوف يظل أقرب الى «الاعتدال» قبل أي شيء آخر، حتى مع وجود مقر جامعة الدول العربية هناك. من ناحية أخرى، فإن حدوث تجمع اقليمي مغربي لا بد وأن يكون مقترناً بحل مشكلة «الصحراء الغربية» على أساس الوضع الراهن، وهو ما يعني امكان الاقتراب أكثر تجاه «المغرب» وليس الابتعاد عنه. وهذا كله يضع حدوداً على امكانية الاضافة المغربية في الصراع ضد اسرائيل. من وجهة نظر التجمعات الاقليمية اذا، وفي ما يتعلق بتغيير التوازن الكيفي في القوة العربية ضد اسرائيل مستقبلاً، يمكن القول أن أهم عنصرين حاكمين في المستقبل هما:

- تداعيات الحرب العراقية - الايرانية، وكل الوقائع التي شهدتها منطقة الخليج

والشرق العربي في النصف الأول من الثمانينات، والتي سوف تضع حدوداً حقيقية على وزن التجمع الشرقي ضد اسرائيل.

- التنسيق أو عدم التنسيق بين تجمع المشرق العربي من ناحية، وتجمع وادي النيل من ناحية أخرى، أو حتى مصر فقط.

أما في ما يتعلق بالتنسيق الوظيفي على مستوى الوطن العربي ككل، فلا شك أن أخطر أشكال هذا التنسيق من زاوية الصراع العربي - الاسرائيلي، إنما تتمثل في احياء معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي القائمة رسمياً منذ ١٩٥٠ بين البلدان العربية، بخاصة في شقها العسكري أو أي تنسيق مشابه، كما سوف يرد تفصيلاً في البعد العسكري لمستقبل الصراع. على أن أي نوع من التنسيق الوظيفي العربي الشامل، سوف تكون له بدهاء تأثيراته غير المباشرة، على تحسين الوزن النسبي للقوة العربية في مواجهة اسرائيل. ويمكن، على سبيل المثال، الإشارة خصوصاً الى تلك المجالات التي تبرز فيها اسرائيل تقدماً ملموساً، مثل مجال الصناعات العسكرية، والبحث العلمي والتطوير التكنولوجي.

وفي حين يمكن رصد تأثيرات كثيرة متصورة للتنسيق الوظيفي، على القوة العربية في مواجهة اسرائيل، بخاصة من زاوية اعتباره خطوة على طريق الوحدة الشاملة، فإن أبرز الآثار المباشرة تتمثل في ما يتيح هذا النوع من التنسيق من استعادة مصر لمكانتها العربية، بشكل تدريجي وواقعي. وفي واقع الأمر، فإن وجود مصر سيكون حيوياً لضمان فعالية التنسيق في كثير من المجالات، مثل التصنيع الحربي، والتعاون في مجالات التعليم والثقافة والاعلام.

(٢) في ما يتعلق بالمحدد الثاني للصراع العربي الاسرائيلي، أي الطابع التحولي أو المتغير لطرفي الصراع، كاستجابة لتطورات ذلك الصراع أساساً، بخاصة من حيث اقتراب الطرفين من أهدافهما، يمكن القول أن المشهد الثاني محمّل بتأثيرات مهمة، مشيرة لتفجر الصراع بين الطرفين.

وابتداءً، يمكن القول أن مشهد «التنسيق» أو «الاصلاح» يعني، بحكم التعريف، أن الأثر الذي سيولده الصراع مع اسرائيل (وأيضاً مع القوى الأخرى الخارجية) لن يتمثل في مزيد من التجزئة والتفكك في الوطن العربي، كما في المشهد الأول، وإنما في سعي البلدان العربية الى الاقتراب أكثر من بعضها البعض، في شكل مشروعات للتنسيق الوظيفي العام أو الاقليمي. وكما سبق ذكره (في المبحث الثاني من الفصل الثاني) فإن الخطر الاسرائيلي كان، أكثر من أي مصدر آخر للخطر، دافعاً لعديد من أشكال التنسيق والتعاون بين البلدان العربية. وإذا كانت الخبرة الماضية توحى بأن هذه الأشكال للتنسيق والتعاون لم توضع، في معظم الأحوال، موضع التطبيق الفعلي، فإن مقتضى المشهد هو أن التحدي الاسرائيلي،

وغيره من التحديات الخارجية وعلى رأسها التحدي الإيراني إضافة الى عوامل أخرى، سوف تمارس تأثيرها في السنوات الأولى من فترة الاستشراف، بحيث تتولد استجابة عربية عند نقطة زمنية محددة (سنة ١٩٩٠ مثلاً، كما جاء في مقدمة هذا البحث) وذلك لدفع الوطن العربي الى نقل مشروعات التنسيق لديه الى حيز الفعل والممارسة. وبعد هذه النقطة، أي في معظم فترة الاستشراف بعد تلك النقطة (١٩٩٠ - ٢٠١٥) سوف تمكن هذه الأشكال «الفعلية» للتنسيق، الوطن العربي من اتخاذ المبادرات في علاقته بإسرائيل، بحيث يكف عن أن يكون، كما في المشهد الأول أي مشهد التجزئة، مجرد «موضوع» للمبادرات الاسرائيلية، وتوجهاتها التوسعية المتصاعدة.

وجوهر الاتجاه العربي نحو التنسيق الوظيفي (الفعل لا الشكلي) سوف يكون هو تجاوز البلدان العربية لمرحلة التوقع على ذاتها، «كدول» مستقلة في مواجهة بعضها بعضاً، الى مرحلة أكثر نضجاً، تدرك فيها أن الحفاظ على أمنها - بل ومجرد وجودها - سوف يكون رهناً بتكاتفها مع بعضها البعض، على الأقل في ميادين محددة، سواء على المستوى الاقليمي أم المستوى العربي الشامل.

في ما يتعلق بالتنسيق الاقليمي، وامتداداً لما سبق ذكره، فإن رد الفعل الاسرائيلي لمبادرات التعاون الاقليمي المختلفة، سوف يختلف تبعاً لمخاطرها المباشرة عليها، فاذا كان أخطر هذه المبادرات هو المتعلق بتجمع المشرق العربي، فإن التنسيق بين تجمع المشرق العربي، وتجمع وادي النيل، أو حتى «مصر» فقط، سوف يعني بالنسبة الى اسرائيل دق ناقوس الخطر، واتخاذ موقف الاستعداد والتأهب. وفي حال تحييد الخطر الإيراني في التسوية المستقبلية للحرب العراقية - الإيرانية، فإن ذلك سوف يحمل مزيداً من الاحتمالات بأن تنظر اسرائيل الى التنسيق بين تجمع المشرق العربي، وتجمع وادي النيل (أو مصر فقط) كمبرر لشن الحرب الوقائية، التي تتجه أساساً الى المشرق العربي (سوريا في الدرجة الأولى)، بما يعنيه ذلك أيضاً من تحذير لمصر، واختبار لعمق التنسيق بين الجانبين. أما اذا ظل الخطر الإيراني مستنزفاً جل الطاقات الدفاعية للعراق وسوريا، فربما لا ترى اسرائيل في التنسيق بين تجمعي المشرق العربي ووادي النيل (أو مصر فقط) سبباً لشن الحرب.

أما التنسيق المشرقي - الخليجي، فإن فعاليته في الصراع ضد اسرائيل سوف ترتبط، كما سبقت الإشارة، بتأثيرات الحرب العراقية - الإيرانية على مجمل التطورات في الخليج وفي المشرق العربي. وعلى سبيل المثال، فإن انتصار ايران على العراق، سوف يجعل منها الدولة الكبرى الاقليمية في منطقة الخليج بلا منازع، الأمر الذي يؤهلها، تالياً، للقيام بمهمة حفظ «الأمن»، وحماية المصالح الدولية هناك، ويؤدي هذا الى التقليل من أهمية الصراع العربي - الاسرائيلي من المنظور الدولي، لأن أحد المصادر الأساسية لأهمية ذلك الصراع في الماضي، انما كانت بسبب قربها من منطقة الخليج، وبسبب الخوف من تأثيراته السلبية عليها. ولكن

تداعيات الحرب العراقية - الايرانية تكون قد أثبتت أن المصادر «الخليجية» لتهديد أمن الخليج أخطر من تهديد الصراع العربي - الاسرائيلي، ويكون بروز ايران في هذا السياق بمثابة الحل الأمثل لمشكلة الحفاظ على أمن الخليج . ويؤدي اضعاف الاهتمام الدولي بالصراع العربي - الاسرائيلي الى اتاحة الفرصة لاسرائيل (المتفوقة) لمزيد من الهيمنة في المنطقة، خصوصاً بالتنسيق المباشر أو غير المباشر مع ايران.

إن مؤدى ما سبق كله، أن أي تجمع اقليمي خليجي أو مشرقي في المستقبل المنظور، إنما سوف يتم في مواجهة كل من التحدي الايراني، والخطر الاسرائيلي معاً. فإذا كان مضمون المشهد الثاني هو أن التنسيق داخل كل من هذين التجمعين وفي ما بينهما، سيكون تنسيقاً حقيقياً وفعالاً، فإن هذا سوف يستفز، مرة أخرى، اسرائيل، ويدفعها الى الترقب والتأهب، ولكن ليس بالدرجة التي تحدث مع التنسيق المشرقي - المصري .

على أن هذا التصور لمسار الصراع العربي - الاسرائيلي، في ظل مشهد التنسيق (الوحدات الاقليمية) يقوم على افتراض أن ذلك التنسيق العربي سوف يكون حافظاً لتصعيد الصراع مع اسرائيل، مما يثير، نظرياً، الاحتمال الآخر وهو أن يكون هذا الصراع حافظاً لتهذئة (وليس لتصعيد) الصراع. وفي ظل معطيات الموقف العربي الراهن، يمكن القول أن مصير هذا الاحتمال الآخر، مرتبط الى حد بعيد بتطورين متوازيين: أولهما، أن يتمتع تجمع المشرق العربي (العراق وسوريا والأردن أساساً) بفاعلية يمكن أن تشكل تهديداً لاسرائيل، نتيجة تحييد الخطر الايراني أو حتى نتيجة حدوث تحول جذري في علاقات ايران بجيرانها العرب. ثانيهما: أن تظل مصر (أو تجمع وادي النيل) بعيدة عن هذا التجمع، ولا يحدث تنسيق بينهما، بل، على العكس، ان تشهد العلاقات المصرية الاسرائيلية نمواً بدرجة أو بأخرى.

إن مثل هذه التطورات يمكن أن تنعكس، بالنسبة الى الفلسطينيين، في شكل تدعيم لمنظمة التحرير الفلسطينية، نتيجة تقليل أسباب الانقسام بين فصائلها (وهي الأسباب التي تعكس الانقسامات العربية)، والحفاظ على حد معقول من الروح المعنوية العربية في الأرض المحتلة. أما بالنسبة الى اسرائيل، فإن تبلور النسي للقبوة العربية في المشرق، يمكن أن يدعم مواقع القوى الأكثر اعتدالاً نسبياً داخل النخبة الحاكمة فعلاً، أي مواقع حزب العمل والمعارض عموماً، على أساس فداحة الخسائر التي يمكن أن تنجم عن المواجهة المسلحة (بسبب المقاومة العنيدة المحتملة على الجبهة الشرقية، وفقدان العلاقات الطيبة مع مصر، بل وامكانية تحول مصر الى جانب التكتل المشرقي في حالة نشوب الحرب) ويفترض هنا ان تلعب مصر دوراً «للساطة»، بمعنى ما بين اسرائيل وعرب المشرق. وسوف ينعكس هذا كله، على نمط التسوية المتصور، في المشهد.

أما في ما يتعلق بالتنسيق الوظيفي الشامل، على مستوى الوطن العربي، فإن رد الفعل

الاسرائيلي، سوف يتوقف على نوعية ذلك التنسيق. ولا شك أن التنسيق العسكري، والتنسيق في التصنيع الحربي، والتنسيق في قضايا الطاقة خصوصاً الطاقة النووية، سوف يكون في مقدمة الأهداف التي يتجه إليها التحرك الاسرائيلي المضاد، بما في ذلك ضرب مراكز الفاعلية في ذلك التنسيق.

على أن موقع مصر من هذا التنسيق، وتطورات العلاقات المصرية - الاسرائيلية، سوف تكون ذات أثر مهم على مسار الصراع، ربما على نحو معاكس. فابتعاد مصر عن التنسيق الشامل، سوف يقلل بشدة من فاعليته، وينعكس، تالياً، على ردود الفعل الاسرائيلية. أما اذا استطاعت مصر الجمع بين المشاركة في تنسيق وظيفي عربي ما، وبين استمرار العلاقات وتصاعدها مع اسرائيل، فإن هذا سيعني «تسريب» اسرائيل لمزيد من الانغماس في المنطقة. وبعبارة أخرى، فسواء لم تشارك مصر في التنسيق الوظيفي، أم شاركت فيه، فإن ذلك سيوفر شرطاً محدداً لتهدئة الصراع مع اسرائيل، مما ينعكس على التسوية المتصورة للصراع.

(٣) فاذا انتقلنا الى المحدد الثالث لمستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي، أي، تأثيرات البيئة الدولية، فإن هذه التأثيرات، في ظل ظروف التنسيق الوظيفي (الشامل أو الاقليمي) سوف تختلف عنها في ظل ظروف التجزئة. وجوهر هذا الاختلاف، هو أن المنطقة العربية ستفك عن الاكتفاء بموقف رد الفعل، والاستسلام للتأثيرات الدولية، وتنتقل الى محاولة مواجهتها من خلال التنسيق الوظيفي، الأمر الذي يحد من فاعلية هذه التأثيرات. ووفقاً للخبرة الماضية، فإن المحاولات الناجحة للتنسيق الوظيفي العربي، بما انطوت عليه من تهديد لمصالح القوى الأجنبية، انما سببت قلقاً حقيقياً لتلك القوى، بل وولدت ردود فعل معاكسة للحد من فاعلية ذلك التنسيق. وأبرز الأمثلة، هنا، تتمثل في الحظر النفطي الذي فرضه العرب إبان حرب تشرين الأول/اكتوبر ١٩٧٣. لقد سعى العرب، من خلال الضغط على القوى الدولية المساندة لاسرائيل، وبخاصة الولايات المتحدة، الى ارغام هذه القوى على الكف عن مساندة اسرائيل، بل والضغط عليها للتوصل الى تسوية مقبولة عربياً. على أن رد الفعل الأمريكي والأوروبي على ذلك الضغط العربي، لم يتمثل في الخضوع له والضغط على اسرائيل، وانما في مواجهته مباشرة، ومحاولة ابطال مفعول «سلاح النفط» الذي تولد بفعل التنسيق العربي. وقد تم ذلك بأساليب عدة، كان أهمها انشاء جبهة الدول المستهلكة للنفط، وترشيد استخدام النفط، ثم وصل الأمر الى التهديد باحتلال منابع النفط في حالة تكرار الحظر. وكانت تلك، في الواقع، هي الظروف التي نشأ في ظلها الحديث عن انشاء قوة للانتشار السريع في منطقة الخليج.

إن مؤدى هذه الخبرة، هو انه بمقدار ما سيكون التنسيق الوظيفي ماساً بمصالح قوى خارجية مسيطرة في المنطقة، فانه سيستنفذ تلك القوى لمواجهته، ولكن فاعليته، بالنسبة الى

زيادة رصيد القوة العربية، تظل مؤكدة، طالما تم بنجاح وعلى مدى زمني طويل. وفي المقابل، فإن هذا النجاح في التنسيق الوظيفي، يقدم فرصة مشجعة للقوى الدولية الخارجية المؤيدة للجانب العربي، كي تستمر في موقفها. وفوق ذلك، فإن مقدرة البلدان العربية على المبادرة بحد معقول من التنسيق في ما بينها لمواجهة المخاطر الخارجية، انما تتمكّن من مواجهة الآثار «المفتنة» للقوميات والدول، التي يمكن ان تسفر عنها التطورات المستقبلية، مثل التطورات في عالم الاتصال، وتكنولوجيا ما بعد المجتمع الصناعي، فضلاً عن تأثير الشركات متعددة الجنسيات... الخ، كما سبقت الاشارة.

على أن هذا الأثر للتنسيق الوظيفي، على العوامل الخارجية المؤثرة على الصراع العربي - الاسرائيلي، يبدو في صورة مختلفة، إذا نظرنا اليه من زاوية التجمعات الاقليمية. فقدرته تجمع الخليج العربي (القائم فعلياً الآن) على الحد من التأثيرات غير المؤاتية للبيئة الدولية على الصراع العربي - الاسرائيلي، سوف تتأثر في جزء من فترة الاستشراف بتداعيات الحرب العراقية - الايرانية، الأمر الذي يجعلها في موقف السعي الى الحصول على ضمانات من القوى الدولية للحفاظ على أمنها الاقليمي، أكثر منها في موقف الاستقلالية ازاءها. وفي واقع الأمر، فإن ضالة القوة الفعلية للتجمع الخليجي ستجعله في حاجة دائمة الى المساندة من خارجه. فإذا كان توفير تلك المساندة من القوى الدولية التي ارتبطت مصالحها تاريخياً بالخليج، أي الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، مما لا يتسق مع مجمل المصالح العربية في مواجهة اسرائيل، فسوف يتعين على «قوة عربية» أن تقدم البديل من تلك المساندة. وفي واقع الأمر، فإن القوة التي يمكن ان تقدم تلك المساندة، بالحد الأدنى من «الحساسيات»، سوف تكون هي «مصر»، أو تجمع «وادي النيل».

أما تجمع المشرق العربي، فسيكون، أكثر من أي تجمع آخر، مثيراً لشوjs وترقب القوى الاقليمية والدولية. على المستوى الاقليمي، تتمثل هذه القوى المتربة بداهة في ايران وتركيا، كما سبقت الاشارة. أما على الصعيد الدولي، فإن هذا التجمع سيكون أقدر على اجتذاب وتوظيف الدعم السياسي والعسكري من الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية عموماً، خصوصاً وأن التوجه نحو تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفياتي (أو على الأقل عدم اهماله) تظل له مبرراته القوية لدى وحدات التجمع أي العراق وسوريا والأردن. وفي حين أن هذا التجمع سيكون قادراً على تطوير علاقات طيبة مع أوروبا الغربية (خصوصاً فرنسا)، فإن فعاليته في مواجهة اسرائيل أو تهديده لها، ستكون هي المحدد لشوjs الولايات المتحدة حياله، أي بما يتجاوز قدرته على توظيف علاقته بالولايات المتحدة في مواجهة اسرائيل.

أما بالنسبة الى تجمع المغرب العربي، فإن الرصيد الذي يمكن ان يتكون له في علاقاته الدولية، بعد قيامه، يصعب أن ينظر اليه كرصيد اضافي مباشر للقوة العربية في مواجهة

اسرائيل، اللهم الا من خلال المقدرة على حشد المزيد من الدعم السياسي، بخاصة في المحافل الدولية، وفي اطار منظمة الوحدة الافريقية.

ب - مستقبل الصراع عسكرياً في ظل التنسيق الوظيفي^(*)

اتساقاً مع ما سبق ذكره، سيكون تجمع المشرق العربي ذا تأثير مباشر على نشوب الصراع المسلح في الصراع العربي - الاسرائيلي وعلى سير نتيجته، وان قيمة باقي التجمعات تكون بقدر ما يمكن أن تعاون به هذا التجمع، وأن بدء التنسيق العسكري الجوي بين سوريا والعراق يمكن أن يكون الدافع الى نشوب الحرب بمبادأة من اسرائيل، وقبل أن تكتمل عناصر التنسيق الجدي. وهكذا فان التوازن العسكري بين هذا التجمع واسرائيل يختلف عند بدء التجمع، عنه بعد فترة من ذلك، على الاقل هذه الفترة عن خمس سنوات، وأن يبدأ التنسيق العسكري الجدي المعلن متأخراً كثيراً عن بداية اقامة هذا التجمع، كما يفضل التهديد له في بعض العناصر غير الرئيسة حتى قبل قيام التجمع نفسه، مثل تبادل المعلومات عن اسرائيل، وتوحيد المصطلحات، وتشابه التنظيمات، ومصادر العلم العسكري. وهنا، يلاحظ تقارب كثير من العناصر وبخاصة الاسلحة والذخيرة والتنظيمات في كلا البلدين، بينما تختلف مصادر العلم العسكري.

يعتبر التعاون الاقتصادي والعلمي والاجتماعي بين البلدين مصدراً مهماً لتحسين الميزان العسكري للتجمع نتيجة لارتفاع الناتج المحلي العام للعراق، وكذلك خبرته في مجال الصناعة التمويلية، وفي مجال العلوم النووية واقامة مفاعل نووي. كما أن الموقع الجغرافي لسوريا، وبخاصة موقعها على البحر المتوسط، وخبراتها المكتسبة من الاحتكاك بالدول المجاورة وأوروبا ورصيدها العلمي تشكّل عناصر اضافية الى الميزان العسكري، وتفيد سوريا العراق أكثر في المجال العسكري، من حيث المعلومات عن العدو وخبرة الاحتكاك به. ولا شك أن امكانات اقامة صناعة مشتركة تزيد من احتمالات التصنيع الحربي المشترك، مما يقلل من اعتماد التجمع على القوى الخارجية.

اذا اضعنا امكان اشتراك القوات العراقية من خلال الاردن، فان ميزان القوى هنا يتغير، اذ لا يصبح الأردن موضع ضعف في هذا التجمع الاقليمي، بل يضيف اليه طاقة وصفية تؤدي أولاً الى تشتيت الجهود الاسرائيلية على أكثر من اتجاه، وتتيح امكانية توجيه الضربات الى المراكز الاستراتيجية الحيوية في اسرائيل.

الا أن توازن القوى بين العرب واسرائيل، اذا اعتبرنا تجمع المشرق العربي مثلاً

(*) كتب هذا الجزء اللواء طلعت مسلم.

للعرب، لا يمكن ان يكون حاصل جمع القوات العراقية والسورية، اذ سيبقى الجزء الأكبر من القوات البرية العراقية، وكل قوات العراق البحرية، وجزء من قواته الجوية في مواجهة إيران، حتى لو افترضنا توقف الحرب العراقية - الايرانية، بل والوصول الى تسوية سلمية، اذ سيبقى بعض أسباب هذه الحرب كامنة لدى الجانبين، كما أن من المحتمل أن تسعى الكتلة الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الى اثارة الصراع مرة أخرى بين إيران والعراق. أي أن التجمع لا يضيف القوات العربية فقط الى بعضها، بل أنه يمكن أيضاً أن يضيف الامداد، وهنا نذكر انه في دراسة دول الجوار الجغرافي، تقل احتمالات التدخل التركي المباشر في حالة نشوب الصراع المسلح مع اسرائيل نتيجة لشدة تعرضها للضغط العسكري السوفياتي - الا أن هذا قد لا يمنع من استخدام أراضيها لاثارة مشاكل أمنية قرب الحدود بواسطة عناصر سورية معارضة أو طائفية، مما يضطر سوريا الى الاحتفاظ بقوة احتياطية محدودة لمواجهة متطلبات حماية العمق السوري. وهكذا فإن الاضافة الحقيقية الى القوات السورية تكون في مجال القوات الجوية، وهي عامل مهم ومؤثر ويسمح للقوات السورية بتحقيق تفوق محدود على اسرائيل، بالتعاون مع باقي الدول في هذا التجمع، الا أن اسرائيل تظل متفوقة بحرياً، وذلك حسب الجدول المرفق، وكذلك في المجال النووي وصناعة الاسلحة.

يتأثر هذا الميزان كثيراً بمدى توافر الاحتياجات اللازمة للأسلحة من ذخيرة وقطع غيار ووسائل الاستطلاع والقيادة والسيطرة والاتصالات. واذا كان من الصعب التنبؤ بمدى توافرها، الا أن مسار التسليح والصراع يوحي باحتمال ان تكون اسرائيل متفوقة في هذا المجال بهامش محدود، نتيجة لطبيعة الاتفاق الاستراتيجي بينها وبين الولايات المتحدة. كما ان الصناعة العسكرية الاسرائيلية، على رغم ما تلاقيه من صعوبات، ستكون أقدر على تزويد اسرائيل بعض احتياجاتها، سواء من الاحتياجات اللازمة للأسلحة وقطع الغيار أم وسائل الاستطلاع والقيادة والسيطرة والاتصالات، بخاصة باستفادتها من الاشتراك في برنامج مبادرة الدفاع الاستراتيجي الامريكية.

(١) التنسيق الجماعي

سبق أن توضّح تأثير التنسيق الجماعي على سير الصراع. أما بالنسبة الى ميزان القوى، فإن هذا التنسيق، إن لم يكن في المجال العسكري، فهو يمكن ان يضيف الى الميزان العسكري بعض العناصر التي قد تغير من ميزان القوى. ويأتي في مقدمة ذلك، تأثير التنسيق الجماعي في المجالات الاقتصادية والعلمية، اذ أن هذا التنسيق كفيل برفع مستوى القاعدة الصناعية والعلمية اللازمة لانتاج كثير من القوات اللازمة للقتال، كما أن ذلك يمكن ان يؤدي الى ارتفاع المستوى العلمي للجند والقادة مما يمكنهم، أولاً، من استيعاب الأسلحة المتقدمة التي

يتوقع أن تظهر خلال فترة الاستشراف، كما يمكنهم، ثانياً، من استخدام الاسلحة والقوات بكفاءة أكثر، مما يضيف قدرات جديدة الى الميزان العددي للقوة العسكرية. على أننا يجب أن نضع في الاعتبار أن نتائج التنسيق الجماعي ستحتاج الى زمن طويل نسبياً حتى تظهر نتائجها السابقة، وتقدر هذه الفترة من ١٠ الى ١٥ سنة على الأقل.

قد يؤدي التنسيق الجماعي، في بعض المجالات، الى التنسيق الجماعي العسكري، وقد يبدأ هذا في مجال الصناعة العسكرية، وفي مجال التكنولوجيا النووية، وهو ما يمكن أن يكون نواه لبناء قوة عسكرية عربية متجانسة، سواء من حيث المستوى العلمي أم من حيث المعدات المستخدمة أم التنظيم العسكري للقوات، وأسس بناء القوات المسلحة، مما يمكن أن يقلل من التباين الواضح في بناء القوات المسلحة للبلدان العربية حالياً، لا لسبب الالسيادة منطق التجزئة، وغلبة المصالح القطرية أو التنظيمية، واختلاف المفاهيم بين القيادات، سواء السياسية منها أم العسكرية. وهكذا، فإن التنسيق الجماعي يؤدي الى تغيير ميزان القوى في الصراع العربي - الاسرائيلي على المدى البعيد، وبخاصة عندما يصل هذا التنسيق الى المستوى العسكري الذي هو في النهاية أقرب الى مشهد الوحدة العربية منه الى التنسيق الجماعي، نظراً لتبعية الاستراتيجية العسكرية للسياسة.

أما في ما يتعلق بنموذج الحرب المقبلة، في ظل مشهد التنسيق العربي، فيمكن القول، في ما يتعلق بالتنسيق على مستوى التجمعات الاقليمية، انه ليس في التجمعات المفترضة تجمع يمتلك تأثيراً على الصراع مع اسرائيل بدرجة كافية، ما خلا المشرق العربي، الذي قد يؤثر مباشرة على نشوب الصراع العربي - الاسرائيلي وسيرو ونتيجته، بينما تكون قيمة باقي التجمعات بقدر ما يمكن ان تعاون هذا التجمع. على أنه يوضع في الاعتبار أن احدي الدولتين الرئيسيتين في هذا التجمع، والتي تعطي له وزنه، وهي العراق، تحتاج أولاً الى انهاء الصراع المسلح بينها وبين ايران، وتحتاج ثانياً الى فترة لاعادة بناء الدولة والاقتصاد الوطني والقوات المسلحة وتنظيمها بما يمكنها من الاشتراك بفعالية في هذا التجمع، وحتى يكون لهذا التجمع قيمة عسكرية ترتبط باضافة عدد كبير من القوات التي اكتسبت خبرة القتال. كما ان هذا التجمع الاقليمي الذي يتخذ بالدرجة الأولى صورة سياسية، ويركز على بناء قاعدة تكنولوجية وصناعة عسكرية مولدة اضافة الى التخطيط الاقتصادي، سيتطلب زمناً وجهداً طويلاً لبناء أجهزته، وحل مشاكله وحل مشاكل القيادة (بخاصة في تجمع المشرق العربي) مما يؤخر ظهور نتائجه العسكرية، وإن كانت في النهاية ستكون افضل. وتختلف قيمة وتأثير هذا المجتمع كثيراً، عندما يتعاون مع تجمع وادي النيل (التكامل المصري السوداني) أو مع مصر على الأقل.

يتأثر نموذج الحرب المقبلة بتجمع المشرق العربي، في أن بدء التنسيق العسكري بين سوريا والعراق جدياً، يمكن ان يكون الدافع الى نشوب الحرب بمبادأة من اسرائيل، وقبل

أن تكتمل عناصر التنسيق الجدي بين عناصر هذا التجمع، ويحدد من أهداف العمليات الاسرائيلية بدرجة كبيرة، اذ يكون الهدف هو تدمير القوات السورية على خط الجبهة، وفي حدود الهدف المباشر جبل أم الدرج، جبل الدروز جبل الشيخ، ثم الاستعداد لصدهجمات القوات العراقية القادمة من العراق. الا أن اشتراك القوات الجوية العراقية، منذ بداية الحرب تقريباً، وبخاصة بالتعاون مع الأردن، يحدّ من قدرة القوات الجوية الاسرائيلية في العمل بحرية ومعاونة قواتها، كما ان عمل الصواريخ العراقية أرض أرض من الأراضي الأردنية، يمكن أن يؤثر بدرجة كبيرة على قدرة العمل في القواعد الجوية الاسرائيلية الرئيسية وحرية.

ونتيجة لذلك أيضاً، تقلّ قدرة القوات الاسرائيلية على استخدام قوات الابراز الجوي، كما تقلّ قدرتها على شلّ مراكز القيادة والسيطرة، وان كان ذلك سيستدعي عمل عناصر الحرب الالكترونية بأقصى طاقة، وقد يتم امدادها أثناء الصراع بالوسائل الأكثر تطوراً من الولايات المتحدة الامريكية. ويؤثر هذا الوضع على طبيعة الصراع، اذ يزداد عنفاً ويتسم بالتغير السريع والقتالي للموقف نتيجة تدخل قوات جديدة، ويبطئ من معدلات التقدم الامريكية، ويزيد من احتمالات التهديد باستخدام أسلحة التدمير الشامل، ويدعو الولايات المتحدة الامريكية الى سرعة التدخل لايقاف الصراع بمجرد ظهور بوادر الفشل الاسرائيلي، بعد أن تكون قد قامت بامداد اسرائيل بأقصى طاقة لمنع هزيمتها، بينما يقتصر الدور السوفياتي على امداد كل من سوريا والعراق بالأسلحة والذخيرة، كما قد يقوم بامداد الاردن، اذ أنه غالباً ما سينضم الى هذا التجمع على رغم اختلاف نظم الحكم. ويظهر التهديد النووي الاسرائيلي، واحتمالات الاقتراب من مواجهة نووية من الدول العظمى، نتيجة للصراع من دون الوصول إليه، أحد الملامح الرئيسية للنزاع، ولا يختلف استخدام الأسلحة كثيراً الا في حالة التعاون مع التكامل العربي والسوداني.

اذا أمكن لبلدان هذا التجمع أن تحقق تنسيقاً مناسباً قبل بدء الهجوم الاسرائيلي، فان ذلك، على عكس السياسة العسكرية الاسرائيلية، قد يدعوا اسرائيل الى اتخاذ موقف دفاعي، والاستعانة بقوى دولية لمنع التجمع من الهجوم عليها، والى العمل على تفكيك هذه الروابط والتجمع، سواء من الداخل أم من الخارج. فاذا فشلت هذه الجهود، فيمكن أن يبدأ تجمع المشرق العربي - بعد ضمان عدم تدخل ايران والاحتفاظ بقوات مناسبة على الحدود الايرانية - في الهجوم بهدف استعادة الأراضي المحتلة من سوريا ولبنان بعد ٤ حزيران/يونيو ١٩٦٧. ويتخذ الهجوم الصورة السابقة نفسها تقريباً، مع زيادة الاعتماد على قوات المشاة والمشاة الميكانيكية المتوافرة لدى أطراف التجمع، وتركيز الضربات الجوية والصاروخية على القواعد الجوية والصاروخية والبحرية الاسرائيلية. والتنسيق يبدأ بأعمال القتال النظامية للجيش، والأعمال الفدائية والمحدودة، كما قد يشمل الهجوم الاستراتيجي على عمليات

محدودة منفصلة ضد الأهداف النووية الاسرائيلية، وبعض مراكز السيطرة الاستراتيجية. ونتيجة لكثافة القتال وعنفه، فإن الزمن الذي سيستغرقه الصراع الشامل يقلص الى أسبوع أو أقل، ويزداد تدخل القوى العظمى للمحافظة على كيان اسرائيل، وتزداد احتمالات المواجهة بينها، بينما تزداد احتمالات تعاون البلدان العربية الأخرى، وبخاصة بلدان الخليج في المجال الاقتصادي واستخدام النفط، ويظل التعاون العسكري بواسطة القوات محدوداً أو رمزياً، فيما يقتصر تعاون الدول الافريقية على تعاون ليبي - جزائري بقوات بحرية محدودة، أو يتوقف عند التأييد السياسي والمعنوي. وعلى رغم أن قوات التجمع لن تستطيع غالباً أن تتعدى الحدود الاسرائيلية، الا أن تأثير الصراع المسلح سيبدو واضحاً للمصلحة العربية في أي محاولات للتسوية بعد ذلك، مما يدعو اسرائيل الى الماطلة والتسويق حين خلق ظروف أفضل بالنسبة اليها.

تزداد قوة هذا الاحتمال بدرجة كبيرة، لو حقق هذا التجمع تعاوناً مسبقاً مع مصر أو التكامل المصري السوداني، اذ سيفتح المجال واسعاً أمام تجمع الشرق العربي لتحقيق أهدافه، في حين تتمكن مصر من التخلص من غالبية القيود العسكرية المفروضة على الوجود العسكري المصري في سيناء أو كلها. الا أن القوات الأمريكية المشتركة في القوات متعددة الجنسيات، قد تلعب دوراً في حرمان مصر من تحقيق هذه النتيجة. وعموماً، فإن احتمالات تدخل الولايات المتحدة الأمريكية، بواسطة قواتها في مشهد قوات القيادة المركزية والأسطول السادس الأمريكي وبعض الفئتين العسكريين الموجودين في السعودية لصالح اسرائيل تبقى كبيرة. في حين تقتصر المعاونة السوفياتية على كل من سوريا والعراق، وربما ليبيا التي يمكن أن تمتد مصر ببعض الأسلحة أثناء الصراع. أما من الناحية العربية، فتزداد احتمالات تعاون البلدان العربية، بما فيها ليبيا والجزائر خصوصاً. كما يمكن أن تشارك اليمن الديمقراطية في محاولة ممارسة حق التنسيق في مضيق باب المندب، سواء بإمكاناتها أم بمعاونة مصريين. كما تزداد، في مثل هذه الحالة، احتمالات التهديد باستخدام الأسلحة النووية أو استخدامها فعلاً، مما يزيد من احتمال حدوث مواجهة نووية عالمية. الا أن نتائج الصراع المسلح، في هذه الحال، تضع أساساً قوية لمستقبل الصراع، ومحاولات التسوية لمصلحة العرب.

وقبل أن تنتهي دراسة تأثير التجمعات الاقليمية على مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي، لا بد من الإشارة الى أن التجمع الاقليمي الرائد والمؤثر على الصراع العربي - الاسرائيلي يخرج عن نطاق التجمعات الاقليمية الواردة في اطار البحث، وهو ذلك التجمع الذي يجمع كلا من مصر وسوريا على الأقل، ويتسع لاضافة العراق وليبيا، والأردن ولبنان، كما يمكنه التنسيق مع تجمع مجلس التعاون الخليجي واليمن، والمغرب العربي، وهو تجمع يمثل أكبر تحشيد للقوى العربية، حيث يتسم تجمع الشرق العربي بملاصقته لأكبر قوتين من قوى الجوار الجغرافي وهما تركيا وايران، وأخطر هذه القوى وهي ايران. ويؤدي هذا التجمع

الى صورة مشابهة للتصور الأخير المستند الى تعاون التكامل المصري - السوداني، مع تجمع المشرق العربي، الا أنه يزيد من الترابط والتنسيق بين أعماهما، بحيث لا يتوقف دور مصر خصوصاً، والدور العربي الافريقي عموماً، على المعاونة العاجلة أو المحدودة، بل يمتد الى الاشتراك في التخطيط منذ البداية والمساهمة الشاملة والفعالة في الصراع المسلح، وهو يزيد في النهاية من احتمالات تحرير كل من الضفة الغربية وقطاع غزة أثناء الحرب أو بعدها، والتأثير عموماً على الأوضاع العربية في فلسطين.

وفي ما يتعلق بالشكل الثاني، أي التنسيق الجماعي، فان التنسيق الجماعي العربي لا يؤثر على الصراع المسلح العربي - الاسرائيلي، الا في حالة التنسيق الجماعي لبناء قدرة عسكرية عربية موحدة، أو في حالة التنسيق الجماعي العربي حول النفط بدرجة أقل، وفي حالة استخدام الولايات المتحدة لاسرائيل لتحقيق أهدافها المباشرة. الا ان نتيجة الصراع ستوقف على التنسيق الجماعي العسكري.

لا يعتبر التنسيق الجماعي العسكري لجميع البلدان العربية نقطة تحول رئيسة ومباشرة لنشوب الصراع المسلح على نطاق واسع (الحرب الشاملة) الا بقدر ما يتم بين البلدان العربية الرئيسية، اذ ان التنسيق الجماعي للقوات المسلحة العربية في جميع البلاد العربية سيحتاج الى زمن وجهد أطول. وتزداد احتمالات فشل التنسيق عن نجاحه نظراً لتعدد أطراف التنسيق، بحيث يمكن أن تؤخر احدى البلاد العربية عملية التنسيق الجماعي كله. وعموماً، فان هذا يرتبط أولاً بما يمكن أن يكون قد اتخذ من خطوات في هذا المجال، قبل اتخاذ القرار النهائي بهذا التنسيق، والذي يشتمل بالضرورة على انشاء قيادة عسكرية موحدة بأجهزتها، ووضع أسس لبناء القوات المسلحة واستراتيجية وعقيدة عسكرية مشتركة، واجراء تدريب مشترك. كما أن ذلك يرتبط بمدى جدية وتقدم أعمال التنسيق العسكري. وتعتبر جدية وبدء تقدم أعمال التنسيق العسكري الجماعي العربي، حافزاً كافياً لبداية الحرب بواسطة اسرائيل لتجهض المحاولة العربية لقلب الميزان الاستراتيجي لمصلحتها، قبل أن تصبح حقيقة واقعة. وتأخذ الحرب الاسرائيلية في هذه الحالة، طابع العمليات المحدودة أكثر من الحرب الشاملة، ويكون هدفها تدمير القوة العسكرية لبلدين عربيين رئيسيين على الأقل هما مصر وسوريا، مع احتمال تدمير جزئي للقوات العراقية والليبية والعمل على تقييد القوة السعودية، بالتعاون غير المباشر مع الولايات المتحدة الأمريكية. وتشتمل العمليات المحدودة على ضربات جوية شاملة تتركز على القوات الجوية السورية والمصرية وقواعد الصواريخ أرض أرض وصواريخ الدفاع الجوي، والتهديد باستخدام الأسلحة النووية ضد عواصم البلدان والمراكز الصناعية والاقتصادية والتعددية المهمة، والنشاط النووي العربي عموماً، وان تستغل نجاح هذه الضربات في محاولة لفرض شروطها على البلدان العربية، من دون الاضطرار قدر الامكان الى الهجوم البري لاتمام النصر العسكري، مع احتمال اللجوء الى

عمليات برية محدودة لتأكيد مصداقية التهديدات.

في حالة امكان التنسيق الجماعي العسكري الجوي، قبل أن تقوم اسرائيل باجهاض هذه القدرة العسكرية العربية الموحدة فان هذا يمكن أن يدفع العرب الى القيام بهجوم استراتيجي عام بهدف تحرير الأرض المحتلة. ولا تختلف طبيعة الحرب كثيراً، في هذه الحالة، عن حالة التجمع الاقليمي المقترح بين تجمع المشرق العربي ووادي النيل (التكامل المصري السوداني) الا أنه يسهل من المهمة العربية، ويزيد من احتمالات التدخل الأجنبي، واحتمالات التغير المختلفة الناتجة عن تعدد الأطراف. ولكنه في النهاية يحقق للجانب العربي أفضل النتائج، ويصعب المهمة على التدخل الأجنبي الذي تزايد احتمالاته، وهو قد يصل بالصراع العربي - الاسرائيلي الى نهاية تعيد كل الحقوق العربية، وتحفظ للاسرائيليين حقوقهم في أن يكونوا مواطنين متساوين في البلدان العربية، بما فيها فلسطين.

(٢) التسوية في ظل التنسيق العربي

سوف نتوقف التسوية، في ظل مشهد التنسيق الوظيفي، على تطور العوامل الحاكمة أو المحددة للصراع العربي - الاسرائيلي، في اطار افتراضات ذلك المشهد كما سبقت الاشارة، أي تطورات القوة الذاتية العربية والاسرائيلية، وطبيعة التغيرات التي يمر بها طرفا الصراع، بخاصة تحت تأثير مجريات الصراع ذاته، ثم التطورات في البيئة الدولية.

ولقد خلص المبحث السابق الى أن التسوية، في ظل استمرار الظروف العربية الراهنة، انما تتمثل في «لا تسوية» الصراع أو في فرض «التسوية الاسرائيلية» التي تتركز في اسباغ الشكل الرسمي أو المقنن على أهم الأوضاع الراهنة. ولكن التطورات المفترضة حدوثها في ظل مشهد التنسيق - التي سبق تحديدها - انما تعني حدوث تغير نسبي في مصلحة الطرف العربي، يؤدي الى شكل من أشكال التسوية، ينتقل بها من حالة اللاتسوية، ويتعد عن التسوية كما تريدها اسرائيل، ولكنه، في الوقت نفسه، ليس هو التسوية الأفضل من وجهة النظر العربية. وفي حين تفرض اسرائيل «سلامها» الخاص على المنطقة، بحكم تفوقها شبه المطلق في ظروف «التجزئة»، مما يجعله في الواقع «استسلاماً» عربياً، فان التحسن النسبي في مجمل القوة العربية بفعل التنسيق الوظيفي (الشامل، أو الاقليمي) سيحمل معه أيضاً امكانات أكبر لتفجر الصراع، بحيث تضحي «التسوية» وكأنها «هدنة» مقلقة، أكثر من أي شيء آخر.

وعموماً، فان الدافع نحو التسوية، بالنسبة الى اسرائيل، سيتمثل في استمرار مشكلة «عرب المناطق» والتردد في ضمهم الى دولة اسرائيل، من ناحية، وتزايد القوة العربية الضاغطة، بخاصة من المشرق العربي، من ناحية ثانية، ثم الرغبة، ثالثاً، في الحد من الاندفاع العربي نحو مزيد من التنسيق، بخاصة بين تجمعي المشرق العربي ووادي النيل.

وكما سبقت الإشارة، فإن هذه التطورات كلها سوف تساعد غالباً على تشجيع العناصر الأكثر اعتدالاً في النخبة الحاكمة الاسرائيلية، بما يتمثل تحديداً في ترجيح كفة اتجاه حزب العمل والمعارض على الاتجاه اليميني.

وبالنسبة الى الفلسطينيين، فإن الانتعاش السياسي والمعنوي لهم (في الضفة وغزة) نتيجة قيام تجمع المشرق العربي بين العراق وسوريا والأردن، لن يوازيه بالضرورة مزيد من القوة أو الفاعلية لمنظمة التحرير الفلسطينية، حتى وإن دخلت هذه الأخيرة ضمن تنسيق تجمع المشرق العربي، وهو ما ينطوي على دافع اضافي لاسرائيل للتوجه نحو «تسوية» تضم الضفة وغزة.

أما الدوافع للتسوية على الجانب العربي، فستزيد منها الضغوط الفلسطينية على بلدان المشرق العربي والخليج لانجاز بعض التقدم في التسوية، استناداً الى التحسن النسبي الحادث في القوة العربية، فضلاً عن رغبة سوريا في استعادة هضبة الجولان. أما بالنسبة الى الأردن، فإن الظروف ستصبح غالباً مؤاتية له، بشكل أفضل نسبياً من الأطراف الأخرى.

في ظل هذا التوازن الدقيق للقوى، فإن لحظة الانتقال من حالة الجمود الى حالة التسوية، يمكن أن تتمثل في نشوب حرب محدودة بين اسرائيل، وبين أهم أطراف التجمع المشرقي بالنسبة اليها، أي سوريا. وفي ظل التنسيق العربي الفعال، فإن الاداء السوري، والمساندة العربية والدولية، يمكن أن يحولا دون تحقيق انتصار اسرائيلي، بل وأن تتكبد اسرائيل خسائر كبيرة. وفي ظروف ما بعد الحرب، فإن عجلة التسوية يمكن أن تدور، مع موافقة (ضمنية أو مستترة) من الأطراف العربية، وعلى رأسها سوريا، على التفاوض المباشر مع اسرائيل، ولكن في سياق مؤتمر دولي، يكون غالباً ذا طابع شكلي. أما سكوت منظمة التحرير الفلسطينية على تلك الآليات للتسوية، فسوف تقابله موافقة اسرائيلية على وجود عناصر مرتبطة بالمنظمة، ضمن وفد تفاوض أردني - فلسطيني مشترك.

إن تضافر هذه المعطيات جميعاً، يمكن أن يدفع في اتجاه تسوية هي أقرب ما تكون الى ما أخذ، منذ فترة، يعرف باسم «الخيار الأردني»، أكثر من أي شيء آخر. فسواء أكان التنسيق العربي شاملاً، أم على مستوى التجمعات الاقليمية، فإن التقارب الأردني - العراقي الذي سيتوسط كثيراً بفعل ذكريات الحرب مع ايران، والتناقض السوري - الفلسطيني (أي مع منظمة التحرير) الذي سيستمر لفترة غير قصيرة بفعل ذكريات المواجهة المريعة في لبنان، كلها عوامل ستدفع لمصلحة هذا الخيار. أيضاً، فإن موقف مصر (أو تجمع وادي النيل) سيتأثر بالعلاقات الوطيدة مع الأردن، التي ستستمر غالباً في اطار هذا المشهد، فضلاً عن الشعور المصري بالامتنان للنظام الأردني الذي كانت له المبادرة باعادة العلاقات مع مصر، وكسر حلقة المقاطعة العربية التي تشكلت بعد كامب ديفيد. من ناحية ثالثة، فإن محدودة فاعلية

منظمة التحرير، التي تستمر قائمة في ظل هذا المشهد، جنباً الى جنب مع المتاعب الاقتصادية المتنامية في الضفة الغربية وغزة، ستساعد الأردن للتقدم نحو توثيق علاقاته بالضفة وغزة بدعم سياسي مشرقى، ويدعم مالي خليجي، طالما ظل مشهد التنسيق فعالاً.

أما من الجانب الاسرائيلي، فان «الخيار الأردني» سيظل، بداهة، أفضل من أي «خيار فلسطيني» من ناحية، كما أنه سيفضل - على الأقل من وجهة نظر «حزب العمل»، الذي غالباً ما سيسود اسرائيل في ظل مشهد التنسيق الوظيفي - على استمرار الوضع القائم^(١٧). ولكن «الخيار الأردني»، وكما سيرد في ظل شروط المشهد الثاني، لن يكون في صياغته الاسرائيلية (مشروع ألون مثلاً) التي تقوم على احتفاظ اسرائيل بالسيطرة على الأماكن ذات الأهمية الاستراتيجية العالية والكثافة السكانية المنخفضة، تاركة باقي الضفة لسيطرة ادارية أردنية، ومتجاهلة أي صيغة لحق تقرير المصير للفلسطينيين، أو حقهم في انشاء أي كيان سياسي مستقل.

وبصرف النظر عن كثير من التفاصيل، فان «الصيغة الأردنية» التي تطرح لتلك التسوية، انما سبق أن تبلورت منذ عام ١٩٧٢ في مشروع «المملكة العربية المتحدة» التي تتكون من قطرين: أردني وفلسطيني يجمعها اتحاد فدرالي، تحت رئاسة ملك الأردن. أما الصيغة التي قبلتها منظمة التحرير الفلسطينية فكانت هي التي أعلنت في شباط/فبراير ١٩٨٥ وعرفت اعلامياً باسم «الاتفاق الأردني - الفلسطيني» وتضمنت المبادئ الآتية:

(أ) الأرض مقابل السلام، كما ورد في قرارات الأمم المتحدة، بما فيها قرارات مجلس الأمن.

(ب) حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني: يمارس الفلسطينيون حقهم الثابت في تقرير المصير، عندما يتمكن الأردنيون والفلسطينيون من تحقيق ذلك، ضمن اطار الاتحاد الكونفدرالي العربي المنوي انشاؤه بين دولتي الأردن وفلسطين.

(ج) حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين حسب قرارات الأمم المتحدة.

(د) حل القضية الفلسطينية من جميع جوانبها.

(هـ) وعلى هذا الأساس، تجري مفاوضات السلام في ظل مؤتمر دولي، تحضره الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي، وسائر أطراف النزاع، بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية، الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، ضمن وفد مشترك^(١٨).

Heller, A Palestinian State: The Implications for Israel, p. 48.

(١٧) لطفي الحولي، «قصة الاتفاق الاردني - الفلسطيني بالوثائق»، الأهرام، ١٩/٣/١٩٨٥.

أما الصيغة الأمريكية لهذا الخيار، فقد جاء أبرز تعبير عنها في مبادرة الرئيس ريغان التي أعلنت في أيلول/سبتمبر ١٩٨٢ والتي رفضت وجود دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة، كما رفضت ضم إسرائيل لهما، وتحدثت عن «حكم ذاتي للفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة، بالارتباط مع الأردن»^(١٩).

وبعبارة موجزة، فإن توازن القوى بين الطرفين العربي والإسرائيلي كما سيتحدد في ظل مشهد التنسيق سيفضي إلى تسوية للصراع العربي - الإسرائيلي - في ما يتعلق بالقضية الفلسطينية تحديداً - عند نقطة وسط تلتقي عليها الأطراف كافة، تدور حول كيان فلسطيني في الضفة والقطاع مرتبط بالأردن، بحيث يكون الارتباط بالأردن شرطاً ملازماً لوجود الكيان. أما في ما يتعلق بهضبة الجولان، والتي تظل في مشهد التجزئة خاضعة للسيادة الإسرائيلية الرسمية عليها، فإنها في ظل مشهد التنسيق الوظيفي، وفي إطار آليات التسوية المشار إليها، لا بد وأن تضحى منزوعة السلاح. أما الحدود عندها بين سوريا وإسرائيل فستكون محلاً لمفاوضات صعبة، ترتبط فيها التنازلات الإسرائيلية، بما يمكن أن تبديه سوريا من استعداد لإقامة علاقات طبيعية مع إسرائيل.

وربما يكون من المنطقي أن يتكهن المرء بأن يكون مشهد التنسيق الوظيفي، بما ينطوي عليه من تحسن نسبي في الموقف العربي، هو أكثر المشاهد احتمالاً للتغلب بين علاقات الحرب والسلام مع إسرائيل. أيضاً، فإن حدوث التسوية مع إسرائيل في ظل المشهد سيخفي سيادة علاقات سلمية عربية - إسرائيلية في وقت تقصر فيه القوة الشاملة العربية، عن إمكاناتها الحقيقية والكاملة. وفي هذا السياق، ستكون استفادة إسرائيل من العلاقات السلمية المترتبة على أية تسوية، أكبر بكثير من استفادة البلاد العربية.

وفي ضوء تحليل عناصر القوة الإسرائيلية وتطوراتها المحتملة في العقود الثلاثة المقبلة، كما جاءت في الفصل الثاني، فإن إسرائيل ستكون جاهزة للتعامل مع الاحتمالات التي سيتمخض عنها مشهد التجزئة: سلباً، أو حرباً. سلباً، بالتطوير السريع لعلاقات اقتصادية واسعة، تضفي أبعاداً جديدة إلى علاقاتها التي تكون أفلحت في توطيدها، في مصر، والضفة الغربية وجنوب لبنان. وحرباً، بالاستناد إلى القوة العسكرية المتنامية، والتي ستعتمد، في المرات المقبلة، وأكثر من أي حرب سابقة، على السلاح المصنع في إسرائيل.

ثالثاً: المشهد الثالث: الوحدة العربية

الوحدة المقصودة في هذا المشهد هي وحدة فدرالية عربية، تضم معظم الأقطار

(١٩) منير الحور وطارق الموس، مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية، ١٩٤٧ - ١٩٨٥ (عمان: دار الجليل، ١٩٨٦)، ص ٢١٥.

العربية الرئيسية، ومعها بعض أو كل الأقطار الأخرى، بحيث يصبح هذا الكيان الموحد هو القائد والمهيمن على مجريات الأمور في الوطن العربي. ومعنى الفدرالية، في هذا المشهد، هو الاكتفاء بوجود سياسة خارجية واحدة وجيش واحد وعملة واحدة ونظام تعليمي عام واحد كحد أدنى. ويؤكد الأطار العام لمشروع بحث استشراف مستقبل الوطن العربي «على مبادئ عامة أساسية سوف تسود دولة الوحدة، في مقدمتها: احترام التعددية، المشاركة الشعبية، ورفض التبعية»^(٢٠).

وفي ما يتعلق بالمخاطر الخارجية، وعلاقتها بدولة الوحدة، سواء في ما يتعلق بالشروط التي تسبق قيامها، أم الملامح العامة للمشهد أو أطاراته الإقليمية والمؤسسية، ترد الملاحظات والافتراضات الآتية:

- من بين الافتراضات الخاصة بالشروط والملايسات التي تسبق لحظة قيام الدولة الاتحادية، يفترض وجود «دوافع سياسية عسكرية بسبب وجود تحد خارجي لأقطار مركزية في الوطن العربي، ذات أهمية جيوبوليتيكية خاصة».

- ومن بين الملامح العامة لهذا المشهد، يذكر ان الدولة الفدرالية ستقوم «من خلال عملية صراعية مع الأطراف الإقليمية والدولية، التي تعتبر قيامها تهديداً لمصالحها. ومع قيام واستمرار دولة الوحدة، ستزداد فرص التصفية التدريجية لاسرائيل ككيان صهيوني عنصري توسعي معاد للأمة العربية».

- أما بالنسبة الى الأطار الاقليمي والدولي، فان من بين افتراضاته أن «تري اسرائيل في دولة الوحدة تحدياً مباشراً وصريحاً لها، كما أن قيام الدولة في حد ذاته يعني حدوث تحول في التوازنات الإقليمية والدولية. وسوف تسعى اسرائيل بكل جهدها أولاً لمنع قيام دولة الوحدة، ثم لمحاولة استغلال مشاكلها الداخلية، ذلك أن استمرار هذه الدولة الواحدة، يعني التصفية التدريجية للكيان الصهيوني ككيان عنصري توسعي».

وعلى عكس المشهدين الأول والثاني، فأننا لا نجد لهذا المشهد أسساً فعلية أو شكلية ملموسة في الحاضر. فالمشهد الأول هو، بحكم التعريف، استمرار الحاضر بكل أجزائه وتفاعلاته الراهنة. والمشهد الثاني يقوم على امكانية تحول المشروعات القائمة الآن على الورق في صورة اتفاقات ومعاهدات وهياكل منظمات، لكي تدب فيها الحيوية نحو أشكال كثيرة للتعاون والتنسيق. أما هذا المشهد الثالث، فلا نملك من مقوماته في اللحظة الراهنة سوى «الأمل» فيه، وسوى إيمان عميق لدى قطاعات مستنيرة عدة في الوطن العربي، بأنه الطريق الوحيد للخلاص من المحنة الراهنة للوطن العربي، الأخذة في التفاقم على صورة لم تكتمل كل ملاحظاتها بعد. على أن هذا الأمل يمكن ألا يظل مجرد حلم من أحلام اليقظة، بل

(٢٠) انظر: مركز دراسات الوحدة العربية، مشروع بحث استشراف مستقبل الوطن العربي: وثيقة الأطار العام، ص ٨٣.

يضحى حافزاً هائلاً للتغيير نحو الهدف المنشود. وليست تلك ظاهرة غريبة في التاريخ السياسي عموماً، وتاريخ شعوب وبلدان العالم الثالث في القرن العشرين خصوصاً: فالسياسة، والارادة السياسية، لم تعد - بفعل تداعيات التطور التاريخي العام، وبفعل النازح والمؤثرات التي تقدمها بلدان العالم المتقدم - مجرد انعكاس لقوى اجتماعية واقتصادية، وإنما أصبحت الارادة السياسية أداة للتغيير الاجتماعي والاقتصادي بعيد المدى.

إن هذا الاعتقاد بفاعلية الارادة السياسية - عمة المصحوبة بتأييد جماهيري واسع، هو الذي يسمح بتصور امكانية حدوث هذا المشهد في العقود الثلاثة المقبلة، انطلاقاً من الوضع الراهن، بل أن تأمل مسار الوطن العربي قريباً أو بعداً عن الوحدة، في علاقته بالصراع العربي - الاسرائيلي خصوصاً، في خلال العقود الأربعة الماضية، يشير، على نحو مشير، الى عمق التغيرات التي كانت تحدث على مدى عقد واحد من الزمان. ولا يعني هذا أن مصير الوطن العربي وتطوره كانا منوطين بقوى غيبية، خارج الطبيعة، تدفعه الى أعلى أو تهوي به الى أسفل وفق منطق مجهول لدينا، ولكنه يشير فقط الى حقيقة تتداخل عديد من القوى والتفاعلات المحلية والاقليمية والدولية التي تؤثر في تطور هذه المنطقة من العالم، والى الدور الكاسح الذي لعبته النظم السياسية والارادات السياسية، تبعاً لمعتقداتها وكفاياتها في تقرير هذا الاتجاه أو ذاك للتطور. في هذا السياق انتقلت الأمة العربية، خلال عقد واحد بين ١٩٤٨ و ١٩٥٨ من حال اليأس والهزيمة، الى حال الأمل العميق بالاقتراب من الوحدة العربية الحقيقية والشاملة. وفي خلال عقد واحد آخر بين ١٩٥٨ و ١٩٦٧ تلقت الأمة العربية ضربتها القاصمة التي لم تنق حتى الآن من آثارها العميقة^(٢١). وبين ١٩٦٧ و ١٩٧٧ تحول الاجماع العربي في مواجهة الخطر الاسرائيلي على الأمة كلها، بعد هزيمة ١٩٦٧، الى شقاق سياسي عميق ما زلنا حتى اليوم أيضاً نعاني آثاره، بين من يرون امكانية لتحييد هذا الخطر، بل والتعايش معه في علاقات سلم طبيعية، ومن استمروا في رؤيته بصورته السلبية البشعة. على أن التحول في العقد التالي، أي من ١٩٧٧ الى ١٩٨٦ لم يكن في اتجاه معاكس، ولكنه سار في نفس اتجاه التدهور نحو أشكال ومعدلات لم يسبق لها مثيل في التاريخ العربي المعاصر. فتفجرت الى جانب الصراع العربي - الاسرائيلي، صراعات أخرى عميقة: الحرب الأهلية اللبنانية، والحرب العراقية - الايرانية، فضلاً عن عديد من الصراعات «المحلية» أو الاقليمية الأخرى، داخل منظمة التحرير الفلسطينية، وداخل اليمن الديموقراطية، وداخل السودان وفي منطقة المغرب العربي. وما تزال المنطقة حبل بصرعات كثيرة، يمكن أن تنشب من المحيط الى الخليج!

(٢١) سعد الدين ابراهيم، «مستقبل الوطن العربي بين الممكن والمحتمل»، السياسة الدولية، السنة ٢٠، العدد

٧٥ (كانون الثاني/يناير ١٩٨٤)، ص ٩١.

وحيال مناخ التفكك والتدهور هذا، ليس من قبيل الأوهام أو الخرافات أن يتصور المرء امكانية ظهور ارهاصات وضع مناقض، في مدى عقد من الزمان، هو العقد الأول من فترة الاستشراف، بحيث تشهد الفترة حول العام ١٩٩٥، ولادة ارادة سياسية جبارة تصنع لبنات وحدة عربية شاملة، على أن يشهد العقدان التاليان (١٩٩٥ - ٢٠١٥) استكمال مقومات تلك الوحدة الشاملة.

في ضوء هذا التصور للمنطق العام الذي يبرر طرح مشهد الوحدة العربية، يمكن ايroad عدد من الملاحظات في شأن شروط ذلك المشهد وخصائصه، في ما يتعلق بالصراع العربي - الاسرائيلي :

- ان مظاهر التدهور والتفكك السياسي المعاصرة في الوطن العربي، والتي يمكن أن تكون محفزة نحو الوحدة العربية، ترتبط في جزء مهم منها بالوجود الاسرائيلي، وبالسلوك السياسي لاسرائيل في المنطقة، وبتداعيات الصراع معها. وكما سبقت الاشارة، فضلاً عما يمثله وجود اسرائيل ذاته، في قلب الوطن العربي، من اعاقا لامكانات التنسيق والوحدة، فان الخلاف حول استراتيجية التعامل معها، كان أحد أبرز وأخطر الخلافات والصراعات العربية في العقد المنصرم. كذلك فان السلوك الاسرائيلي في الحرب اللبنانية، والذي وصل الى حدّ الاحتلال العسكري السافر، ودعم أطراف معينة ضد أخرى، فضلاً عن العلاقة العضوية لتداعيات الحرب اللبنانية مع مشاكل الوجود الفلسطيني المقاتل في لبنان، كلها عوامل تبرز اسرائيل طرفاً فاعلاً رئيساً في الحرب اللبنانية وآثارها السلبية على الوضع العربي العام. كذلك فان موقف اسرائيل من الحرب العراقية - الايرانية، وقيامها كوسيط أو بائع مباشر بتقديم الأسلحة الى ايران، بما يؤدي اليه من استمرار الحرب ضد العراق، يوضح بما لا يترك أي مجال للبس، وعي اسرائيل بأهمية استنزاف أي مصدر للقوة العربية. والأمر نفسه ينطبق على العلاقات الاسرائيلية - الاثيوبية، ووقوف اسرائيل، تالياً، غير بعيدة عن دعم المتمردين في جنوب السودان. كذلك فان الخطر الاسرائيلي لا يزال في مقدمة الأخطار التي تدفع عدداً من البلدان العربية الى تحديث قواتها المسلحة، وزيادة كفاءتها، واستنزاف المزيد من طاقاتها المادية والبشرية، على حساب مشروعاتها التنموية.

- اذا كان من المفترض ضمن شروط ذلك المشهد ضرورة توافر شروط دولية مؤاتية تتعلق خصوصاً بالتعاون والتنافس بين القوى الأعظم، بحيث تقلل من فرص التدخل السافر لاحداها لاجهاض المشروع الوحدوي، فان هذا الشرط يرتبط بتطورات الصراع العربي - الاسرائيلي، قبل أي شيء آخر. فتطورات هذا الصراع هي التي حكمت علاقة كثير من الأقطار العربية بكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وكذلك بكثير من القوى الكبرى في العالم، كما أن موقف هذه القوى الدولية كلها من المنطقة العربية وسياستها

ازاءها، انما توقف الى حد بعيد على تطورات الصراع العربي - الاسرائيلي. وهذا الأمر ينطبق، خصوصاً، على الولايات المتحدة الأمريكية، بحيث يمكن القول مثلاً أن موقف الولايات المتحدة من التوجه العربي نحو الوحدة انما سبّرتبط الى حد بعيد بما سينطوي عليه ذلك التوجه الحدودي من نيات تجاه اسرائيل. وفي هذا السياق، يمكن القول أن الحركة الصهيونية بما لها من نفوذ دولي واسع، يمكن أن تسعى الى التأثير على مواقف الدول الكبرى جميعاً، بشكل أو بآخر، من التوجه الحدودي العربي.

- على أن أهم الافتراضات التي ينطوي عليها مشهد الوحدة، وفقاً لما يطرحه «الاطار العام» لمشروع الاستشراف، هو امكانية قيام قوة اقليمية ثورية «لها من المركزية والثقل والمصدقية ما يجعلها ذات تأثير عام على المنطقة بأسرها». وطرح المشهد أيضاً احتمال «الاتحدى هذه القوة العربية المركزية، أو الاقليم القاعدة، حدود دولة قطرية واحدة»^(٢٢). ان هدف اسرائيل هو، على وجه التحديد، منع ظهور هذه القوة العربية المركزية، أو هذا الاقليم - القاعدة. ولذلك يبدو من المهم التعرف على موقف اسرائيل من البلدان العربية المرشحة للقيام بذلك الدور، أي، مصر وسوريا والعراق والسعودية والجزائر، وفق افتراضات ذلك المشهد. أن الملحوظة الأولى، هنا، هي أن أحد هذه البلدان، وأهمها، أي مصر، انما تدخل الآن في علاقات سلمية مع اسرائيل. أما سوريا فهي، على النقيض، المرشحة الأولى في منتصف الثمانينات للحرب المقبلة مع اسرائيل. وبين هذين النقيضين، فان انشغال العراق والسعودية بمخاطر الحرب مع إيران وتدابيراتها المهددة لمنطقة الخليج كلها، من ناحية، والعبد الجغرافي للجزائر عن اسرائيل، من ناحية ثانية، يجعل موقفها من الصراع العربي - الاسرائيلي، لحظة بدء فترة الاستشراف، ذا أهمية ثانوية نسبياً. ويعني هذا أننا نصبح ازاء احتمالات عدة حول أثر الصراع مع اسرائيل، على خلق «الاقليم - القاعدة» اللازم لتحقيق الوحدة العربية، وذلك في خلال العقد الأول من فترة الاستشراف (١٩٨٦ - ١٩٩٥). فاذا لاحظنا هنا، من ناحية أخرى، أن من المالبسات التي يمكن أن تعجل بظهور الاقليم - القاعدة، حدوث تحوّل ثوري في ذلك الاقليم، تصل بمقتضاه الى الحكم «نخبة جديدة ذات توجهات وحدوية واستقلالية» فان ذلك يعني أن علاقة الصراع العربي - الاسرائيلي بظهور الاقليم - القاعدة انما يمكن أن ترصد من خلال تأثير الصراع على حدوث هذا التحوّل الثوري، في الاقليم موضع البحث.

- من بين البلدان العربية المرشحة للقيام بدور الاقليم - القاعدة، تظل «مصر»، بعدد سكانها، واقتصادها المتنوع، وهياكلها الاجتماعية، وموقعها المركزي وقدراتها العسكرية، وبما تتمتع به من حد أدنى من الاستقرار السياسي، هي المرشح الأول للقيام بدور الاقليم - القاعدة، على الأقل بمعنى أن وجودها شرط لازم لنجاحه. وقد لا تكون مصر، لحظة بدء فترة الاستشراف، مهيأة للعب ذلك الدور منفردة، ولكنها بالتأكيد يمكن أن تلعبه بالمشاركة

(٢٢) مركز دراسات الوحدة العربية، المصدر نفسه، ص ٨٤.

مع واحدة أو أكثر من القوى الأخرى المرشحة (سوريا، العراق، السعودية، والجزائر). ولكن يصعب تصوّر العكس، أي أن يقوم الاقليم - القاعدة على واحدة أو أكثر من تلك القوى الأخيرة، من دون وجود مصر. ويعني هذا، في ما يتعلق بالصراع العربي - الاسرائيلي، أهمية اضافية لمصير العلاقات المصرية - الاسرائيلية، وتأثيراتها المستقبلية على التوجه الودودي لمصر.

١ - محددات الصراع في ظل مشهد الوحدة العربية

١ - المحدد الأول للصراع العربي - الاسرائيلي، كما تخلص هذه الدراسة، هو القوة الذاتية لطرفي الصراع، وهو ما صيغ في المقابلة بين «الكم العربي، القابل للتطور الكيفي، والكيف الاسرائيلي غير القابل للتطور الكمي». ويعني ذلك، أنه لكي تكون الوحدة العربية عاملاً مؤثراً في الصراع العربي - الاسرائيلي، فلا بد أن تنطوي على تغيير كيفي حقيقي في القوة العربية، وليست مجرد اضافة ميكانيكية أو شكلية للكميات العربية بعضها الى البعض الآخر. لاشك ان مجرد حدث الوحدة بين اثنين أو أكثر من الأقطار الرئيسة، يكون مصحوباً بزخم معنوي هائل، ولكن الاستخدام الأمثل للموارد الاقتصادية، وزيادة أو مضاعفة القوة العسكرية، والفاعلية على الصعيد الدولي، تكون كلها امكانات يتوقف تحقيقها على ما يبذل من جهد متعمد مخطط له. ويضاعف من أهمية ذلك، على صعيد الصراع العربي - الاسرائيلي، حقيقة التفوق الاسرائيلي الكيفي في كل المجالات أو معظمها على الأقل، وهو ما يترجم في النهاية في القوة العسكرية الثنائية، وبخاصة وان هذه القوة قد أعدت للتعامل مع القوى العربية على كل الجبهات، في وقت واحد. وبعبارة أخرى، فإن من شأن التطور الكيفي للقوة العربية واقتربها من الكيف الاسرائيلي، تحييد هذا العنصر للتفوق الاسرائيلي، والافادة من الكم العربي الهائل.

في هذا الاطار، فإن الوحدة العربية، تعني، بالنسبة الى القوة الذاتية العربية في مواجهة اسرائيل حقائق عدة، من أبرزها:

- وجود رصيد بشري هائل، يتضاءل أمامه بشدة عدد سكان اسرائيل. ووفقاً للأرقام المتاحة عام ١٩٨٥ فإن مجموع سكان البلدان العربية يقترب من ١٨٦ مليون نسمة في مواجهة ٢, ٤ ملايين اسرائيلي! ووفقاً لمعدلات الزيادة التي تختلف لمصلحة العرب، فإن ذلك الفارق السكاني الهائل سيتفاقم ليقرب من ٤٥ ضعفاً على الأقل! وإذا اقتصرنا على بلدان المواجهة (أي مصر وسوريا والأردن ولبنان) فإن عدد سكانها طبقاً لبيانات ١٩٨٥ أيضاً يبلغ نحو ٦٥ مليوناً أي ما يقرب من ١٥ ضعفاً. أما مصر وسوريا معاً فقط، فعدد سكانها نحو ٦٠ مليوناً أي ما يقرب من ١٤ ضعفاً بالنسبة الى اسرائيل. ومصر والعراق معاً يبلغ سكانها نحو ٦٤ مليوناً، أي أكثر من سكان اسرائيل بـ ١٤ مرة أيضاً. وفي جميع الحالات، فإن معدلات الزيادة تتجه أكثر لمصلحة العرب.

- ولا محل لمقارنة مساحة اسرائيل (٢١,٥٠٠ كلم^٢) مع المساحة الهائلة للوطن العربي الممتد من المحيط الأطلسي الى الخليج العربي (أكثر من ١٢,١ مليون كلم^٢)! أو مساحة بعض الأقطار العربية الرئيسة والمواجهة لاسرائيل. أن هذا التفاوت يعني عمقاً استراتيجياً عربياً بلا حدود تقريباً في مواجهة اسرائيل، ويعني السيطرة على كميات هائلة ومتنوعة من الموارد، والسيطرة على أهم مراكز النقل والاتصال في العالم على الاطلاق.

- ولا محل أيضاً لمقارنة مجموع القوات المسلحة العربية، أو اجمالي الناتج القومي العربي، أو اجمالي الاتفاق الدفاعي العربي^(٢٣)، بالنسبة الى هذه البنود لدى اسرائيل.

يترتب على قيام الوحدة العربية اذاً، انقلاب خطير في توازن القوى بين العرب واسرائيل، ولا يتصور، بحكم معطيات مشهد الوحدة العربية ذاته، أن يتوقف التغير العربي عند حد اضافة «كميات» وأرقام الى بعضها البعض، ولكن الرغبة في تجاوز حالة التدهور القصوى، التي سبقت قيام الوحدة، ستدفع بسرعة الى الاستفادة من كل الطاقات البشرية العربية، العاملة في كل الميادين، والقادرة على انجاز التحول الكيفي المطلوب.

وفي المقابل، فستظل القوة الاسرائيلية في تطورها الكيفي مع التركيز على القطاعات أو النواحي، التي يصعب في شأنها سد الفجوة مع اسرائيل، أو التي تشكل رادعاً حاسماً يصعب تجاهله، وهو ما يتمثل، خصوصاً، في التسلح النووي، وكذلك في محاولة الافادة العسكرية من أبحاث الفضاء في اطار التنسيق مع الولايات المتحدة، الذي وضعت لبناته في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات في «مذكرة التفاهم بين البلدين» عام ١٩٧٩ والمشاركة في مبادرة الدفاع الاستراتيجي الأمريكية (حرب النجوم) منذ أوائل عام ١٩٨٦.

وإجمالاً، سيظل للوحدة العربية الشاملة تأثيرها الحاسم بالنسبة الى اسرائيل، مما يمكن صياغته في ثلاثة مظاهر:

أ - الاحتواء

ويقصد بذلك ما يترتب على الوحدة، من احاطة اسرائيل من حدودها كافة بواسطة قوة سياسية واحدة، تقسم حدودها الحدود الحالية لكل من لبنان وسوريا والأردن ومصر، مع اسرائيل. في الوضع الراهن، فإن هناك الآن ثغرات في ثلاث من تلك الجبهات: على الجبهة المصرية، من خلال الاتفاقية المصرية - الاسرائيلية والعلاقات القائمة بين البلدين، وعلى الجبهة الأردنية بفعل احتلال الضفة الغربية وسياسة الجسور المفتوحة، وعلى الجبهة اللبنانية من خلال احتلال الجنوب اللبناني، والعلاقات الاسرائيلية مع بعض القوى

(٢٣) التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٥، اشرف السيد يسين (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨٦)، ص ١١٤ - ١١٥.

اللبنانية . وفي حين ستستمر تلك العلاقات ، بل ويمكن أن تزدهر ، في ظل مشهد التجزئة ، كما يمكن أن تخضع لبعض التغير سواء من الشرق (التجمع الشرقي) أو من الغرب (مصر ، تجمع وادي النيل) في ظل مشهد التنسيق ، فإنها في ظل الوحدة العربية تظل مرهونة بآرادة الدولة العربية ، ومرتبطة بمجمل التسوية أو طبيعة العلاقات المستقبلية على الدولة اليهودية ، بما يعنيه من أن منطقاً واحداً هو الذي سيسري على تلك المنافذ المفترضة للاتصال . وفي ضوء حقيقة العلاقات المتنامية الآن عبر تلك المنافذ ، وأهميتها المتزايدة للاقتصاد الاسرائيلي ، فإن اغلاقها بشكل متزامن يعني تضيق الخناق على اسرائيل على نحو لم تعهده منذ ١٩٦٧ على الأقل .

ب - العمق

كما سبقت الإشارة ، فإن وحدة الأراضي العربية ستعني توفير عمق استراتيجي عربي هائل في مواجهة اسرائيل . ومع ذلك ، فإن وجود عاصمة الدولة الواحدة ، ومناطقها الحيوية ، في دولة متاخمة لاسرائيل ، يقلل من مضمون هذه الأهمية النسبة الى العمق الاستراتيجي العربي . وعلى سبيل المثال ، فإن اعتبار «القاهرة» أو «دمشق» عاصمة لدولة الوحدة يعني بقاء جانب مهم من العلاقة النسبية بين العمق الاستراتيجي الاسرائيلي ، والعمق الاستراتيجي العربي ، على ما هو عليه . ولكن تظل للوحدة تأثيراتها في ما يتعلق بوجود جبهة مواجهة عريضة وعميقة ، وتعّد في المراكز الحيوية ، وحشد الامكانيات والموارد بما لا يقاس باسرائيل .

ج - الفاعلية

تعني اضافة الامكانيات العربية المشتتة الى بعضها البعض ، امكانية أوسع بكثير لزيادة فاعليتها ، يسري هذا ، في مواجهة اسرائيل ، على القوات المسلحة ، والقدرات الاقتصادية ، وامكانيات التسليح النووي والنفوذ السياسي والدبلوماسي ، وغيرها من مجالات الصراع أو المواجهة . ولكن تحقيق هذه الفاعلية يظل مرهوناً ، كما سبقت الإشارة ، بوجود جهد متعمد مخطط له ، يفترض أنه ملازم لآرادة تحقيق الوحدة ذاتها . ويعني هذا ، أن تحقيق الفاعلية على الأصعدة الاقتصادية والعلمية والعسكرية . . . الخ ، لن يحدث آلياً بمجرد اتخاذ القرار السياسي بالوحدة ، ولكنه سوف يستغرق وقتاً طويلاً ، يغطي ، بالنسبة لفترة الاستشراف ، الفترة بين تحقيق الوحدة السياسية ، وبين نهاية فترة الاستشراف . وفي الواقع ، فإن هدف اسرائيل ، والقوى المعادية للوحدة ، سيكون ، تحديداً ، محاولة الحد من هذه الفاعلية .

٢ - في ما يتعلق بالمحدد الثاني للصراع ، أي الطابع التحولي أو المتغير لطرقي الصراع ، وائر تطورات الصراع عليها ، بخاصة من حيث اقترابها من أهدافها ، فإن مقتضى مشهد

الوحدة العربية هو أن الأمة العربية، عند لحظة زمنية معينة في الفترة محل الاستشراف، تنتقل، بفعل ارادة سياسية واعية، الى حال الوحدة السياسية، وتشرع بعد ذلك في استكمال ملامح وحدتها. هذا يعني أن مسألة الوحدة العربية تكون ابتداء موضوعاً لتأثير الصراع مع اسرائيل، أكثر منها عنصراً فاعلاً فيه، الى أن تتحقق الوحدة بالفعل، لتصبح هي المحددة لمسار ومصير الصراع العربي - الاسرائيلي، أكثر من أي عامل آخر.

وكما سبقت الإشارة، فإن الصراع العربي الاسرائيلي تأثر منذ أعوامه الأولى بحقيقة أن كلاً من البلاد العربية، واسرائيل، كان في مرحلة «بناء» و«تكوين» الدولة، التي طبعت، بشكل أو بآخر، معظم بلدان العالم الثالث في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وكان هذا يعني بالنسبة إلى البلاد العربية أولوية تدعيم أبنيتها القطرية «كدولة مستقلة»، بهدف السعي إلى تحقيق الوحدة العربية. وهذه الأولوية تفسر جانباً مهماً من الاخفاق العربي في مواجهة إسرائيل. ويعني التوجه نحو الوحدة العربية، في الاطار الزمني لفترة الاستشراف، أن البلاد العربية المعنية، ستستنفذ أو تشبع «الحاجة» إلى الدولة القطرية، وتوقن أن تلك الدولة القطرية ليست فقط عاجزة عن الوفاء بالمهام المطلوبة منها، ولكنها أيضاً عاجزة عن أن تحافظ على نفسها، وفق ماسبق بيانه في مشهد التجزئة. السؤال المطروح هنا، في ما يتعلق بالفترة الأولى السابقة على قيام دولة الوحدة، أي الفترة (١٩٨٦ - ١٩٩٥) وفق التقسيم المقترح للمشاهد - ما هو الدور الذي سيلعبه الصراع العربي - الاسرائيلي في بلورة هذا الشعور بقصور الدولة القطرية، وبالتهديد الذي تتعرض له، وبالحاجة تالياً إلى الوحدة العربية؟ وفقاً لخبرة العقود الأربعة الماضية، فإن التهديد الاسرائيلي عندما لعب دوره كحافز للوحدة العربية، وللتنسيق العربي، فلما لعبه على نحو شكلي أو مؤقت، لتظل القاعدة هي التجزئة في مواجهة الخطر. وإذا كان المشهد الأول يفترض استمرار هذا الوضع، ويفترض المشهد الثاني، حدوث تنسيق وظيفي (اقليمي، أو شامل) في مواجهة الخطر الاسرائيلي، والأخطار الأخرى الموازية في الوقت نفسه وأبرزها الخطر الايراني، فإننا هنا في المشهد الثالث سنفترض أن التنسيق الوظيفي المشار إليه (والمفترض تحقيق دفعة قوية له حوالى عام ١٩٩٠) لن يكون فعالاً في مواجهة الخطر: إما لقصور التنسيق من ناحية، وإما لتكاثر المخاطر من ناحية أخرى، أو للعاملين معاً. لذلك، كان من المنطقي أن نختار لحظة بدء الوحدة العربية المتوقعة بعد ذلك بحوالى خمس سنوات (أي حوالى عام ١٩٩٥) مما يسمح بتوالي أو تداعي المشاهد.

في هذا السياق، يمكن تحديد دور الصراع العربي - الاسرائيلي، في الدفع نحو الوحدة العربية، من زاويتين: الأولى، أثره على التحلل والتفكك العربي، والثانية، أثره على بلورة التحول الثوري في «الإقليم» المقترضة اضطلاعاً بالمبادرة نحو الوحدة العربية.

من الزاوية الأولى، يفترض المشهد الثالث أن أي محاولات للتنسيق العربي ستكون

غير مجدية في مواجهة المخاطر المتكاثرة، ولا تأتي هذه المخاطر من مجرد تزامنها (الخطر الاسرائيلي، والخطر الايراني أساساً) كما في المشهد الثاني، وإنما أيضاً من «تفاعل» هذه المخاطر بعضها مع البعض الآخر. ووفقاً لذلك التصور، فإن انتصار إيران في حرب الخليج، في النهاية، سيؤدي ليس فقط إلى استقرار صيغة «الأمن» الخليج تعتمد على القوى الكبرى، وتنصرف بمقتضاها عن الاهتمام بالصراع العربي - الاسرائيلي، وإنما إلى سريان خطر التفتت والبلقنة إلى مناطق متزايدة في الوطن العربي، على نحو ما سبق ذكره في المشهد الأول. وليس هناك ما يمنع تصور أن تشارك أكثر من قوة خارجية (إقليمية، ودولية) لها مصالحها ومركزاتها في الوطن العربي، في «مُش» الجسد العربي العليل: في جنوب الجزيرة العربية، وجنوب السودان، والمغرب العربي، فضلاً عن محنة المشرق العربي بين اسرائيل وإيران والانقسامات الطائفية الكامنة والمحتملة. فإذا أضفنا إلى كل ذلك احتمالات التطورات السلبية في الثروة النفطية وعوائلدها، والطريق المسدود الذي يمكن أن تؤول إليه مجالات التنمية القطرية، وتفاقم التفكك الاجتماعي والثقافي الذي زرعه حقبة الازدهار النفطي، وردود الفعل العنصرية والعشوائية للنظم القائمة تجاه المخاطر المحيطة بها، بما في ذلك تضيق اطرار المشاركة السياسية وانتهاك حقوق الانسان... بدت لنا امكانية الوصول إلى لحظة معينة في الاطار الزمني للمشهد، يكون فيها على الأمة العربية بأسرها أن تواجه بشكل لا يس فيه الخيار الصعب بين أن تكون أو لا تكون. ولكن يظل من المهم، هنا، التأكيد على أن الدور الذي سيلعبه الخطر الاسرائيلي في تهديد وتفكيك المنطقة العربية، وفقاً لذلك التصور، سيرتبط في فاعليته وتأثيراته السلبية بالمخاطر الأخرى المحتملة، إقليمياً ودولياً، على المنطقة، وليس في دور «منفرد» خاص به.

من الزاوية الثانية، وإذا سلمنا هنا بالدور المحوري الذي لا بد وأن يلعبه «الاقليم - القاعدة» في التوجه نحو الوحدة العربية، وفي ضرورة حدوث «تغيير ثوري» في ذلك الاقليم، كشرط لمبادرته بالدعوة للوحدة، يبرز السؤال حول دور الصراع مع اسرائيل في التحضير لذلك التغيير الثوري. هنا أيضاً، ليس من المتصور أن يلعب الصراع العربي - الاسرائيلي الدور الحاسم في خلق شروط «الموقف الثوري» المتصور. ووفقاً لما تجمع عليه أدبيات الثورة، فإن ظروف الحرب ضد العدو الخارجي، وظروف الهزيمة خصوصاً، يمكن أن تكون أحد عناصر «الموقف الثوري»، ولكنها ليست سبباً كافياً في حد ذاته لقيام الثورة. والشرطان الأساسيان اللذان يسبقان ذلك، هما: تراكم الضغوط على الطبقات المحكومة من ناحية، وعجز الطبقات الحاكمة عن الاستمرار في الحكم بالطريقة القديمة من ناحية أخرى. إن دراسة هذه الشروط، في ظروف المتطور المستقبلي للدول المرشحة للعب دور الاقليم - القاعدة، تضيحي مدخلاً منطقياً للحديث عن الاحتمالات المستقبلية للوحدة العربية في المشهد الثالث. ولكننا سنكتفي، هنا، أولاً بالاقتران على الإشارة إلى مصر، التي تظل أهم

الأقطار المرشحة إذا ما توافرت فيها ظروف التغير الثوري، كما سنكتفي ثانياً بإيراد بعض الملاحظات العامة حول شروط الموقف الثوري فيها، وبخاصة ما يتعلق بالصراع مع إسرائيل.

الملاحظة الأولى هي أن مصر عند أعتاب فترة الاستشراف - أي منتصف الثمانينات - تعاني فعلاً مشكلات متفاقمة، اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية. ومن بين هذه المشكلات، فإن أعمقها تأثيراً على تبلور «موقف ثوري» محتمل هي المشكلة الاقتصادية. ويصعب القول إن المواجهة مع إسرائيل في هذه الفترة، يمكن أن تلعب دوراً يقترب في أهميته من دور الموقف الاقتصادي.

الملاحظة الثانية هي أن النظام القائم في مصر استطاع، حتى الآن، فرض سيطرته في اللحظات التي هددت بسقوط «السلطة الشرعية» القائمة، وذلك استناداً إلى دعم القوات المسلحة من ناحية، واستناداً إلى توافر درجة من «المشاركة السياسية» و«حرية التعبير» التي تساعد على امتصاص مشاعر السخط أو الغضب من ناحية ثانية، واستناداً إلى دعم خارجي، اقتصادي أساساً، بخاصة من الولايات المتحدة من ناحية ثالثة. ويمكن القول إن موقف النظام من إسرائيل لا يشكل مصدراً رئيسياً لادانته. ولكن احتمالات تفاقم المشكلات في مصر، مع استمرار العجز عن مواجهتها بحلول جذرية، تسمح بتصور حدوث ضعف تدريجي في قدرات النظام على مدى العقد الأول لفترة الاستشراف.

الملاحظة الثالثة هي أن أكثر القوى السياسية المعارضة فاعلية، والتي يمكن أن تكون ذات وزن ملموس في المستقبل القريب، لا توجد في إطار الشرعية القائمة، ولكنها توجد خارج إطار هذه الشرعية، وتمثل عموماً في «القوى الإسلامية» التي تجسد في منظمات عدة سرية وشبه علنية. ووصول هذه القوى الإسلامية إلى السلطة، عبر تغيير انقلابي، مرهون بقدرتها على التسلل إلى القوات المسلحة. وفي حال نجاحها في ذلك نصبح أمام احتمالين: إما أن تنجح العناصر الدينية - العسكرية في فرض سيطرتها والاستمرار في الحكم، وأما أن تطيح القوات المسلحة (أي الجزء الأكبر، غير المشارك في الانقلاب) بتلك العناصر الدينية - العسكرية المتمردة، وتعيد هي نفسها فرض حكم «القانون والنظام». وبذلك فإننا نكون إزاء بديلين: عسكري - ديني، أو عسكري. وفي حين يتقاسم البديلان مشاعر العداء والشك تجاه إسرائيل، فإن البديل العسكري - الديني سيكون أكثر حدة في ذلك العداء والشك. ولا يمكن التكهّن بأن أيّاً من البديلين سيحمل توجهاً حاسماً نحو الوحدة العربية. فالأغلب أن البديل الديني - العسكري سيعلي من شأن الرابطة الإسلامية، في حين يعلي البديل العسكري من شأن الوطنية المصرية. وفي كلتا الحالتين، ربما لن تجد إسرائيل ما يدفع لتصعيد الصراع مع مصر، حتى وإن أقدم النظام الجديد على «تجميد العلاقات»، معها. على أنه تظل هناك إمكانية أن يبنى البديل الإسلامي دعوة قوية إلى الوحدة العربية، مقرونة

بالوحدة «الاسلامية». ولكن المهم هنا، هو أن كلاً من البديل الديني العسكري، أو العسكري، سيكون مؤقتاً غالباً، لأسباب داخلية مصرية أساساً، ما لا يسمح بالتطبيق الفعلي للدعوة الوحدوية.

الملاحظة الرابعة هي أنه، وفي ضوء ما سبق، يمكن القول إن أكثر الاحتلالات المؤاتية لنشوء الاقليم القاعدة في مصر، يرتبط بتبلور نخبة سياسية مدنية ذات توجه علماني، تمثل، أساساً، مصالح البرجوازية الوطنية (أو قوى الرأسمالية الوطنية المنتجة، ذات النزعة الاستقلالية)، والتي ترى في الوحدة العربية الامكانية الوحيدة، لإنجاز مشروع نهضوي مصري وعربي في آن واحد. إن هذه النخبة التي يمكن أن تصل إلى الحكم بدعم من القوات المسلحة، ولكن بدون مشاركة مباشرة منها، سترى في التكامل الاقتصادي العربي في مجالات السوق، والعمل والتراكم الرأسمالي والموارد الأولية الفرصة الوحيدة لتحقيق تنمية حقيقية ومستقلة. وفي الأغلب، فإن هذه النخبة لن تبادر باستفزاز العداء الاسرائيلي، ولكن توجهاتها الوحدوية ستجعلها بسرعة موضع شك وترقب من إسرائيل.

إن قيام دولة الوحدة، بمبادرة من دولة (أو دول) الاقليم - القاعدة سيعني انقلاباً في اتجاه التأثير بين إسرائيل، والوطن العربي. وبعد قيام دولة الوحدة، ستدعى تأثيرات متصورة على اسرائيل:

- فالهجرة إلى اسرائيل، ستعرض لانخفاض شديد يهبط بها إلى ما هو أدنى بكثير من المعدلات الدنيا المتوقعة منذ منتصف الثمانينات. ويعني ذلك، مباشرة، تنابض النشاط الاستيطاني، والتوجه بمواقفه القليلة إلى المناطق الأكثر أمناً، داخل «الخط الأخضر». وبعبارة أخرى، فإن الاستيطان، بدلاً من أن يكون الأداة لتحديد الحدود الآمنة، فإن الحدود الآمنة فعلاً هي التي ستحدد موقع الاستيطان.

- ستسعى اسرائيل إلى المزيد من الالتصاق، بل والاندماج بالولايات المتحدة، وهو الأمر الذي تكون أبعاده قد تنامت فعلاً في خلال العقد الأول للاستشراف. ولا شك أن هذا التوجه الاسرائيلي سيجد رد فعل إيجابياً من الولايات المتحدة.

- ستدعم اسرائيل بسرعة من ترسانتها النووية، وتهتم بإعلان ونشر الأنباء، بما في ذلك الأنباء المبالغ، حول قوتها النووية، على أساس أنها ترى في السلاح النووي عنصر الردع الأساسي الذي يمكن الاعتماد عليه، في مواجهة دولة الوحدة العربية.

- أما أهم الأخطار على إسرائيل عقب قيام دولة الوحدة فسوف يرتبط بالأثر الذي يحدثه قيامها على أوضاع العرب الواقعيين تحت السيطرة اليهودية، سواء في داخل «دولة إسرائيل» أم في الأراضي المحتلة (إذا استمرت أوضاعها، وفقاً للمشهد الأول). إن قيام دولة الوحدة، وحصارها لإسرائيل، يعنيان أحداث انقلاب معنوي هائل لدى هؤلاء العرب،

ونمو تناقضاتهم مع المجتمع اليهودي . وفي حين تتزايد قوة الحركة الرافضة للاحتلال، والمطالبة بالاستقلال لدى عرب المناطق المحتلة، فإن قوة عرب اسرائيل في رفض اعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية في بلادهم، ستتصاعد إلى حدود غير مسبوقة منذ قيام الدولة العبرية .

٣ - فإذا انتقلنا إلى المحدد الثالث لتطور الصراع العربي - الاسرائيلي، في ظل شروط المشهد الثالث، أي موقف القوى الدولية، فإن الأمر أيضاً سيختلف قبل قيام الوحدة، عنه بعدها، داخل الاطار الزمني للاستشراف. في المرحلة الأولى، سيظل الموقف العربي في حال انكشاف أو تعرض لكل التأثيرات الدولية عليه، من دون مقاومة تذكر، كما سبقت الإشارة. وفي ظل هذه المعطيات، فإن الدعم الأمريكي لإسرائيل، والمتصور تزايد خلال العقد الأول للاستشراف، سيستمر، بلا أي مقاومة عربية. وفي المقابل، فإن التحسن النسبي للعلاقات العربية - السوفياتية سيظل داخل حدود صارمة لا يتعداها، ويترافق معه سعي سوفياتي إلى تحسين العلاقات مع إسرائيل، وإن كانت قضية المهاجرين اليهود السوفيات، ستظل عقبة أساسية أمام انطلاق العلاقات بين الجانبين .

ولكن قيام دولة الوحدة سيعني قيام قوة كبرى في المنطقة تقلب حسابات القوى العظمى إزاءها. والمنطق المتصور أن يحكم توجه هذه القوى إزاء الدولة الجديد، سيكون هو «ضرورة الاحتفاظ بعلاقات طيبة معها»، وسيظل هذا المنطق هو السائد، حتى لو أبدت الدولة الجديدة في لحظات معينة مشاعر سلبية تجاه هذه القوة أو تلك .

إن التحدي الأساسي الذي ستواجهه دولة الوحدة، على هذا الصعيد، هو العلاقات العضوية التي ستكون قد تشعبت، بين اسرائيل والولايات المتحدة، عند قيام الدولة الجديدة. وستسعى الولايات المتحدة إلى الحفاظ على علاقات طيبة مع دولة الوحدة، في الوقت الذي تبقى على علاقاتها الخاصة والمتنامية مع اسرائيل. ولكن دولة الوحدة، ستكون في وضع يسمح لها، لأول مرة، بأن تضغط على الولايات المتحدة، بحيث يكون رد الفعل الأمريكي هو الاستجابة بالضغط على اسرائيل، وليس مقابلة الضغط العربي بضغط أمريكي مضاد، كما كانت الحال سابقاً .

ومع ذلك، فإن اسرائيل ستظل الشوكة المغروزة في الجسد العربي، والمرتبطة عضوياً بالولايات المتحدة. ولذا، فإن هذه الأخيرة ستظل مستعدة للوقوف بشكل سافر ضد الدولة الجديدة، إذا ما ظهرت نواياها للدخول في جولة يتعرض فيها الوجود الاسرائيلي لأذى خطر .

ومن ناحية أخرى، فإن دولة الوحدة ستكون في وضع يسمح لها لأول مرة بالتنسيق الفعّال مع القوة العظمى الأخرى، أي الاتحاد السوفياتي. وسيجد هذا الأخير في قوة هذه الدولة، وغماسكها الاقليمي، ما يشجعه على توطيد علاقاته بها، بما يتجاوب مع مطالبها .

على أن قدرة دولة الوحدة، على أن تكون لها أيضاً علاقات طيبة ومتكافئة مع القوى الكبرى الأخرى (أوروبا الغربية التي تكون قد قطعت أشواطاً جديدة على طريق وحدتها، واليابان، والصين، والهند، وبعض بلدان أمريكا اللاتينية)، سوف يهيئ لها موقفاً دولياً يخدم وضعها في الصراع ضد إسرائيل، بما لا يقاس مع أي فترة سابقة.

٢ - مستقبل الصراع عسكرياً في ظل الوحدة العربية^(*)

سيغير توازن القوى في الصراع المسلح تماماً، في حال قيام الوحدة، قبل إجهاضها بتدخل عسكري مباشر من إسرائيل، إذ يكفي أنه يعني أن تصبح القوات المصرية مرة أخرى قادرة على الاشتراك في الصراع المسلح، إضافة إلى بعض البلدان العربية الأفريقية التي تصعب عليها هذه المساهمة، نتيجة للسلام المصري - الإسرائيلي.

لا تعني الوحدة إمكان اشتراك كل القوات العربية في الصراع العربي - الإسرائيلي، إذ إن دولة الوحدة لا بد وأن تحتفظ بقوات لها لمواجهة أي احتمال لتدخل قوى خارجية، سواء من دول الجوار الجغرافي، أم من قوى أكبر، إما بغرض الحصول على مكاسب إقليمية بالنسبة للأولى، أم لمساعدة إسرائيل في الثانية، إذ إن اشتراك دولة الوحدة في صراع مسلح مع إسرائيل، قد يغري هذه القوى باستغلال الفرصة. وهكذا، فإن توازن القوى يضع في الاعتبار اشتراكاً كاملاً من القوات المسلحة الموجودة في منطقة القلب، مع بقاء قوات كافية لحماية الحدود الشرقية في منطقة الخليج، ولحماية السواحل العربية أساساً في شمال أفريقيا، ولردع أي تهديد لمنايع النيل والسيطرة على المياه العربية في البحر الأحمر وخليج عدن.

يتأثر توازن القوى العسكرية في الصراع المسلح بعلاقة دولة الوحدة بالقوى العظمى، وبصفة خاصة بالاتحاد السوفياتي إذا افترضنا استمرار انحياز الولايات المتحدة الأمريكية إلى إسرائيل. فإذا استمرت علاقاتها به متوازنة فإن هذا يسمح للقوات العربية بحشد قوات أكبر لمصلحة الصراع المسلح مع إسرائيل، إذ أن مجرد المساندة السوفياتية للموقف العربي قد يمنع كلاً من تركيا والولايات المتحدة الأمريكية من التدخل مباشرة في الصراع المسلح، ويقلل من حجم القوات التي يلزم الاحتفاظ بها كاحتياط في مناطق أخرى.

في جميع الظروف، تسمح دولة الوحدة بتحقيق تفوق عددي حاكم على القوات الإسرائيلية في جميع المجالات، كما أنها تسمح مع مرور الزمن بالتقدم نوعياً وفي مجال التكنولوجيا النووية، إذ إن التقدم الصناعي المتوقع لدولة الوحدة يمكنها من بناء قاعدة صناعية تعتمد عليها الصناعة العسكرية العربية، ومن بناء مجلس للقوات المسلحة يسمح

(*) كتب هذا الجزء اللواء طلعت مسلم.

بمراعاة ظروف مسارح العمليات المختلفة، وبناء نظام قيادة وسيطرة متطور، وكفاءة عالية في الاستطلاع (الاستخبارات والاتصالات) ويمكنها أيضاً من بناء نظام للأقمار الصناعية وأسلحة الطاقة الموجهة، مما لا يمكن لإسرائيل تحقيقه من دون الاعتماد الكامل على الولايات المتحدة.

لا بد أن تهتم دولة الوحدة بقضية قوات الدفاع الجوي والقوات الجوية والقوات البحرية لحماية أجوائها وشواطئها المعرضة، وتأمين مصالحها في البحار الغربية. ولذا، فإن هذا النمو يظهر في زيادة عدد سفن السطح الرئيسية والغواصات وزوارق الصواريخ، كما يتحقق انتشار وكفاية مناسبة لكل من تشكيلات الدفاع الجوي والقوات الجوية، وبخاصة لتغطية مناطق الضعف الحالية في مناطق الخليج والقرن الأفريقي، وغرب أفريقيا، إضافة إلى الأردن ولبنان. وتستطيع هذه القوات فرض سيطرتها على مضائق البحر المتوسط والأحمر، بمجرد بدء الصراع المسلح.

يؤدي الاقتصاد المنسق لدولة الوحدة الفدرالية إلى وجود قاعدة اقتصادية قوية تمكن دولة الوحدة من إدارة صراع مسلح طويل وعنيف، ومن توفير احتياجاته الضرورية، سواء محلياً أم بالاستيراد، بما لا يسمح لإسرائيل، حتى بمعاونة الولايات المتحدة، من تحمّل استمراره.

وهكذا، فإن دولة الوحدة الفدرالية تستطيع أن تحقق تفوقاً عاماً يشتمل على محصلة الكم والنوع في توازن القوى العسكرية مع إسرائيل، مع الاحتفاظ بقوات كافية لتأمين أراضي الدولة في اتجاهات التهديد المختلفة.

ولا شك أن هذه المعدلات قريبة التحقيق ولا يصعب تحقيقها، إلا أنها تزيد فاعليتها وتحسن نوعياتها بوجود قيادة موحدة قادرة على توجيهها وتطويرها بما يحقق لها هذه الكفاية، أي أن مجموع القوات المبصرة حالياً ببعض الإضافات وتحسين نوعيتها وكفاية قيادتها، تكون أكثر قوة وفاعلية.

ومراجعة الجدول الخاص بالمؤشرات العسكرية لدولة الوحدة، نجد أنها وضعت أساساً على أساس التعداد المتوقع لشعب الأمة العربية عام ١٩٩٠ وقد روعيت فيه عوامل المساحة، وواقع أن نظام التجنيد اجباري، واستبعدت القوى الاستراتيجية لعدم وجود أطمار خارجية لدولة الوحدة. كما روعي أن يكون هناك توازن مع مصادر التهديد الإقليمية أساساً، مع قدرة على مواجهة تهديد خارجي بالتعاون مع قوى عالمية أخرى، كما روعيت زيادة القوة البحرية بحيث تؤمن المصالح البحرية والسواحل العربية، وأن تتمتع الدولة الحديثة بقوة جوية كافية، وأن يكون المعدل المقترح لدولة الوحدة ممكن التحقيق بدولة واحدة على الأقل في الظروف الحالية، باستبعاد الأسلحة النووية. ووفقاً لهذه المؤشرات، فإنه من

المتوقع أن يكون اقتصاد دولة الوحدة قادراً على تحقيق هذه المعدلات من دون ارهاق لحظة التنمية، بخاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن اتحاد هذه الدول يضيف إليها قوة جديدة غير منظورة.

لقد وضع التوازن بين العرب واسرائيل، على أساس تخفيض المجهود الرئيسي في هذا الاتجاه الاسرائيلي، مع المقدرة على ردع أو صد أي هجوم من دول الجوار الجغرافي الرئيسة، والقوة المخصصة للصراع مع اسرائيل لا تزيد في غالبية الأحوال عن نصف القوة العسكرية لدولة الوحدة. وروعي عند تخصيص القوات البحرية للصراع، تحديد القوة المخصصة للصراع المباشر مع القوات الاسرائيلية حول سواحل الأرض المحتلة من دون حساب القوات البحرية المخصصة لحماية السواحل البعيدة عنها، أو للسيطرة على الممرات البحرية في البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج أو لحماية خطوط المواصلات البحرية. وعلى رغم ذلك، فإن نسبة التفوق العربية على اسرائيل لا تقل عن ضعف القوة الاسرائيلية، إلا في مجال الأسلحة النووية، نظراً إلى ضيق مساحة الأرض المحتلة، ووجود مواطنين عرب في الأرض المحتلة. ويبقى دور الأسلحة النووية أساساً لردع أي قوة أجنبية تسعى إلى مساعدة إسرائيل، إضافة إلى إمكان ضرب القواعد الجوية الرئيسة والقواعد البحرية ومفاعل ديمونة في الأرض المحتلة.

وإذا كان التوازن النووي يكفل لدولة الوحدة تفوقاً حاسماً، فإن وحدة القيادة والروح القومية والعلاقات الدولية المتوازنة، كفيلة بأن توفر للقوات المسلحة العربية التفوق النوعي، أو التعادل النوعي على الأقل.

وفي ما يتعلق بنموذج الحرب المقبلة، فعلى رغم أن هذا المشهد يصل بالقوة العربية إلى أقصى مداها، إلا أنه غالباً ما لا يمتلك التأثير على مستقبل الصراع المسلح في الصراع العربي - الاسرائيلي خصوصاً ومستقبل الصراع كله عموماً خلال فترة الاستشراف، إذ أن الزمن اللازم لتحقيق الوحدة العربية أولاً، ثم الوصول بهذه الوحدة إلى المستوى الذي يؤثر في الصراع العربي - الاسرائيلي وبخاصة في جانبه المسلح، يستغرق فترة الاستشراف كلها. وإذا كان قيام القوة الاقليمية القاعدة، أو القوة العربية المركزية مطلباً أساسياً لقيام الوحدة العربية الشاملة، وهي مؤكدة، فإن تأثير هذه القوة على الصراع يمكن أن يقترب كثيراً من التأثير العسكري للوحدة الشاملة على الصراع المسلح، والصراع العربي - الاسرائيلي ككل. ويشتمل هذا الاقليم القاعدة بصفة رئيسة على كل من مصر وسوريا والسعودية كحد أدنى، ويمكن أن يتسع ليشمل العراق وليبيا مع احتلال إضافة الجزائر والسودان. كما أن هذه القوة العربية المركزية، يجب ألا تشغلها الهياكل الدستورية وعمليات التوحيد عن سرعة التنسيق العسكري في ما بينها قبل استكمال هذه العمليات، وأن يتم هذا التنسيق من دون اعلان قدر

الامكان، وبخاصة في مراحله الأولى، حتى لا يكون عرضة للاجهاض قبل مدته، وأن يكون تحت ستار تبادل الخبرات والزيارات من دون الإشارة إلى تنسيق فعلي.

يظل نموذج الحرب المقبلة ثابتاً، ويختلف في اتساع نطاقه حسب درجات التنسيق الممكنة وقدرة إسرائيل على اجباطها، فكلما تقدم التنسيق كلما قلت قدرات اسرائيل على الاجباط، وكلما اتجهت إلى عمليات محدودة قوية، وإلى التهديد باستخدام الأسلحة النووية أو استخدامها فعلاً، وكلما قلت قدرات الدول العظمى على التأثير في الصراع، بينها تزيد رغبتها في التدخل لإيقاف الصراع المسلح.

٣ - التسوية في ظل الوحدة الشاملة

إذا كانت التسوية في ظل التجزئة هي «اللاتسوية»، أو التسوية وفقاً للشروط الاسرائيلية، وإذا كانت التسوية في ظل التنسيق الوظيفي تتم وفقاً لتوازن مقلقل للقوى بين العرب، بعد تحسن وضعهم نسبياً، وبين الاسرائيليين، فإن التسوية في ظل الوحدة الشاملة تضحي هي النقيض الكامل للوضع الراهن، وتعني، بالأساس، التسوية وفقاً للشروط العربية.

وفقاً للمحددات المشار إليها توأ، فإن شكل التسوية لا بد وأن يعكس حقيقة أن الوطن العربي، في ظل مشهد الوحدة العربية، ستتعاظم عناصر قوته الشاملة بحيث تحاصر تلك القوة اسرائيل، مدعمة بعمق جغرافي كبير وموقف دولي موافق. وفي المقابل، فإن اسرائيل، ستسعى إلى تحقيق أمنها أساساً، من خلال الاعتداد على الرادع النووي، فضلاً عن دعم علاقاتها العضوية بالولايات المتحدة.

وفي ما يتعلق بالقضية الفلسطينية تحديداً، فإن العنصر الحاسم سيكون موقف عرب الأرض المحتلة (الضفة الغربية وقطاع غزة) الذين سيؤدي قيام دولة الوحدة إلى شد أزهرهم، وبث الأمل في نفوسهم. وفي ظل التوازن الجديد للقوى، ستصبح إسرائيل مرغمة على التسليم بالكيان الفلسطيني المستقل، فوق أرض الضفة الغربية وقطاع غزة، أي الدولة الفلسطينية. ولكن تأثير قيام دولة الوحدة العربية، لن يقتصر فقط على عرب الأرض المحتلة، ولكن سيتعداه، بالضرورة، إلى عرب إسرائيل أنفسهم، بحيث تنتقل مشكلة التناقض بين اليهود والعرب في إسرائيل إلى مستوى كافي جديد، وبذلك التطورات تبرز، مع دولة الوحدة، اشكالية فلسطينية جديدة، واشكالية اسرائيلية جديدة.

- الاشكالية الفلسطينية تتمثل، تحديداً، في التناقض بين الحاجة الفلسطينية إلى «الدولة» القطرية المستقلة، والحاجة العربية إلى دولة الوحدة، التي تدوب فيها الدولة

القطرية، أي يكون على الفلسطينيين أن ينتقلوا مباشرة من حال «اللدولة» إلى حال الاندماج في كيان «فوق الدولة» من دون مرور بمرحلة الدولة المستقلة. ولقد رفض الفلسطينيون (أو القطاع المسيطر منهم، بخاصة في منظمة التحرير) هذا الحل عندما كان الطرف العربي هو الأردن تحديداً، أما في حال كون الطرف العربي، هو «دولة الوحدة العربية»، فإن الأمر سيختلف. وفي ضوء الصيغة الفدرالية للوحدة العربية، فإن التوفيق بين الخصوصية الفلسطينية والعمومية العربية، سيضحي أمراً متصوراً.

ولقد وضعت تصورات عديدة «للدولة الفلسطينية المستقلة» ولا مكانية قيامها، بالنظر إلى مساحة أرضها، وعدد سكانها، ومواردها الاقتصادية. كما درست بالتفصيل الطبيعة المحتملة لنظامها السياسي في الداخل، وعلاقاتها الخارجية، مما يخرج بالطبع عن نطاق دراستنا هذه. ولكن المهم، هنا، هو أن هذه الدولة ستظل غالباً «فرضاً نظرياً»، وفقاً للمعطيات السابقة :

- فوجود الدولة الفلسطينية يعني سيادة منطق الدولة عموماً في الوطن العربي، أي دولة فلسطينية إلى جانب الدولة السورية، واللبنانية والأردنية... إلخ. ولكن ذلك هو بالتحديد منطق التجزئة، الذي يقضي، بالضرورة، إلى العجز عن حل القضية الفلسطينية، وفقاً للمشاهد الأول، أي العجز عن إقامة هذه الدولة فعلياً.

- ومن الناحية الأخرى، فإن الشرط اللازم لقيام هذه الدولة فعلياً هو شرط «الوحدة العربية»، بما يعنيه من سيادة «منطق الوحدة» والذي يقضي، بالضرورة، إلى تذويب هذه الدولة عربياً.

وبالنسبة إلى إسرائيل، فإن قيام الدولة الفلسطينية المستقلة، أو المندمجة في كيان عربي كبير، هما أمران أحلاهما مر. وفقط بالاستناد إلى القوة العسكرية، والرادع النووي، ستحاول إسرائيل تحييد خطر الكيان الفلسطيني، أيّاً كانت درجة استقلاليته، أو ارتباطه بالكيان العربي الكبير.

- أما «الاشكالية الاسرائيلية» المترتبة على قيام الدولة العربية الواحدة، فترتبط بموقف عرب إسرائيل، أو «فلسطيني إسرائيل». إن استناد هؤلاء إلى قوة سياسية كبرى خارجية، ومحيطه بدولة إسرائيل، وتناقضهم الجذري، في اللحظة نفسها مع السكان اليهود، يجعل منهم قوة مهددة لتراكم هذه الدولة وأمنها، كما تصوّر النخبة اليهودية الحاكمة. وفي حين كان بإمكان هذه النخبة أن تمارس سياساتها العنصرية ضد هذه «الأقلية» في ظروف التجزئة، فإنه تحدّ من هذه الامكانية في ظل مشهد الوحدة، قيود كثيرة. ومع تنامي العلاقات والاتصال بين «عرب إسرائيل»، والكيان الفلسطيني في الضفة والقطاع، المرتبط عضوياً بدوره بالدولة

العربية الكبرى الأم، فإن الوجود اليهودي في فلسطين يصبح، لا محالة، وجوداً محاصراً، تكون مهمته الأساسية أن يحافظ على نقائه وهويته من الذوبان في وسط البحر العربي المحيط.

وفي ظل هذه الأوضاع، فإن استرجاع الأرض العربية المحتلة يكون تحصيل حاصل، بحكم علاقة القوى بين الطرفين. وفي ما يتعلق بهضبة الجولان تحديداً، فإن الدولة العربية الواحدة ستكون في وضع يسمح باسترجاعها إلى السيادة العربية، في حين تستطيع إسرائيل، بحكم قوتها العسكرية، أن تفرض نزع سلاح هذه المنطقة، والحد من الأخطار المرتبطة بموقعها الاستراتيجي الحاكم.

في هذا السياق، فإن قضية العلاقة العربية - الاسرائيلية لن تكون قضية حرب أو سلام، لأن التحدي في الحالتين، بالنسبة إلى اسرائيل، سيظل قائماً: الحرب، في ظل الاستعداد العربي الأمثل الذي توفره دولة الوحدة، بما في ذلك بدء تنمية القدرات النووية، ستكون اختياراً غير مأمون العواقب، حتى في ظل التلويح بالخطر النووي. والسلام، في أفضل حالاته، وبافتراض فتح كل الأبواب العربية، في ظل دولة الوحدة العربية، الممتدة من المحيط إلى الخليج، وذات الاقتصاد الغني المتسع، والنظام السياسي المركزي المسيطر، لن يجعل من خطط السيطرة الاقتصادية والمهيمنة السياسية الاسرائيلية، إلا أوهاماً وأضغاث أحلام.

وفي الغالب، فإن ما سيسود هو السلام، أي السلام العربي تحديداً، الذي يجعل من اسرائيل نتوءاً هامشياً، ويطلق العقال لقوى المنطق التاريخي لأن تأخذ مداها في استيعاب وامتصاص الجسم الصهيوني الدخيل.

خاتمة

عبر الصفحات السابقة، حاولت هذه الدراسة استشراف مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي، في ضوء المشاهد البديلة لمستقبل الوطن العربي. وكما وضع من ثنايا الدراسة، فإن هذه المحاولة لم تكن يسيرة لأكثر من سبب: فهي أولاً تتعلق بحقائق بشرية وقيم إنسانية حية وليس بحقائق طبيعية أو تكنولوجية أو بقيم مادية جامدة. وهي ثانياً تتعلق بحالة «صراع» ذي طابع جدلي معقد، وليس بحالة تطور مبسط احادي الاتجاه. ثم انها، ثالثاً، تتعلق بصراع بين طرفين في حالة تطور وتغير مستمرين، فضلاً عن أن ايقاع واتجاه هذا التطور والتغير، يختلف من أحدهما الى الآخر، اختلافات متباينة.

وكما سبقت الإشارة، فإن الاهتمام بمستقبل الصراع مع العرب كان حاضراً دائماً لدى زعماء الحركة الصهيونية، سواء قبل قيام اسرائيل أم بعد قيامها. ولم يكن ذلك غريباً لدى حركة قامت منذ البداية على التخطيط المسبق لمسارها، وعملت دائماً على تلمس خطواتها وسط الظروف الدولية المتغيرة واستغلال هذه الظروف، بل وتوظيفها، لخدمة الحركة الصهيونية. وفي واقع الأمر، فإن الاسرائيليين لم يكفوا أبداً عن طرح أفكارهم وتصوراتهم حول مستقبل اسرائيل والوطن العربي، أو الشرق الأوسط. ومثلما تعبر هذه الأفكار عن تقديرات وحسابات معينة، فإنها تعبر أيضاً عن أوهام وأمنيات، وتحمل تالياً إمحاءات مدروسة وموجهة.

في ضوء ذلك، جاءت هذه المحاولة لاستشراف الصراع العربي - الاسرائيلي، في اطار استشراف مستقبل الوطن العربي عموماً، ليس فقط لارتباط مجال دراسي خصب، وإنما أيضاً لتقديم وجهة نظر عربية حول مستقبل الصراع، وبكل ما تنطوي عليه من مضامين موضوعية وأهداف سياسية ومعنوية.

إن استشراف مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي، وكما جاء في هذه الدراسة، لم يكن ممكناً إلا بتوافر مجموعتين من المعطيات:

أولهما، الخبرات التاريخية، المباشرة وغير المباشرة، التي ارتبطت بالصراع العربي الاسرائيلي، طوال الفترة الماضية.

ثانيهما: مقومات قوة اسرائيل وعناصرها، في العقود الثلاثة المقبلة، أي الفترة التي يغطيها الاستشراف، باعتبار أن المسار المستقبلي للصراع هو أساساً محصلة للتقابل بين القوة الاسرائيلية والقوة العربية. وهذه الأخيرة - أي القوة العربية - تصاغ في الدراسة في إطار ثلاثة خيارات (مشاهد) بديلة.

إن أولى الخبرات التاريخية التي حاولت الدراسة تقديمها، هي تلك الخبرات التي تُستخلص من المسار السابق للصراع العربي - الاسرائيلي، في شكل عوامل حاسمة أو محددة له. وبهذا الصدد، خرجت الدراسة - من بين المفردات والمتغيرات العديدة المتعلقة بتفسير الصراع العربي - الاسرائيلي وتحديد ماهيته - بثلاثة «محددات» تتسم بدرجة من العمومية والتجريد، تسمح باستيعاب المتغيرات المختلفة التي تتحكم في الصراع، وهذه المحددات هي:

- التناقض بين ما سُمي بـ «الكيف» الاسرائيلي، غير القابل للتطور الكمي، و«الكم» العربي القابل للتطور الكيفي. فاتجاه مسار الصراع العربي - الاسرائيلي، طوال العقود الأربعة الماضية، لمصلحة الطرف الاسرائيلي، إنما ارتبط عموماً بالتفوق الاسرائيلي على الطرف العربي، الذي هو بالضرورة تفوق «كيفي» أو «نوعي»، استطاع أن يحد من التفوق الكمي العربي، سواء من حيث عدد السكان أم مساحة الأرض، أم الموارد الاقتصادية والقوة العسكرية. هذا التفوق النوعي وجد أبرز تعبير عنه في التفوق العسكري، وممارس تأثيره على مسار الصراع من خلال القدرة على التخطيط، والكافية في الأداء، ثم القدرة على المبادرة. وفي ضوء ذلك، يمكن القول أن المسار المستقبلي للصراع العربي - الاسرائيلي يتحدد بعلاقة القوى بين الكيف الاسرائيلي والكم العربي، أو الحدود القصوى التي يمكن أن يصل إليها الكيف والكم الاسرائيليان، وكذلك درجة التحسن الكيفي أو النوعي على الجانب العربي.

- المحدد الثاني، هو ما أسمته الدراسة الطابع «التحولي» أو «المتغير» للمرحلة التاريخية التي يمر بها الأطراف المباشرون للصراع، أي اسرائيل والدولة العربية، وذلك من منظور تطور «الدولة» خصوصاً. لقد أثرت هذه الحقيقة في الماضي على مسار الصراع، ومن المنصور أن مصير الدولة «القطرية» العربية ومدى الاستعداد للذوبان في كيان أكبر، لا بد وأن يؤثر في مستقبل الصراع.

- المحدد الثالث، هو انتهاء الأطراف المباشرين للصراع الى القوى «التابعة» أو

«الهامشية» في العالم، وذلك يعني أن الدور الذي مارسه القوى الكبرى المسيطرة في المنطقة، في التأثير على مسار الصراع العربي - الاسرائيلي، كان دوراً حاسماً. ولذا، فسيكون من الصعب تجاهل طبيعة هذا الدور وحدوده، لدى محاولة استشراف مسار الصراع مستقبلاً.

المجموعة الثانية من الخبرات التي حاولت الدراسة استخلاصها، هي تلك المتعلقة بطبيعة العلاقة بين الصراع العربي - الاسرائيلي، وبين التوجه العربي نحو الوحدة. لقد جاء التركيز على هذه العلاقة تحديداً من حقيقة أن «مشاهد» المستقبل العربي، التي تعتمدها الدراسة، إنما تقوم على معيار الاقتراب أو الابتعاد من الوحدة العربية.

وأفضى تحليل هذه العلاقة الى طرح عدد من الافتراضات تتناول أثر الصراع العربي - الاسرائيلي على التوجه العربي نحو الوحدة، وأثر التوجه الوحدوي على الصراع مع اسرائيل، ثم الدور المصري المؤثر على العلاقة بين هذين المتغيرين. في ما يتعلق بالشق الأول، المتعلق بأثر الصراع على التوجه نحو الوحدة العربية، نظر إلى الصراع كمتغير مستقل، والوحدة كمتغير تابع. والعلاقة في هذا الاتجاه تنطوي على افتراضين متناقضين: أولهما، أن الصراع مع اسرائيل يلعب دوراً «معيقاً» للوحدة العربية، وثانيهما أن الصراع مع اسرائيل يلعب دوراً «محفزاً» للوحدة العربية، وللعمل العربي المشترك. وفي واقع الأمر، وكما أثبتت الدراسة، فإن التاريخ العربي المعاصر يمدنا بوقائع وبراهين تؤيد كلا الافتراضين، والأمر نفسه ينطبق على الافتراضين المتعلقين بمعالجة التوجه الوحدوي كمتغير مستقل، والصراع كمتغير تابع. وهذان الافتراضان هما أن التوجه العربي نحو الوحدة، يؤدي إلى «تصعيد» الصراع العربي - الاسرائيلي، أو أنه على العكس، يؤدي الى «تهدئة» ذلك الصراع. وفي حين يجد الافتراض الأول من وقائع التاريخ المعاصر ما يؤيده، فإن الافتراض الثاني يظل أطروحة نظرية أساساً، يصعب اختبارها في ضوء الخبرة السابقة للصراع.

وانطلاقاً مما خلص اليه التحليل من أن طبيعة الأثر «الحافز» أو «المعيق» للصراع العربي - الاسرائيلي، على التوجه الوحدوي، إنما ترتبط بتوافر «شروط أخرى»، قدّرت الدراسة أن تلك «الشروط الأخرى» ترتبط بموقف «مصر»، قبل أي شيء آخر، وأن حيوية مصر وتوافر الوعي العربي لدى نظامها، كانا شرطين أساسيين للعمل العربي المشترك، ولمحاولات الوحدة العربية، وللمواجهة الفعالة للتهديد الاسرائيلي.

المجموعة الثالثة من الخبرات لا تتعلق بالصراع العربي - الاسرائيلي مباشرة، ولكنها تتعلق بنموذجين للاستعمار الاستيطاني تحمل المشابهة بينهما وبين الوجود الاسرائيلي دلالات لا يمكن أغفالها، في ما يتعلق باستشراف مستقبل اسرائيل. إن المشابهة الأولى تتم، عبر التاريخ، بين القرنين ١١ و ١٢ الميلاديين والقرن العشرين، بين الوجود الاسرائيلي المعاصر والوجود الصليبي القديم، في الشرق العربي. والمشابهة الثانية تتم، عبر الجغرافيا، في القرن العشرين، بين اسرائيل وجمهورية جنوب افريقيا.

الخبرة في المشابهة الأولى تدور حول عوامل زوال الغزوة الصليبية، وتجد مبرراتها في التماثل المثير بين الملامح الدقيقة للحركتين الصليبية (قديماً) والصهيونية (حديثاً). وقد انتهت الغزوة الصليبية عبر مراحل طويلة وممرية من الشد والجذب بين العرب والمسلمين، وبين الصليبيين، الى استئصال الوجود الصليبي من المنطقة. ولذا فإن أسباب هذا المصير والظروف التي أحاطت به، كانت، ولا تزال، موضع بحث الكثير من الدارسين اليهود والصهاينة. إن هذه الأسباب والظروف تدور - وفقاً لما أجمعت عليه غالبية الدارسين، وكما تعرض الدراسة بإيجاز - حول ثلاثة عوامل، أولها تفكك المجتمع الصليبي وجموده، ومعاناته من الانقسامات التي نبتت من الطابع الاقطاعي الذي حمله ذلك المجتمع معه من أوروبا، فضلاً عن الانقسامات التي شهدتها ذلك المجتمع بين الأجيال التي نفذت الحملة الصليبية، وتلك التي نشأت في المجتمع الصليبي نفسه، والانقسامات التي ظهرت - تحت وطأة الضغط العربي - بين أبناء المدن والممالك الأوروبية المختلفة الذين تكوّن منهم ذلك المجتمع. والعامل الثاني هو تقطع الجسور بين المجتمع الصليبي المزروع في المشرق العربي وبين الوطن الأم له، أي بلاد العالم الأوروبي الغربي، وبخاصة من زاوية ضمور المدد البشري المستمر اللازم لدعمه وتقويته. أما العامل الثالث لزوال الغزوة الصليبية، فيتمثل في تنامي القوة العربية - الاسلامية المحيطة به، واختلال توازن القوى بينها لمصلحة الطرف العربي - الاسلامي.

أما الخبرة في المشابهة الثانية، بين اسرائيل ومهورية جنوب أفريقيا، فإنها تدور، عكس المشابهة الأولى، حول عوامل «استمرار» و«بقاء» النظام العنصري في جنوب افريقيا. وتجد هذه المشابهة مبرراتها في حقيقة ان كلا من اسرائيل وجنوب افريقيا تقدم مثلاً للدولة الاستيطانية وللنظام السياسي الاستيطاني، في القرن العشرين، بحيث أدى السبق الزمني لجنوب افريقيا الى اعتبارها تمثل الى حد بعيد صورة المستقبل بالنسبة الى اسرائيل. هنا أيضاً، وبعد تحديد الخصائص المشتركة بين اسرائيل وجنوب افريقيا، تورد الدراسة ثلاث مجموعات من العوامل التي تفسر استمرارية نظام جنوب افريقيا. المجموعة الاولى من العوامل، هي تلك المرتبطة بقوة الجماعة الاستيطانية وتماسكها، والتي تعكس الاحساس بالدوافع المشتركة والمصير المشترك والخطر المشترك. أما المجموعة الثانية من العوامل، فهي التي تتعلق بالتفوق الساحق الذي تحرزه جنوب افريقيا على البيئة الاقليمية - الافريقية المحيطة، بخاصة في الميدانين العسكري والاقتصادي. وأخيراً، فإن علاقات جنوب افريقيا مع العالم الاوربي، الذي يمثل الشريان الحيوي الذي يغذي الدولة العنصرية بكل مظاهر القوة والشرعية، تمثل المجموعة الثالثة من عوامل استمرارية نظام جنوب افريقيا.

فيذا كانت الخبرات التاريخية، المباشرة وغير المباشرة، التي ارتبطت بالصراع العربي - الاسرائيلي، تمثل أولى المعطيات التي توافرت للدراسة على ايرادها لاستشراف مستقبل هذا الصراع، فإن المعطيات الثانية تمثلت في مقومات اسرائيل في العقود الثلاثة

المقبلة وعناصر قوتها. هذه المقومات والعناصر عولجت تحت أربعة عناوين رئيسية، هي: السكان والارض ومستقبل النشاط الاستيطاني، والاقتصاد الاسرائيلي، والمجتمع ومستقبل النظام السياسي، ثم القوة العسكرية والتوازن العسكري مع الوطن العربي.

في ما يتعلق بعنصري السكان والارض، واللذين يمثلان أول وأهم عناصر «القوة الشاملة» لدى أي دولة، تواجه اسرائيل، كدولة استيطانية ذات ميل توسعي، باحتلالات مستقبلية تختلف عن الدول العادية.

فالقضية الأساسية هنا، ليست هي معدلات الزيادة السكانية واحتمالاتها المستقبلية، وإنما هي احتمالات تغير التوازن السكاني داخل اسرائيل بين العرب واليهود. وفي حين تخضع زيادة السكان العرب لمعدلات الزيادة الطبيعية، فإن زيادة السكان اليهود ترتبط أساساً بتطور معدلات الهجرة الى اسرائيل، ومدى النجاح في تشجيع وتكثيف هذه الهجرة. وتقدر الدراسة ان عدد سكان اسرائيل البالغ الآن حوالي ٤,٥ ملايين نسمة، سيصل الى حوالي ٥,٣ ملايين عام ٢٠٠٠ وإلى حوالي ٦,٧ ملايين عام ٢٠١٥ (بعدد من اليهود يقدر بحوالي ٤,٢ ملايين، ٤,٩ ملايين على التوالي) - وذلك وفقاً لميزان هجرة منخفض، طبقاً للاحصاءات الاسرائيلية، أما وفقاً لميزان هجرة أكبر، طبقاً للاحصاءات نفسها، فإن اجمالي عدد سكان اسرائيل يمكن أن يصل عام ٢٠٠٠ الى ٥,٥ ملايين نسمة وعام ٢٠١٥ الى ٧,٤ ملايين نسمة (بعدد من اليهود يقدر بنسبة ٤,٣ ملايين و٥,٢ ملايين على التوالي).

وتنطبق الاحتمالات المختلفة أيضاً بالنسبة الى «أرض اسرائيل»، التي يرتبط تقدير مساحتها وامكاناتها بما تضمه اسرائيل اليها. ووفقاً للاحصاءات الرسمية الاسرائيلية عام ١٩٨٥ تقدر مساحة أرض اسرائيل بـ ٢١,٥٠١ كلم^٢، وذلك تقدير يشمل القدس الشرقية ومرتفعات الجولان! وفي واقع الأمر، فإن تقدير القادة الاسرائيليين، لأهمية «العمق الاستراتيجي» للدولة يفسر الاصرار الاسرائيلي على السيطرة على الضفة الغربية وقطاع غزة. وهنا، فإن الموازنة بين ما يعتبره الاسرائيليون ضرورة، أو حتمية، الاحتفاظ بأرض الضفة وغزة، وبين «مخاطر» ضم مليون وربع مليون فلسطيني، هي واحدة من أكثر قضايا المستقبل تعقيداً وحيوية بالنسبة الى اسرائيل.

وفي هذه العلاقة الحيوية بين ضرورة السيطرة على الأرض، وضرورة زيادة عدد السكان اليهود، تكمن أهمية النشاط الاستيطاني اليهودي، باعتباره العملية التي يتم بمقتضاها «زرع» العنصر البشري اليهودي، فوق أرض فلسطين. ووفقاً لمتابعة تطورات السياسة الاستيطانية في العقود الأربعة الماضية، بخاصة التطورات التي عرفتها بعد ١٩٦٧، تخلص الدراسة الى عودة الاهتمام في اسرائيل الى التركيز على الاستيطان داخل «الخط الأخضر»، أي داخل حدود ما قبل ١٩٦٧، مع السعي الى جعل الاستيطان اليهودي في الأراضي العربية المحتلة، خارج الخط الأخضر، أكثر «كفاءة» في تحقيق أهداف الدولة العبرية.

أما بالنسبة الى الاقتصاد الاسرائيلي، والذي تتمثل أهم ملامحه في غلبة الاعتبارات الاستراتيجية والايديولوجية عليه، والدور المركزي للدولة في توجيهه، وضعف امكاناته الذاتية، وعلاقته الحيوية بالعالم الخارجي التي يقابلها علاقة ضعيفة مع الوسط الاقليمي المحيط، فإن مستقبله في العقود القليلة المقبلة سيتحدد - وفقاً لما تذكره الدراسة - بناء على مؤشرات أساسية عدة. أول هذه المؤشرات يتمثل في العلاقة الاقتصادية الحيوية والمتنامية مع الولايات المتحدة، والتي أضحت من التشعب والقوة بحيث يصعب وضعها ضمن السياق المعتاد للعلاقات الدولية بالمفهوم الشائع. والمؤشر الثاني، هو مستقبل صناعة السلاح التي أخذت تحتل موقعاً قيادياً فريداً في الاقتصاد الاسرائيلي، بحيث مثلت صادرات السلاح عام ١٩٨٥ حوالي ٤٠ بالمائة من الصادرات الصناعية لاسرائيل، و ٢٠ بالمائة من اجمالي صادراتها. أما المؤشر الثالث لمستقبل الاقتصاد الاسرائيلي، فهو المتعلق بالبحث العلمي والتطوير التكنولوجي الذي يكتسب في بلد مثل اسرائيل - فقير في موارده الطبيعية - سمة «المورد الاقتصادي» الأكثر أهمية. وأخيراً، فإن مستقبل الاقتصاد الاسرائيلي سيرتبط بوضوح، بقدرة اسرائيل على كسر الحواجز التي تفصل بينها وبين الاقتصاد الاقليمي المحيط بها، وتوسيع الثغرات التي فتحتها في جدار العزلة حولها: عبر العلاقات الاقتصادية مع الضفة وغزة، وغزول لبنان، والعلاقات «السلمية» مع مصر.

وانطلاقاً من تحديد الملامح العامة للنظام السياسي في اسرائيل، والتي تتمثل في أولوية «الايديولوجيا»، والمركزية السياسية، والتعدد الحزبي المفرط، حددت الدراسة ثلاث علاقات أو تناقضات حاسمة لمستقبل النظام السياسي في اسرائيل. إن أولى هذه العلاقات هي العلاقة بين العسكريين والمدنيين، والتي ترتبط بالدور المركزي الذي يلعبه العسكريون في النظام السياسي الاسرائيلي، بسبب ظروف التناقض المستمر مع البيئة العربية المحيطة. والتوقعات حول نمو هذه العلاقة مستقبلاً، ترتبط بتبلور ما أخذ يعرف أخيراً باسم المجمع العسكري - الصناعي في اسرائيل. والتناقض الثاني، أو المجموعة الثانية من التناقضات، هي تلك التي يمجج بها المجتمع اليهودي نفسه، داخل اسرائيل، والتي تشمل التناقض بين المتدينين والعلمانيين، ثم التناقض بين الأجيال الصاعدة والأجيال القديمة في اسرائيل. وأخيراً فإن التناقض اليهودي - العربي داخل اسرائيل يحمل بالنسبة الى المستقبل، اشكاليتين مهمتين، وهما أن الأغلبية العربية أقلية مشقة على الايديولوجية الصهيونية للنظام، وأن تلك الأقلية هي، في التحليل الأخير، أقلية «معادية»، أو هي جزء من العدو. وتظهر المؤشرات كافة، في شأن هاتين الاشكاليتين، أن التوجه الى الاستقطاب المتزايد نحو مزيد من اليمينية والعنصرية في الجانب الصهيوني، ونحو مزيد من القومية والراديكالية في الجانب العربي، سيطيح بقوة المستقبل القريب لاسرائيل.

أما على صعيد القوة العسكرية، فقد وصلت اسرائيل، مثلها في ذلك مثل كثير من

البلدان العربية، في منتصف الثمانينات، الى الحد الكمي الأقصى لنمو قواتها عديداً، مما يعني أن النمو سيتجه، طوال الفترة المقبلة الى زيادة قدرة وكفاءة هذا الحجم، بما يعينه من زيادة في خفة الحركة، والدقة، وقوة النيران، والمداي. . . الخ، مما يمكن أن يؤثر كثيراً على توازن القوة العسكرية مع الطرف الآخر. ولكن هذا لا يعني أنه لا توجد أيضاً معوقات يمكن رصدتها لذلك النمو العسكري - الكيفي بخاصة بفضل الأزمات والضغوط الاقتصادية.

في ضوء المعطيات السابقة، حول خبرة الصراع العربي - الاسرائيلي، وحول ملامح نمو القوة الاسرائيلية مستقبلاً، قدمت الدراسة، بشكل مفصل، الاحتمالات المختلفة لمستقبل الصراع العربي الاسرائيلي، في ضوء المشاهد الثلاثة المحددة سلفاً لمستقبل الوطن العربي، طبقاً لمعيار: التجزئة - الوحدة. وفي واقع الأمر، فإن هذا المعيار بدا، في سياق الدراسة، باعتباره المعيار الأكثر حسماً في تقرير مصير الصراع العربي - الاسرائيلي أكثر من أي شيء آخر.

وفي كل من المشاهد الثلاثة، عاجلت الدراسة محددات «الصراع» وفقاً لمعطيات كل مشهد، وهي المحددات التي أجملها الجزء الأول من الدراسة في العلاقة بين الكم العربي والكيف الاسرائيلي، وظروف التغير التي يمر بها الطرفان، ثم تبعية كلا الطرفين للقوى الكبرى الخارجية.

- في ما يتعلق بالمحدد الأول، المتعلق بالقوة الذاتية لطرفي الصراع، مقدرة بالكم والكيف، فإن الملاحظة الأساسية هي أن الطرف الاسرائيلي يظل في المشاهد الثلاثة في حالة واحدة تقريباً، على أساس أن عناصر القوة الاسرائيلية، وفق ما تمت دراسته، وصلت الى استغلال طاقاتها القصوى في النمو، وأنها، تالياً، تنحو الى مزيد من التطور الكيفي باستمرار. وعلى العكس، ووفقاً لمنطق المشاهد ذاته، فإن الخيارات تبدو مفتوحة أمام التطور الكيفي للقوة العربية، استناداً الى اعتبار «الوحدة» منطوية على تغير كيفي في القوة العربية، حتى وإن وجدت أساسها في التعبير الكمي المتمثل في إضافة الكميات العربية المنفرقة الى بعضها. وهكذا، وفي حين ينطوي استمرار وضع التجزئة الراهنة على استمرار تشتت القوة العربية، واستمرار قدرة اسرائيل على اجهاض أي نمو ملموس لقوة أحد البلدان العربية، فإن وجود تنسيق اقليمي أو وظيفي عربي سينطوي على زيادة نسبية في عناصر القوة العربية، تختلف تبعاً لموقع التنسيق الاقليمي أو نوعية التنسيق الوظيفي وعمقه. أما اختيار الوحدة العربية فيعني حدوث طفرة كيفية - كمية حقيقية في عناصر القوة العربية، بما يوفّره، في مواجهة اسرائيل، من امكانية أكبر «لاحتواء» اسرائيل، ومن عمق استراتيجي عربي أكبر حولها، وفاعلية في استثمار الامكانيات العربية بما لا يقاس مع حال التجزئة.

وفي ما يتعلق بالمحدد الثاني، والذي يترجم في المشاهد الثلاثة بدرجة استجابة كل

طرف لتحدي الصراع في ما يتعلق بالاقتراب أو الابتعاد عن مشروعه النهائي، فإن المشروع الصهيوني لا يزال مفتوحاً لم تتحدد ملامحه النهائية بعد، وحدوده التي يصل إليها ترتبط بما تسمح به تطورات الصراع مع القوى العربية المحيطة. وبالتالي، فإن المشروع العربي، أي المشروع الوحدوي، لا يزال مطروحاً ينتظر التطبيق أو الاقتراب منه، بشكل أو بآخر. وفي ظل استمرار الوضع الراهن (مشهد التجزئة) فإن الاستجابة العربية للتحدي الصهيوني لن تكون فقط في شكل استمرار الوضع الراهن للتفكك والتنافر بين الأقطار العربية، وإنما أيضاً في امتداد التفكك إلى داخل كيانات قطرية عربية يهدد وجودها ذاته، وهو تطور ظهرت بعض ملامحه الأولى منذ منتصف الثمانينات، في أكثر من مكان واحد. وذلك يعني، في المقابل، توفير الأفضل لاستكمال ملامح المشروع الصهيوني في العقود الثلاثة المقبلة، فضلاً عن اكتسابه المزيد والمزيد من الملامح العنصرية السافرة. أما في ظل التنسيق الوظيفي أو الاقليمي العربي، الذي ينطوي عليه المشهد الثاني فسيمكن للوطن العربي اتخاذ أشكال من المبادرة في علاقته بإسرائيل، والكف عن الوقوف عند مجرد «رد الفعل». وفي المقابل، فإن رد الفعل الاسرائيلي، سيختلف من تجمع اقليمي إلى آخر، ومن تنسيق وظيفي إلى آخر، بحيث تتصاعد احتمالات تجدد الصراع المسلح بين العرب وإسرائيل، إذا شمل التنسيق الاقليمي مصر وبلاد المشرق العربي، وإذا تعلّق التنسيق الوظيفي بالنسواحي «العسكرية» للصراع. أما في ظل المشهد الثالث، فإن الاستجابة العربية للتحدي الصهيوني، وتحت وطأة المخاطر المحيطة المتكاثرة والتي تضاف إلى الخطر الاسرائيلي، وفي ظل امكانية وجود دولة وحدوية رائدة، تمثل «الاقليم - القاعدة»، وترشّح لها مصر بالدرجة الأولى، يمكن أن يتحول المشروع الوحدوي إلى حقيقة فعلية. وفي مواجهة ذلك، تتداعى التأثيرات السلبية المتصورة على إسرائيل، مما يدفعها إلى المزيد من الالتصاق بالولايات المتحدة، وتحسّس سلاحها النووي.

- على أن المحدد الثالث لمستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي، أي ذلك المتعلق بتأثيرات البيئة الاقليمية والدولية على طرفي الصراع، فهو سيظل في حالة استقرار نسبي في المشاهد الثلاثة، إلّا حينما يتعلق بردود الفعل المحتملة للتوجهات العربية في كل مشهد. وفي ظل حال التجزئة، واستمرار الأوضاع العربية على ما هي عليه، سيبقى المنطقة العربية في موقع المتغير التابع وليس المتغير المستقل، وموقع رد الفعل وليس الفعل، سواء في ما يتعلق بالصراع العربي - الاسرائيلي، أم غيره. وفي حين ستستمر العلاقة الوثيقة الأمريكية - الاسرائيلية لمصلحة إسرائيل، فإن التجزئة والتفكك سيحرمان الوطن العربي من أي إمكان لمواجهة آثار تلك العلاقة. وفضلاً عن ذلك فإن مجمل التطورات العالمية بخاصة في مجالات الاتصال والتكنولوجيا، ستسهم في المزيد من تجزئة وتبعية الوطن العربي، واضعافه - تالياً - في مواجهة إسرائيل. ولكن التنسيق الوظيفي أو الاقليمي (الذي يطرّحه المشهد الثاني) سيسهم في التخفيف من تلك الآثار السلبية للبيئة الدولية والاقليمية وعلى الوطن العربي،

وإن اختلفت فاعلية ذلك التنسيق تبعاً للنطاق الذي يشملها، والميادين التي يغطيها. أما قيام دولة الوحدة، فسيعني بالنسبة الى القوى الخارجية، وجود قوة كبرى في المنطقة، تيمد حسابات القوى العظمى، وتطرح عليها ضرورة السعي الى إقامة علاقات ودية معها. ومن هذا المطلق فإن العلاقة العضوية بين الولايات المتحدة واسرائيل ستصبح، لأول مرة، قابلة للتحدي الحقيقي من جانب دولة الوحدة العربية.

وأخيراً، سعت الدراسة، في سياق كل مشهد، الى تحديد طبيعة التسوية المتصورة للصراع العربي - الاسرائيلي، وفقاً لمعطيات المشهد موضع البحث. فبالنسبة الى المشهد الأول، الذي يطرح امكانية استمرار الأوضاع الحالية على ما هي عليه، تخلص الدراسة الى أن تسوية الصراع في ظل هذه الأوضاع تضيحي بالأساس لاتسوية للصراع، أو اضعاف الطابع الرسمي والقانوني والدائم على جوهر الوضع الراهن، أي تكريس السيطرة الاسرائيلية، بمعنى، الاحتفاظ بالأرض المحتلة من دون ضم السكان العرب. وذلك هو جوهر الصيغ الاسرائيلية المطروحة حالياً لتسوية النزاع، والتي تبدي اسرائيل حولها استعداداً لحل المشكلة.

أما وفقاً للمشهد الثاني، والذي ينطوي على تحسّن نسبي في موقف الطرف العربي، فإن انتقالاً سيحدث من حال اللاتسوية، أي بعيداً عن التسوية كما تريدها اسرائيل، ولكن ليس في اتجاه التسوية الأفضل من وجهة النظر العربية. وفي ظل معطيات هذا المشهد، فإن التسوية التي يمكن أن ينطوي عليها ستكون أقرب ما يمكن الى ما أخذ يعرف منذ فترة باسم «الخيار الأردني»، حيث تلتقي الأطراف كافة عند نقطة وسط تدور حول كيان فلسطيني في الضفة والقطاع مرتبط بالأردن، بحيث يكون الارتباط بالأردن شرطاً ملازماً لوجود الكيان.

على أن التسوية في ظل الوحدة الشاملة هي النقيض الكامل للوضع الراهن، لتعني، في الأساس، التسوية وفق الشروط العربية. وفي هذا السياق، فإن «شكل» الصراع سيضحي قضية ثانوية. كذلك فالمواجهة بين دولة الوحدة العربية وبين دولة اسرائيل سواء من خلال الحرب أم السلام، وسواء على الصعيد الاقتصادي أم السياسي، أم على الصعيد الاجتماعي أم الثقافي ستضحي، بحكم منطق الأشياء، لمصلحة الطرف العربي الموجه والقوي.

على أن هذا الحديث عن المستقبل العربي، الذي يمكن أن يكون مرموقاً ومشرقاً في ظل الوحدة، سيظل مجرد امنيات يذخر بها الخيال ما لم يواكبه عمل جبار، يجعل من تحقيق الوحدة العربية برنامجاً ودليل حركته. وتلك بالتحديد مهمة الأجيال الصاعدة من ملايين الرجال والنساء على امتداد الوطن العربي الكبير. ومع ضخامة وطموح هذا الاختيار فإنه - للحق - اختيار لا مفر منه، لأنه اختيار بأن تكون أو لا تكون. تلك هي قضيتنا، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين.

على أن قدرة دولة الوحدة، على أن تكون لها أيضاً علاقات طيبة ومتكافئة مع القوى الكبرى الأخرى (أوروبا الغربية التي تكون قد قطعت أشواطاً جديدة على طريق وحدتها، واليابان، والصين، والهند، وبعض بلدان أمريكا اللاتينية)، سوف يهيء لها موقفاً دولياً يخدم وضعها في الصراع ضد إسرائيل، بما لا يقاس مع أي فترة سابقة.

المراجع

١ - العربية

كتب

- ابو عرفة، عبد الرحمن. الاستيطان: التطبيق العملي للصهيونية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر؛ عمان: دار الجليل، ١٩٨١.
- الاسطل، كمال محمد. مستقبل اسرائيل بين الاستتصال والتذويب. القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٠.
- الاشقر، رياض. ميزان القوى العسكري بين الدول العربية واسرائيل في الثمانينات. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠. (أوراق مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١١)
- أمن اسرائيل في الثمانينات. ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، القسم العربي. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، [١٩٨٠].
- امين، جلال أحمد. المشرق العربي والغرب: بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٧٩.
- بسيسو، فؤاد حمدي. الاقتصاد الاسرائيلي بين دوافع الحرب والسلام. عمان: دار الجليل، ١٩٨٤.
- بلاسكوف، آفي. الدولة الفلسطينية: فحص الخيارات. ترجمة احمد العلمي. القدس: جمعية الدراسات العربية، [د. ت.].
- بن جوريون، دافيد. التفرد والرسالة. تل أبيب: مارشوت، ١٩٧٠. (بالعبرية)

البنك الدولي. تقرير عن التنمية في العالم، ١٩٨٥. القاهرة: مؤسسة الاهرام، ١٩٨٥.
بيريس، شمعون [آخرون]. الكيان الصهيوني عام ٢٠٠٠. قبرص: وكالة المنار للصحافة
والنشر، ١٩٨٦.

البيطار، نديم. من التجزئة الى الوحدة: القوانين الأساسية لتجارب التاريخ والحدودية.
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٧٩.

التقرير الاستراتيجي العربي، ١٩٨٥. اشرف السيد يسين. القاهرة: مركز الدراسات
السياسية والاستراتيجية بالاهرام، ١٩٨٦.

جبور، سمير (معدّ). انتخابات الكنيست الحادي عشر، ١٩٨٤: الأبعاد الاجتماعية
والسياسية. نيقوسيا: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٥. (سلسلة الدراسات،

(٧١)

حرب، اسامة الغزالي. الاستراتيجية الاسرائيلية والمقاومة في الأراضي المحتلة. القاهرة:
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام، ١٩٧٧.

حسين، عادل. العلاقات الاقتصادية بين مصر واسرائيل. قبرص: شركة الخدمات النثرية
المستقلة المحدودة، ١٩٨٤. (أوراق مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٣)

حماد، مجدي. النظام السياسي الاستيطاني: دراسة مقارنة، اسرائيل وجنوب افريقيا.
بيروت: دار الوحدة، ١٩٨١.

حمدان، جمال. شخصية مصر: دراسة في عقيرة المكان. القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨١.
الدجاني، احمد صدقي، السيد يسين وعلي الدين هلال. الفلسطينيون في الوطن العربي:
دراسات في اوضاعهم الديموجرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. القاهرة:
جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث
والدراسات العربية، ١٩٧٨.

ربيع، حامد. النموذج الاسرائيلي للممارسة السياسية. القاهرة: جامعة الدول العربية،
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٥.
رمضان، عبد العظيم. الصراع بين العرب وأوروبا: من ظهور الاسلام الى انتهاء الحروب
الصليبية. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣.
روندسون، مكسيم. اسرائيل والرفض العربي. القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات،
[د. ت.].

زحلان، انطوان. العلم والتكنولوجيا في الصراع العربي - الاسرائيلي. بيروت: مؤسسة
الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١. (أوراق مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٦)
ستوفر، توماس. المساعدات الامريكية لاسرائيل: الرباط الحيوي. قبرص: شركة الخدمات
النثرية المستقلة المحدودة، ١٩٨٣. (أوراق مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢١)

سعيد، عبد المنعم. العرب ودول الجوار الجغرافي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧.

— العرب ومستقبل النظام العالمي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧.

سيد أحمد، محمد. بعد ان تسكت المدافع. بيروت: دار القضايا، ١٩٧٥.

صايغ، انيس. تطور المفهوم القومي عند العرب. بيروت: دار الطليعة، ١٩٦١.

— فلسطين والقومية العربية. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٦. (سلسلة أبحاث فلسطينية، ٣)

— من الفكر الصهيوني. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٨. (سلسلة كتب فلسطينية، ١١)

عاشور، سعيد عبد الفتاح. الحركة الصليبية. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٥.

عبد الخالق، جودة. من يساعد اسرائيل. القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٥.

عبد الناصر، جمال. فلسفة الثورة. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، [د. ت.].

قاسمية، خيرية. النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه، ١٩٠٨ - ١٩١٨. بيروت:

منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٣. (سلسلة كتب فلسطينية، ٤١)

كرم، انطونيوس. العرب أمام تحديات التكنولوجيا. الكويت: المجلس الوطني للثقافة

والفنون والآداب، ١٩٨٢. (سلسلة عالم المعرفة، ٩٥)

المسيري، عبد الوهاب محمد. موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية.

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام، ١٩٧٥.

مطر، جميل وعلي الدين هلال. النظام الاقليمي العربي: دراسة في العلاقات السياسية

العربية. ط ٣. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣.

النظام السياسي الاسرائيلي. تحرير موشيه ليساك وعبانوئيل جوتمان. تل أبيب: عام عوفيد،

١٩٧٧. (بالعبرية)

هلال، علي الدين. مشروعات الدولة الفلسطينية. القاهرة: مركز الدراسات السياسية

والاستراتيجية بالاهرام، ١٩٧٨.

الهور، منير وطارق الموس. مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية، ١٩٤٧ - ١٩٨٥. عمان:

دار الجليل، ١٩٨٦.

دوريات

ابراهيم، سعد الدين. «مستقبل الوطن العربي بين الممكن والمحتمل». السياسة الدولية:

السنة ٢٠، العدد ٧٥، كانون الثاني/يناير ١٩٨٤.

افنيري، يوري، في: هاعولام هازيد: ٢٣/٩/١٩٨٤. (بالعبرية)

بينين، جوثيل. «إسرائيل: الاقتصاد السياسي ومستقبل الدولة العسكرية». المستقبل العربي: السنة ٩، العدد ٩١، ايلول/ سبتمبر ١٩٨٦.

جريس، صبري. «اليمن الصهيوني: نشأة وسياسية وعقيدة». شؤون فلسطينية: العددان ٦٨ - ٦٩، نيسان/ ابريل - ايار/ مايو ١٩٧٧.

حرب، أسامة الغزالي. «السياسة السوفيتية تجاه الشرق الأوسط وموقف اليهود السوفيت». السياسة الدولية: السنة ٢١، العدد ٨١، تموز/ يوليو ١٩٨٥.

الحولي، لطفي. «قصة الاتفاق الاردني - الفلسطيني بالوثائق». الاهرام: ١٩/٣/١٩٨٥.

— . «مستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي واحتمالاته المتوقعة حتى عام ٢٠٠٠». المستقبل العربي: السنة ٩، العدد ٩١، ايلول/ سبتمبر ١٩٨٦.

دافار: ١/٨/١٩٨٤.

سلمان، سلمان رشيد. «اسرائيل والوحدة العربية». قضايا عربية: السنة ٣، الاعداد ١ - ٦، نيسان/ ابريل - ايلول/ سبتمبر ١٩٧٦.

شاهين، حنه. «الهوة الطائفية في التمثيل السياسي في اسرائيل». شؤون فلسطينية: العددان ١٣٨ - ١٣٩، ايلول/ سبتمبر - تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٤.

فرسخ، عوني. «الفكر الامبريالي ومخطط التفكيك». المستقبل العربي: السنة ٤، العدد ٣٨، نيسان/ ابريل ١٩٨٢.

مبروك، فاروق رياض. «الصراع بين المتطرفين الدينيين والعلمانيين في اسرائيل». الاهرام: ١/٨/١٩٨٦.

نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية: نيسان/ ابريل ١٩٨٠.

نعمان، عصام. «هل اصبحت الوحدة قراراً بالحرب؟» المستقبل العربي: السنة ٨، العدد ٨٥، آذار/ مارس ١٩٨٦.

هآرتس: ١/٨/١٩٨٤.

هلال، علي الدين. «التجزئة والتقسيم في الوطن العربي». قضايا عربية: السنة ٣، الاعداد ١ - ٦، نيسان/ ابريل - ايلول/ سبتمبر ١٩٧٦.

— . «في مفهوم الكيانات الاستيطانية». المستقبل العربي: السنة ١، العدد ١، ايار/ مايو ١٩٧٨.

هويدي، امين. «صراع القوى الخارجية ضد مشروعنا: الأسباب واسلوب المواجهة». المستقبل العربي: السنة ٣، العدد ٢٤، شباط/ فبراير ١٩٨١.

هيكل، محمد حسنين. «قضايا الوحدة العربية والمجتمع العربي». اجري الحوار مجدي حماد. المستقبل العربي: السنة ٤، العدد ٢٩، تموز/ يوليو ١٩٨١.

مركز دراسات الوحدة العربية. مشروع بحث استشراف مستقبل الوطن العربي: وثيقة
الاطار العام. بيروت: المركز، ١٩٨٦. (غير منشور)

٢ - الاجنبية

Books

- Arian, A. *The Choosing People: Voting Behavior in Israel*. Cleveland, Ohio: Case Western Reserve University Press, 1973.
- Avnery, Uri. *Israel without Zionists: A Plea for Peace in the Middle East*. New York: Macmillan, 1968.
- Ben-Ami, Aharom. *Social Change in a Hostile Environment: The Crusader's Kingdom of Jerusalem*. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1969.
- Brecher, Michael. *The Foreign Policy System of Israel*. New Haven, Conn.: Yale University Press, 1972.
- Brezinski, Zbigniew. *Between Two Ages: America's Role in the Technetronic Era*. New York: Penguin Books, 1970.
- Eisenstadt, Shmuel Noah. *Israeli Society*. New York: Basic Books, 1967.
- Europa Yearbook*, 1986.
- Heller, Mark. *A Palestinian State: The Implications for Israel*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1983.
- Hudson, Michael C. (ed.). *The Arab Future: Critical Issues*. Washington, D.C.: Georgetown University, Center for Contemporary Arab Studies, 1979.
- International Institute for Strategic Studies [IISS]. *The Military Balance, 1985-1986*. London: IISS, 1985.
- Klieman, Aaron S. *Israeli Arms Sales: Perspectives and Prospects*. Tel Aviv: Tel Aviv University, Jaffe Centre for Strategic Studies, 1984.
- . *Israel's Global Reach: Arms Sales as Diplomacy*. Washington, D.C.: Pergamon-Brassey's, 1985.
- Krausz, Ernest (ed.). *Politics and Society in Israel*. Oxford: Transaction Books, 1985.
- Kuznets, Simon. *Modern Economic Growth: Rate, Structure and Spread*. New Haven, Conn.: Yale University Press, 1966.
- Peri, Yoram. *Between Battles and Ballots: Israeli Military in Politics*. Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1983.
- . and Amnon Neubach. *The Military Industrial Complex in Israel: A Pilot Study*. Tel Aviv: International Centre for Peace in the Middle East, 1985.
- Runciman, Steven. *A History of the Crusades*. Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1951-1954. 3 vols.
- Safran, Nadav. *Israel: The Embattled Ally*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1978.
- Sartori, Giovanni. *Parties and Party Systems: A Framework for Analysis*. Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1976.
- SIPRI Yearbook, 1982 and 1985*.
- Statistical Abstract of Israel, 1985*.

Thompson, L. and J. Butler (eds.). *Change in Contemporary South Africa*. Berkeley, Calif.: University of California Press, 1975.

Toffler, Alvin. *The Third Wave*. London: Collins, 1980.

Periodicals

Alavi, Hamza. «The State in Post-Colonial Societies: Pakistan and Bangladesh.» *New Left Review*: no. 74, 1982.

Deutsch, Karl. «Social Mobilization and Political Development.» *American Political Science Review*: vol. 55, no. 3, September 1961.

Quarterly Economic Review of Israel [EIU]: 1984. (Annual Supplement)

Symposiums

Symposium on «Economic Development under Prolonged Occupation», St. Catherine's College, Oxford, 3-5 January 1986.

Symposium on «Israel and U.S.-Israeli Relation», Center for Hebraic Studies of Yarmouk University, Amman (Jordan), 12-14 January 1986.

فهرس

الأردن: ٣٠، ٧١، ٧٢، ١٤١، ١٤٢، ١٥٧،
١٧٠ - ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٤، ١٨٦،
١٨٧، ١٩٤ - ١٩٦، ٢١٠، ٢٢٣
- الإدارة المدنية: ١٧٦
الأردنيون: ٣٠، ١٩٥
الارستقراطية الصليبية: ٤٩
الأرمن: ٤٦، ٤٧
الاستراتيجية الاسرائيلية: ٢٢، ٩٣
الاستراتيجية العربية: ١٤٥
الاستعمار: ٢٥، ٣٢، ٣٧، ٥٣
الاستعمار الأوروبي: ٥٨
الاستقلالية الفلسطينية: ١٦٠
اسرائيل: ١٠ - ١٢، ١٩ - ٣٥، ٣٧ - ٤١ -
٤٣، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٦٠، ٦٣ - ٧٣، ٧٥ -
٧٧، ٨١ - ٩١، ٩٣ - ٩٧، ٩٩، ١٠٠ - ١٠٦،
١٠٨ - ١١٠، ١١٣، ١١٥، ١١٨ - ١٢٠،
١٢٢ - ١٣٠، ١٣٣ - ١٤٧، ١٥٢ - ١٥٩،
١٦١ - ١٦٦، ١٧٠ - ١٧٧، ١٧٩ - ١٩٧،
٢٠٠ - ٢٠٤، ٢٠٦ - ٢٠٩، ٢١١ - ٢١٦،
٢١٩ - ٢٢٣
- الأمن: ٢٠
- التخطيط الاستراتيجي: ٦٩، ١٧٠

(أ)

آسيا: ٢٨، ٣٦، ٤٠، ١٢٥
آلن، ايغال: ٨٤
الأبعاد الاقتصادية: ١٢٨
الاتحاد السوفياتي: ٢٦، ٦٥، ٩٦، ١٠٠، ١٣٤،
١٣٦، ١٤٧، ١٦٣، ١٦٥ - ١٦٧، ١٧١،
١٧٢، ١٧٤، ١٩٩، ٢٠٨
الاتحاد الكونفدرالي العربي: ١٩٥
الاتفاق الأردني - الفلسطيني: ١٦١، ١٩٥
اتفاقيات كامب ديفيد: ٢٦، ٣١، ٣٨، ٨١، ٨٢،
١٦٠، ١٦١، ١٧٥
الاحتلال الاسرائيلي: ٣٠
أحمد، محمد سيد: ٢٣
الأحزاب الصهيونية: ٨١، ١١٤
الاداء الاقتصادي: ٢٠
الاداء العسكري: ٢١، ٢٣
الاذاعة البريطانية: ١٧٠
اذاعة صوت امريكا: ١٧٠
اذاعة مونت كارلو: ١٧٠
الأراضي العربية المحتلة: ٢٠، ٣٣، ٧٩، ٨٠، ٨٢،
٨٤، ٨٥، ٩٥، ١٣٨، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٥،
١٧٩، ١٧٩، ٢٠٣، ٢١٤، ٢١٩

- الجيش: ١١٦، ١١٨
- السكان: ٦٣
- السياسة: ٢٢، ١٥٧
- السياسة الاقتصادية: ١٠٦
- السياسة الخارجية: ١١٧
- السياسة العسكرية: ١٩٠
- القوى البحرية: ١٣٥
- الكتيبت الاسرائيلي: ١٢٥، ١٢٢، ١١٣، ٧٩
- ١٢٦، ١٦٤
- النظام السياسي: ٨٥، ١٠٦، ١٠٩، ١١٤، ١١٥، ١٦٤، ٢٢٠
- النظام العسكري: ١١٦
الاسرائيليسون: ١٢، ٤٣، ٦٦، ٦٩، ٨٣، ٩٣، ١٠٠، ١٢٨، ١٣٩، ١٩٣، ٢١٢
الاسلحة النووية: ١٩١، ١٩٢، ٢١٠، ٢١٢
الاشتراكية: ١٠١
الاضطهاد النازي: ٣٣
الاطلاع الصهيونية: ٣٩
افريقيقا: ١٧، ٢٨، ٣٦، ٤٣، ٥٥، ٥٨، ١٢٥، ١٣٧، ١٥٢، ١٥٣، ٢٠٩، ٢١٨
افغانستان: ١٣٨
الاقتصاد الاسرائيلي: ٦٣، ٨٦-٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٩، ١٠٣، ١٠٤، ١١٥، ١٢٨، ١٣٣، ١٤٦، ١٧٤، ٢٠٣، ٢١٩، ٢٢٠
الاقتصاد الاقليمي: ٨٩
الاقتصاد القومي: ٨٧، ٩٧
الاقتصاد الياباني: ١٠١
الانطار العربية انظر البلدان العربية
المانيا: ١٠٢
المانيا الغربية: ١٠٠
الامراطورية البيزنطية: ٥٠
الامبريالية العالمية: ١٨
أمريكا اللاتينية: ٢٠٩
الاسم المتحدة: ٤٤، ٥٨، ٧٥، ١٤٣، ١٩٥
- مجلس الأمن: ١٤٣، ١٩٥
الأمن القومي: ١١٧
الأمسة العربية: ٣٦، ٣٩، ١٢٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢١٠، ٢٠٥
الأنظمة العربية: ٢٤، ٢٦
- اتنولأ: ٥٧
الأهداف الصهيونية: ١٩
الأهداف القومية: ١٠١
اورويأ: ١٩، ٢٩، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٨٨، ١٨٧، ٢١٨
أورويأ الشرقية: ١١٠
أورويأ الغربية: ٤٦، ٥٨، ٨٩، ١٣٤، ١٨٦، ٢٠٩
الأورويون: ٤٧، ٥١، ٥٤
ايتان، رفاثيل: ١٢٥
الايدولوجيا: ٢٢، ٥٦، ٨٦، ١٠٧، ١١٠، ١١٤، ١٦٤، ٢٢٠
الايدولوجية الاصلاحية: ١٠٨
الايدولوجية الصهيونية: ١٩، ٢٠، ١٠٧، ١٠٨، ٢٢٠
الايدولوجية العالية: ١٢٤
ايران: ٣٤، ٣٨، ١٣٦، ١٣٨، ١٧١، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٠، ١٩١
ايزنهاور، دويت: ١١٥
الايطاليون: ٥٠
الايبوي، صلاح الدين: ٤٦، ٥٠، ٥١
- (ب)
باكستان: ١٣٨
البحر الأبيض المتوسط: ٤٥، ١٦٩، ١٧٤، ٢١٠، ٢١١
البحر الأحمر: ١٣٧، ٢١١
البرجوازية: ١٢٠
البرجوازية الوطنية: ٢٠٧
البروليتاريا: ١٢٠
بريطانيا: ٥٨، ١٠٠
- السياسة: ٧٥
البلاد الاسلامية: ٥١
البلدان العربية: ٩٩، ١٠٠، ٢٣، ٢٦، ٢٧، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٣٨، ٩٣، ١٢٩، ١٣٣-١٣٦، ١٤٠، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠-١٦٦، ١٦٨، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٧-١٧٩، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٩، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٩

التكامل المصري - السوداني : ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣
 التكتل المصري - الليبي - السوداني : ١٨١
 التكنولوجيا : ٩٤ ، ١٥١ ، ١٧٠
 التكنولوجيا الحديثة : ١٠١
 التكنولوجيا العسكرية : ١٣٦
 التكنولوجيا النووية : ١٨٩ ، ٢٠٩
 التناقض السوري - الفلسطيني : ١٩٤
 التناقض اليهودي - العربي : ٢٢٠
 التنسيق العسكري العربي : ١٧٧
 التنسيق المصري - السوري - الأردني : ١٤٢
 التنظيم الاجتماعي : ٢٠
 التنمية : ٩ ، ١٠٦ ، ١٣٨ ، ٢١١
 التنمية الاجتماعية : ١٧٠
 التنمية القطرية : ٢٠٥
 توما ، اميل : ١٢٦
 تونس : ٣٦ ، ٢٧ ، ١٣٣

(ث)

الثروة الحيوانية : ١٠٢
 الثروة النفطية : ٢٠٥
 الثورة الفلسطينية : ٧٤

(ج)

جابوتنسكي : ٣٦
 الجادر ، أديب : ١٣
 جامعة تل أبيب : ١٠٣
 جامعة التخنيون : ١٠٣
 جامعة الدول العربية : ٣١ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ١٧٨ ، ١٨١
 الجامعة العبرية : ١٠٣
 جامعة القتب : ١٠٣
 الجزائر : ٣٦ - ٣٨ ، ١٧٢ ، ١٩١ ، ٢٠١ ، ٢١١
 الجزيرة العربية : ٣٦ ، ٣٨ ، ٢٠٥
 الجولان : ٣١ ، ٧٧ ، ١٤٠ ، ١٧٢ ، ٢١٤
 جيبوتي : ١٧٩ ، ١٨١
 الجيوش العربية : ٢١

(ح)

حبيبي ، اميل : ١٢٦
 حرب ، أسامة الغزالي : ١٣
 حرب الاستنزاف : ١٣٩ - ١٤١

بن آمي ، أهارون : ٥٢
 بن غوريون ، ديفيد : ٢٠ ، ٤٤ ، ٧٤ ، ١١٦
 البنك الدولي : ٨٨ ، ٨٩
 بنين ، جوثيل : ٩٦
 البروقراطية الحكومية : ٩٠
 بريز ، شمعون : ٩٦ ، ١٨١
 البيزنطيون : ٤٦
 بيغن ، مناحيم : ١١٢
 بيليد ، ماتي : ١٢٧
 البيئة الاقتصادية : ٨٧
 البيئة الاقليمية : ١٠٩ ، ١٥٥
 البيئة الدولية : ١٨٦ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٩٣ ، ٢٢٢
 البيئة السكانية العربية : ١٠٣
 البيئة العالمية : ١٥٦
 البيئة العربية : ١١٥

(ت)

التاريخ العربي : ٣٥ ، ٣٩ ، ١٩٨
 التبعية : ١٩ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ١٥٦ ، ١٧٧
 التبعية السياسية : ١٧٠
 التجزئة العربية : ١٧٤
 التحالف البريطاني - الفرنسي - الاسرائيلي : ١٤٢
 التحدي الصهيوني : ٢٣
 التحدي العربي : ٢٠ ، ٢٣ ، ٥٩ ، ١٦٣
 التحرر الوطني : ١٨
 التحليل السياسي : ٤٣
 تركيا : ٢٠٩
 تشرشل ، ونستون : ٢٨
 التطور الاجتماعي : ١٢٩
 التطور الاقتصادي : ١٠ ، ٢٥
 التطور التكنولوجي : ٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٨٢
 التعاون الاقليمي : ١٨٣
 التعاون العسكري : ٣٣
 التعددية الحزبية : ١٠٦
 التقارب الأردني - العراقي : ١٩٤
 التقدم العلمي : ١٥١
 التكامل الاقتصادي العربي : ٢٠٧
 التكامل العربي : ١٩٠

الحروب الالكترونية: ١٣٥

حرب تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧٣ انظر الحرب العربية - الاسرائيلية (١٩٧٣)

حرب الخليج: ١٣٦

الحرب العالمية الأولى: ٢٣، ٧٤، ١٣٧

الحرب العالمية الثانية: ٢٥، ٤٠، ٨٩، ١٤٠، ٢٠٤

الحرب العراقية - الايرانية: ٣٤، ١٣٥، ١٤٦، ١٦٢،

١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٨، ١٩٩

الحرب العربية - الاسرائيلية (١٩٤٨): ٧٥

الحرب العربية - الاسرائيلية (١٩٦٧): ٢٩، ٣٠،

٧٧، ٨١، ١٤٢، ١٤٣

الحرب العربية - الاسرائيلية (١٩٧٣): ٩، ١٢، ٢٦،

٣٠، ٣٥، ٩٢، ٩٤، ٩٦، ١٥١، ١٦٧، ١٨٥

حرب فلسطين (١٩٤٨): ٤٠

الحرب اللبنانية: ١١٢، ١١٤، ١٦٢

حرب النجوم: ٩٥، ٢٠٢

الحرب الوقائية: ٥٧، ١٨٣

حركات التحرر الوطني: ١٣٨

حركة أبناء البلد: ١٢٦

حركة الأرض: ١٢٦

الحركة التقدمية العربية: ١٢٦

حركة الحناخم كهانا العنصرية: ١٢٤

حركة غوش ايمونيم: ٧٧، ٨٠

حركة هتسيا: ١٢٤

حركة القهود السود: ١٢٣، ١٢٧

الحركة الوطنية التقدمية: ١٢٦

الحروب العربية - الاسرائيلية: ٢٤، ٣٥، ٣٩، ٤٢

حزب راكاش: ١٢٦، ١٢٧

الحزب الشيوعي الاسرائيلي (ماكي): ١٢٦

حزب العمل (اسرائيل): ٨٤، ١١٢، ١١٩، ١٢٣،

١٩٤، ١٨٤

الحزب القومي الديني (اسرائيل): ٨٤

حزب الماباي: ١١١، ١٢٥

الحسن الثاني (ملك المغرب): ٣١

حسيب، خير الدين: ١٣

حسين (ملك الأردن): ١٧٦

الحضارة الاسلامية: ٤٩

الحضارة الغربية: ٤٣، ٤٥، ١٦٩

حمدان، جمال: ٤٠، ٤١

(خ)

الخصوصية اليهودية: ٢٩

الخطر الاسرائيلي: ٢٠٥

الخطر الايراني: ٢٠٤

خليج عدن: ٢٠٩

الخليج العربي: ٣٥، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٦، ٢٠٢

خليج العقبة: ٨١، ١٤٢

(د)

دايان، موشي: ٤٤، ١١٧

الدخل القومي: ١٠١

درويلس، ميتياهو: ٨٤

الدروز: ٦٤

الدعوة الصهيونية: ١٩، ٣٩

الدول الاشتراكية: ١٣٤

الدول المتقدمة: ١٠١

الدولة الاتحادية: ١٩٧

الدولة الاسرائيلية انظر اسرائيل

الدولة الفدرالية: ١٩٧

الدولة القطرية: ١٥٦

الدولة القومية: ٥٣

دويتش، كارل: ٣٤

الديمقراطية: ٢٩، ١١٩، ١٢٧

الديمقراطية السياسية: ١٢٣

الديمقراطية المركزية: ١١١

(ج)

الرابطة الاسلامية: ٢٠٦

الرابطة التونسية - الفلسطينية: ٣٨

الراسمالية الوطنية: ٢٠٧

روتشيلد (البارون): ٧٤

روندسون، مكسيم: ٣٢

ريغان، رونالد: ١٩٦

(ز)

زعيابوي: ٥٧

(س)

السادات، انور: ٣١، ٣٨

سارثوري: ١١٠

السريان: ٤٦

السعودية: ٣٣، ١٧١، ١٨٠، ١٩١، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١١

سميد، عبد المنعم: ١٣

السلطة السياسية: ١٠٧

السلطة الشرعية: ٢٠٦

السلطة المركزية: ١٦٢

السودان: ٤١، ١٦٢، ١٨١، ١٩٨، ١٩٩، ٢١١

سوريا: ٣٠، ٣٦، ٧١، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٠، ١٤٢

١٤٢ - ١٤٤، ١٥٧، ١٦١، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٠

١٧٠ - ١٧٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦ - ١٨٨، ٢١١

١٩٠ - ١٩٢، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١١

- الجيش: ٧٧

السوريون: ٣٠

سويسرا: ٥٨، ١٠٢

السيادة الأردنية: ١٧٥

السيادة العربية: ١٧٤، ٢١٤

السيادة القطرية: ١٧٨

السيادة المدنية: ٥٦

السياسة العربية: ١٤٥

(ش)

شارون، آرييل: ٨٥

شاويت، موشي: ٧٤

شبه جزيرة سيناء: ٣١، ٧٦، ٨١، ١٣٨، ١٧٢

الشرعية الدولية: ٥٨

الشرق الأوسط: ٢٧، ٤٩، ١٠٠، ١٥٣، ١٦٦، ٢١٥، ١٦٩

الشركات متعددة الجنسية: ٥٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٨٦

الشعب الفلسطيني انظر الفلسطينيين

الشعب اللبناني انظر اللبنانيون

الشعب اليهودي انظر اليهود

(ص)

صايغ، انيس: ٢٩

صايغ، يوسف: ١٠٦

الصحراء الغربية: ١٨١

الصراع الأمريكي - السوفياتي: ١٥٢

الصراع الثقافي: ١٨

الصراع الحضاري: ١٨

الصراع السوفياتي - الصيني: ١٥٢

الصراع السياسي: ١٨

الصراع الصليبي - العربي: ٤٣

الصراع العراقي - الإيراني انظر الحرب العراقية - الإيرانية

الصراع العربي - الاسرائيلي: ٩، ١٠، ١٢، ١٧ -

٢٠، ٢٤ - ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٧ - ٣٩، ٤١، ٤٢

٤٢، ٦٣، ١٢٧ - ١٢٩، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٤

١٤٤، ١٤٥، ١٥١، ١٥٢، ١٥٤ - ١٥٧، ١٥٩

١٥٩ - ١٦٢، ١٦٥ - ١٦٧، ١٧١، ١٧٣، ١٧٦

١٧٦، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٧، ١٨٩، ١٩١، ١٩٣

١٩٣، ١٩٦، ١٩٨ - ٢٠٠، ٢٠٣ - ٢٠٥، ٢٠٨

٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٥ - ٢١٧، ٢٢١ - ٢٢٣، ٢٢٨

الصراع العربي - الإيراني: ١٥٢

الصراعات الاجتاعية: ١٢٤

الصراعات الفلسطينية - الفلسطينية: ١٦١

الصناعة العسكرية: ٩٣

الصناعة العسكرية العربية: ٢٠٩

الصندوق القومي اليهودي: ١١، ٧٤

الصهيونية: ١١، ٢١، ٢٨، ٣٢، ٣٦، ٣٩، ٧٤، ٢٠٠، ١٢٨، ١١١

الصهيونية الاجتاعية: ١١٩

الصومال: ١٧٩، ١٨١

الصين: ٢٠٩

(ض)

الضفة الغربية: ٣١، ٧٣، ٧٧، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ٨٥

٨٥، ٨٩، ٩٥، ١٠٤ - ١٠٦، ١٠٩، ١٢٤، ١٢٥

١٢٥، ١٤٠، ١٤١، ١٦٠، ١٦٣، ١٧٣، ١٧٥

١٧٥، ١٩٢، ١٩٤ - ١٩٦، ٢٠٢، ٢١٢، ٢١٩

(ط)

الطاقة النووية: ١٨٥

طوق، توفيق: ١٢٦

(ع)

العابد، جورج: ٨٨، ٩٥

العالم الأوروبي الغربي: ٢١٨

العالم الثالث: ٢٥، ٢٦، ١٣٤، ١٩٨

عبد الناصر، جمال: ٤٠

العراق: ٢٢، ٣٣، ٣٦، ٣٨، ١٣٤، ١٣٥، ١٧١، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦ - ١٩١، ١٩٤، ١٩٩ - ٢٠١

القوات الجوية: ١٩٠

العرب: ١١، ١٢، ١٩، ٢٢، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣٥ - ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤٥، ٤٦، ٥٢، ٦٣، ٦٦، ٧٤، ٧٥، ٧٩، ٨٠، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ٩١، ١١٩، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٩ - ١٤٢، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٤، ١٦٧، ١٧٤، ١٨٤، ١٨٥، ١٩١، ١٩٣، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢١١، ٢١٢، ٢١٥، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٣

العروبة: ٣٠، ٣٦، ٣٩

العلاقات الاسرائيلية - اللبنيوية: ١٦٢، ١٩٩

العلاقات الاسرائيلية - اليرانية: ١٦٢

العلاقات الاسرائيلية - العربية: ١٥٦، ١٦٩، ٢١٤

العلاقات الامريكية - الاسرائيلية: ٩٣، ٩٥، ١٦٣

العلاقات الدولية: ١٧، ٨٨، ٩٥، ٢١١

العلاقات العربية - الامريكية: ١٦٦

العلاقات العربية - السوفياتية: ٢٠٨

العلاقات العسكرية المدنية: ٥٥، ٥٦، ١١٥

العلاقات المصرية - الاسرائيلية: ١٨٥، ٢٠١

العلوم النووية: ١٨٧

علوي، حمزة: ٢٥

العالة: ٩٠، ١٠٥

العمل العربي المشترك: ٢٧، ٤٢، ١٦٦، ٢١٧

العنصريون الأوروبيون: ٢٨

(ف)

فايس، رعتان: ٨٤

فرنسا: ٩٣، ١٠٠، ١٤٢

الفكر الاسرائيلي: ١١٩، ١٢٤

فلسطين: ١٠، ١١، ١٩، ٢١، ٢٨، ٢٩، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٩ - ٤١، ٤٣، ٥٣، ٦٧، ٧٣ - ٧٥، ٨٦، ٨٨، ١١٠، ١٣٣، ١٣٧، ١٤١، ١٧٢، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٦، ٢١٩

فلسطينيون: ٢١، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٣، ١٥٩

فلسطينيون: ٢١، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٣، ١٥٩

فلسطينيون: ٢١، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٣، ١٥٩

فلسطينيون: ٢١، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٣، ١٥٩

فلسطينيون: ٢١، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٣، ١٥٩

فلسطينيون: ٢١، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٣، ١٥٩

فلسطينيون: ٢١، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٣، ١٥٩

فلسطينيون: ٢١، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٣، ١٥٩

فلسطينيون: ٢١، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٣، ١٥٩

فلسطينيون: ٢١، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٣، ١٥٩

فلسطينيون: ٢١، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٣، ١٥٩

فلسطينيون: ٢١، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٣، ١٥٩

فلسطينيون: ٢١، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٣، ١٥٩

فلسطينيون: ٢١، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٣، ١٥٩

(ق)

القدس: ٤٤، ٤٥، ٧٢، ٧٤، ٧٦، ٨٠، ٨٣

القضية العربية: ٤٠

القضية الفلسطينية: ٣٣، ٤٠، ١٢٨، ١٥٣، ١٥٦، ٢١٢، ١٩٥

قطاع التجارة: ٩٠

قطاع الخدمات: ٩٠

قطاع الصناعة: ٩٠، ١٠١

قطاع غزة: ٣١، ٧٣، ٧٧، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ٨٩، ٩٥، ١٠٤، ١٠٦، ١٢٤، ١٦٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٩٢، ١٩٦، ٢١٢، ٢١٩

قطاع المعلومات: ١٠٢

قناة السويس: ١٣٧، ١٤٠

القوات العربية: ١٣٦

القومية العربية: ٣٣، ٣٧، ٣٩

القوة الاجتاعية: ٢٣

القوة العربية: ٣٧، ٣٩، ٨٥، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٤، ١٧٩ - ١٨٢، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٤، ١٩٩ - ٢٠١، ٢٢١

القوة العربية الاسلامية: ٥١

القوة العسكرية: ١٩، ٥٧، ٦٣، ١٢٩، ١٨٩، ١٩٣

قوة العمل: ٦٧، ٩٠

القوى الاستراتيجية: ٢١٠

القوى الاستعارية: ٢٥

القوى الاسلامية: ٢٠٦

القوى الافريقية: ٤٣، ٥٦

القوى الاقليمية: ١٥٣، ١٨٦

القوى الاميرالية: ٢١، ٢٥، ٢٦

القوى الاوروبية: ٥٨

القوى الدولية: ٢١، ٥٨، ١٤٣، ١٥٣، ١٦٦، ٢٠٨، ١٨٦

القوى الغربية: ٢٦

القوى الوطنية الفلسطينية: ١٥٩

القيم الديمقراطية: ١٠٩

القيم العربية: ١٦٩

(ك)

- الكانتون الاسرائيلي: ١٦٩
كاهانا، مائير: ١٦٤
كاهن، هيرمان: ١١
كتب
- تركيا والحرب: ٣٦
- فلسفة الثورة: ٤٠
كليمان، أهارون: ٩٧، ٩٩
الكنيسة اللاتينية: ٤٩
كوهين، جئولا: ١٢٥
الكيان الاجتماعي: ٥٤
الكيان الصهيوني: ١٠، ٢٠، ٢٣، ٦٨، ٩٠، ١٤١
الكيان الفلسطيني: ٢١٢
الكيوتز: ٤٤
كيسنجر، هنري: ٩٣

(ل)

- اللاجئون الفلسطينيون: ١٩٥
لبنان: ٢٢، ٣٠، ٧١، ١٠٣، ١٣٣، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٣ - ١٤٥، ١٥٧، ١٦٤، ١٧٠، ١٧١، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٩، ٢١٠
- الصراع الطائفي: ١٦١
- الغزو الاسرائيلي (١٩٨٢): ٨٩، ١٢٠، ١٤٠، ١٦١
اللبنانيون: ٣٠، ١٦١
اللجنة الاسرائيلية للتخطيط والبناء: ٨٤
لجنة الدفاع والشؤون الخارجية (اسرائيل): ١١٩
اللجنة الدولية لأبحاث القضاء: ١٠٣
لجنة غرانات: ١١٨
اللجنة القومية لأبحاث القضاء: ١٠٣
اللجنة الوطنية للدفاع عن الاراضي العربية: ١٢٦
ليبيا: ٣٦، ١٣٥، ١٣٦، ١٧٢، ١٩١
الليكيود: ١٠٨، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١٢٠، ١٢٤، ١٦٤

(م)

- الماركسية اللينينية: ١٣٨
مبادرة الدفاع الاستراتيجي الامريكية: ١٨٨

- المجتمع الاسرائيلي: ٥٩، ١١٢، ١١٤ - ١١٦، ١١٩، ١٢٣، ١٦٣، ١٦٤
المجتمع الاقطاعي الأوروبي: ٤٩
المجتمع الصليبي: ٤٥، ٤٦، ٤٨ - ٥٠
المجتمع الصناعي: ١٩
المجتمع العربي: ١١٥
المجتمع العربي الاسلامي: ٥١
المجتمع المدني: ١١٧
مجلس التعاون لدول الخليج العربية: ١٣٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٩١
المجلس القومي للبحث والتطوير: ١٠١
المجمع العسكري - الصناعي (اسرائيل): ٢٢٠
المحيط الأطلسي: ٣٥
المدينة الأوروبية: ٣٦
مركز دراسات الوحدة العربية: ٩، ١٣
المستقبل العربي: ١١، ١٧، ٢٧، ١٥٢، ١٥٥، ٢٢٣
مسلم، طلعت: ١٢
المسلمون: ٣٢، ٣٦، ٤٥ - ٤٧، ٥١، ٥٢، ٦٤
المسيحيون: ٣٢، ٤٦، ٤٧، ٥١، ٦٤
المشاعر الوطنية الفلسطينية: ١٦٠
المشرق العربي: ٢٥، ٢٨، ٣٢، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٥، ٥٠، ١٦٠، ١٧٠، ١٧٧، ١٧٩ - ١٨٣، ١٨٧، ١٨٩، ١٩١، ١٩٣، ١٩٤، ٢٢٢
مشروع آلون: ١٧٥
المشكلة الفلسطينية انظر القضية الفلسطينية
مصر: ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٨ - ٤٣، ٧١ - ٧٣، ٨٩، ١١٢، ١٣٦، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢ - ١٤٤، ١٥٧، ١٦١، ١٦٤، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٦، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠٠، ٢٠٦، ٢١١، ٢٠٧
- الجيش: ٤٠
- السياسة: ١٤٢
المصريون: ٣٠، ٤٠
معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي: ١٨٢
المعاهدة المصرية - الاسرائيلية: ٢٦، ٣١، ٣٨، ٤٢، ١٧٢، ١٨١
معهد وايزمان: ١٠٣
المغرب: ٣٧، ١٨١

المغرب العربي: ٢٨، ٣٨، ٤١، ١٣٨، ١٦٠،
١٧٩، ١٨٦، ١٩٨، ٢٠٥

المفاعل النووي العراقي: ٢٢، ١٣٣، ١٦٠
مفاوضات أيفيان: ٣٧

المقاومة العربية: ٣٦، ٧٤
المقاومة الفلسطينية: ١٣٦، ١٥٩، ١٧١، ١٧٢
المقاومة اللبنانية: ١٣٦

المنطقة العربية: ٢٩، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٩،
١٨٥، ٢٠٥

المنظمات الاقليمية: ٣٣

المنظمات الدولية: ١٨

منظمة التحرير الفلسطينية: ٣١، ٣٨، ١٣٣، ١٤١،
١٤٦، ١٦٠، ١٦١، ١٧٠، ١٧٦، ١٨٤

١٩٤، ١٩٥، ١٩٨، ٢١٣

المنظمة الصهيونية العالمية: ١١، ٧٤، ٨٤

منظمة الوحدة الافريقية: ٣٣، ١٨٧

المؤتمر الاسلامي: ٣٣

مؤتمر الجماهير العربية (شفاعمرو): ١٩٨٠: ١٢٦

المؤتمر الدولي لأبحاث الفضاء (١٩٧٦): ١٠٣

المؤتمر الصهيوني (٢): ٧٤

المؤتمر العربي (لندن): ١٩٣٩: ٣٣

مؤتمر القمة العربي (الخرطوم): ١٩٦٧: ٣٠

مؤتمرات عدم الانحياز: ٣٣

المؤسسات الاجتماعية: ١٠٩

المؤسسات الاسرائيلية: ١٠٣

المؤسسة العسكرية: ٤٩، ٥٦، ١١٥ - ١١٧، ١٥٦

المؤسسة العسكرية القطرية: ١٥٧

المواجهة العربية - الاسرائيلية انظر الصراع العربي -
الاسرائيلي

الموارد الاقتصادية: ١٩، ١٥١

المواطنة: ٤٦

موزامبيق: ٥٧

المشاف: ٤٤، ٧٤

ميعاري، محمد: ١٢٧

(ن)

النزاعات العربية - العربية: ١٥٦

النزاعات اليمنية: ١٧٤

النظام الاقطاعي: ٤٦

النظام الاقليمي: ٥٧

النظام الرأسمالي: ١٥٦

النظام المصري: ٢٦، ٤٢

النظام الهاشمي: ١٧٦

النظم السياسية العربية: ٣١

النمو الاقتصادي: ٣٤، ٩٣، ٩٩

النمو الديمغرافي: ٥٢

نموه، الشوف: ٧٤

نهر الأردن: ١٣٧، ١٧٤

نوردو، ماكس: ٣٦

نثيان، يوفال: ١٢٥

(هـ)

هدسون، مايكل: ٣٤

هرتزل، ثيودور: ١١، ١٩، ٢٩

المستدروت: ٨٧

هلال، علي الدين: ١٢

الهند: ٢٠٩

هنري الثاني (الملك): ٥٠

الهوية العربية: ١٦٠

الهوية الفلسطينية: ١٦٠

هيكال، محمد حسنين: ٤٠

(و)

وادي السنيل: ١٧٩، ١٨١ - ١٨٣، ١٨٦، ١٨٩،

١٩٣، ٢٠٣

وايزمان، عازار: ٣٩

الوحدة الاسلامية: ٢٠٧

الوحدة السياسية: ٣٧، ٥١، ١٤٤، ٢٠٣، ٢٠٤

الوحدة العربية: ٩، ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٣٢، ٣٤ -

٣٨، ٤١، ٤٢، ١٥٥، ١٩٦، ١٩٩ - ٢٠٢،

٢٠٤ - ٢٠٧، ٢١١، ٢١٣، ٢١٧، ٢٢٣

الوحدة الفدرالية: ٢١٠

الوحدة القومية: ٣٦

الوحدة المصرية - السورية: ٣٣، ٣٧، ٤٢

الوحدة الوطنية: ١٦١

الوطن العربي: ٩، ١٠، ١٢، ١٧، ٢٤، ٢٦، ٢٨،

٣٢، ٣٧، ٤١، ١٣٨، ١٥٢ - ١٥٤، ١٥٦،

١٦٧ - ١٦٩، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٦ - ١٧٩،

الولايات المتحدة الامريكية - العلاقات الاقتصادية -
اسرائيل: ٩٥

(ي)

اليابان: ١٠١، ١٠٢، ٢٠٩
ياريف، اهارون: ٦٩، ٧٠، ٧٢
يانون، عويد: ١٦٢
اليمن: ٣٣
اليمن الديمقراطية: ١٧٢، ١٩١
اليهود: ١١، ١٩، ٢٨، ٣٢، ٣٩، ٤٥، ٥٤، ٦٤،
٦٦، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٨٠، ٨٣ - ٨٧، ١٠٣،
١٢٠، ١٢٣، ١٣٣، ١٥٨، ٢١٣، ٢١٨، ٢١٩
اليهود السوفييات: ٦٥، ١٦٧، ٢٠٨
اليهود الشرقيون: ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥
اليهود الغربيون: ١١٩، ١٢٥
يوجين الثالث (اليابا): ٥١

١٨٢، ١٨٣، ١٩٧ - ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٥،
٢٠٧، ٢١٢، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٣

الوطن القومي: ٧٤

الوطنية المصرية: ٢٠٦

وعد بلفور: ٤٠، ٧٤

الوعي العربي: ٤٠، ١٦٠، ١٦٩

الوعي القومي: ٣٣

الوكالة الاسرائيلية لاستغلال الفضاء: ١٠٣

الولايات المتحدة الامريكية: ١٨، ٢٥، ٢٦، ٥٨،

٦٠، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤،

١١٣، ١١٥، ١٣٠، ١٣٥، ١٤٢ - ١٤٤،

١٤٧، ١٥٣، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٠ - ١٧٢،

١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠ - ١٩٢، ١٩٩،

٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٦ - ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٢،

٢٢٢، ٢٢٠

- النظام السياسي: ١١٥

من منشورات مركز دراسات الوحدة العربية



- المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية (من منظور مختلف) د. خلدون حسن النقيب (\$ ٤.٥٠ - ٢١٦)
- المجتمع والدولة في المشرق العربي (٢٢٠ من - ٦.٥٠ \$) د. غسان سلامة
- المجتمع والدولة في المغرب العربي (١٥٦ من - ٥ \$) د. محمد عبد الباقي الهرماسي
- الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي (٤٢٤ من - ٨.٥٠ \$) ندوة فكرية
- العرب ومستقبل النظام العالمي (٢١٢ من - ٦ \$) د. عبد المنعم سعيد
- العرب ودول الجوار الجغرافي (٦٣٦ من - ٤.٥٠ \$) د. عبد المنعم سعيد
- الإقباط والقومية العربية - دراسة استطلاعية - (٢٣٦ من - ٥ \$) د. أبو سيف يوسف
- يوميات ووثائق الوحدة العربية ١٩٨٦ (٨٦٤ من - ١٧.٥٠ \$) مركز دراسات الوحدة العربية
- دراسات في الحركة التقدمية العربية (٢٨٠ من - ٧.٥٠ \$) ندوة فكرية
- العسكريون العرب وقضية الوحدة (٤٨٦ من - ٩.٥٠ \$) د. مجدي حماد
- البعد القومي للقضية الفلسطينية: فلسطين بين القومية العربية والوطنية الفلسطينية
- (سلسلة المطروحات الدكتوراه (١٠٠) (٢٧٦ من - ٥.٥٠ \$) د. إبراهيم أبراش
- صورة العرب في عقول الأميركيين (٢٦٨ من - ٥.٥٠ \$) د. ميخائيل سليمان
- السياسة الخارجية الفرنسية إزاء الوطن العربي منذ عام ١٩٦٧
- (سلسلة المطروحات الدكتوراه (٩) (٢٦٨ من - ٥.٥٠ \$) د. بوقنطار الحسان
- الأدب العربي تعبيره عن الوحدة والتنوع - بحوث تمهيدية (٤٤٠ من - ٩ \$) مجموعة من الباحثين
- حيازة التكنولوجيا المسنودة من أجل التنمية الصناعية.
- مشكلات الاستراتيجية والإدارة في الوطن العربي (٢٥٢ من - ٥ \$) ندوة فكرية
- وحدة المغرب العربي (٢٥٤ من - ٥ \$) ندوة فكرية
- التنمية المستقلة في الوطن العربي (١٠٠٢ من - ٢٢ \$) ندوة فكرية
- الهوية القومية في السينما العربية (٢٧٦ من - ٥.٥٠ \$) مجموعة من الباحثين
- العقد العربي القادم: المستقبلات البديلة (٤٦٨ من - ٩.٥٠ \$) ندوة فكرية
- تجديد الحديث عن القومية العربية والوحدة (٢٧٢ من - ٥.٥٠ \$) د. سعدون حمادي
- الأبعاد التربوية للصراع العربي - الإسرائيلي (٥٢٤ من - ١٠.٥٠ \$) ندوة فكرية
- بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية.
- (نقد العقل العربي (٢) (٦٠٠ من - ١٢ \$) د. محمد عابد الجابري

سلسلة الثقافة القومية

- حقوق الإنسان في الوطن العربي (١) (١٨٠ من - ٢ \$) حسين جميل
- عن العروبة والإسلام (٢) (٤٧٦ من - ٥ \$) عصمت سيف الدولة
- الوطن العربي الجغرافية الطبيعية والبشرية (٣) (١٨٤ من - ٢ \$) ناجي علوش

د. اسامة الفزالي حبيب

■ ولد في القاهرة عام ١٩٤٧

■ حصل على بكالوريوس في العلوم السياسية عام ١٩٦٩، وماجستير في العلوم السياسية عام ١٩٧٨، ثم دكتوراه في العلوم السياسية عام ١٩٨٥، من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة

■ يعمل حالياً خبيراً للنظم السياسية المقارنة في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام في القاهرة، ومحرراً مشاركاً للتقرير الاستراتيجي العربي الذي يصدر عن المركز سنوياً

■ نشرت له كتب عدة منها: الاستراتيجية الاسرائيلية والمقاومة في الأرض المحتلة، ١٩٧٧، الأصول التاريخية للاستراتيجية الديمقراطية، ١٩٧٨، الأبعاد السياسية للحوار العربي الأوروبي (مع آخرين)، ١٩٧٩، المضمون السياسي للحوار العربي الأوروبي، ١٩٧٩، الحوار العربي الأوروبي (مع آخرين)، ١٩٨٤، المسح الاجتماعي الشامل للمجتمع المصري، ١٩٨٤، الأهراب الدولي ومشكلات التحرير والثورة في العالم الثالث، ١٩٨٦

■ كما صدر له مؤخراً كتاب: الأحزاب السياسية في العالم الثالث، ضمن سلسلة كتب عالم المعرفة التي تصدر بالكويت.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية « سادات تاور » - شارع ليون

ص . ب : ٦٠٠١ - ١١٣ - بيروت - لبنان

تلفون : ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧ - ٨٠٢٢٣٤

برقياً : « مرعربي »

تلكس : ٢٣١١٤ ماراي . فاكسيميلى : ٨٠٢٢٣٣